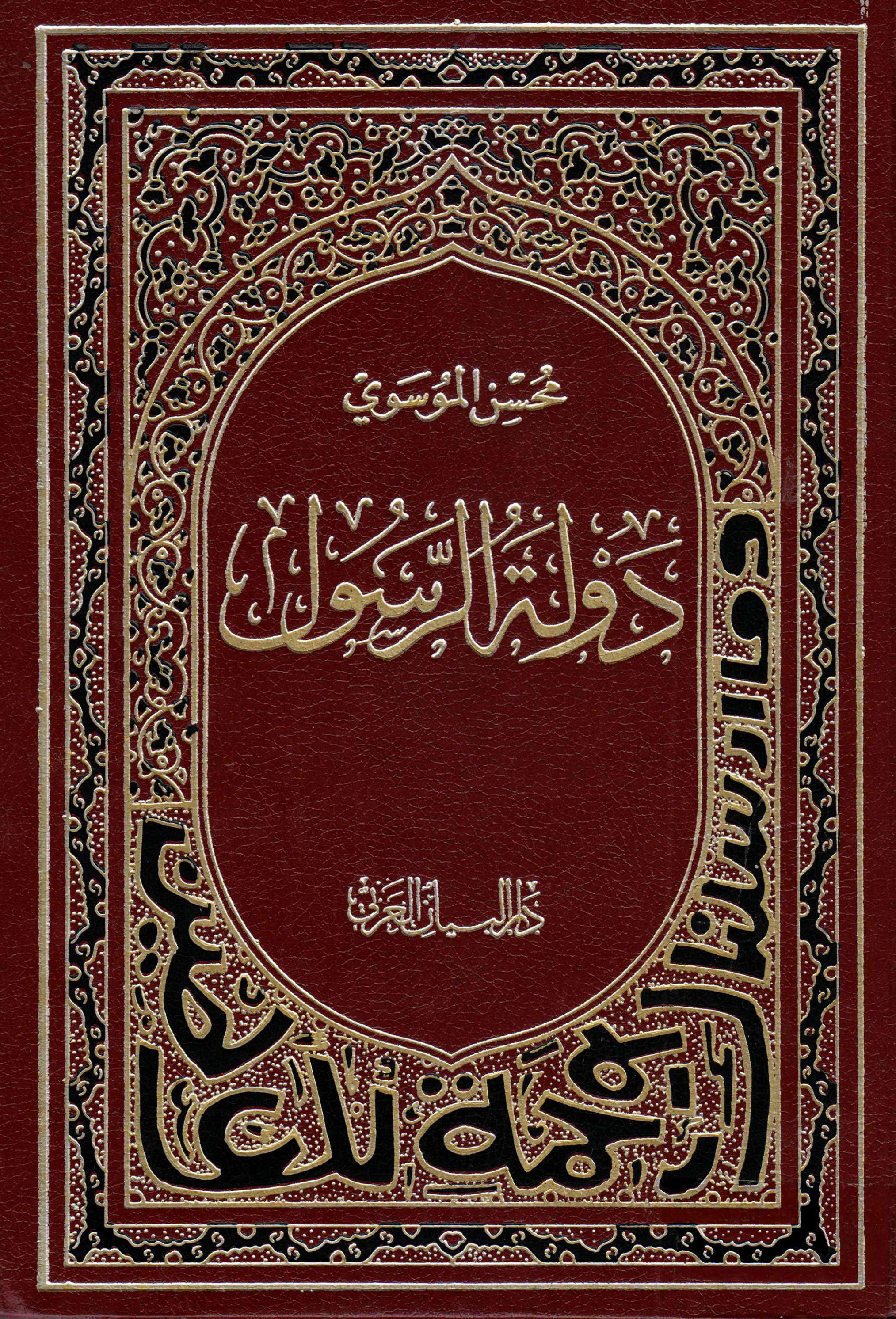

محسن الموسوي
دولة الرسول
دار البيان العربي


شبكة الفكر
alfeker.net

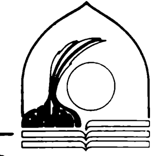
السيد محسن الموسوي





الطبْعَة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



دار البيان العربية

حارة حريك ـ خلف بنك بيروت والبلاد العربية: بناية سبيتي ط ٣ . ت٨٢١١٤٢ ـ ص . ب
٢٥/٩٧ و ١١٣/٥٧٨٩ بيروت ـ لبنان تلفاكس ٨٦٣٤٦١ تلكس BACHAIR LE ٢٢١٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝



بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا هذا الكتاب؟

عشت اياماً جميلة في المدينة المنورة بجوار نبي الرحمة ورسول الهدى (ص) اثناء زيارتي لاداء مناسك الحج وقد قضيت فترة وجودي في مدينة رسول الله (ص) ابحث عن المواقع التاريخية التي لا زالت قائمة حتى اليوم او التي اندثرت ، فكنت مولعاً لمعرفة كل موقع من مواقع المسيرة الاسلامية ، هنا . . بيت رسول الله (ص)!! ، وهنا . . كان يجتمع باصحابه وهنا مسجد قبا المكان الذي استقبل فيه المسلمون قائدهم المنتصر ، وهنا . . موقع مسجد ضرار وهنا . . كان يجتمع المتآمرون ضد الاسلام ، وهنا . . بيت علي (ع) الذي ما انفك يوما وهو يستقبل النبي (ص) ، وهنا . . أُحد المكان الذي أَخذَ فيه المسلمون اعظم الدروس في الطاعة والانضباط ، وهنا قبر حمزة اسد الله ورسوله ، حيثَ امتدت يد ألنبي (ص) ووارت التراب عليه ، وكنت اتعايش مع كل موقع اللحظة التاريخية التي وقع فيها الحدث وكأنني اراه بعيني وألمسه

بشعوري واحاسيسي ، فالارض التي اطأها اليوم كانت في يوم من الايام يطأها رسول الله (ص) وصحابته الكرام ، فكنت اقتفي اثره خطوة بخطوة ، وبلغ بي الحرص على معايشة التاريخ حدا ، ان اخذت اتمثّل النبي (ص) وهو واقف مع اصحابه أوجالس معهم فكنت أقول لرفاق السفر: من هنا خرج رسول الله (ص) وهو لابسٌ لامة حربه ليحسم حالة التردد قبل غزوة احد ، وهنا كان يجلس رسول الله (ص) يعبأ اصحابه في كل معركة . .

وقضيت احلى الايام مع رسول الله (ص) ومع صحابته فوق تلك الارض التي شهدت قيام اول دولة اسلامية ، وعندما عدت الى بلادي كانت بعض تلك الاستعارات التاريخية حيّة في نفسي تدفعني الى مطالعة ما اجد من كتب حول حياة النبي (ص) .

وعدت مرة ثانية الى مدينة الرسول (ص) في عام آخر كنت فيه اشد عُلقة بالاحداث التاريخية مقرونة بالمكان الذي وقع فيه الحدث ، وكانت معايشتي هذه المرة اعمق من الاولى وكانت القضية التي سيطرت على مشاعري وتفكيري هي كيف اقام رسول الله (ص) دولته؟ ، وكيف كان يُدير شؤون المسلمين؟ ، ومنها استوحيت الكتابة عن دولة الرسول (ص) ، فعندما عدت اسرعت الى القلم والورق فبدأت اكتب وفي نفسي بقايا من الذكريات الحية التي عشتها في المدينة ، ولم يكن صعبا عليّ ان اكتب عن تلك القضية وانا اعيش احداثها لحظة بلحظة ، وكانها تقع امامي ، وذللت لي هذه المعايشة الكثير من الصعاب التي وجدتها في طريقي اثناء البحث والتقصي ، فهي التي امدتني بروح المثابرة لمواصلة البحث على رغم الصعوبات الجمة التي اعترضت سبيلي .

اما لماذا اخترت هذا الموضوع فلسبب واحد هو حاجة الامة الى الدولة الاسلامية التي تستطيع فيه ان تترجم اهدافها وتطلعاتها نحو المستقبل العريض . . فالدولة التي تقام على مبادىء الرسول (ص) وتقفو خطواته المباركة

هي مطمح كل مسلم اليوم وهي الفرصة الوحيدة التي تستطيع فيها الامة ان تنهض لبناء حضارتها الاسلامية وهي الضمانة الاكيدة للاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية .

وفي عالمنا اليوم الذي تتقاذفه موجات الدكتاتورية والشوفينية والفئوية والعشائرية ، ما احوجنا الى الدولة الاسلامية التي تقوم على نفس الأسس التي اقام الرسول (ص) دولته المباركة عليها ، ومن هذه الزاوية طرحت فكرة الدولة الاسلامية في عهد الرسول (ص) .

فقد حاولت ان ابحث في كل ما ينفعنا اليوم من سيرة النبي (ص) ، ونحن نشقّ طريقنا نحو ترسيخ دعائم الدولة الاسلامية فابتعدت كثيرا عن الموضوعات التي لا تنسجم مع هدف البحث . . ولعل البعض سيعيب عليّ ترك بعض موضوعات السيرة النبوية او المرور على البعض الآخر مرور الكرام فكنت احب ان اجيب هؤلاء البعض . .

ان هذا الكتاب ليس بحثاً في السيرة النبوية لان السيرة محيط واسع ، فقد اغترفت من هذا المحيط ما يروي ظمأي وظمأ الأمة في مجال تكوين الدولة الاسلامية وليس في ذلك عيب .

وقد يعيب عليّ البعض الآخر اني لم اطرح الفكرة من خلال بحث اكاديمي وتحقيق موسع ، ولهؤلاء البعض اقول ايضا بان الفكرة والهدف من طرح هذا الموضوع لا يستوعب البحث الاكاديمي الصرف بالرغم من ان فكرة البحث في قضية مثل (دولة الرسول (ص)) بحاجة الى توسع وتحقيق ومقارنة بالانظمة الراهنة ، ومقايسته بنظريات الدولة ، لكن هدفي من البحث لم يكن اثبات صحة النظرية الاسلامية في الدولة بقدر تحريك مشاعر الامة نحو الحاجة الى الدولة الاسلامية ، وطرح دولة الرسول (ص) كمثل اعلى للدولة الاسلامية

امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

وكان لا بد وقبل الحديث عن الدولة الاسلامية التي انشأها النبي (ص) في المدينة ، استيعاب الخطوات التي سبقت تكوين الدولة الاسلامية . . لان هذه الدولة لم تتكون من فراغ بل نتجت عن تفاعلات عناصر اساسية شاركت في تكوينها وظلت هذه العناصر تتفاعل ، ونجم عن هذا التفاعل تلك المسيرة الخالدة التي بدأت ببناء المسجد والتي واصلت طريقها نحو تكوين الدولة الاسلامية حتى بلغت بها مرحلة التكامل في السنة العاشرة للهجرة عندما أضحت جزيرة العرب كلهاالقاعدة القوية لانطلاقة الحضارة الاسلامية الى العالم .

فكان لا بد للبحث من ان يقتفي جذور هذه الدولة وتلك الحضارة التي نشأت عنها ، من قبل البعثة النبوية لمعرفة العناصر الانسانية التي شاركت في عملية التغيير والبناء، كيف كانت وكيف اصبحت في ظل الإسلام ؟ ثم متابعة المسيرة من البعثة النبوية وما اعقبها من بناء النواة الاولى للحركة الاسلامية ثم تحوّل النواة الى تجمع اسلامي ثم انتقال التجمع الصغير الى مجتمع كبير اخذ يضم القبائل وسائر العشائر العربية . .

وبعد الانتقال الى المدينة اخذت الدولة الاسلامية تتشكل وتتركب من اجزاء صغيرة اصبحت بتفاعلها تركيباً واحداً هو الدولة الاسلامية واخذت هذه الدولة تتطور في مجال التركيب والتفاعل حتى اصبحت وهي تحمل صورة متكاملة عن الدولة المنشودة التي أرسىٰ القرآن الكريم دعائمها والتي يجد فيها الانسان أنشودته في الاستقرار والعيش الكريم .

والبحث الذي بين ايدي القرُّاء هو محاولة متواضعة لرسم صورة متجانسة عن الدولة الاسلامية كتبته بروح كانت تسبح في نهر الاحداث التاريخية الخالد

في حياة النبي (ص) ، فمن ذلك النهر الريّان حملت بعض القطرات ، وقد لا تستطيع هذه القطرات ارواء ظمأ القرّاء، فانا لا انفي القصـور عن نفسي لان الكمال لله وحده ، لكن املي ان يسددني كل من قرأ هذا الكتاب بما لديه من ملاحظات فهذا هو طريق التكامل في العمل الفكري ، ومن الله ارجو التوفيق لي ولكل من يفكر ويعمل من اجل اقامة الدولة الاسلامية الكبرى والحمد لله رب العالمين .

محسن الموسوي

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

قبل الرسالة

دراسـة الحقبة التي سبقت الـوحي ذات اهمية قصـوى في البحث عن الحضارة الاسلامية لان هذه الحضارة لم تتكون في الفراغ ، فالامة التي صاغتها ايدي الرسالة والتي اصبحت امة الحضارة الاسلامية منبعها عرب الجزيرة الذين كانوا يغطون في ليل سحيق ، فانقلبوا على واقعهم فاصبحوا يقفون فوق ارجلهم بعد ان كانوا يقفون فوق رؤوسهم وذلك بفضل الرسالة الاسلامية ، فالبحث في جذور هؤلاء وتقصّي الحقائق عن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي قبل الاسلام امر ضروري لكل من يريد تتبع مسار الرسالة .

كما وان التتابع التاريخي يستلزم منا الوقوف على المراحل التي سبقت مرحلة الرسالة للكشف عن المؤثرات الجذرية العميقة في المجتمع الاسلامي والنقاط التي لا يمكن الإنفكاك عنها والتي تشكل نقاط تداخل بين الحقبتين . ولربما كانت دراسة حقبة ما قبل الوحي احدى النوافذ الهامة للكشف عن عظمة الرسالة والرسول (ص) الذي تمكّن وخلال فترة قياسية ان ينقذ مجتمعاً كان غاطاً حتى فروة رأسه في مستنقع الجاهلية ، وان يخرج اناساً كانوا يعيشون في الظلام لعشرات القرون الى النور ، وهنا تكمن عظمة الرسالة وقوة تأثيرهـا في تغيير

الجمادات الى أبطال صنعوا التاريخ وسطروا الامجاد .

الدور العالمي للاسلام :

تحملُ الرسالة الاسلامية الخصوصية العالمية فهي رسالة لكل البشر اسقطت من امامها حاجز الجغرافيا وحاجز الزمن فاصبحت رسالة للعالمين اجمع .

فكان يُراد لهذه الرسالة ان تنتشر في كل الاتجاهات ، وان تضع بين يدي الانسان الحلول الجاهزة لمختلف المشاكل ، وكان يراد لها الديمومة الى آخر يوم من الدنيا لانها خاتمة الرسالات السماوية فليس هناك نبي يأتي بعد الرسول (ص) .

وكان يُراد لهذه الرسالة ان تُحمل على اكتاف بشر وليس على اكتاف الملائكة ، وقُدّر لهؤلاء البشر ان يتحملوا مسؤولية ابلاغ الرسالة الى آخر انسان في الارض وان يمدّوا بعمرها الى اخر يوم من الحياة .

وباختصار كان يراد للرسالة ان تشق طريقها الى القمة بقوة الانسان فكان لابد وان يختار لهذه الرسالة ارضاً وعرة ، تعتصر حَملَة الرسالة حتى يستطيعوا البلوغ بها الى القمة ، والا فان الانسان المرفّه والارض الفارهة لا تستقبل الرسالات بسهولة ولا تترعرع فيها القيم بسهولة ولا يكبر فيها الايمان بسهولة .

ولان الرسالة الاسلامية قد امتلكت من الخصوصيات التي لم تمتلكها الرسالات السماوية الاخرى ، فان مهمة حملها كانت تستوجب ظروفاً خاصة وبيئة خاصة تستطيع ان تصنع الرجال القادرين على اداء تلك المهمة ، وينتج من تلاقح الرسالة بتلك الظروف نقطة مشعة لا ينقطع توهجها عبر الزمان والمكان .

وبلغة الفيزياء نستطيع ان نقول ، لو اردنا ان نصنع لهباً من النار واردنا مشاهدته من اقصى نقطة ممكنة واردنا الابقاء على اللهب لاطول فترة ممكنة فان علينا ان نراعي ثلاثة امور اساسية لانجاز التجربة :

الأمر الأول : طبيعة المادة التي سنستخدمها في صنع اللهب .

الأمر الثاني : الطريقة التي سيتم بها حرق هذه المادة .

الأمر الثالث : طبيعة الظروف المطلوبة والكافية لايصال المادة التي يراد اشعالها الى درجة الاتقاد ، وهكذا كانت الرسالة الاسلامية فقد كان المطلوب ايصال شعاعها الى ابعد نقطة زمانية ومكانية ، فكان لابد من اختيار المكان المناسب والناس المناسبين والظرف التاريخي المناسب حتى تستطيع ان تقفز من على الحواجز السميكة وان تعبر المسافات البعيدة في عمق الزمن والمكان لتصل الى كل كائن حي في هذا العالم المترامي .

لهذا كان لزاماً ان نقف ملياً عند انسان ما قبل الرسالة وعلى الارض التي قامت فوقها الرسالة ونعني بالارض الظرف بكامل ابعاده ـ الظرف الجغرافي والظرف الاجتماعي والظرف السياسي ـ ، واذا ما ارفقنا بالارض ، الانسان والفكرة لتكاملت العناصر الثلاث البانية للحضارة ، فالانسان الرسالي هو الشعلة الوهاجة التي تحمل النور ، والفكرة هي الصاعق التي تُوجد الشعلة والظرف هو الذي يُعيِّن درجة الاتقاد في المادة الملتهبة .

الارض . . الانسان . . في جزيرة العرب :

البيئة التي نشأت فوقها الرسالة هي الصحراء ، والصحاري تغطي ثلث ارض الجزيرة العربية وهي تمتد على مساحة مقدارها مليون ومائتي ميل مربع ، وهي ارض ظامئة فلا نجد على سطحها نهراً واحداً بل كل ما نجده من المياه فهو في جداول صغيرة تغمرها المياه في بعض المواسم . وهناك بعض الابار وبعض

التجمعات المائية التي مصدرها الامطار الشتوية .

وقد ادت قلة المياه الى قلة المحاصيل الزراعية ، فالمحصول الرئيسي في جزيرة العرب هو التمر الذي اصبح يحتل موقع الصدارة في تغذية الانسان العربي ، اما الحبوب فقد اقتصرت على موائد الموسرين وزعماء القبائل .

واذا ما اضفنا الى قساوة الأرض قساوة المناخ ، لتصورنا كيف كان الانسان يعيش في جزيرة العرب ، فكان الانسان العربي في معركة دائمة مع الطبيعة القاسية التي وضعته في حالة تاهب قصوى ، وفي نضال مستمر لكسب الوضع الافضل .

فكان العربي وباستمرار يُغيّر مواقعه من مكان لاخر بحثا عن المرتع والماء فكان في حركة مستمرة لا تعرف الاستقرار ، والى جانب الحركة المستمرة كان العربي يعيش وضعاً قلقاً على مصيره وخوفاً من عجزه على تأمين حاجاته المعيشية .

والانسان العربي كان يعيش وسط صحراء قاحلة ممتدة على مدى البصر في العراء اذ سينال بغيته . كل من يريد الفتك به ، وجعله هذا الوضع حذراً يرتقب الخطر كل لحظة ، وهو لا يجد ما يستطيع الرد عليه الا نفسه وسعيه ، فاصبح يعتمد على نفسه واصبح ايضاً يبحث عن افراد يتحالفون على الدفاع المشترك فقامت رابطة العشيرة فاصبحت في ظروف الصحراء اقوى رابطة لانها الشيء الوحيد الذي كان يمنح الانسان العربي الطمأنينة والشعور بالأمن . وباستثناء الذين توطنوا في المدن واشتغلوا في التجارة او الزراعة فان الغالبية العظمي من سكان جزيرة العرب كانوا يعيشون حالة قلقة غير مستقرة وكانوا في حركة دائمة اما بحثاً عن حياة افضل او بحثاً عن الماء او المأوى وقد انعكست هذه الحالة المتواصلة على شخصية الانسان سلباً وايجاباً ، وفيما يلي نستعرض بعض سمات شخصية الانسان العربي :

اولاً : دفعت قساوة الطبيعة الى وضع الانسان العربي امام واقع يتطلب منه استنفار قواه الذاتية والاستفادة القصوى من ملكاته ، فاصبح يتسم بالشجاعة والجرأة والاقدام وبالعكس لو كانت الطبيعة بغير تلك الصورة لما كان قد اتصف بمثل تلك الشجاعة التي يذكرها لنا التاريخ في صور عديدة غصّت بها كتب التاريخ .

والشجاعة هي رمز قوة العربي في السيطرة على الطبيعة والعيش بمأمن من خطرها ، فالرجل الشجاع من كسب المعركة على عدوه الاول ـ الطبيعة ـ والذي تمكّن ان يزيل عنه الخوف والحذر بينما الرجل الضعيف من عجز عن مقاومة هذا العدو والذي اصبح نهباً لمشاعر الخوف فكان على الضعيف ان يلتجىء الى القوي ليوفر له الحماية وليزيل عنه مشاعر الخوف وما يهدده وسط الصحراء المكشوفة لكل الاعداء .

ثانياً : الصحراء بطبيعتها تحْول دون وقوع الاتصالات بسهولة بين انسان واخر فبعد المسافات وامتدادها على طول البصر يجعل من الاتصال امراً شبه مستحيل في ظروف الانسان الذي لم يجد الا النياق وسيلة للنقل والاتصال ، فلم يكن امامه الا العيش ضمن مجموعات بشرية صغيرة او كبيرة تتركز فيها العلاقات الاجتماعية كاقوى ما يمكن وهي الرابطة القبلية التي اخذت تربط هذه المجموعات فيما بينها محكومة بالظروف القاسية .

واصبحت القبيلة تعبّر عن الوجه الاجتماعي للانسان العربي فهي تُشبع حاجاته الذاتية الى الدفاع والحماية وتجسد امانيه وطموحاته بشرط ذوبانه وانصهاره في نظام القبيلة ، وهو لا يعني التجرد عن النزعة الفردية وعن الشوق الى الحرية خصوصا عندما يصبح الفرد في اطار خارج القبيلة ، ونتج عن هذا الواقع الاجتماعي نمط من التمسك والالتزام بقيم واعراف ونظام القبيلة التي تستثمر في العادة في مواجهة القبائل المعادية وفي التفاخر بمآثر القبيلة وحتى

الامور التافهة تصبح مدعاة فخر لابناء القبيلة .

ثالثاً : وأدى الخوف والهلع المستمرين في البيئة الصحراوية الى ايجاد نمط قوي من التضامن اخذ يسود القبائل العربية ، فاصبحت كل قبيلة تبحث عن حليف لها لتوسع من مساحة القوة التي تتطلبها الاوضاع فاصبح الضعيف يلتجيء الى القوي وبات القوي وهو على استعداد لاجارة الضعيف .

وترك هذا التضامن آثاراً ليس على المستوى السياسي للقبائل العربية وحسب بل ايضا كان له أثر نفسي على مستوى الانسان فكان على استعداد لحماية كل من يطلب منه ذلك ، فمجرد طلب الحماية كان يستثير في العربي المروءة وتجعله يدافع حتى لو كان الطالب عدواً للقبيلة او حتى لو كان قد هدر دمه لجريمة ارتكبها .

رابعاً : افتقرت الصحراء الى المركزية في السلطة بسبب تباعد الافراد ووجود القبائل في أماكن متناثرة ، فكانت كل قبيلة بذاتها تشكل حكومة مستقلة ، فاعرافها وتقاليدها هي قوانين يجب على كل فرد في القبيلة مراعاتها ، وبعد سلطة القبيلة لم تكن هناك اية سلطة تتحكّم بالانسان العربي ، وبقدر ما كان لهذا الواقع من اثار سلبية كانت له اثار ايجابية ايضا علىٰ نفسية الانسان العربي ، فقد منحته حالة التجرد عن السلطة فسحة كبيرة من الحرية وبالتالي جعلته على اهبة الاستعداد للتمرد بعنف امام اي واقع يرفضه .

فقد كانت في نفس العربي حالة من التمرد الى جانب حالة من الالتزام ، وهذا يفسر لنا خروج البعض من القرشيين على قوانين العشيرة يوم اعلنت مقاطعتها لبني هاشم ، وبفضل الحرية كان البعض يتجرأ لابداء رأيه حتى امام الملوك ، فيذكر لنا التاريخ ان احد الملوك طلب من رجل من بني تميم في الجاهلية فرساً يقال له سكاب فامتنع الرجل وقال ابياتاً هي :

ابيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا تُعار ولا تباع
فلا تطمع ابيت اللعن فيها ومنعكسها بشيء يُستطاع

خامساً : وفي هذه البيئة التي يتنافس فيها الاقوياء ويقهر فيها الفقراء يصبح الثأر هو الوسيلة الوحيدة لرد الاعتبار وهو الضمان في اقرار الآخرين له بأنه انسان قوي ذو كرامة وعزة فباعتقاد العربي ان السكوت عن الإهانة جبن وضعف وان السكوت يشجع الاخرين على التهامه ويطمعهم في الاغارة عليه فكان لا بد وان يظهر قوته وحتى لو كان فيه موته .

ومما يستدعي الثأر للشرف ـ وللشرف عند العربي مفهوم خاص ـ فأقل كلمة نابية يعتبرها مساً لشرفه يجب عليه الثأر . . اما التعيير فالرد عليه بحرب شعواء .

ذكر لنا المؤرخون ان الشاعر عمرو بن كلثوم قَتَلَ ملك الحيرة عمرو بن هند وهو في ضيافته وذلك عندما استخفت هند ام الملك عمرو بن هند بليلىٰ ام الشاعر عمرو بن كلثوم طالبة منها ان تناولها الطبق فرفضت ليلى لانها وضعتها في موضع الخدم وعندما كررت هند طلبها صاحت ليلى : « واذلاه يا لتغلب » فوثب الشاعر عمرو الى سيف للملك كان معلقاً في السقف فتناوله فضرب رأس الملك وهو في ضيافته نتيجة لتلك الحادثة الصغيرة التي اعتبرها الشاعر انها مسته في شرفه .

سادساً : وفي مواجهة اعباء الحياة الشاقة لم يكن العربي ليجد بُداً من التعاون مع افراد قبيلته ومع كل من هو على استعداد لمديد التعاون اليه .

اما الكرم فهو من مصاديق روح التعاون التي اوجدتها حياة الصحراء والتي شجع عليها الامتداد التاريخي بين بعض القيم التي كانت موجودة في جزيرة العرب وبين القيم التي جاء بها الانبياء فالجدب والحرمان لم يلغيا هذه الصفة

الخالدة منذ عهد الانبياء فالفقر والحرمان يصقلان في بعض الأوقات النفوس ، فيصبح التنافس في امر اسمى من جمع الثروة وخصوصاً عندما يكون هناك عنصر معنوي موروث يعتمل في النفوس ، فبينما كان البعض يتنافسون على المال كان البعض الآخر يتنافسون على الشرف والسمعة بين ابناء القبيلة وليس الكرم والجود الاّ مفردات في قاموس الشرف وهي ذات دلالات كثيرة عند الفرد العربي .

سابعاً : نفسية العربي نفسية بسيطة غير معقدة فهو يعيش حياة فطرية لا يشوبها التعقيد ولا تعرف العقد ولا الازدواجية لانها حياة مشحونة بحركة مستمرة فوق ارض قاسية وتحت سماء صافية . . والاحتكاك العنيف بالبيئة القاسية كان يزيل العُقد قبل ان تطفح والحركة العنيفة في تلك الصحراء كانت تقلع المشكلات قبل ان تتفاقم وتتحول الى عقد . وكانت اشعة الشمس الحارقة قادرة على صهر الازدواجية والكراهية فتغدو النفوس بسيطة موصدة الابواب امام الحسد والحقد ولم تظهر هذه العقد الا بعد الانتقال من حياة الصحراء الى حياة الحضر .

ثامناً : فرضت حياة الصحراء على العربي حالة التنقل المستمر من مكان لآخر من ديار لاخرى ومع التنقل يحن الانسان بطبيعته للديار التي كانت على طريقه .

وعندما يجنّ الليل ويرخي سدوله ويرمي الظلام باجنحته الوادعة فوق تلك الصحراء الشاسعة وعندما تبدأ النجوم بالتلألؤ وسط ذلك الظلام الحالك ، وعندما يعصف الحنين بذلك الانسان الراقد لوحده في الخيمة والمتوجه بمشاعره ووجدانه نحو تلك الاجواء الساحرة عند تلك اللحظات تبدأ رحلة ذلك الانسان مع الشعر .

فالشعر في الواقع هو انعكاس لحياة الانسان وهو يستمد جذوره من

الحالات النفسية والفكرية التي يعيشها الشاعر .

تولّد الشعر في جزيرة العرب من عنصرين :

الاول : وجود تلك الاجواء الصحراوية بقساوتها في النهار وبسحرها الاخّاذ في الليل بما تحمله تلك الاجواء من دموع وابتسامات ، دموع القسوة عند لحظة التوديع وابتسامة عند استقبال الفجر ، وعند توديع اشهر الحر واستقبال فصل الامطار .

فحياة الصحراء حياة توديع واستقبال حزن وفرح دموع وابتسامة خوف ورجاء . . يأس وامل .

العنصر الثاني : هو وجود انسان يبحث عن شيء في اعماقه . . انسان لا تنتهي رحلته مع نفسه وهي رحلة تبدأ مع سكون الصحراء في الليل ولا تنتهي الا بـ (الشعر) تلك الكلمات التي تُعبّر عن خلجات النفس والتي يحاول الشاعر من خلالها ان يضفي حوله طابعاً جميلاً للحياة تنسيه آلامه .

والشعر نتيجة للحياة الفردية التي يحياها الانسان العربي فالذي يجد نفسه وحدها يأنس لصرخات الذات وتوجعات الضمير ويستجيب لدموع القلب وابتساماته .

والشعر في حياة العربي يمثل جانباً من الابداع وهو يُعبّر عن حالة قوة وضعف في آن واحد واذا اردنا ان نسمي المجتمعات بخصائصها الإبداعية فان سمة المجتمع العربي هو قول الشعر وتذوقه واقامة المهرجانات من اجله .

تاسعاً : وهناك تأثير اخر لحياة الصحراء على الانسان هو توجيهه نحو الخرافة ايضا ، فليالي الصحراء الطويلة ونجومها البديعة التي تتراءى له وكأنها شياطين دفعت بالانسان العربي دفعا نحو الاعتقاد بالخرافة واصبح يرث هذه المعتقدات من آبائه واجداده فاخذ العرب يعتقدون بأن هناك ارواح شريرة هي

التي تسبب لهم المرض فيقوموا باستحضارها في اماكن مجهولة وكانوا يؤمنون باقوال العرّافين وكاشفي البخت واكثرهم لا يعتقد بالآخرة والذي يعتقد بها يربط بعيراً الى قبره ويجوّعه حتى يموت ، معتقداً بانه اذا مات سيمتطي بعيره في يوم القيامة .

واعتقدوا ايضا بان روح الانسان بعد الموت تحوم فوق قبره على صورة بوم فاذا كان مقتولاً فان البوم سيصرخ بعشيرة القتيل حتى يأخذون له الثأر فكانوا يتشاءمون ويتفاءلون لأتفه الأسباب فاذا مرّ عليهم طير من الشمال الى اليمين تفاءلوا ، واذا مر من فوقهم من اليمين الى الشمال كان ذلك مبعثاً للتشاؤم واذا ما ألمّت عليهم كارثة كانوا يدخلون من الباب الخلفي اذ كانت لبيوتهم باب من الامام وباب من الخلف .

وفي ايام الجدب كانوا يربطون الاعشاب اليابسة في ذيل البقرة فيضرموا فيها النيران ، ويدفعون بها الى اعالي الجبال وكانوا يعتقدون بان لهب النار في اعالي الجبال سيُنزّل المطر للشبه الموجود بينه وبين البرق .

عاشراً : وكان للبيئة الصحراوية وما تثيره من احساس عميق بالرهبة والضعف اثر في تشكيل الحياة الدينية لدى الانسان العربي ، فهناك من عَبَدَ النجوم والسماء والقمر والهواء معتقدين بانها مهيمنة على مصائرهم . .

وهناك من عَبد الاشجار والاحجار فكلما وجدوا حجراً جميلاً سجدوا له وبعضهم عَبَد كُثبان الرمل وكانوا ياتون بنياقهم فيحلبونها على الرمال فتذهب البانها سُدى . والذين عبدوا الاصنام كانوا يقدمون لها القرابين فيهدرون اموالهم سُداً ، فانعكست الصحراء في حياة العرب انعكست سلباً وايجاباً ، وصاغت منهم شخصية متميزة بالسمات التي ذكرناها ، والتي بقيت على قوتها حتى مع الانتقال الى الحضر ، فكانت قواسم مشتركة قائمة بين البدو والحضر على رغم

التباين في البيئة من حالة لاخرى .

ولا يخفىٰ ان البيئة الصحراوية كانت صاحبة الفضل في الابقاء على بعض القيم التي جاءت بها الرسالات السماوية ، فاكثر الفضائل التي كانت موجودة في المجتمع الجاهلي كالكرم والوفاء بالعهد هي في الواقع قيم جاءت بها تلك الرسالات والتي لم تستطع الايام ان تزيلها او تخفف منها على رغم ما طرأ على هذه السمات الخيرة من تحوير عند بعض الجماعات العربية ، فالكرم اصبح عند البعض مفخرة شخصية يقصد به السمعة والوجاهة ، وهكذا بقية الصفات الخيرة الاخرى .

لماذا نزلت الرسالة في المجتمع العربي؟

من الضروري اجراء مقارنة تقييمية بين الانسان العربي والانسان الفارسي والانسان الرومي من اجل ادراك ابعاد الاختيار إلآلهي لجزيرة العرب لتكون مهداً للحضارة الاسلامية ، واختيار سكانها لاحتضان الرسالة الاسلامية ، فقد كانت هناك ثلاث حضارات تتاخم جزيرة العرب ، حضارة مجوسية في فارس وحضارة بيزنطينية نشأت في بلاد الروم وحضارة كانت في اليمن مهّدت لتكوين الحضارات الاخرى .

وكانت مكة تُشكّل منتصف المثلث الحضاري في ذلك الوقت وكانت الحياة مختلفة تماماً في مكة عنها في تلك المناطق التي شهدت تطوراً نوعياً في الزراعة والصناعة والعمران ، فانعكس هذا التقدم على طبيعة الفرد وطبيعة المشكلات التي يعاني منها ، وفيما يلي اهم الفروق بين افراد الجزيرة العربية الذين كانوا يعيشون وسط الصحراء وافراد الدول الثلاث الذين كانوا يعيشون وسط حضارات متطورة .

الفارق الاول : في المعتقد :

كان تمسك البدو بمعتقداتهم الخرافية اقوى من تمسك الاقوام الاخرى بالرغم من انهم كانوا اكثر ايغالاً في الخرافة والجهل من الاخرين ، ولهذا السبب فان تغيير هؤلاء المتخلفين كان اصعب من غيرهم وهذا يفسر لنا فشل حملات التهويد والتنصير التي كانت تشنها الدول بقصد تغيير ديانة العرب ، فكان تمسك هؤلاء بمعتقداتهم على خرافتها قد افشل كل محاولة لتغيير العقيدة ، وتكمن المشكلة في ضعف قابلية العربي على تغيير معتقده وقوة تمسكه به ، واذا ما بدل معتقده الى معتقد آخر فانه سيتمسك بالعقيدة الجديدة بنفس القوة التي كان فيها قبل ذلك .

الفارق الثاني : التحمل والشجاعة والصبر . .

انسان البادية اقوى واكثر تحملاً من انسان الحضر سيما اولئك الذين كانوا يعيشون حياة الترف في روما وفارس ، فبينما يعيش العربي البدوي تحدياً مستمراً مع الطبيعة ويقاسي من خشونة الحياة وجشوبة العيش كان على العكس من ذلك اولئك الذين يعيشون فوق سهول فارهة بالثمار والخضار وعلى مقربة من شطآن الانهار والجداول .

فكان طبيعياً ان يخرج الانسان الحجازي اكثر صلابة واكثر قدرة على التحمل والصبر فكان ترشيحه اقوى لتحمّل اعباء الرسالة الاسلامية وما يتبعها من التزامات .

الفارق الثالث : حيوية الفرد :

حيوية الانسان العربي في جزيرة العرب هي اقوى من غيره ممن كان يعيش في بحبوحة وترف ، والحيوية ناتجة عن حالة الاستنفار الدائم التي كان

يعيشها الانسان البدوي .

فقد صاغت البيئة من الانسان العربي طاقة خلاقة اذا ما وجهت الوجهة الصحيحة ، فكان دائم البحث عن الحياة الافضل عن المرعى وعن المياه ، وقد منحته حالة البحث هذه طاقة اضافية كان من الاولى عليه استهلاكها في وسائل العيش . لكن محدودية الصحراء جعلته محدود النشاط ، واضطرته في بعض الاوقات الى استخدام هذه الطاقة الاضافية في نشاطات مخربة محرمة اجتماعياً كقطع الطرق والغارة على القبائل .

وهناك فرق رابع : هو تعرض المجتمعات التي تعيش في ظل الحضارات الى التلوث بسبب طغيان النزعة المادية ، بينما ظل المجتمع البدوي محتفظاً بخصائصه الطبيعية دون ان يعتريه التلوث الحضاري فقد ظلت صفات الشجاعة والصدق والكرم والوفاء جزءاً من شخصيته .

وكانت هذه الفوارق تعطي الانسان في الجزيرة العربية الاولوية في احتضان الرسالة الاسلامية ، فاولا : لان المجتمع العربي كان احوج من غيره الى رسالة سماوية بسبب ما بلغه من انحطاط اجتماعي وتردي عقائدي .

وثانياً : اقناع الانسان العربي الموغل في الجهل سيعني ان للرسالة القدرة على اقناع غيره ممن يعيش حياة افضل متنعمّاً بالوعي والشعور والادراك .

وثالثاً : كان من الضروري للرسالة الجديدة وهي في انطلاقاتها ان تبحث عن اشخاص يتّسمون بالشجاعة والجرأة وقدرة عالية على التحمل ويمتلكون طاقة مستنفرة تمكّنهم من مواجهة اعباء المسؤولية ويصبحون حملة للحضارة الاسلامية الى الامم الاخرى ، وهي حالة لم تكن لتتوفر الا في جزيرة العرب ، فما كان على صاحب اية دعوة جديدة الا ازالة التراكمات الجاهلية واعادة

الانسان العربي الى فطرته ثم ترسيخ الفضيلة فوق تلك الارض التي باتت مهيأة لاستقبال بذور الخير بعد ان كانت ارضاً جرداء لا تنبت سوى الشوك .

هـذه الحقائق تدفعنا الى الاعتقاد بان هناك اسباباً قد تكون واضحة في اختيار جزيرة العرب كمهبط للوحي فارضها اخصب (للرسالة) من ايـة ارض اخرى بالرغم من جدبها ، فاذا استقبلت بـذرة الرسـالة فـانها ستنمـو بسرعـة وستعطي ثمارها بسرعـة ايضا ، فمثلهـا مثل الارض الخصبـة التي يخصصها الفلاحون لزراعة البذور في المرحلة الاولىٰ ثم يتم نقلها على شكل نبتة الى اماكن اخرى .

وارض الجزيرة العربية ارض خصبة لكنها كانت بلا (زارع) فنمت فوق ارضها كل شجرة ضارة واعطت ثماراً ضارة ايضا .

فمثل هذه الارض بحاجة الى مزارع من نمط خاص يستطيع ان يقلع تلك الاشجار الضارة ويزرع مكانها اشجاراً باسقة ومثمرة .

ورابعاً : جزيرة العرب هي مهد الرسالات ، ومكة هي موطن الانبياء ، فليس هناك من عجب ان ظهر نبي جديد على هذه الارض التي طالما حملت مشعل النبوة والخير .

الانجذاب

تَحَكَّم التخلف بالمجتمع الجاهلي الى درجة اغلق مسامع العربي عن كل شيء جديد ، واغرقه في مستنقع من المعتقدات البالية بحيث لم يكن بمقدوره مشاهدة الحقيقة وهي ماثلة امامه كالشمس في رابعة النهار .

ويذكر لنا التاريخ ان محاولات عديدة جرت لتغيير معتقدات ذلك المجتمع ، لكنها اصطدمت بالارادة المتكلسة لذلك الانسان الجاهلي الذي ظل محافظاً على خرافاته معتقداً بها وكأنها جزء من شخصيته .

فعلى رغم ما كان يربط الامبراطورية البيزنطية بالعرب من روابط وما كانت تقوم به من محاولات لنشر المسيحية في البلاد العربية وعلى رغم ما بذلته الجماعات اليهودية من مسعى لتهويد العرب فقد ظل سكان هذه البلاد متمسكين بمعتقداتهم الا حفنة ممن اعتقد باليهودية والنصرانية لتمشية مصالحه ، اما السواد الاعظم من سكان الجزيرة فلم ينجذبوا الى هذه الديانات الا اللهم بعض من تأثّر بنصارى نجران الهاربين من سطوة اليهود الذين حكموا اليمن في فترة سابقة وهناك من تأثر باليهودية وهم عرب اليمن وبينهم ذونوءاس الحميري احد ملوك اليمن ، وذكر في التاريخ ان الملك الحميري هو الذي قام

بغزو نجران وقتل عدداً هائلاً من المسيحيين ويذكر المؤرخون الحادثة بهذا الشكل . .

كان هناك مبشّر مسيحي اسمه قيميون اظهر المسيحية فيها ودعى الناس اليها وتظاهر بالصلاح وحماية الفقراء فاذا سمع بمريض قصده ووعده بان يدعو الله شرط ان يصبح مسيحياً واذا ما رأى فقيراً اعطاه ما يسد حاجته حتى استطاع ان ينصّر اهل نجران ، وقد أثار ذلك الملك ذونوءاس اليهودي الذي قرر اعادة المنطقة الى الديانة اليهودية فهاجمها وقتل الآلاف في الأُخدود .

وهناك حكايات كثيرة عن انتشار النصرانية واليهودية في الممالك التي تحيط بالجزيرة العربية كالحيرة التي كانت خاضعة للدولة الفارسية ودولة الغساسنة التي كانت تابعة لبلاد الروم ، ومما يستخلص من كل ما ذكره المؤرخون ان الدول القوية كانت تحاول طيلة القرن الخامس والسادس الميلادي ان تتسلل إلى منطقة الحجاز لفرض عقيدتها على القبائل العربية لكنها كانت تصطدم بجدار الوثنية وما كانت بقادرة على اجتياز المدن القريبة منها ، ويعود السبب في ذلك الى طبيعة مجتمع الجزيرة وقوة تأصّل الوثنية فيه ، فعملية تغيير هذا المجتمع من الحالة الجاهلية الى واقع آخر لم تكن بعملية سهلة ولم يكن بمقدور أي دين غير الاسلام ، وأي رجل غير محمد (ص) بقادر على القيام باعباء هذهِ المهمة .

اما تغيير بعض العرب المحيطين بالجزيرة العربية لمعتقداتهم ، فهناك اسباب واضحة وراء ذلك فقرب هؤلاء الى الدول المتحضرة جعلهم اكثر تحضراً من عرب الحجاز وبالتالي كانوا أسهل اقتناعاً لاي معتقد اكثر تطوراً من الوثنية ، كما وان بعض هؤلاء العرب كما هو الحال في دولة المناذرة والغساسنة واليمن كانوا يخضعون للاستعمار البيزنطي او الفارسي الذي كان يفرض معتقداته على رعاياه من موقع القوة وبالتالي فلا تقيّد بوضعهم العقائدي كقاعدة عامة بل

القاعدة هي تكلّس هذا المجتمع على معتقداته ورفضه لأي معتقد آخر الا في حالة واحدة ، وهي انجذابه لدين جديد يستطيع ان يسيطر على القلوب ويلمس الضمائر ويفتت العقيدة الوثنية الصماء ، فاي دين يستطيع ان يجذب هذا الوثني وينتشله من الحضيض الى القمة؟ واي رسول يستطيع ان يقلب الصخرة الصماء الى قلب نابض بالحياة؟ .

بالتأكيد ليس هناك غير الاسلام ديناً وغير محمد رسولاً ، ولـذا وجدنـا بعض زعماء العرب يتفاجؤون بقوة محمد (ص) وهو يثير فيهم سؤالاً ما انفك يؤرقهم هو كيف استطاع محمد(ص) ان يغير هذه الهمج الرعاع ويحولها الى مجتمع متحضر . . فاعتقد البعض انـه ساحـر واعتقد آخـرون انه كـاهن اما أصحاب البصائر فلم يتجاوزوا حدود ما رأته أعينهم ووعته قلوبهم انه ليس الا رسول من رب العالمين .

لم ينجذب العرب الى الرسول والرسالة في عشية وضحاها ، فقد سبقت البعثة مقدمات حاكتها يد الأحداث كانت قد أوصلت خيوط الجذب الى المركز في السابع والعشرين من رجب من عام ٦٢٢ للميلاد فقد اشتركت عناصر كثيرة في تـركيب الحدث القـوي الذي قلب الانسـان العربي وجعله يقف بصـورة معتدلة .

وعندما قامت الدعوة كان العرب على أهبة الاستعداد ليسمعوا ما يقوله الـرسول الا النفـر الضالّ من المتـرفين المستكبرين ، وانجـذاب العرب الى الرسول (ص) تم قبل البعثة ومرَّ بثلاث مراحل :

اولاً : الانجذاب الى مكة . .

ثانياً : الانجذاب الى بني هاشم . .

ثالثاً : الانجذاب الى شخص الرسول (ص) . .

اولاً : الانجذاب الى مكة .

لم يكن في مكة ما يثير الاهتمام ويُشكل عنصر جذب لدى سكان الجزيرة العربية ، فلم تكن مكة اكثر من ارض صفراء محترقة بأشعة الشمس وسط صخور وجبال فقد افتقدت هذه الارض كل ما يشكل عنصر ، جذب كوجود الماء او الكلاء او الارض الصالحة للزراعة .

وبدأ الاهتمام بمكة يوم اقام ابراهيم وابنه اسماعيل البيت الحرام كمنطلق للتوحيد فاخذت الجماعات تفد الى هذا المكان للاقامة حول البيت ، واتخذ اسماعيل مكة مكاناً للسكن فتزوج من قبيلة جُرهم احدى القبائل الوافدة الى مكة ، واغناه الله بالبنين الذين اصبحوا دعاة للتوحيد وظلت قيادة مكة بأيدي جُرهم حتى هزيمتهم امام خزاعة التي سيطرت على مكة وبدأت الفترة المظلمة من حياة هذه المدينة .

فقد حدثنا التاريخ ان عمرو بن لُحي الخزاعي هو اول من غير الابراهيمية بنصبه الاوثان في الكعبة وادخل عبادة الحيوانات الى المجتمع العربي ، ويعود السبب في ذلك الى تأثّر عمرو الخزاعي بعبادة الاوثان اثناء احدى رحلاته الى الشام فرأى اهلها يعبدون الاصنام ففتن بها وجلب بعضها الى مكة فنصبها وامر الناس بعبادتها وتعظيمها ، وقد روي عن الرسول (ص) انه قال في عمرو الخزاعي : « رايت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار كان اول من سيّب السوائب » .

وباتت مكة من ذلك العهد تغفو اغفاءتها المعروفة في التاريخ فقد خرجت من دائرة الضوء واصبحت مدينة عادية كأية مدينة اخرى ، وخف الاهتمام بها والانجذاب اليها . واستمرت الإغفاءة حتى عهد قصي بن كلّاب الجد الخامس لرسول الله (ص) فانتقلت وفي منتصف القرن الخامس الميلادي من طور البداوة

الى طور الحضارة المدنية ، فقد استطاع قصي ان يتغلب على خزاعة وان يزيحها عن البيت الحرام في قصة تاريخية مذكورة في كتب السير .

واخذ بعد أستتباب الأمر يرسي أركان حضارة محدودة على تلك الارض فانتشر العمران وحلّت البيوت المرصوصة بالحجر او المبنية بالطين والحجر محل الخيام والاخبية ، وانطلقت الحركة العمرانية مما يلي المسجد الحرام الى بطحاء مكة ، وكان اهلها يبنون بيوتهم اول الامر بصورة لا تستوي على سقوف مربعة احتراماً للبيت ، ثم غيّروا عقيدتهم في ذلك فلم يروا بأساً أن يرفعوا اسقف منازلهم إلا أنهم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة . . واخذت مكة تتطور وتنمو في ظل النظام الذي أقرّه قصي ، فقد جاءته قريش والتفّت من حوله فقسّم الارض الى رباع وهي المنازل وما حولها فانزل كل جماعة من قريش في مكان مخصص .

والى جانب النظام العمراني والسكاني انشأ قصي داراً للندوة وكانت ملاصقة بالمسجد الحرام ، وجعل بابها الى المسجد وهي دار للشورى ودار للحكم والادارة ، ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصي الا ابن اربعين سنة وكانت الدار خاصة بهاشم وامية ومخزوم وجمع وسهم وعدي وأسد ونوفل وزهرة ، واخذت مكة تشق طريقها الى عالم جديد بعد ان وضعت قدمها على عتبة الحضارة وبعد فترة من عِهود التخلف والظلمات أخذت تتقدم في مجالات مختلفة وأبرز هذه المجالات هي النشاط التجاري فقد ساعد على بروز هذا النشاط الموقع الهام الذي تحتله مكة ، فقد كانت في منتصف الطريق بين الحضارات الثلاث وهمزة الوصل بين التجارة الذاهبة والقادمة من اليمن الى الشام وبالعكس ومن اليمن الى بلاد فارس وبالعكس ، فكان التجار ينقلون من اليمن الجلود والبخور والثياب ومن العراق التوابل ومن الهند الذهب والقصدير والعاج وخشب الصندل والتوابل والزعفران ، ومن مصر والشام الزيوت والغلال

والأسلحة والحرير والخمور وينقلون من افريقيا الصمغ والعاج والتبر وخشب الابنوس ، فكانت تجارتهم عامرة في كل زمان في الشتاء والصيف وقد ادّى هذا النشاط الى نمو طبقة من اصحاب الاموال الطائلة من المترفين الذين كانوا يستخدمون اموالهم في نشاطات مختلفة بالاضافة الى التجارة .

وازدهرت الحياة الادبية في مكة وبرز فيها شعراء عمالقة في الشعر والادب ، وهوى البعض علوماً اخرى كالتفرّس والعيافة ومعرفة النجوم والانواء ، وكان المكّيون يحتقرون الصناعة ويحتقرون من يعمل فيها لكن هناك عدد كثير ممن مارس مهنة الصناعة كصناعة البناء والسيوف والدروع واشتهر الخبّاب بن الارت في صناعة السيوف .

ومع تزايد رؤوس الاموال ازداد تألق مكة بين العرب وازدادت الحاجة الى تخصيص اماكن لمزاولة النشاط الاقتصادي فكانت الاسواق التجارية الى جانب البيت الحرام وكان العرب يهرعون اليها من كل مكان ومن أبعد نقطة في الجزيرة فكان سوق للعطّارين وسوق للفاكهة وسوق للرطب وخصص مكان للحجّامين والحلاقين ومكان آخر لبيع الحنطة والعسل والحبوب وكان هناك زقاق للحذائيّين وسوق للبزّازين ووصل الامر في هذه المدينة الى تخصيص اماكن للترفيه عن الناس تستخدم كمنتجع في شهور القيظ .

وكانت ترسل من مكة هدايا الى الملوك والحكام واشتهرت بانتاج الأدم وهي الجلود ، ويذكر لنا التاريخ ان قريش ارسلت الأدم الى النجاشي ملك الحبشة لاسترداد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة .

وتحولت مكة وخلال فترة قصيرة الى عاصمة للجزيرة العربية وتفوقت في تألّقها وسمعتها على مملكة الحيرة وغسان ، واصبحت تنافس في زعامة العرب عاصمة اليمن صنعاء وبسبب هذا التنافس خشي ملوك اليمن على سلطتهم وبسببه قامت واقعة الفيل عندما قرر أبرهة القضاء على مكة واخضاعها

لسيطرته ، فخرج بجيش من الفيلة قاصداً مكة راغباً في تخريب البيت الحرام ، وما ان وصل الى مكان قريب حتى أرسل الله بجيش من الأبابيل أخذت ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلتهم كعصف مأكول كما ورد في القرآن الكريم .

وانتشر خبر الواقعة بين العرب وغير العرب وعظمت مكة مرة اخرى في اعين الناس اثر هزيمة أبرهة ، فقد تجلت امامهم عظمة هذه المدينة المقدسة وعظمة ما تحتضنه وهو بيت الله الحرام الذي قال عنه عبد المطلب يوم سأله ابرهة قال مختصراً : وان للبيت رب يحميه .

واصبح لمكة بعد تلك الواقعة قدسية لا حدود لها لدى العرب الذين أخذوا يؤرخون الاحداث من ذلك العام الذي سمي بعام الفيل وهو ايضا العام الذي ولد فيه سيدنا ونبينا محمد (ص) وهو عام (٥٧٠ للميلاد) ، لقد كانت هناك يدُ آلهية ترتب كل شيء وتضع كل شيء في مكانه المناسب ، فقد وصلت مكة بعد حادثة الفيل الى قمة الشهرة واخذ الناس يترقبون أخبارها وانبائها ويتحدثون عن كل صغير وكبير فيها واخذت تتلألأ فوق مسرح الاحداث ، واصبحت المدينة بمن فيها وبما فيها تموج بالاضواء الساطعة ، وكان في قلب كل عربي حنين قوي الى مكة ودافع قوي لان يزورها ويتصيّد اخبارها .

وكانت هذه المقدمات هامة للغاية قبل بعثة الرسول (ص) فحيث لم تكون هناك أجهزة اتصال سريعة وكان من المفترض ان تصل أنباء الرسالة الى أبعد انسان في الجزيرة بل الى ابعد انسان في ذلك العالم ، وكان ذلك امر مستحيل لولا وجود عناصر الجذب التي كانت تدفع بالانسان العربي لان يترك بيته وعياله ويقطع المسافات الطويلة ويرتحل بين الفيافي والهضاب ليصل مكة بعد شهور وسنين من اجل ان يتعرف على تفاصيل خبر البعثة التي انتشرت في زمن قياسي في أرجاء وسيعة من جزيرة العرب .

ثانياً : الانجذاب الى العائلة الهاشمية :

أكتسبت مكة شرفها من المسجد الحرام وما احيط به من رعاية آلهية ثم زادها شرفاً من سكنها فأصبحت علماً من أعلام التاريخ ، فالذين سكنوا مكة هم ابناء ابراهيم واسماعيل بناة الكعبة وقد برز من اولئك الابناء والحفدة من استطاع ان يزيد مكة تألقا على تألقها .

فما حصلت عليه مكة من قوة مغناطيسية جاء بفعل مشترك من مكانة البيت الحرام ومن مكانة البيت الهاشمي الذي اعاد للمدينة نظارتها واصبحت تباهي كبريات المدن في العالم يومذاك .

وكلما كان البيت الهاشمي يقترب من ولادة محمد كان يزداد تالقاً في سماء مكة وسماء الحجاز وكان يزداد سمعة وشرفاً وفضيلة بين مدن واحياء الجزيرة وقد تعقب العرب انباء هذا البيت منذ استطاع قصي بن كلّاب أن يرسي دعائم دولة مصغرة في مكة بعد ان تغلب على خصومه ، فقبل قصي لم يعرف العرب التنظيم والادارة ووجدوا في احضان ذلك النظام الخير والصلاح فقد نمت تجارتهم وازدادت اموالهم وعظم شأنهم امام القبائل ، واخذ يعرف ذلك التجمع البشري من ذلك اليوم باسم قريش .

وقد ذكرنا جانباً من اصلاحات قصي بن كلّاب ومنهجه في اقامة المدينة العصرية في ذلك العهد وبعد قصي ظهر الاختلاف بين ابنائه حول الزعامة في مكة ، واشتد النزاع بين بني عبد الدار وبني عبد مناف ، وانقسمت قريش الى فريقين ، فانضمّ بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمع وبنو عدي الى بني عبد الدار ، وعقدوا حلفاً عند الكعبة على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسمّوا بالأحلاف ، بينما انضم بنو اسد وبنو زهرة وبنو تميم وبنو الحارث الى بني عبد مناف وهم بدورهم تعاقدوا على ان لا يخذل بعضهم بعضا واعدّوا حفنة ملؤوها

بالطيب ووضعوها عند الكعبة فغمس المعاقدون ايديهم فيهاثم مسحوا الكعبة بايديهم توكيداً على انفسهم بالتزام العهد فسمّوا بالمطيّبين .

وكاد يتحول النزاع بين الاحلاف والمطيبين الى حرب ضروس ، واثناء ما كانوا يتهيأون للقتال واذا بهم يعودوا الى رشدهم وينادوا بالصلح ، واما الزعامة على مكة فقد قسموها بين الطرفين فكانت السقاية والرفادة من حصة بني عبد مناف والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار .

وقد زادت هذه الحادثة من عظمة البيت الهاشمي ، واصبح الناس وهم يرون شيئاً جديداً في هذا البيت الذي بلغ حد الخصام ثم عاد الى عقله وحلّ معضلة الزعامة بالمنطق والعقل ، ولاحظوا كيف يتحول الأبناء الى اعداء وكيف يتحول الاختلاف الى نزاع كاد ان ينقلب الى حرب ، وكيف تتحول الاوضاع المتشنجة فجأة الى سلام وأمن وكيف يصلوا في النهاية الى حل مقنع وكيف يرضى الجميع بذلك الحل خدمة للسلام والوئام ، فالقاعدة التي سارت عليها احداث الجزيرة العربية كانت تؤكد بأن مصير ذلك الاختلاف كان الى حرب ولا مجال للسلام بينهم لكن كان هناك بقية من العقل والحكمة في صحراء الجاهلية .

ثم تولى زعامة مكة هاشم بن عبد مناف وكان موسراً كريماً ذو شخصية مهابة فاستطاع بملكاته ان يجذب القبائل وان يصبح زعيمها الأوحد بالرغم من انه لم يمتلك منصب السقاية والرفادة حسب تقسيم الزعامة بين عبد مناف وعبد الدار كما مر ذكره .

لكن القيادة في ذلك الوسط وفي تلك البيئة كانت موهبة وليست ارثاً يرثها الشخص من آبائه فمن يمتلك القدرة والشخصية يصبح زعيماً بينما من فقد صفات القيادة لم يكن بوسعه أن يقود قومه وحتى لو ورثها عن أبيه من هنا فقد

برز اسم هاشم على أبناء عبد مناف وأبناء عبد الدار واصبح زعيماً لا يدانيه احد .

واشتهر هاشم بفرض ضريبة مالية على قريش وصرفها في مواسم الحج على الحجيج فكلما حضر الحج قام هاشم في قومه قائلاً يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ، ما تصنعون لهم به طعاماً ايامهم هذه التي لا بد لهم من الاقامة بها فانه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتكُموه فكان كل قرشي يخرج من ماله ما يستطيع ويرفد به لاقامة الطعام في مواسم الحج وفي احدى المراسم اصيبت قريش بالفاقة فلم يرغب هاشم ان يثقل من كاهلهم ويأخذ ما اعتاد عليه اخذه فقام بالمهمة بنفسه بارتحاله الى الشام بجميع ماله واشترى به كعكاً دقيقاً ثم جاء الموسم فهشم ذلك الكعك كله ودقّه دقاً ثم صنع للحجاج طعاماً في موسم الجوع فعرف بعد ذلك هاشماً ، وهاشم هو الذي سن لقريش رحلة الشتاء والصيف فأينعت مكة في عهده وقدم اليها قوم كثيرون وأزدهرت فيها التجارة وتزوج هاشم من سلمى اثناء سفره الى المدينة وكان قومها قد منعوا زواجها من الرجال . لشرفها وعندما تقدم هاشم لم يجدوا افضل منه جاهاً وشرفاً وولدت له شيبة الذي كني بعبد المطلب وكان صغيراً عندما مات هاشم فانتقلت الزعامة الى مطلب عمه وبعده انتقلت الرفادة والسقاية إلى عبد المطلب الذي افرد لاسمه مساحة كبيرة في تاريخ العرب لم يستطع ان يحتله اباءه من قبل فقد احبه قومه وعظم شأنه عندهم .

وبدا اسم عبد المطلب يلمع بين العرب في حادثة حفر بئر زمزم وقد انتشر خبر الحادثة عند الناس وعلى لسان عبد المطلب بهذه الصورة؛ اني لنائم في الحجر اذ اتاني آت فقال : احفر طيبة ، قال قلت : وما طيبة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه فجاءني ، فقال : احفر برة ،

قـال : فقلت : وما بـرة ، قال : ثم ذهب عني فلمـا كـان الغـد رجعت الى مضجعي فنمت فيـه فجـاءني فقـال : احفـر المضنـونـة ، قـال فقلت : ومـا المضنونة ، قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال احفر زمزم ، قال قلت : وما زمزم ، قال : لا تنزف ولا تذم تسقي الحجيج الاعظم وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاعصم عند قـرية النمل .

وبدا يحفر ومعه ابنه الحارث على ضوء تلك العلامات وقد ارادت قريش ان تمنعه لان مكان الحفر من الاماكن المقدسة تقدم فيها القرابين بين الوثنيين اسا ونائلة الا ان هيبة عبد المطلب حالت دون منعهم له .

وبعد ان تم الحفر طمعت قريش بالماء الغزير الذي انعم الله بـه على عبد المطّلب فأرادوا ان يشاركوها فيه قائلين له انها بئر ابينا اسمـاعيل فـامتنع عبد المطلب ان يتنازل عند رغبتهم وعندما اشتدت المطالبة دعاهم الى التحكيم فقبلوا ان تكون كاهنة بني سعد حكماً بينهم وكان مقرها على مقربة من الشام فجهزوا انفسهم للسفر اليها في الطريق نفذ الماء في رحل عبد المطلب ومن معه فاستسقوا قومهم الذين خاصموهم على بئر زمزم فامتنعوا ان يقدموا لهم الماء وبلغ الأمر بعبد المطلب وجماعته ان اخذوا يودعون الدنيا وحفر كل واحد منهم قبراً ينتظر فيه هلاكه عطشاً وفجاة قام عبد المطلب وقال في قـومه[1] والله ان القاءنا بأيدينا هكذا للمـوت لا لنضرب في الارض ولا نبتغي لانفسنـا العجز فعسىٰ الله ان يرزقنا ماءً ببعض البلاد .

فتقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفّها عين ماء عذب وكبّر عبد المطلب وكبّر اصحابـه ثم نزل فشـرب وشرب

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٢٤.

اصحابه واستقوا حتى ملأوا اسقيتهم ثم دعا القبائل من قريش فقال هلم الى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ثم قالوا : قد والله قضي علينا يا عبد المطّلب والله لا نخاصمك في زمزم ابداً إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم فارجع الى سقايتك راشداً فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا الى الكاهنة وخلوا بينه وبينها فازداد حب الناس لعبد المطلب وزاد ايمانهم بمنزلته عند الله وشاع خبره في الآفاق واصبح اسمه علماً بين الناس .

ومضت الأعوام وعظم شأن مكة فكان ذلك باعثاً لغيرة ملك الحبشة أبرهة الذي قاد جيشاً من الفيلة ليهدم البيت الحرام وعندما وصل القائد الحبشي مقصده بعث رسول له سأل عن سيد هذا البلد فدلّوه على عبد المطلب بن هشام فقال مقولة أبرهة : اني لم آت لحربكم انما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم فقال عبد المطلب والله ، نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة هذا ، بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم فان يمنعه عنه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه فقال الرسول فانطلق معي اليه قد أمرني ان آتيه لك .

وعندما قدم عبد المطلب تكلم احد اعوان أبرهة قائلاً : ايها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب مكة وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته فأذن له أبرهة وكان عبد المطّلب أوسم الناس واجملهم واعظمهم فلما رآه أبرهة اجلّه واعظمه واكرمه وامتنع عن اجلاسه تحته وكره ان تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه الى جنبه ثم قال للمترجم : قل له حاجتك ، فقال له : حاجتي ان يرد عليّ الملك مائتي بعير اصابها لي ، فقال أبرهة للمترجم : قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير أصبحت لك وتترك بيتاً هو

دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : اني انا رب الابل وان للبيت رباً سيحميه ، وكان ما كان من مصير ذلـك الجيش العظيم وكانت رحمة الله لعباده وحمايته لبيته .

وقد زادت تلك الحادثة في عظمة البيت الهاشمي واقترنت بعظمة البيت الحرام وسلطت الضوء الساطع على اشياء ستحدث في هذا البيت في القريب وقيلت القصائد الكثيرة في هذه الحادثة وقد اكتملت الحوادث المهمة في حياة عبد المطلب بقضية ولده عبدالله الذي امتاز عن بقية ابنائه بعـدد من الوقـائع فكانت حياته آخر ضوء يسطع من البيت الهـاشمي ليكشف عن الشيء الذي أصبح يترقبه الجميع وهو ولادة المنقذ من هذا البيت المبارك . وقعت حوادث في حياة عبدالله شخّصته عن بقية اخوته عند الله وعند الناس .

وأول حادثة وقعت له هو الحادث الدرامي الذي ذكره لنا التاريخ ، مضىٰ وقت طويل على عبد المطّلب وهو يحفر بئر زمزم وكان المعول يخر على الأرض في فترات طويلة تؤكد أن حامله هو شيخ كبير ، وفعلاً كان شيخاً طاعناً في السن قد انهكته حياة الصحراء القاسية وأمور قيادة هذه المدينة الواسعة . ولم يكن معه في تنفيذ مهمة حفر بئر زمزم الا ولده الوحيد الحارث ، هناك تنفّس عبد المطّلب نفساً طويلاً بين وجبات العمل ونظر الى ولده الحارث بعين الأمل .

. . كم كنتُ سعيداً لو كان لي عددٌ من الأولاد يساعدونني في مهمتي ، وتحركت يداهِ الى السماء وتوجّهت انظاره الى الكعبة فدمعت عيناه وتمتم لسانه طالباً من الله ان يرزقه عشراً من الأولاد ثم أعاد بصره الى الكعبة ناذراً بأنه سيُقدّم أحدهم قرباناً الى الله كما فعل ابراهيم بولده اسماعيل .

واكتمل العشرة وظل عبد المطلب على نذره وجاء اليوم الذي يجب عليه الإيفاء وهذا اليوم الذي يجب ان يودع فيه أحد ابنائه لكن طالما كان ذلك في

سبيل الله فلابأس في ذلك .

لكن من الذي سيختاره لهذا الامر؟ .

لم يكن امامه الا ان يتوسل بالقرعة وهو ان يكتب اسم اولاده العشرة على عشرة اسهم ويقدح بها فمن خرج اسمه كان هو القربان وخشي عبد المطلب ان يأتي القدح على اسم عبدالله لانه كان احب اولاده اليه ، لكن يهون كل شيء اذا كان في سبيل الله .

ودخل عبد المطلب مع اولاده العشرة الكعبة وأجروا القداح فوقع على الاسم الذي كان يحبه .

وتذكر عبد المطلب في تلك اللحظة ابيه ابراهيم وهو حاملاً شفرته يريد ان يذبح ابنه اسماعيل فتأس به وشدّت تلك الصورة التاريخية من عضده فأخذ بيد عبدالله وتقدّم به خارج الكعبة والشفرة في يده فشاهده الناس والتفّوا حوله وكلٌّ يتأثّر بالمنظر .

ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ هل تريد ان تقتل ابنك فقص لهم الشيخ الطاعن الحكاية من البداية وما ان أتم الحكاية حتى انبرى احد الحاضرين ليقترح الذهاب الى عرّافة في المدينة اسمها قطبة فقد يجدوا عندها حلاً لهذا المأزق .

وارتحل الاب الكبير ومعه ابنه عبد الله حتى وصلوا خيبر ودخلوا على قطبة فأخبروها بأمرهم .

في اليوم الثاني كانت قطبة قد اعدت لهم الخطة وهي ان يقدحوا بين عبدالله وبين الابل في كل سهم عشرة ابل . .

ففعلوا عشرة مرات حتى خرج القداح على الابل ولكي يطمئن الشيخ

بالحكم امر ان يعيدوا القداح فاعادوه ثلاث مرات وكانت في جميعها تخرج على الابـل . فنحر مـائة ابـل واجتمـع الفقـراء من كـل مكـان ليـأكلوا من طعـام عبد المطلب ويستعيدوا مع انفسهم حكاية عبدالله وما جرى له .

وشاع امره وعرف الصغير والكبير الرجل والمرأة بقصته وكانت نساء قريش يتودَدْن اليه ويتمنّون ان يكون عبدالله زوجاً لهن لعظمة شأنه ، وارتفاع مقامه ، لكنه ابى ان يتزوج الا عندما يأمره ابوه بذلك ، ذلك الاب الذي عانى من اجله وارهق نفسه عندما خرج السهم على اسمه فكان الولد المطيع لذلك الاب الكبير الذي كان يزداد حباً لعبدالله فأخذه الى المدينة ليزوجه من افضل بناتها من آمنة بنت وهب أبنة سيد بني زهرة . وتم ذلك اللقاء الذي كان يرتقبه التاريخ والذي كان موضوعاً في حسابات هذا الكون واثمر اللقاء عن ذلك الوليد الذي لم يخلق الله له مثيلاً في هذا الكون والذي اشرقت الارض بنوره وانعكس نوره على وجه آمنة الذي كان يتلألأ لينبىء الناس بان في رحمها جنين ليس كالاجنّة وان كل شيء سيبدأ مع ولادة هذا الجنين .

ثالثا: الانجذاب الى محمد (ص):

محمد (ص) كل خلية فيه كان فيها من القوى الروحيـة ما تستـطيع ان تجذب كل البشر .

محمد (ص) هذا المولود الذي جاء الى الـدنيا يتيمـاً ليشعر كـل قرشي بحنين اليه . تعهّده جده عبد المطلب وهو زعيم قريش ورعى تربيته لينشأ قوياً في تلك البيئة ارسله الى الصحراء لتتبرك بقدومه بني سعد وليشهد فضله كل من عرفه عن قريب وبعيد وكانت حياته ومواقفه خلال الأربعين عـاماً قبـل البعثة منـاراً يشهدها جميع من في مكة ، فقد شاع عنه بأنه الأمين وانتشرت أنباء امانته آفاق الجزيرة العربية فجـاء كل من يريد السفـر او يريـد حفظ اموالـه يئتمنها عنـد

محمد (ص) يوم لم تكن اماكن لحفظ الاموال كالبنوك .

وفي صغره كانت تصرفاته وشخصيته تدل على الشأن الذي ينتظره وكان الكثير من الهاشميين يتعاملون مع يتيمهم من هذه النظرة العميقة في مستقبل هذا الطفل ، كان عبد المطلب قد تعود ان يستظل نهاراً بجدار الكعبة ، يجلس على فراش مرتفع وحوله اولاده واشراف قريش . ومن بعيد كـانت تلوح ليتيم بني هاشم صور جده واعمامه فكان يتقدم اليهم فيثّب على فراش جده فيأخذه اعمامه ليمنعونه عن ذلك فيأخذه عبد المطلب في حضنه ليقول لاولاده : دعوه ان لابني هذا لشأن ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسرّه ما يراه يصنع . ونسأل من اين ادرك عبد المطلب سيكون لهذا الفتى الصغير شأناً؟ .

هل هو الاحساس الوجـداني الناشىء عن النـظرة الواقعيـة للوضع في الجزيرة العربية فقد كانت الامور تدل على الحاجة الى التغيير وكان المجتمع المكي يعيش في حالة انتقالية وهي تؤكد ضرورة وجود رجل مصلح يستطيع ان يقود المجتمع الى الافضل ومن هو ذلك المصلح الذي يستطيع ان يواجه كل تلك التحديات ويتمكن من انقاذ امته .

لقد ادرك عبد المطلب بفطرته ان هذه المسؤولية بحاجة الى رجل عظيم وهو حتى في نفسه لم يجد تلك الكفاءة التي تستوجبها تلك المسؤولية على رغم مواقفه واصلاحاته في مكة .

وعندما كان يرفق عبد المطلب هذه الاحساسات بما شاهده من حفيـده وبما امتاز هذا الصبي على جميع الفتيان من فطنة وشخصية وما تبعه من بركات عمّت كل من اتصل به سواء في بيته في مكة او في مكان رضاعته في حي بني سعد .

ادرك عبد المطلب بأن مصلح المستقبل لا يكون سوى حفيده محمد وقد

زاد من ترسيخ هذا المعتقد ما كان يسمع من الكهان والاحبّار .

ويقول الرواة قدم عبد المطلب في وفد من قريش ومعه بعض الاشراف قدموا الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن على انتصاره وغلبته .

فأسّر لعبد المطلب بسر الرسول الذي سيبعثه الله من قريش وانه سيولد في هذه القبيلة من يحمل هذه الصفات والذي سيكون الرسول المنتظر ولم يكن صعباً على عبد المطّلب ان يعرف من العلامات التي اعطاها ذي يزن من سيكون هذا الرسول ولم يمر بخلد زعيم اليمن يوماً ان من يتحدث عنه قد ولد فعلاً وانه حفيد ضيفه عبد المطّلب فأوصاه خيراً وحذّره من اليهود وغيرهم .

ولم يكن الامر بحاجة الى كتمان فشخص هذا الصبي وتصرفاته كانت تنبىء بمستقبل زاهر له ومن حوله .

لقد عاش عبد المطلب وهو يأمل ان يرى تحقيق نبوته لكن الموت لم يمهله فانتقلت كفالة محمد (ص) الى عمه ابي طالب وهو يومذاك ابن ثمان سنوات .

ولماذا وقع اختياره على ابي طالب؟ وله العشرات من الاولاد؟ ان ابي طالب رجل فقير وبين اولاده من هو مثل ابي طلب الذي قال عنه القرآن : ﴿ **ما اغنى عنه ماله وما كسب** . . ﴾ ومن اولاده الاغنياء العباس الذي ذكر لنا التاريخ انه كان يشتغل في الربا قبل ان يحرمه الاسلام .

فما هو السر الذي جعل عبد المطلب يختار من بين جميع اولاده أبا طالب ليتكفل رعاية حفيده محمد (ص) وهو الذي تفرسّ في مستقبله وعرف شأنه فهل وجد ابا طالب من اكثر ابنائه حباً ورعاية لمحمد؟ .

ام لانه اخو لعبدالله من ام واحده واب واحد؟ .

ام انه وجد شيئا اخر في فراسته لمستقبل النبي العظيم وهو انه سيلاقي الصعاب في طريقه وان ابا طالب وحده الذي سيكون نصيره والمدافع عنه؟ .

وهذا الذي كان ، فقد عاد بعض اولاده محمداً كأبي لهب الذي تفنن في محاربة الرسول (ص) بينما وقف على النقيض منه ابو طالب فكان اشد الناس رعاية وحماية لرسول الله وكان على استعداد لان يضحى بمنزلته لدى قومه من اجل ابن اخيه ومن أجل الدين الذي جآء به من عند الله .

وثمة حقيقة اخرى كان لابد من مشاهـدتها في سيـرة النبي حول هـذا الاختيار . فقد نشأ النبي في اقسى الظروف واحلكها كان يتيماً ثم ترعرع في الصحراء ماتت والدته وعمره ست سنوات ومات جده وعمره ثمانية اعوام فذاق رسول الله (ص) اليتم ثلاث مـرات والى جانب اليتم تـربى الرسـول في بيئة محرومة فقيرة اذ كان ابو طالب افقر ابناء عبد المطلب لكنه عوضه بدل الحرمان العطف والحب كما ذكر ذلك مؤرخوا السيرة ومنه ما نقله ابن هشام في كتابه من حب ابي طالب لمحمد حيث كان يحبه اكثر من ابنائه علي وجعفر وعقيل[1] . وكانت فاطمة بنت اسد تطعم محمداً قبل ان تطعم اولادها .

لكن وجود محمد (ص) بهذه الشخصية العالية في بيئة معدمة وترعرعها في احضان الفقر كان يزيد من عوامل الجذب اليه . ولان مفهوم العظمة ارتبطت عند الناس بالمال واذا برجل فقير يصبح عظيماً بشخصيته وبقدراته الذاتية واكثر ما كان الفقراء والمعدمون ينجذبون الى هذه الشخصية لملكاتها الذاتية وليس لعوامل خارجية .

ومع الايام كانت شهرة الرسول تزداد وتتألق تزيد من تألقها اقوال الرهبان وتوقعات العرافيّن .

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١ ص١٧٩ .

فعندما اراد ابو طالب السفر الى الشام للتجارة تعلق به الرسول وكان عمره تسع سنوات . وبعد اسابيع من السير والتعب وصلت القافلة الى مدينة بصرى في الشام وتفاجأ الجميع عندما شاهدوا من يدعوهم لتناول الطعام عند راهب المدينة وزعيمها الروحي (بحيرى) فقد عرفوا عنه انه بخيل ولا يسعه ان يطعم احد من نجله .

فما الذي تغير في هذا الراهب .

وعلى عجل لبوا نداء بحيرى وتركوا احمالهم وتجارتهم عند اصغر من في القافلة وهو محمد (ص) الذي جلس ينتظر عودة عمه ورفاقه ليواصلوا سيرهم الى الشام بعد ان يمضوا فترة عند الراهب وتفاجأ ابو طالب عندما وجد بحيراً واقفاً بلهفة في باب الدير ينتظر وصولهم وينظر في وجوههم بدقة وكأنه يبحث عن شخص بينهم .

وعندما اكمل التحدق في الوجوه التفت الى الجميع قائلاً : يا معشر قريش لا يتخلفن احد منكم عن طعامي قالوا له : ما تخلف عنك احد يبتغي ان يأتيك إلا غلام وهو احدث القوم سناً متخلف في رحالهم .

فقال : ادعوه فليحضر هذا الطعام .

ولم تمضِ ثوان حتى كان محمد (ص) بين القوم حتى اذا فرغوا من الطعام وتفرقوا قام بحيرى واختلى برسول الله (ص) سائلاً اياه عن بعض حالاته في المنام واليقظة وكان الرسول يجيبه وكلما اجاب زاد يقين بحيرى بان هذا الغلام الصغير سيكون نبي هذا العصر ولم ينس اثناء توديعه للضيوف ان يوصي ابا طالب بأن يكون على حذر من اليهود قائلاً له : فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت يبغنّه شراً فانه كائن له شأن عظيم[1] .

---

(1) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٣٧ .

وشب رسول الله واخذ يتقدم في العمر وكلما زاد سنه زادت شخصيته سطوعاً في قومه وانتشر خبر امانته .

وكانت هناك امرأة ثرية وصلت اليها انباء كثيرة عن محمد فانجذبت اليه كأي واحد ينجذب اليه عندما يسمع به وارادت ان تكتشف هذه الشخصية من خلال تجربة عملية .

فدعته الى المضاربة في احدى قوافلها التجارية الى الشام وارسلت معه من يستطيع ان يراقبه وينقل اليها اخباره بدقة .

وارتحل رسول لله (ص) وبصحبته ميسرة الذي كان يسجل كل ما يراه من رسول الله (ص) وعند عودته الى مكة كانت السيدة خديجة في لهفة لسماع ما سجلته ذاكرة ميسرة اكثر من لهفتها لسماع الارباح المضاعفة التي حصلت عليها في هذه التجارة .

وجلس ميسرة يحدثها عن كل ما شاهده واخذ يسطر لها المعاجز التي رآها في الطريق ويتحدث عن امانة رسول الله (ص) وحسن اخلاقه مع من معه فازدادت انجذاباً اليه . وعلى الفور نقلت تلك الصور الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانياً عالماً مطلعاً على الكتب فسرد عليها . .

لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمداً لنبي هذه الامة . .

واستطرد ورقة وقد عرفت انه كائن لهذه الامة نبي ينتظر هذا زمانه .

واوصلت هذه الكلمات خديجة الى قناعة بأن عليها ان تحظى بمحمد فارسلت اليه وعلى جناح السرعة وبلا تردد قالت له :

يا ابن عمّ اني قد رغبت فيك . .

ولم يكن قد تعارف في المجتمع الجزيري ان تطلب المرأة الشريفة ذات

النسب والحسب الـزواج من الرجـل لكن قـوة الجـذب الكـامنـة عنـد رسول الله (ص) دفعت خديجة وهي المرأة العفيفة الشريفة في نسبها والعظيمة عند قومها الى اختيار زوجها بنفسها ولم تكن تبتغي شيئاً من هذا الزواج سوى القرب الى رسول الله (ص) فقد كانت كثيرة المال عظيمة النسب والحسب لا ينقصهـا شيء وهـذه صـورة تـرسم نـا قـوة الجـذب التي كـان يتحلى بهـا رسول الله (ص) والتي كانت قد اثرت بكل من عرفه او اتصل به .

ومشهد اخر نقله لنـا التاريـخ عن الصورة التي كـانت في الأذهان عن محمـد (ص) ، ففي احـد الاعـوام اشتـدت فيـه الـسيـول وتهـدمت الكعبـة بفعلهاوقامت قريش بإعادة بناء البيت المقدس حتى وصلت الى اخر مرحلة من البناء وهي وضع الحجر الاسود في محله . وساد الاختلاف بين القبائل فكل قبيلة ترغب بأن تكون هي صاحبة الحظ في وضع الحجـر وتحاول ايضـا ان تسلب هذا الفضل من غيرها من القبائل لان رفع الحجر ووضعه في مكانه شرف عظيم تتمناه كل قبيلة ، ودبّ النزاع بين القبائل وكاد ان ينقلب الى قتال لولا الرأي الحكيم الذي قدمه ابو امية بن المغيرة بن عبدالله المخزومي وكان يوم ذاك اكبرهم سناً فقد اشار عليهم ان يتولى وضع الحجر اول وافد من باب بني شيبة فرضوا بالحل وجلسوا ينتظرون . .

فلاحت لهم صورة انسان يدخل ففرحوا وازدادوا فرحاً عندما عرفـوا ان ذلك الانسان هو محمد (ص) فتعالت الاصوات لقد جاءكم الصادق الأمين .

وجاء الصادق الأمين وعرض عليهم حلاً معقولاً وهو ان يوضع الحجر في ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب ليشترك الجميع في نقل الحجر الى مكانه ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بُني عليه[1] .

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٤٥ .

ولو اراد الرسول ان يقوم بالمهمة بنفسه دون مشاركة القبائل لكان له ما اراد ولكانت القبائل قد رضيت بالأمر .

لكن اقتراح الرسول شدّ القبائل اليه وزاد من ثقتها بحصافة رأيه وجعلها تعتقد بأن محمداً ينفعها في الصعاب وعند احتدام المشكلات جرت هذه الواقعة بعشر سنين قبل البعثة وظلت عالقة في الا ذهان ولم تنسها قريش وكيف تنسى ذلك اليوم الذي كاد ان يتحول الى حرب طاحنة وكيف تنسى الصادق الأمين الذي انقذها من تلك الازمة . وفي الخلاصة يمكن القول بأن الاحداث التي سجلتها ذاكرة الناس عن الرسول في أيام صباه وايام شبابه كانت من الكثرة بحيث اصبح اسم محمد معروفاً للجميع للقاصي والداني ولم يحظ اي فرد اخر ولد في قريش بهذه السمعة التي كسبها النبي (ص) والتي نقلته الى قلوب القبائل العربية التي عرفته بالصادق والأمين والحكيم والشجاع الذي يساعد الفقراء والمحتاجين .

وهكذا نجد ان جميع الأنظار تتوجه في النهاية الى الرسول وان اهتمامات الناس تنصب في مجرى يؤدي الى الرسول .

فالذين جذبتهم مكة بسمعتها وشرفها وبيتها الحرام وجدوا انفسهم وهم منجذبون الى البيت الهاشمي والذي اتسم بالشرف والكرم والشجاعة والذي كان يقود المجتمع المكي في المرحلة الانتقالية ، ثم وجد هؤلاء انفسهم في النهاية ينجذبون الى سليل البيت الهاشمي والى محمد (ص) .

فمحمد (ص) اصبح مركز الجذب في دنيا الجزيرة العربية فإليه تشخصت الأنظار وباتجاهه انصب اهتمام الناس .

فاصبح محوراً للنبل والشهامة والصدق والامانة والشجاعة والكرم ومساعدة الاخرين وهي كلها صفات يتطلع اليها الانسان العربي ويحلم بها في

عالم المنام فاذا به يجدها في اليقظة في انسان يعيش بينهم يأكل من طعامهم وينام مثلهم ويعيش كواحد مثلهم .

ولا يمكن لنا ان ننس دور العلامات والتنبوءات والدلائل التي اوردتها الرسائل السماوية والتي بقيت محفوظة في ذاكرة الرهبان الذين احتكوا بالرسول (ص) اثناء فترة حياته الاولى قبل البعثة لا يمكن ان نتجاهل دور هذا العامل في انتشار إسم محمد (ص) في الآفاق وفي انجذاب كل من يسمع باسمه وصفاته ويسمع ما جرى عليه من حوادث ليست طبيعية ولم يصادف وقوعها لأحد من قبل .

بهذه الميزات وبتلك الشخصية المحبوبة بدأ الرسول (ص) يصدع بدعوته الى الاسلام ولم يكن صعبا على اصحاب القلوب النظيفة ان يدركوا صدق هذه الدعوة المباركة فالرسول هو الصادق الأمين الذي لم يعرف الكذب في حياته قط . . وللناس بفطرتهم السليمة كانوا يتجاوبون مع نداء محمد (ص) لا اله الا الله لانه نداء مألوف في عالمهم الفطري . لكن ليس كل الناس يملكون الفطرة الصافية ويستطيعون ان يسمعوا وقع ذلك الصوت الالهي في اعماقهم فقد ران على قلوبهم وتكدست عليها اكوام من الشهوات فتعطلّ عمل الفطرة ونبشت الخرافات في عقولهم فتعطل عمل العقل فاصبحوا يحملون شحنا سالبة تتحرك بعكس الرسالة .

عشية البعثة

في العقود الثلاثة قبل الرسالة اي من وفاة عبد المطلب وحتى البعثة فقَدَ المجتمع المكي بعض بريقه وترك المنطقة المضيئة للرسول (ص) الذي اصبح يتألق في وسط مجتمع يزداد عتمة .

فبعد وفاة عبد المطلب نشبت الفرقة في المجتمع المكي واشتد النزاع بين بني هاشم وبني امية وفقد هذا المجتمع القيادة المركزية التي كانت متمثلة بشخصية عبد المطلب فالكثير من المهابة التي امتلكتها قريش كانت مصدرها شخصية عبد المطلب . وبعد وفاته فقدت قريش الموجهّ فدبت النزاعات الفردية فتضاءلت بذلك المكانة السياسية لقريش . فاصبحت عرضة للعدوان من القبائل العربية الاخرى بعد ان كانت مهابة لا يجرأ احد على معارضتها . وحرب الفجار التي وقعت ورسول الله في عمر الشباب (خمسة عشرة عاماً) كانت الدليل على هوان قريش في اعين العرب حيث تعرضت الى هجمات متعاقبة لأربع سنوات من قبيلة هوازن .

وقد سارع احد ابناء عبد المطلب وهو الزبير الى ايقاف هذا التفكك فدعى الى نوع من التماسك بين ابناء المجتمع المكي فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه وقد جاء على لسان

الرسول الاكرم لقد حضرت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما يسرني به حمر النعم ولو دعيت الى مثله لاجبت[1] والى حد ما استطاع هذا الحلف ان يملأ فراغ النظام في المجتمع المكي بعد غياب القيادات التاريخية .لكن هذا الفراغ كان قائماً فانعدمت معه السيطرة التامة على كل ابناء المجتمع وكان لهذا الواقع آثار ايجابية على بعض اجنحة المجتمع فقد ادى انهياب الهيمنة والسلطة المركزية الى تحرر نسبي من القيود والعادات والتقاليد التي كانت تكبل المجتمع وبدأ الناس يفكرون بحرية واصبح لليهود والنصارى نشاط بارز بعد ان كانوا مقيدين بقوانين اجتماعية صارمة فكانوا في نظر قريش عبيداً وكانت مساكنهم بعيدة عن بيت الله الحرام حسب التقسيم الاجتماعي .

حركة التمرد ضد الوثنية

ولقد ادى هذا التخلخل في النظام الى ظهور حركة تمرد على الوثنية قادتها مجموعة من شباب مكة في طليعتهم زيد بن عمر الذي فرّ من زوجته ومن عمه الخطاب وسافر الى الشام والعراق ثم عاد والتقى باليهودية والنصرانية لكنه لم يدخل فيها وكان يستند الى الكعبة ويقول اللهم لو اني اعلم اي الوجوه احب اليك لعبدتك به ، ولكني لا اعلم. وجاء عن اسماء بنت ابي بكر انها قالت رأيت زيد بن عمرو قائماً قد أسند ظهره الى الكعبة وهو يقول يا معشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيري وكان زيد يعيب على قريش قرابينها للآلهة ويقول الشاة خلقها الله وانزل لها الماء من السماء وانبت لها النبات وانتم تذبحونها لغير الله ، وكان لزيد مواقف اصلاحية في قبال الانحراف الطاغي فمن اعماله انه كان يأتي لمن يريد قتل ابنته فيقول له انا اكفيك امرها ومؤونتها ويأخذها منه فاذا ترعرعت قال لأبيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت تتركها لي اكفيك مؤنتها .

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**: ج١ ص٨٢.

ومن رواد حـركة التمـرد ضد الـوثنية ورقـة بن نـوفـل بن اسـد بن عبـد العزى وهو ابن عم خديجة بنت خويلد (رض) وقد تنكّر للوثنية واخذ يدرس التوراة والانجيل واتصل بالنصارى وقيل انه اعتنق النصرانية ووجد في الانجيل ما يشير الى ظهور نبي الاسلام وكان اول من بشر بالنبوة عندما جاءته خديجة (عليها السلام) واخبرته بما شاهده وسمعه رسول الله (ص) في غار حراء فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده ان كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران وانه لنبي هذه الامة ، قولي له ليثبت وبعد ايام من هذا الحادث التقى ورقة بن نوفل برسـول الله (ص) وهو يطوف في الكعبة فسأله عما شاهده وسمعه فـاخبره رسـول الله (ص) بما رأى وسمع فقال له ورقة والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاء لموسى . ثم اخبره بما سيلاقيه من قومه لكنـه طمأنـه بأنـه سينصره وعندما يعلنون الحرب عليه قائلاً ولئن ادركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم ادنى رأسه منه فقبل يافوخه وانصرف كل منهما الى منزله .

لكن لم يمهل القدر ورقة بن نوفل لكي يشاهد ذلك اليوم ويفي بـوعده الذي قطعه لرسول الله فقد جاء اجله قبل اعلان الدعوة الاسلامية بمدة وجيزة .

ومن الاسماء التي لمعت في فترة ماقبل البعثة والتي عرفت بتنصلها عن الوثنية ودعوتها للحنفية عبيدالله بن جحش الذي تمسك بشريعة ابراهيم عليه السلام وطال عمره حتى ظهور الاسلام فاسلم على يد رسول الله ثم هاجر الى الحبشة . وفي الحبشة ارتدّ عن الاسلام وتمسك بالنصـرانية وتـرك زوجته ام حبيبة بنت ابي سفيان فتزوجها رسول الله اكراماً لاستقامتها ولانها كانت وحيدة بعد ارتداد زوجها عن الاسلام .

وكان عبيدالله بن جحش يقول لمن يلتقي من المسلمين فقحنا وصأصأتم اي بمعنى اهتدينا وانكم لا زلتم تبحثون عن الهدى .

وتكشف هذه التبدلات في حياة عبيدالله انه كان قلقاً مضطرباً لا يستقر عند رأي ولا يصبر على دين مثله مثل الكثير من أبناء جيل الشباب الذين اتصفت حياتهم بالاضطراب الدائم والتغيّر المستمر فهم لا يبحثون عن الحقيقة تصور ما يعبرون بانتماءاتهم المضطربة حالة عدم الاستقرار في حياتهم الفكرية والنفسية .

والشخصية الرابعة التي حملت راية التحنث في عصر ما قبل البعثة عثمان ابن الحويرث وهو ايضا من اقرباء خديجة زوجة رسول الله (ص) اضطرته افكاره المعادية للوثنية بان يترك الجزيرة العربية الى بلاد الروم فتنصّر فيها فقربه ملك الروم واحسن اكرامه وقيل انه اراد اقناع ملك الروم بضرورة احتلال مكة وهدم الوثنية فيها واحلال النصرانية محلها وان يكون هو عاملاً فيها من قبل القيصر وعندما احس المكيّون بنواياه طردوه من بلادهم فاضطر الالتجاء الى بلاد الغساسنة وهناك لم يكّف عثمان بن الحويرث الحاق الاذى بالمجتمع الوثني فحّث ملك الغساسنة على قطع الطريق امام تجارة مكة وما ان احس المكيون بذلك حتى سارعوا في ارسال الهدايا الى ملك الغساسنة وتآمروا على حياة خصمهم بن الحويرث فقتلوه بالسم ولم يذكر لنا التاريخ اسماء اخرى غير هؤلاء الاربعة الذين اعلنوا تحنثهم . وهناك طائفة من الاحداث والوقائع نقلها لنا المؤرخون عن اشخاص استهانوا بأصنامهم كحادثة امرؤ القيس عندما استقسم بالازلام ثلاث مرات عند صنم يعُظمه العرب (ذي الخصلة) وكانت تخرج عليه بالنهي عن الثأر لمقتل ابيه فغضب امرؤ القيس وجمع الاقداح وكسرها وضرب بها الصنم وسبّه وسب من يعظمه ثم غزا بني اسد فظفر بهم ولم يستقسم بعدها ابدا ، لكن مثل هذه الحوادث لا ترقى لمستوى حركة التمرد التي حمل رايتها اشخاص كزيد بن عمرو وغيره ممن ذكرناهم .

وحتى حركة زيد لم تكن بمستوى الحركة الاصلاحية التي يعّول عليها

اصلاح الوضع المتخلف في الجزيرة العربية فقد اقتصرت هذه الحركة على انشطة فردية محصورة بفرد واحد لا تتجاوز حالة واحدة هذا اولاً ، وثانياً انها كانت تفتقر الى البعد الاجتماعي فهي كانت حركة فكرية لاصلاح العقيدة من الوثنية الى التوحيد ولم تكن حركة اجتماعية تتبنى اصلاح مظاهر التخلف الاخرى في المجتمع الجاهلي وثالثاً : ان هذه الحركة لم تجد في الجزيرة العربية مكانا لها للمقاومة الضارية التي كانت تواجهها أية حركة تنوير في المجتمع الجاهلي فاضطر هؤلاء المتحنثون ان يتركوا ارض الجزيرة العربية الى مكان اخرى اكثر تحرراً واكثر تنوراً من الجزيرة العربية ويجدون فيه الحماية الكاملة وهذا مؤشر واضح على استحالة عملية الاصلاح في بيئة الجزيرة العربية لتصلب مجتمع الجزيرة على الجاهلية ومقاومتها لاية صيحة اصلاحية .

لقد اراد المستشرقون ان يقللوا من حجم العمل الجبار الذي قام به رسول الله (ص) عند تركيزهم على وجود هذه الحركة وكأن النبي (ص) قد اخذ مبادئه من هؤلاء .

ولدحض هذه الشبه كان لابد من اعطاء صورة واقعية لحركة التحنث التي ظهرت قبيل الاسلام فهي لم تكن ذات قوة او تأثير على المجتمع المكي ولم تستقر هذه الحركة عند نظرية واضحة في الحياة والموت والكون فهي حركة محصورة بعدد من الافراد ولم تستطع ان تصنع واقعاً سليماً في المجتمع لافتقارها للعنصر الاجتماعي . وخلاصة الامر ان بعض العرب عندما تعمقّوا في دراسة الديانات لمسوا تفاهة الوثنية فقاموا بنبذها فاطلقوا العنان لفطرتهم السليمة التي قادتهم الى الحنيفية الابراهيمية فأين هذه الحركة الصغيرة من ذلك السيل الذي أنهمر على رؤوس المشركين فطهرهم من رجس الوثنية والجاهلية وجعلهم قادة الامم وزعماء التاريخ؟ .

ان من الخبث مقايسة حركة الرسول (ص) بحركة جماعة صغيرة اندثرت

مع موت افرادها وظلت الرسالة الاسلامية خالدة خلود الزمن لانها رسالة خير واصلاح لكل البشر على مدى الزمن وعبر المسافات الشاسعة .

الانحلال الاجتماعي في جزيرة العرب :

لا يعرف التاريخ جاهلية ظلماء كتلك التي سادت المجتمع العربي قبل الاسلام .

فبأستثناء بعض الخصائص الاجتماعية والثقافية التي اوجدتها حياة الصحراء او التي تعلقت ببقايا الديانات والموجات الاصلاحية التي حدثت في الجزيرة العربية فبأستثناء ذلك فان حياة الانسان العربي كانت حياة مشبعة بالتخلف متصفة بالانحطاط والهبوط .

فقد كانت الخرافة قد احتلت مواقعها في عقل الانسان في ذلك اليوم فسدت منافذ العلم والحكمة فلم يكن في الجزيرة العربية يومذاك من يعرف الكتابة والقراءة الا بعدد الاصابع وقد ادى ذلك الجهل الى انتشار الخرافات ففي ايام الجفاف وانقطاع المطر كانوا يربطون بعض الاعشاب والاغصان اليابسة الى ذيل بقرة ويشعلوا فيها النار ويأخذوا البقرة الى الجبل وهي طريقتهم في الاستسقاء معتقدين ان لهب النار يشبه وميض البرق وان وجود اللهب في اعالي الجبل سيسبب نزول المطر وعندما كانت تحل عليهم مصيبة كانوا يدخلون البيت من الباب الخلفي ارضاءاً للارواح الشريرة التي يعتقدون بانها تدأب على ايذاء الانسان بخلق المتاعب له وانها السبب ايضا في اصابة الانسان بالأمراض فكانوا يقومون بالعزائم لدفع الارواح الشريرة .

وكان العرب يتطيرون بحركة الطير فمتى ما اجتاز الطير من الشمال الى اليمين تفاءلوا بذلك وسموه بالسابح واذا اجتازتهم من اليمين الى الشمال تشاءموا وسموه بالبارح وعندما يموت منهم احد كانوا يربطون بقبره بعيراً يتركونه

لوحده دون ان يقدموا له الاكل فيجوع حتى الموت معتقدين ان ميتهم سوف يركب البعير يوم المحشر .

وفي مجتمع تتحكم فيه الجاهلية تصبح المرأة والبهيمة على حد سواء فقد كانت سلعة يتوارثها الابناء عن الاباء فيحق لهم التصرف بها كيفما شاؤوا ويتم استخدامهن في البغاء لكسب المال لأسيادهن وخصوصاً الاسيرات .

وكان يحق للرجال الاقوياء ان يقيموا ما يشاؤوا من العلاقات المحّرمة مع النساء وحتى المتزوجات وكان الرجال يجيزون لزوجاتهم ان يتصلن بالاخرين وخصوصا الاشداء من الرجال من اجل تحسين الانجاب وكان يعرف هذا العمل بـ « الاستبزاء » .

وكان الرجال يجبرون الجواري على التعري والسير في الطرقات بصورة مستهجنة .

واصبح تعري المرأة امراً عادياً غير مستهجنا حتى وهي تطوف حول البيت الحرام .

وكانت اذا ارادت ان تطوف ولم تجد ثوباً من الثياب الخاصة للعبادة فانها تطوف عارية واضعة يدها على فرجها وفي رواية انها تنزع جميع ثيابها الا درعا مفرّجاً عليها وتطوف به . وقد طافت ضباعة بنت عامر بن صعصعة على تلك الحال وهي تنشد مخاطبة الرجال من حولها .

اليوم يبدو بعضه او كله وما بدا منه فلا احله

وتُجسّد عبارات ضباعة وسلوكها الوضع السائد للمرأة في الجاهلية وضباعة ليست بالمرأة الوضيعة فهي بنت الاشراف وقد ادعىٰ بعض المؤرخين ان رسول الله (ص) اراد ان يتزوج بها فقيل له فيها كُبرة فتركها . وبالرغم من

كون الرواية تثير الشك لان ضياعة كانت معروفة لدى القاصي والداني فمن غير الممكن ان لا يعلم رسول الله (ص) بحالها واذا علم بحالها فمن غير الممكن ان يتقدم للزواج منها الا انها في الواقع تؤكد الواقع المزري الذي كانت تعيشه المرأة في الجاهلية .

وكان من العادات التي ينتقص من قيمتها انتشار ظاهرة وأد البنات فكان الاب يبقى بانتظار لحظة الولادة **﴿ فاذا بُشّر بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ﴾** فيمنع انتشار الخبر قبل ان يأخذها الى الصحراء ويحفر لها حفرة صغيرة فيدسها وهي حية ترفس بأيديها وارجلها وتستصرخ بعويل يذيب الصخر وفي بعض الحالات كان الزوج يجبر زوجته ان تقوم بنفسها بهذا العمل كبرياءاً منه وعتواً وكانت المسكينة تأخذ فلذة كبدها لتضعها تحت التراب امتثالاً لأوامر زوجها .

فأي شقاء كان اعظم من شقاء هذه الام المفجوعة . وأي قلب قاسي فارغ من الانسانية والمحبة كان يمتلكه هذا الزوج وهو لا يعبأ بمنظر الضحية ولا بمنظر الام الوالهة . لقد خلت القلوب من الشفقة والرحمة لانها كانت قلوباً مريضة بمرض الجاهلية وكانت بحاجة الى طبيب حاذق والى دواء سريع المفعول والاداء . ولم يكن ذلك الدواء الا الايمان . الذي كان له مفعولاً ساحراً في النفوس فمع اول جرعة من هذا الدواء كان كل شيء يستقيم في ذلك الانسان .

كانت الحياة تعود الى ذلك القلب المتحجر وكانت ومضة الفكر تشع في ذلك الغقل المُعّطل . وفي لحظة واحدة كان انساناً جديداً يُولد في هذا العالم من تلك الكتلة المتراكمة من الرذائل والخرافة والانحطاط وهذه هي معجزة الاسلام انه استطاع ان يصنع من الماء الآسن ماءاً طهوراً وأن يُوجد من وسط الجاهلية الظلماء من يحمل مشعل العلم للعالم .

العالم عشية البعثة :

كان العالم في القرن السادس الميلادي ينقسم الى اربع تقسيمات جغرافية وهي الهند والامبراطورية الايراينة والامبراطورية البيزنطية والجزيرة العربية وكانت الدول الاخرى مصر وسوريا وغيرها دولاً محتلة تابعة لاحدى هذه الامبراطوريات .

ولعل هناك اجماع من المؤرخين الغربيين والشرقيين المسلمين وغير المسلمين ان العالم كان يعيش ظلاماً سحيقاً في القرنين الخامس والسادس الميلادي وكانت البشرية تترقب بسبب المعاناة والمظالم والتفسخ الى من ينقذها من جحيم الجاهلية والتخلف .

وقد سبق وتحدثنا عن اوضاع المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية وبقي ان نتحدث بايجاز عن اوضاع المجتمعات في المناطق الاخرى .

١ ـ الهند :

* عانى المجتمع الهندي من ابشع انواع التفاوت الطبقي وكان مقسماً الى اربع طبقات لكل طبقة مكانة معينة ومركزاً محدداً فالبراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين لهم امتياز خاص فالبراهمي لا يُعاقب عندما يذنب لان ذنوبه مغفورة ولا تجبى منه الضرائب وليس للطبقات الاخرى الحق في مجالسة البراهمي ولا يحق لهم ان يلمسوا يد البراهمي .

* سادت في الهند في القرن السادس حالة الفوضى واصبحت ساحة للتنافس والحروب دفعت الطبقات السفلى ضريبتها الباهظة .

* حطً من قدر المرأة ، وكانت تباع وتشترى على مائدة القمار . وعندما يموت الزوج كانت الزوجة تبقى الى آخر عمرها بلا زوج وكانت العوائل

الارستقراطية تجبر الارامل على حرق انفسهن وفاءاً للزوج الميت وهي عادة لا زالت باقية في الهند وتسمى بـ « ستي » .

* لفترات طويلة كانت الهند محتلة وكان للمحتلين امتيازاً اقتصادياً فهم يسنوّن الضرائب وتنقل اليهم ما تدرّه الارض من محاصيل وارباح وكان المحتلون يتقاسمون الاموال بينهم وبين طبقة البراهمة تاركين الغالبية العظمى من سكان الهند يتضوعون جوعاً ويتصببون عرقاً .

٢ ـ الامبراطورية الايرانية :

* كان ملوكهم يمارسون الحكم بالحق الالهي معتقدين انهم مفوضون من قبل الله وكانوا يعتبرون انفسهم اعلى من مستوى الانسان فيأخذون ويسلبون ويقتلون وينكحون ما شاؤوا من النساء دون ان يمنعهم مانع وكان على الناس الاذعان لهم وتقديسهم والقيام للملوك كما يقوم العبد امام ربه للصلاة . وكانت موارد البلاد كلها ملكاً لهؤلاء الملوك وغالوا في اكتناز الاموال وادخار الجواهر والكنوز وعاشوا عيشة بذخ وترف ويذكر لنا التاريخ ان يزدجر عندما هرب من المدائن مع دخول العراق في الاسلام اخذ معه الف طاهٍ والف مغنٍ والف قيّم للخمور والف قيّم للبزاة هذا ما استطاع اخذه اما ما لم يستطع فهو اكثر .

* وكان الشعب يعاني من بؤس وشقاء ، يرهقونهم بالعمل الشاق في الزراعة او الصناعة ويحرمونهم من الاجر ولا يستطيعون حتى سد رمقهم وستر عورتهم . وكانوا يعيشون عيشة البهائم وفي الحروب وما اكثرها بين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية كانوا هم الوقود لها يحترقون فيها من اجل غيرهم .

* تحولت ايران في القرنين الخامس والسادس الى حلبة لصراع المذاهب والافكار فبالاضافة الى الزرادشتية الديانة القديمة لبلاد فارس ظهر في القرن الثالث الميلادي من جدد هذه الديانة هو مانّي وسمي مذهبه بالمانّية . حرَّم ماني

الزواج على اتباعه لايقاف النسل معتقداً ان انقطاع النسل سيؤدي الى انتصار النور على الظلمة لانه سيمنع امتزاج النور بالظلمة وهو مصدر شرور العالم .

وعلى نقيض ما جاء به ماني جاء مزدك في اوائل القرن الخامس الميلادي بمذهب يدعو الى اباحة النساء والا موال وجعل الناس شركاء فيها فانتهكت الاعراض وانتشرت اللصوصية واصبح الفرد وهو لا يأمن على امواله ونسائه . فكان الاقوياء يدخلون البيوت فينهبونها ويمتلكون النساء والمزارع والاراضي التي باتت خربة مقفرة في العهد المزدكي لان الملوك الجدد لم يكن لهم عهد بالزراعة .

٣ ـ الامبراطورية الرومانية :

* اعتبر الرومان أنفسهم اصحاب رسالة وانهم على دين عيسى (ع) لكنهم اوغلوا ايضا في تحريف المسيحية ومزجها بالوثنية فقد اقتبس المسيحيون طقوسهم الدينية من المجتمعات الوثنية فاصبحوا يألهون ابطالهم ويصنعون التماثيل لهم واخذوا يعبدونهم معتقدين انهم حلقة وصل بين الله والانسان فهم لهذا يحملون صفة الالوهية .

فاصبحوا لا يختلفون عن جاهلية الجزيرة العربية في عبادة الاصنام مع اختلاف ضعيف ان اولئك كانوا يعبدون شهداءهم وابطالهم بينما هؤلاء يعبدون هبل ويسوع .

ومن جانب اخر كانت حروب طاحنة تجري على قدم وساق بين نصارى الشام والعراق وبين نصارى مصر حول طبيعة المسيح فكان كل فريق يُكفّر الفريق الاخر .

* كان القياصرة يدعون انفسهم بأنهم آلهة وعلى الناس الاعتراف بذلك والسجود للقيصر وكانوا يستخدمون هذه الصفة في فرض الضرائب حتى اصبح

الناس يفضلون ان تحكمهم حكومة اجنبية بدلاً من حكومة القياصرة .

* حاول البعض من الغربيين وحتى المتغربين من بلاد الاسلام ان يصف المجتمع البيزنطي بأنه مجتمع ديمقراطي مستدلين بوجود مجلس للشيوخ يناقش فيه قرارات القيصر لكن في الحقيقة لم يكن وجود هذا المجلس الا وجوداً صورياً فليس بمقدوره مطلقاً معارضة القيصر الذي يعتبر نفسه الهاً . وقد كان الحكم في الامبراطورية الرومانية حكماً دكتاتورياً فردياً . عانى فيه المواطن اشد المعاناة فامتهنت كرامته وبالاخص من كان في مصر وسوريا يعيش تحت سيطرة الحكم الروماني حيث كان جهده وعرقه يذهب ثمناً لبقائه في الحياة .

* انتشرت في الامبراطورية الرومانية ظاهرة الالعاب القاسي فانشأت ساحات الالعاب الرياضية تتسع لجلوس الالاف من المتفرجين وكانت تجري فيها العاب المصارعة بين مصارعين او بين مصارع وأحد الحيوانات المفترسة وكانت تنتهي هذه الالعاب دائما الى مشاهد مأساوية يستلذ بها المتفرجون الذين باتوا يعشقون العنف والدماء والوحشية .

وهذه كانت التسلية المفضلة لأهل الروم .

وهكذا تكشف لنا النظرة العامة لاوضاع العالم في القرن السادس الميلادي ، ان العالم كان تائهاً بين المتناقضات حائزاً بين الدولتين المتصارعتين منتظراً لمن يستطيع انقاذه وقد مرت فترة طويلة من الزمن لم تلتق البشرية فيها بأي مصلح يؤدي دوراً انسانياً وسط ذلك التراكم من السلبة . فقد كانت تمزقها الخلافات وتأكلها الحروب الطاحنة وتعصف بها رياح التخلف والجاهلية على رغم التقدم النسبي الذي شهدته الدولتان الساسانية والبيزنطية لكن حتى هذا التقدم الجزئي لم يكن له نتائج مؤثرة حيث تسحقه عجلات الدكتاتورية الفردية التي كانت تتحكم بمقاليد الزعامة في كلا الدولتين

ولم يعد الاصلاح ممكنا في اجواء التحكّم والجهل وسيطرة مبدأ القوة .

فكان السبيل الوحيد لانقاذ البشرية هو ان تمتد اليد الالهية الى الارض من جديد وتبعث رسولاً جديداً وبرسالة جديدة تناسب المرحلة الزمنية .

من هنا كان ظهور الاسلام في ذلك الزمن يمثل اكثر من ضرورة لارساء قواعد جديدة لحياة الانسان تمكّنه من اعادة حياته وتضمن له السعادة في الدنيا والاخرة .

وكان لا بد من الاشارة هنا الى محاولات بعض المفكرين التقليل من شأن الرسالة الاسلامية بالادعاء الواهي بان الرسالة الاسلامية جاءت لتحقيق غاية محددة وانها اتت استجابة لوضع خاص كان يعيشه العالم في نهاية القرن السادس الميلادي . فهم يحصرون القيمة العملية للرسالة بذلك الزمن المحدد .

فالاسلام حمل راية وجاء لمعالجة مشكلات ذلك العهد والقرآن جاء يتحدث بلغة ذلك العصر .

اما اليوم فالبشرية تعيش عصراً اخر هو عصر العلم وعصر التقدم الفكري والتكنولوجيا فلم تعد هناك حاجة الى ذلك الدين الذي جاء قبل خمسة عشر قرناً .

ان هذه الشبهة وغيرها من الشبهات اضعف مما هي بحاجة الى رد لانها تحمل في ذاتها بذور التناقض ، ولا ريب فان المؤمنين بهذه الشبهة يقرون بصورة لا واعية بان الاسلام هو رسالة كل عصر لانهم يعترفون بحقيقة الدور الذي قام به الاسلام في بداية ظهوره .

والملاحظ ان مشاكل البشرية الرئيسية التي تصدى لها الاسلام هي نفسها

في كل زمان ومكـان وهي مشاكـل ترتبط بـالعقيدة وبـالعلاقـات الاجتماعيـة وبالعلاقات الاقـتصـادية شـرور مصـدرها الطغيان سواء كان طغيان الحاكم او طغيان المال .

التنشئة الربانية والشخصية المتكاملة

لم تكن الظروف الاجتماعية والبيئة المتخلفة في الجزيرة العربية لتسمح بنشأة رجل منقذ يتسامى على القيم القائمة في المجتمع ويصل الى الذروة الانسانية في الخُلق والفضيلة والى قمة الاعتقاد والايمان ، ولم يكن وجود رجل كمحمد (ص) ممكناً في الجزيرة العربية لولا الرعاية الالهية التي حلت مع اللحظة الاولى في اللقاء الذي تم بين فتى بني هاشم وبين عروسة بني زهرة آمنة بنت وهب فقد كانت يد الرعاية الالهية تمس ذلك النبي العظيم وهو بعد لم يكن سوى نطفة في صلب عبدالله ثم جنين في احشاء آمنة ثم وليداً، فقبل ان يرى الوليد النور توفى والده عبدالله اثناء رحلة له الى الشام لغرض التجارة .

وقد حزّ في نفس الزوجة الوفية ان يولد مولودها دون ان يرى لنفسه والدا يرعاه لكن كانت الرعاية الالهية مرافقة لمحمد (ص) ولربما كان هذا هو السر وراء موت عبد الله فقد ترك موته المجال أمام ارادة الله لان تحتضن محمد (ص) ولكي تصوغ فيه شخصية قوية قادرة على مواجهة اعباء الرسالة وهذا ما اشارت اليه الآية الكريمة ﴿ **الم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ .

لقد تجلت الرعاية الالهية منذ اليوم الاول من ولادته فقد قذف الله حب

محمد (ص) في قلب جده عبد المطلب الذي راح يختار له بين الاسماء اجملها فسماه محمداً على غير عادة العرب يومذاك وعندما اعترض عليه رجالات قريش هـذه التسمية قـال لهم اردت ان يكون محمـوداً في السمـاء لله وفي الارض لخلقه .

وراح عبد المطلب يقدم محمداً على اولاده ويضـاعف من اهتمامـه به فاخذ يترقب المرضعات على عادة اشـراف قريش ولم يتـوان في البحث عن مرضعة مناسبة لوليده مستهيناً بتكاليف ذلك وما يحمله من اعباء مادية .

وجاءت المرضعات إلى مكة وانصرفن عن محمد لانهن كن يرتجين البر من الاباء . فليس هناك ما يثير حمـاسهن لارضاع اليتيم إلا حليمـة بنت ابي ذؤيب السعدية التي اعرضت عن محمد أول الامر فاضطرت ان تعود اليه لانها كـانت ضعيفة الحـال . وعند الانـطلاق الى الباديـة التفتت آمنة الى زوجهـا الحارث قائلة له؛ والله اني لأكره ان ارجع مع صواحبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ولآخذنه .

وجاءت بالطفل الى الصحراء ترافقهـا بركـات من السماء منـذ اللحظة الاولى من الحركة نحو البادية فقد سمنت غنمها وزاد لبنها . وظل محمد في الصحراء حتى الخامسة من عمره وهي فترة حرجة من حياة الانسان لان في هذه الفترة تنشأ اللبنات الاولى في كيان الفرد فاذا كانت لبنات سليمة اصبح الفرد سليماً في جسمه وروحه وعقله .

لقـد نهل محمـد (ص) في السنين الخمسة الاولى من عمـره من جـو الصحراء الطلق نسـيم الحرية واستنشق عبير الارادة القويـة ووجد في هـواء الصحراء وخشونة العيش ما يقوي عوده ويسرع في نموه ويزيد من تفتح عقله وفصاحة لسـانه . لقـد حمل محمـد (ص) في هذه السنـوات الخمس اجمل ذكريات الطفولة واصبح يتذكر تلك الايام كلما التقى بمرضعته حليمة فقد اكرمها

عندما انتشرت المجاعة في البادية فاقبلت حليمة الى محمد بعد زواجه من خديجة فاكرمها باربعين رأس من الغنم وبعير يحمل الماء وكانت الشيماء ابنتها واخته في الرضاعة بين من اسر مع بني هوازن بعد حصار الطائف فلما جيء بها الى محمد (ص) وعرفها اكرمها وردها الى اهلها على رغبتها .

وبعد عودته من الصحراء كانت امه بانتظاره لتأخذه معها في اول رحلة له الى يثرب . وفي الطريق الى يثرب مرّت العائلة الكريمة بقبر عبدالله فكان اول لقاء بين الابن والوالد الراحل عن الحياة .

وكم كان هذا اللقاء مثيراً لاحزان آمنة التي اخذت تقص لولدها قصة ذلك الاب الذي كان مقرراً ان يموت قبل ان يتزوج وقبل ان تنجب . . لكن شاءت ارادة الله ان يتأخر موعد رحيله من اجل ان يخرج من صلبه نبي عظيم .

لقد استحضر الفتى قصة والده من البداية حتى النهاية وهو يتلمّس تلك القوة الغيبية التي كانت وراء تكوينه والتي كانت معه طيلة السنوات التي قضاها في الصحراء وهي لا زالت معه ، والتي كانت معه ايضا عندما فقد والدته بعد اشهر من لقائه بقبر ابيه وعند العودة الى مكة وفي الطريق تمرض والدته وتدفن في الابوّاء ليواجه محمد (ص) يتماً اخر اشد من الاول لانه يتم شاهده بأم عينه وعلى خلاف المتعارف فقد زادت هذه المصيبة من تألق شخصية الفتى واصبح يسموا على الم الفراق بالتحلق الى السماء ويرنو بعينيه الى رحمة الله الواسعة عليه وعلى غيره من العباد .

وتضاعف اليتم مرة ثالثة بوفاة كفيله ومن كان يحنو على تربيته جده عبد المطلب فتكفلّه عمه ابو طالب الذي كان يكد طويلاً من اجل ان يوفر لابنائه الكثير من الحياة الكريمة ، كان ابو طالب يشتغل في التجارة وفي احدى رحلاته الى الشام تعلق به محمد (ص) وهو حينذاك ابن اثنى عشر عاماً ولم يفكر ابو طالب في اخذ ابن اخيه معه خوفاً عليه من متاعب السفر لكنه استجاب له عندما

وجد فيه الاصرار والرغبة الكبيرة .

وكانت هذه الرحلة تجربة عملية مع الحياة اكتسب فيها محمد (ص) وهو لا يزال فتىً الكثير من الدروس فقد مرّ اثناء سفره بآثار الامم السالفة التي ذاقت عذاب الله لانها اصرت على الطغيان والكفر .

لقد وفر جو الصحراء والسماء الصافية في الليل فرصاً للتأمل وتدبر الحقائق بالاخص في حياة تلك الامم التي اندثرت والتي لم يبق منها الا الاطلال التي تلوح تحت اشعة النجوم المتألقة في السماء .

وفي بصرى جنوب الشام تعرف محمد (ص) على اخبار الروم وتنصرهم وارتقابهم لنبي سيظهر بدين جديد وكان من اهم تلك الحوادث التي شاهدها او سمعها ما كان بينه وبين عمه ابو طالب وبينهما وبين الراهب بحيرى الذي شاهد على محمد (ص) امارات النبوة كما تدل عليه كتب النصرانية .

لقد كان محمد (ص) اثناء رحلته هذه في عمر يسمح له بالتأمل الطويل والتفكير المديد وقد ساعده رجحان عقله وعظمة روحه وذكاءه الحاد على التفكير في كل الذي رآه وسمعه ولم يكتف بمجرد الرؤية او السماع ، فكانت هذه الرحلة رحلة الى اعماق التاريخ غاص فيها محمد (ص) في اعماق الوجود مستخلصاً منها الحقيقة الخالدة .

وكانت هذه الفترة الهامة من عمره فترة اعداد وتكامل لعناصر بنائه النفسي والروحي وبعدها استطاع محمد (ص) ان يدخل الحياة بقلب مطمئن وارادة مستقيمة لا يخاف على نفسه من التلوث من البيئة الجاهلية .

فقد قضى فترة شبابه وهو يسمع الكثيرمن الشعر والخطب والكلمات من اليهود والنصارى الذين كانوا يدعون الناس لدينهم وكان يشارك قومه في الخروج الى الاسواق كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي المجاز وهو يستمع الى

المعلقات فيأخذ النافع منها ويعرض الرديء على بصيرته فتلفظ ما لا تسيغ وفي هذا العمر ايضا شاهد محمد (ص) ما يفعله شباب مكة من فعال سيئة وكيف يقضون اوقات فراغهم في اللهو والغناء والجواري ، فلم تدن نفسه للانخراط معهم وهو شاب مثلهم ولم يكن ما يحول دون ذلك السبب الذي ذكره بعض المستشرقين الذين حاولوا الطعن في عفة محمد (ص) معللين عدم انخراطه مع الشباب بسبب ما يعانيه من فقر وفاقة .

لم يكن الفقر مانعاً عن المشاركة مع شباب مكة الذين كانوا ينظرون الى محمد (ص) نظرة تقدير واعجاب ويتمنّون مشاركته لهم ، بل السبب هو النفسية العالية التي امتلكها محمد (ص) والتي جعلته ينصرف عن مثل هذه الملذات الى اللذة الحقيقية وهي لذة التأمل والتفكير في سر الحياة وسر الخليقة.

لقد وجد المجتمع المكي المتفسخ في محمد (ص) شاباً منصرفاً عن الملذات والاهواء الشاذة لكنه لم يكن منصرفاً عن الحياة الاجتماعية والحياة المعاشية .

فقد شارك محمد (ص) قومه في العديد من الفعاليات العسكرية والسياسية والاجتماعية فعلى صعيد المشاركة العسكرية حمل محمد (ص) السلاح الى جانب اعمامه في حرب الفجار وهو اذ ذاك ابن عشرين عاماً وقد نشبت هذه الحرب بين هوازن وقريش ويعود السبب في نشوبها ، ان النعمان بن المنذر كانت له تجارة في كل عام يرسلها من الحيرة الى سوق عكاظ وهي محملة بالمسك ويشتري بثمنها جلوداً وحبالاً واقمشة ثمينة مزركشة وكان يوكل احداً لقيادة القافلة ففي تلك السنة عرض البراض بن قيس الكناني نفسه عليه وعرض عروة الهوازني نفسه ايضا فاختار النعمان عروة فغضب البراض فاوقع بغريمه فقتله واخذ منه القافلة فأثار ذلك حفيظة هوازن التي سارعت لمحاربة قريش وهي في عكاظ وقبل ان تدخل الحرم ، لكن قريش تراجعت ولاذت

بالحرم ، فانذرتهم هوازن الحرب بعكاظ العام المقبل وظلت الحرب اربع سنوات انتهت بالصلح وسميت بحرب الفجار لانها وقعت في شهر رجب احدى اشهر الحرم وكان لرسول الله موقفاً هاماً في هذه المعركة دفاعاً عن المظلومين ففي رواية اليعقوبي ان قريشاً قالت لمحمد (ص) يا ابن مطعم الطير وساقي الحجيج لا تغب عنا فانا نرى بحضورك الغلبة والظفر .

فقال : اذا اجتنبتم الظلم والعدوان والقطيعة والبهتان فاني لا اغيب عنكم فعاهدوه على ذلك ويذكر ان رسول الله (ص) قد طعن ابا البراء (ملاعب الاسنة) فارداه عن فرسه .

وكان لرسول الله (ص) مشاركة فعالة في ميدان اخر من ميادين الانتصار للمظلومين هو في حلف الفضول الذي عقد نتيجة ما آل اليه الوضع الامني في مكة بعد حرب الفجار . فقد سلبت هذه الحرب الامن والاستقرار . فاستغل البعض تدهور الأوضاع الأمنية فأعتدوا على أموال الناس سيما الغرباء مما اثرت تأثيراً كبيراً على حركة التجارة والسوق في مكة وما حولها .

اذ ذاك دعا الزبير بن عبد المطلب ومعه ابو طالب القبائل القرشية الى الاجتماع فاجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان فصُنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يعود اليه حقه وقد حضر محمد (ص) هذا الجلف وكان يقول لقد حضرت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً يسرني به حمر النعم ولو دُعيت الى مثله لأجبت .

وأستطاع هذا الحلف ان ينهي حالة الاعتداء على اموال واعراض الناس وان يوفر لمكة وضعا امنيا يناسب مكانتها الدينية والتجارية ، ومن بين الحوادث التي وقعت بعد عقد هذا الحلف حادثة الاعتداء على القتول ابنة خثعم احد الوافدين على مكة وكانت من اجمل نساء العرب فاختطفها نبيه بن الحجاج وغيّبها عن ابيها فقال الخثعمي من يعديني على هذا الرجل فقيل له عليك

بحلف الفضول فذهب الى اعضائه واستجار بهم فاجتمعوا على نبيه واجبروه على ارجاعها اليه قبل ان يمسها .

لقد كان لرسول الله (ص) حضور فاعل ومؤثر في كل قضية فيها دفاع عن المظلوم وفيها استرداد لحقوق الغير .

واستطاع الرسول ان يكسب من خلال هذه المشاركة مكانة مرموقة لدى المجتمع المكي فاصبح رجلاً مهاباً محترماً لدى الجميع وسموه الامين لاستقامته وسمو روحه وعلو نفسه .

وربما لم تجد قريش كلمة تعبر عن شخصية محمد (ص) بافضل من هذه الكلمة التي تحمل معاني كبيرة في مجتمع جاهلي يتطاول فيه الواحد على الاخر ولا يتحسس فيه الفرد نعمة الآمان والطمأنينة على ماله وعرضه ودمه .

فقد جسدت كلمة الأمين معالم شخصية الرسول (ص) قبل البعثة حسبما يراها افراد المجتمع المكي .

ولم تكن امانته لتقتصر على اموال الناس بل سموه الامين لاستقامته واتزانه لانهم لم يلاحظوا شططا في حياته ولم يشاهدوه يوماً من الايام في مكان غير لائق بمثله ولم يروه في حالة شاذة عن سيرة الصلحاء ، لقد أوجدت صفاته النبيلة قوة خارقة في جذب الناس . . فكان كل من اقترب اليه يزداد انجذاباً اليه فعليّ عليه الصلاة والسلام يتعلق بمحمد (ص) ويصبح كظله الذي يسير معه منذ ان التحق به وهو في السادسة او السابعة عندما هبت عاصفة المجاعة على مكة فتقاسم بنو عبد المطلب اولاد ابي طالب فوقع اختيار محمد على عليّ وهو صبي في السادسة او السابعة ومنذ ذلك العمر كان علي الى جانب ابن عمه ولم يعرف التاريخ حتى الآن علاقة رفاقية اقوى من تلك العلاقة التي كانت بين محمد وعلي وكانت تزداد قوة ومتانة في الملمات واثناء المواجهة الحاسمة مع

طغاة قريش ففي اللحظات الحرجة ليس هناك شيء احوج الى القائد من وجود رفيق مخلص يقف الى جانبه ليذود بروحه عن قائده ، فلقد كان عليّ هو رفيق الدرب الذي ما ترك قائده لحظة من اللحظات .

والنموذج الاخر للعلاقة الاجتماعية في حياة محمد علاقته بـزيد الـذي اشترته خديجة من ماله ليكون عبداً لمحمد (ص) ولم يمكث زيد طويلاً كعبد فقد قرر محمـد (ص) عتقه فمـا ان سمع والـده بتحرر ابنـه حتى سارع الى محمد (ص) يطالب باعادة ولده اليه . ولم يسع لمحمد (ص) الذي يقدر للاب هذا الحق الا ان يعطى لزيد حق الاختيار بين البقاء او الذهاب مع والده لينعم بالحنان الابوي لكن لم يصدق الوالد اذنه عندما سمع ولده وهو يقرر البقاء مع محمد (ص) رافضاً عودته الى اسرته وابويه ، ان علماء التربية ليمرون على هذا الحادث بكثير من التأمل لانه يثير فيهم الاستغراب وتستثير فيهم تأملات لا حد لها فأية جاذبية كان يمتلكها محمد (ص) حتى اصبح الابن يفضل البقاء معه على البقاء مع والده . ان هذا النموذج وغيره من النماذج التاريخيـة الاخرى لتؤكد بان محمداً كان على قدر كبير من الجاذبية الي صنعتها خلقيته العـالية وتعامله الانساني مع الافراد حتى قال عنه ربنا سبحانه وتعالى ﴿ **وانـك لعلى خلق عظيم** ﴾ ، فقد تعلقت به النفوس الطاهرة وتأثرت به حتى النفوس الملوثة فكانت هذه الجاذبية عوناً له في الدعوة الى الله .

ولم يعش محمد (ص) كلًا على احد فمنذ نعومة اظفاره وهو يعمل فقد اشترك في الحياة الاقتصادية ليوفّر لنفسه ما يحتاج اليه من مـال ولتعطيـه هذه الحياة المزيد من الخبرة والمزيد من القدرة على مواجهة الاعباء ، فقد ابتدأ حياته الاقتصادية راعياً للاغنام ومنحته هذه المهنة فرصة للتامل واطالة النظر في الخلق وفي المخلوقات .

وبعد ان كبر اشتغل في التجارة وهي كالرعي لانهـا تقتضي التنقل من

مكان لاخر وفي التنقل يكسب المرء الكثير فالتنقل رياضة لتنمية الجسد . . يعطي صاحبه صفة الخشونة لتنمية النفس وترويضها على الصعاب ويستثير في الانسان التفكير ويخلق لديه الاستعداد للتامل والغوص في اعماق الامور فياتي تفكيره منطقياً متسلسلاً حتى يصل الى الحقائق وهو ايضا يمنح الانسان الكثير من المعلومات عن حياة الامم وعن تاريخها وعن الحضارات التي قامت على الارض ففوق كل شبر من الارض آثار لبني الانسان فقد سار علىٰ هذا الشبر اناس كثيرون على مدى التاريخ وسكن فوقه اناس كثر .

ان التنقل يفتح العيون امام احداث وقعت يستطيع الانسان ان يتخيلها اذا ما ملك القدرة على التخيل الواقعي .

لقد اختار الرسول مهنة الرعي في سنينه الاولىٰ ومن ثم مهنة التجارة في سنينه الاخيرة قبل البعثة لا لكي يستعين بهما لتوفير حاجاته المعاشية فقط بل لكي يستفيد منهما في حاجاته الاخرى النفسية والروحية والعقلية فكان حريصا كل الحرص على كل عمل يقوم به حريصاً على الوقت من ان يذهب سدى وهو في تلك الصحراء التي يضحى فيها الزمن لا معنى له .

وكانت خطوته الاولى في ميدان التجارة هي المقدمة لحياة جديدة فقد ضم محمد (ص) الى حياته شريكاً جديداً ملأ فراغاً في حياته وتحمل جانباً من اعباء الحياة ولم يكن زواجه الا ثمرة قوة جذبه عليه الصلاة والسلام . كانت خديجة بنت خويلد افضل نساء القرشيين والمكيين في خلقها وخلقها وجميع مواهبها والى جانب ذلك كانت ذات ثراء كبير فقد اصبحت السيدة الاولى في مكة واذا عرفت ان هـذه السيدة هي التي اختـارت محمداً للزواج وهي التي خططت لهذا الزواج فعند ذاك سندرك ما كان يحتله محمد من جاذبية وسمعة طيبة في الجزيرة العربية وهي الجاذبية التي لم يحصل عليها النبي من مال او اب فقد جاء الى الحياة يتيماً وعاش يتيم الاب والام ولم يمتلك قيراطاً واحداً

كان يفتقد لابسط مقومات النفوذ الاجتماعي بحسب الاعراف القائمة يومذاك لكن بشخصيته القوية وباخلاقه الفذة طرح قيما جديدة في التعامل الاجتماعي واصبح بتلك المقومات العالية التي يمتلكها افضل رجل في المجتمع المكي يعرفه الجميع ويحبه الجميع ويحترمه الصغير والكبير .

وعندما جرفت السيول الكعبة قررت قريش تجديد بنائها وكان محمد (ص) في مقدمة المشاركين في العمل وعندما بلغ البناء تمامه أختلفت القبائل حول من يضع الحجر الاسود في مكانه لما لهذا العمل من فضل وشرف لدى العرب وتخاصم القوم وكاد ان يقع بينهم القتال وتقوم بينهم الحروب التي لا يعلم منتهاها سوى الله فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً وتعاقدوا مع بني عدي على الموت وادخلوا ايديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة .

وتطاير الشرر من عيون الجميع وفي لحظة من اللحظات تغلب على العصبية صوت العقل عندما سمعوا كبيرهم وهو ابو امية بن المغيرة بن عبدالله المخزومي وهو يشير اليهم ان يتولى وضع الحجر في مكانه اول وافد من باب شيبة فرضوا بهذا الحكم وكان اول الوافدين من ذلك الباب هو محمد بن عبد الله فلما رأوه استبشروا بقدومه وقالوا باجمعهم بصوت واحد جاء الصادق الامين وازدادوا اعجابا به لحصافة رأيه ، وحكمته في حل المشكلة فقد امرهم بان ياتوا بثوب كبير لتاخذ كل قبيلة بطرف منه فرفع الحجر ووضع فيه ثم التفت الى شيوخهم وقال لهم لتاخذ كل قبيلة بطرف منه ، فاستحسنوا ذلك منه ووجدوا فيه حلاً عادلاً يحفظ للجميع حقوقهم ولا يعطي لاحد امتياز على الاخرين .

لقد ارتسمت هذه الواقعة في اذهان القبائل العربية وظلت ذاكرتهم وهي تحمل صورة طيبة عن محمد (ص) ولم تكن السنوات الخمسة التي تفصل بين هذه الحادثة والبعثة بكثيرة اذ ظلت ذاكرة العربي تحتفظ بتلك الحادثة بكامل تفاصيلها .

فشجعت هذه الحادثة البعض علىٰ استيعاب حادثة البعثة بالتصديق القلبي الا ان الاكثرية كانوا يخشون على مصالحهم من الحركة التغييرية التي جاء بها النبي (ص) والتي قلبت موازين الحياة الاجتماعية لما هو ضد مصالح الطغاة والجبابرة من زعماء قريش الذين قاوموا الرسالة لا ايماناً بعدم صدقها بل قاوموها خوفاً على مصالحهم .

اخذ عمره الشريف يتجه نحو الأربعين فيزيده صفاءاً في الفكر وضياءاً في الفعل فاصبح يتلمّس حقائق الوجود ويزداد ابتعاداً عن المجتمع الجاهلي الذي كان يغط في جاهلية كثيفة ويسكب برذاذه الى كل من يعيش تلك البيئة . كان محمد يتامل واقع مجتمعه وما يعاني من ترسبات وجاهلية ظلماء فيتحسس ما سيؤول اليه هذا المجتمع من مصير اسود اذا بقي على هذه الجاهلية فيثير فيه ذلك احساساً بالمسؤولية يدفعه الى التفكير بالمعالجة فكان يشعر بالحاجة الى الانفراد لوحده في اماكن بعيدة عن صخب الجاهلية ليجد فرصة للتفكير . فكان يخرج من مكة ويلتجأ الى جبالها وشعابها ووجد في غار حراء التي تبعد بمسافة طويلة عن مكة مكاناً ينشد فيها الوحدة والخلوة مع نفسه .

فكلما اقبل شهر رمضان شدّ رحاله واخذ القليل من الطعام وتوجّه الى موضع لقائه بربه طالباً الحقيقة .

وفي خلواته عند ربه كان همه الوحيد هو ان يجد السبيل لانقاذ مجتمعه الذي اصبح على وشك الغرق فكلمة واحدة قادرة لان تنشب بينهم الحروب لسنين طويلة والخرافة اصبحت تنشب بمخالبها المجتمع كله وبات المجتمع اسيراً للمنفعة والمال واصبح من لا يملك المال اسيراً للاغنياء الجميع يئنون تحت اقدام الوثنية . فلم يعد هناك من يستطيع انقاذهم فالأصنام التي تراكمت حول بيت الله لم تصنع شيئا ، لم تدفع الشر عن هذا المجتمع ولم تستطع ان توقف حالة التخبط التي يعيشها فهي اصنام خامدة صنعتها ايدي البشر فما

عساها ان تفعل وهي السبب في هذا التخلف .

اما المسيحية واليهودية فقد حُرفتا واصبحتا بعيدتين كل البعد عن رسالة عيسىٰ وموسى فلقد لعبت بهما اهواء الملوك واهواء القسس والكهان واصبحتا حركات جوفاء وعبادات شكلية لا تستطيع ان تصنع شيء لانسان على شفا الغرق .

وايضا وجد محمد (ص) في غار حراء بالاضافة الى فرصة التفكير فرصة العبادة والتوجه الى الله ، وصقل فؤاده بالايمان بالله فكان لا يبرح المكان حتى ينقضي شهر رمضان وعندما يعود الى اهله تستقبله زوجته بحفاوة وهي تشاهد على جسده اثار العبادة فقد اذبله الخشوع والقرب من الله وكان يزداد تواضعاً وصدقاً مع ابناء قومه عند ما يعود اليهم فيراهم على وضعهم يغطّون في سُكر عميق ويمضون في الطريق نحو هاوية سحيقة فيتالم لحالهم ويتلوى لما يصيبهم بسبب اعمالهم وكم تمنى ان يجد السبيل لوقف هذا التردي فكان ينتظر شهر رمضان القادم بفارغ الصبر علّه يصل الى ما يريد وياتي شهر رمضان ويمضي محمد (ص) على عادته ايام الشهر في غار حراء ويزداد قلبه صفاءاً وينعكس ذلك الصفاء باشعة مضيئة في منامه فيرى الرؤى ثم يرى تحققها في اليقظة فلقد تكشّفت له امور كثيرة وهو في غار حراء واصبح على أهبّة الاستعداد لتلقي الاوامر بعد ان تكاملت شخصيته فبلغت درجة الكمال الروحي والنفسي والعقلي فاصبح شخصية متكاملة بكل ابعادها ، حينها جاءه الوحي من عند الله .

كلمات من السماء

استقبل رسول الله (ص) الوحي واستمع الى جبرائيل وهو يقرأ له كلمات من عند الله ولم يكن نزول الوحي على فرد في ذلك المجتمع شيئاً عادياً وما كان باستطاعة اي فرد في ذلك اليوم ان يتحمل آثار الوحي ان لم يكن ذو شخصية قوية وروح عالية وقلب قوي ورسول الله (ص) كان وحده في ذلك المجتمع وفي ذلك الزمن الذي تهيأ لاستلام الوحي ولو لم يعرف في مجتمعه بالصدق لاتهمه الناس بالجنون وفعلاً اتهمه البعض بانه ساحر ومجنون .

لقد هيّأ الله رسوله (ص) لتلقي الرسالة فقبل ان ينزل الوحي كان رسول الله (ص) يرى الروءى ثم يرى تحققها في عالم اليقظة مما اوجد الارضية النفسية لتلقي الرسالة فهذه الحالة اوجدت لدى رسول الله (ص) ثقة عالية بما يرى وما يسمع وهيأته لرؤية جبرائيل ولسماع كلام الله ومن طرف آخر هيأت مجتمعه وبالأخص الاقربين الذين لهم اطلاع على حاله ان يترقبوا امراً مهماً في حياة محمد (ص) .

لقد بدأ الوحي اول ما بدأ بدا بالرسول (ص) .

فاول خطوة على طريق الدعوة هو ان يعتقد الداعية بما يقول وان يطمأن

بسلامة ايمانه ومعتقداته . فلفترة من الزمن كان جبرائيل يقول لمحمد انك رسول الله وكان يكرر هذه العبارة لكي يطمئن الرسول بصدق الكلام الذي يسمعه ولكي يستعد لتبليغ الرسالة .

ومن ناحية اخرى ابتدأ الوحي بكلمة اقرأ ليكون محمد (ص) على يقين بان ما يسمع هو وحيٌ من الله لانه كان امياً لا يقرأ ولا يكتب مما سيزيل الشك من حوله فهو قد جاء بكلمات يعجز عنها العرب وهو الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب .

اقرأ . . .

ماذا يقرأ وهو الامي؟

ويرد الرسول (ص) ماذا اقرأ؟ وماذا عساه ان يقرأ وهو لا يعرف القراءة في الثانية يتكرر الامر وفي الثالثة ينطلق الوحي ويتواصل كالسيل ﴿ **اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق** ﴾ ويردد محمد (ص) هذه الكلمات مع جبرائيل ، اذن ما يسمع ليس همسات في داخله بل هو صوت يسمعه على لسان جبرئيل وهو يطلب منه ان يقرأ كلاماً لم يسمعه قط في حياته ولم يسمع العرب في تاريخهم وعلى رغم التهيئة التي كان عليها النبي (ص) اثناء نزول الوحي فانه فزع مما سمع ومما شاهد فخرج من الغار هائماً على وجهه واخذ يهرول بين الجبال عله يجد ما يطمئن به قلبه .

وبيناهو في الوادي اذ سمع صوتاً مدويا بين الجبال يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبرائيل فرفع الرسول رأسه الى السماء فاذا برجل حاف القدمين في افق السماء وهو يردد عبارة يا محمد انت رسول الله فوقف النبي لينظر مدهوشاً وجعل يصرف بوجهه عنه ويتجه ببصره صوب زاوية اخرى فاذا به شاخص امامه وكانت خديجة قد ارسلت الرسل في طلبه بعد ان تأخر كثيراً

وبحث الرسل عن محمد (ص) في كل مكان وصعدوا الجبل لكنهم لم يشاهدوه فعادوا الى خديجة ليزيدوها قلقاً .

ولم تمكث خديجة طويلاً حتى شاهدت النبي وهو يعود بصورة اخرى فقالت يا ابا قاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا اعلى مكة ورجعوا فحدثها بما شاهده وما سمع .

فلم تتردد في تصديقه لانها كانت بانتظار مثل هذا الحدث فقال أبشر يا بن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة ولكي تتضح الصورة وتتجلى الحقيقة قامت خديجة مسرعة الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد قرأ كتباً كثيرة في الاديان وسمع من اهل التوراة والانجيل فاخبرته بما اخبرها به رسول الله وبما رأى وسمع فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده ان كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى ابن عمران وانه نبي هذه الامة قولي له فليثبت فرجعت خديجة الى رسول الله (ص) واخبرته بقول ورقة .

الخلية الاولى :

وبعد ذلك اللقاء الرهيب الذي تم في اعماق جبل ثور تواصل الوحي وهو يحمل لرسول الاوامر بالصدع بالرسالة .

فاخذ الرسول (ص) يرسي بناء المجتمع الاسلامي في وسط المتاهة الجاهلية بدأ بعزم كبير وارادة لم تستسلم للظروف القاهرة .

كان يرى عبر حجب المستقبل ما سيلاقيه من متاعب وما تصادفه من مشكلات ومصاعب فهو يعرف مجتمعه وانه ليس من السهل ان يتسجيب للحق.

كان رسول الله (ص) على إدراك كامل بانه سيسير عكس التيار الذي

يجرف المجتمع الى جاهلية اشد ظلاماً واكثر ارتكاساً ، فكان عليه ان يعد العدة وان يبدأ بداية حكيمة وان يحسن الاختيار وان يحُكم خطّته حتى يكون مصيرها النجاح وليس الفشل .

فأول ما بدأ بأهله لان الاهل هم اعرف الناس بصدقه فهم اقرب الناس اليه وادراهم بحاله .

فبدأ بعلي وهو غلام لا يتجاوز الثانية عشرة لكنه كان فتى قوياً عاقلاً متزناً حكيماً في تصرفاته حتى اصبح من الصعب عليك ان تعتقد انه ابن الثانية عشرة والكثير من الرواة عدّوه في عمر اكبر من هذا .

وكان رسول الله (ص) يرى في عليّ الكثير من الآمال فكل قائد بحاجة الى من يساعده ليكون معه في اوقاته والى جانبه في كل حالاته في الشدة والرخاء .

وكل مصلح بحاجة الى رفيق يطمئن اليه يستشعره في اللحظات الحاسمة ويتكل عليه في الساعات الحرجة ويقف الى جانبه حينما يبتعد عنه الاخرون فذاك موسى (ع) عندما بُعث بالرسالة وامره الله بان يذهب الى فرعون انه طغى كان من بين مطالبه وهو في اول الطريق الى التحرك ان يتقبل الله اختياره لاخيه عوناً ووزيراً .

﴿ واجعل لي وزيراً من اهلي ·هارون اخي اشدد به ازري واشركه في امري ﴾ .

كان اختيار النبي (ص) لعلي اختياراً صائباً ، فعلي يتدفق ايماناًفهو يحمل قلباً طاهراً لم تلوثه عبادة الاصنام وهو من جانب آخر ابن عم النبي وربيبه واقرب الناس اليه فحرى بهذا القلب المتدفق بالوحدانية والاخلاص ان يصبح اول ارض تستقبل بذرة الاسلام .

وبعد ان آمن علي امتلك رسول الله (ص) مفتاح التحرك نحو المجتمع وضمن مستقبلاً رحباً لرسالته واطمأنَّ على سلامة تحركه وانه حقق الخطوة الأولى نحو بناء الصرح الاسلامي وبعد اسلام علي حانت مرحلة الدعوة فاخذ رسول الله يدعو الاقرب بالاقرب من اهله فدعا خديجة ممثلة بالمرأة التي رفع الاسلام شأنها واوصلها الى مدارج رفيعة والمرأة هي نصف المجتمع واسلام خديجة هو الخطوة الثانية نحو تكامل النواة الاولى التي سينفلق منها المجتمع الرسالي سيما لو أضيف لهذه النواة زيد بن حارثة ربيب رسول الله (ص) ولده بالتبني الذي اسلم فكان ثالث ثلاثة .

وبهذه العائلة الكريمة رسول الله وزوجته وولده بالتربية وولده بالتبني بدأ عهد الاسلام وبنيت القاعدة الاولى التي ستقوم عليها دعائم الرسالة الاسلامية ، فان وجود عائلة واحدة مؤمنة بالاسلام يعني ان هناك امكانية لانتشاره وان الطريق اصبح مفتوحاً امام الدعوة الاسلامية وان الاسلام قد ترسخ على الارض حتى لو كان عدد المؤمنين به هو ثلاثة انفار وكان ذلك يعني ان النبتة قد تفتحت وخرجت من تحت الارض لقد بدأ رسول الله (ص) يصدع بالرسالة بهذا النفر القليل لانه كان واثقاً من النصر مطمئناً من المستقبل .

مهمات البنـاء

بعد ان خطا الرسول الخطوة الاولى في طريق البناء وهي تكوين الخلية الاسلامية الاولى مضىٰ في طريقه نحو تكميل الاشواط الاخرى فكانت امامه مـرحلتان في البنـاء ، الاولى بناء التجمـع الرسـالي والثـانيـة بنـاء المجتمـع الاسلامي .

مرحلة التجمع الطليعي

بدا كل عضو في الخلية الاولى يتحرك لتوسيع القاعـدة الاسلاميـة عبر الاتصال الشخصي المكّثف بالاقرباء ، واتسم التحرك الاسلامي في هذه الفترة الهامة من فترات الدعوة بسمات خاصة كان لها الاثر الفاعل في تنشئة الكيان الاسلامي واقامته قوياً منيعاً مقاوماً للعواصف الجاهلية التي هبت بعنف مقررة اجتياج ذلك الكيان الناشىء .

مبادىء التحرك في المرحلة السرية

الظروف الخاصة التي حدقت بتحرك النبي (ص) وهو في اول انطلاقته المباركة ادت الى اختيار اساليب خاصة في التحرك تضمن استمرارية الدعوة

وانتشارها داخل المجتمع الجاهلي وقد كونت تلك الاساليب سمات المرحلة الحساسة من التاريخ الاسلامي وهذه السمات هي -

اولاً : حسن الاختيار فقد كانت هناك اعتبارات محددة في اختيار الافراد تفرضها المرحلة المهمة التي كانت تمر بها الحركة الرسالية ، فقريش تتأهب لقمع هذه الحركة وتصفية اعضائها فكان السبيل لمنع ذلك هو التدقيق في اختيار الافراد الذين يراد ضمهم الى التجمع الاسلامي اختيار الاقوياء في نفوسهم الاشداء في المحن الذين يصرون في المواجهة ، اختيار ذوي القدرات العالية في المقاومة الذين لا يلوون ذراعاً للعدو ولا ينكسرون في الشدة ، الذين لا يجد الضعف والوهن الى نفوسهم طريقاً والذين لا يترددون لحظة واحدة في التصريح بمواقفهم الصلبة - من ناحية اخرى كان رسول الله (ص) يختار من يجد في اسلامه حياة جديدة تفصله تماما عن حياته السابقة وما يحف بها من جاهلية ظلماء فكان يختار العبيد والمضطهدين الذين يجدون في الاسلام المنقذ والمخلص والذين يكشفون انفسهم في الاسلام .

اما اصحاب الاموال وارباب الزعامات فان المانع الذي يمنعهم من التسليم للدين هو المصالح والعادات الموروثة والادوار الاجتماعية التي يمثلها كل فرد منهم في المجتمع الجاهلي ، فكانت كل هذه الاعتبارات تتهاوى مع دخول الفرد الى الاسلام .

من هنا فذوي المصالح وذوي المكانات الاجتماعية المرموقة هم ابعد الناس عن الاسلام وعلى العكس كان الفقراء والمطمورون في المجتمع والمنسيون هم اقرب الى الاسلام لانهم لا يجدوا ما يمنعهم عن التسليم لله بل يجدون ما يجذبهم الى الدين وهو رغبتهم في الحرية وفي الحياة التي يطمح اليها كل انسان حتى العبيد .

فالعبد لم يخلق عبداً بل خلق انساناً يملك الطموح وفيه الرغبة الى الحياة .

وكان النبي (ص) يختار من يقدر على إداء دورٍ ما في نشر الرسالة كقدرة على البيان والاقتناع ومن اسس الاختيار التنوع القبلي والغاية من التنوع هو مد جذور الرسالة الى كل القبائل لابعاد التجمع عن الصراعات القبلية وخلق حالة الموازنة بين كل العشائر وهي حالة مطلوبة في تلك الفترة من العصر القبلي .

فأختار الرسول (ص) من كل قبيلة اثنّين وثلاثة ليعتنقوا الاسلام . . من بني هاشم ومن عبد شمس ومن نوفل وتيم واسد بن عبد العزى وعدي وامية وزهرة وعبد الدار ومخزوم وعامر والحارث بن فهر وجمح وسهم بالاضافة الى العبيد الذين آمنوا .

ومن اسس الاختيار التنوع الجغرافي وذلك بهدف ايصال الرسالة الى مناطق اوسع من مكة حتى لا يمكن لأحد فرض الحصار على الدعوة ، فلو كان الاسلام محصوراً في مكة لاستطاعت قريش من تصفيته خلال فترة وجيزة ، لكن انتشاره في مناطق عديدة من جزيرة العرب مكّن المسلمين من الهجرة ومن الانتشار في اطراف الجزيرة العربية ، وكان موسم الحج افضل فترة لنشر الدعوة ومد نفوذها الى بقاع الجزيرة العربية فكان اسلام ابي ذر واسلام عدد من الاوس والخزرج خير دليل على رغبة القيادة في فك الحصار الذي كانت تضربه قريش ضد الدعوة بالتغلغل الى مناطق اخرى من جزيرة العرب .

ومن اسس الاختيار التنوع السني . . فالاسلام هو حركة يجب ان تمتد عبر الزمن كما وانها يجب ان تمتد عبر المكان ايضا فكما ان التنوع الجغرافي يحقق الامتداد على الارض فان اختيار صنف الشباب ما دون العشرين سيحقق الامتداد على مستوى الزمن . . لكن لا يعني ذلك اقتصار الدعوة على صنف

الشباب فقط كان بين المسلمين من هو في عمر الكهولة لان العرب يوقرون الكبار فوجودهم بين المسلمين كان يشكل عاملاً مهماً في اقناع الاخرين ، لكن كانت الكفة الراجحة هي كفة الشباب الذين كانوا يشكلون النسبة العظمى من المسلمين .

ويذكر لنا التاريخ ان رسول الله (ص) كان يكلف الامام علي (ع) بالتردد في الاماكن العامة التي يتواجد فيها المسافرون القادمون على مكة لاختيار الافراد الصالحين وقصة ايمان ابي ذر كما ورد في الاستيعاب توضح لنا ذلك[١] . . قدم ابو ذر الى مكة فأتى المسجد حتى ادركه الليل فاضطجع فرآه علي بن ابي طالب فقال؛ كأن الرجل غريب قال نعم قال انطلق الى المنزل فانطلق معه لا يسأله عن شيء وفي الغد رجع الى المسجد وبقي حتى المساء وسار الى مضجعه فمر به علي فقال له اما آن للرجل ان يعرف منزله وتكرر ذلك ثلاثة ايام وفي اليوم الثالث وبعد ان تأكد علي من حسن اختياره لابي ذر اخذه الى النبي (ص) .

ثانياً مبدأ سرية التحرك :

اعتمد رسول الله (ص) السرية كاسلوب موقت لصرف انظار طواغيت قريش الذين اتصفوا بالشدة لكل من يحاول المساس بعقائدهم ومصالحهم ، وعقائدهم هي جزء من مصالحهم لانها وسيلة من وسائل تحققها .

واعتمدت الرسالة مبدا السرية بالاضافة الى الهدف الدفاعي اغراضاً ترتبط ببناء الكيان الاسلامي ، فالسرية هي وسيلة لتمكين القيادة من الاشراف لتوجيه المسلمين الجدد وبنائهم بناءاً دقيقاً واعدادهم للظروف الصعبة التي

---

(١) الاستيعاب: ج٤ ص١٦٥٣ .

تنتظرهم فقد منحت سرية العمل فرصة كبيرة للقيادة للتفرغ في شؤون البناء التنظيمي للافراد اذ في حالة المجابهة العلنية ما كانت القيادة لتجد الفرصة الى ذلك ولما كان الافراد يملكون الوقت الكافي لتعلم مبادىء الاسلام .

ومن نماذج التحرك السري في فترة الدعوة هو تحرك الإمام علي (ع) اثناء سيره الى النبي الاكرم ومعه ابي ذر الغفاري رضوان الله عليه قال لابي ذر ، اني ذاهب اليه (الى النبي«ص») فاتبع اثري فاني ان رايت ما اخاف عليك اعتللت بالقيام كاني اريق الماء وان لم ارَ احدا فاتبع اثري حتى تدخل[1] .

والنموذج يكشف لنا عن طبيعة التحرك وطبيعة الالتزامات الامنية التي كانت تفرضها الظروف السياسية في تلك الفترة . ويكشف لنا عن مستوى الوعي الامني لدى الحركة الاسلامية وهي في بداية عهدها فالخوف الذي كان يسيطر على الامام لم يكن الخوف على شخصه بل خوفه على الدعوة التي كانت في بداية انطلاقتها وقد تتعرض للحصار من قبل قريش وكان الامام يخشى انكشاف التحرك من خلال معرفة مكان تواجد المسلمين ومعرفة الاعضاء الجدد الذين ينضمون الى الرسالة . فتحركه السري كان يدل على انه لم يكن يرغب ان تُعرف صلته بابي ذر فطلب منه ان يسير بعيداً عنه .
فطلب منه ان يسير بعيداً عنه .

وعندما يصلان الى المكان الذي يتواجد فيه رسول الله (ص) فان كان المكان تحت المراقبة او ان احدا من المشركين قريب من المكان فانه يُخبر ابي ذر بتلك الحركة الرمزية وذلك لكي لا يعرف المكان المخصص لتجمع المسلمين .

وكتب التاريخ زهيدة في نقل مثل هذه الصور لكن هذه الحركة من الامام

---

(١) معروف الحسني ، سيرة المصطفى : ص١٣٩ وكذلك الاستيعاب : ج٤ ص١٦٥٤ .

علي (ع) تدل بصورة واضحة ان التحرك السري لم يكن اجتهاداً شخصياً من الامام بل كان استراتيجية ثابتة في تحرك كل المسلمين لان افشاء التحرك من قبل اي فرد في الجماعة كان من الممكن ان يؤدي الى اضرار وخيمة .

فالصورة التي كانت في اذهان قريش عن رسول الله (ص) بانه يريد ان يحصل بتلك الدعوة الزعامة او المال وان البعض كان يعتقد بانه كغيره ممن ظهر في مكة بمظهر الاصلاح والذين لم يحققوا غاياتهم فلاذوا بعد الفشل بالصمت . فكانوا يقابلون الدعوة الاسلامية باللامبالاة، وما كان ذلك التوهّم ليتحقق الا بفضل السرية التي اتسمت بها تحركات المسلمين فلم يعرف عددهم ولا قوتهم . فمبدا السرية كان من اجل التستر على العدد وعلى العُدة كي لا يعرف حجم المسلمين ولا تعرف طبيعة تحركهم حتى لا يمكن افشاله بالوسائل التي تمتلكها قريش . وعلى الرغم من ذلك فقد فشى أمر الدعوة واصبح كل فرد في مكة وخارج مكة يحمل صورة مجملة عن دعوة رسول الله (ص) واهدافه ونتيجة هذه المعلومات القليلة انجذب البعض الى الاسلام دون ان يكون هناك ايّ اتصال بينهم وبين المسلمين وتشير الروايات التاريخية ان أنباء الحركة الاسلامية وصلت الى مناطق بعيدة فقيل عن اسلام طلحة انه كان في بُصرى فسمع بخبر خروج نبيّ اسمه احمد من راهب فلما قدم مكة سمع الناس يقولون تنبىء محمد بن عبدالله فاتى الى أبي بكر فساله فاخبره ثم ادخلُه على رسول الله فاسلم[1] وعين ذلك ذكره بعض الرواة عن ايمان ابي ذر فهو أيضا سمع بخبر الدين الجديد فارسل اخيه الى مكة ليتاكد من ذلك .

ثالثاً مبدا الاتصال المنظم

فكثير من المسلمين الاوائل اسلموا عن طريق الاتصال المباشر اما من

---

(١) مستدرك الحاكم: ج٢ ص٣٦٩.

قبل رسول الله (ص) او عبر الطليعة الاولى من المسلمين .

فعن طريق الاتصال اسلم معظم من آمن في بداية الدعوة وفي بعض الاحيان كان رسول الله (ص) يحدد اللقاء بمن يريد دعوته الى الاسلام .

وفي بعض الاحيان يتقصد اللقاء بمن يريد من اجل دعوته الى الاسلام . ويروي المدائني عن عمرو بن عثمان ان عثمان قال دخلت على خالتي أروى بنت عبد المطلب اعودها ، فدخل رسول الله (ص) فجعل ينظر اليّ فقال ما لك يا عثمان؟ قلت اعجبت منك ومن مكانك فينا وما يقال عليك قال عثمان فقال لا اله الا الله فالله يعلم لقد اقشعررت ثم قال؛ ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون ثم قال؛ فخرج فخرجت خلفه وادركته فاسلمت[1] .

ولم يكن الامر لينتهي عند اعلان الاسلام فبعد ان يسلم المرء يوكل امره الى احد المرشدين ليقوم بتثقيفه الثقافة الاسلامية ويصبح هذا الكادر هو صلة الوصل بينه وبين النبي (ص) في بعض الاحيان ، فكلما نزلت آية قرآنية سارعت الكوادر والتقت بافراد خليتها وقرأت ما انزل الله على رسوله من الآيات ولنا في حكاية عمر بن الخطاب صورة نموذجية عن طبيعة الاتصالات التنظيمية التي كانت تقوم عليها اوصال الحركة الاسلامية في عهد رسول الله .

فقد اندفع عمر بن الخطاب لقتل رسول الله [2] (ص) بعد ان عرف مكان تواجده فلقيه في الطريق نعيم بن عبدالله وعرف امره فاخبره ان الدين الجديد استشرى حتى الى بيت اخته فاطمة مما اثار غضبه فانصرف عن نيته السابقة واتجه صوب دار سعيد بن زيد زوج اخته ودخل البيت عليهما فاذا عندهما من

(١) الاستيعاب: ج٤ ص١٧٧٩ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ج٢ ص٨٥.

يقرأ عليهما القرآن فلما احسوا دخول رجل غريب عليهم ، اختفى قارىء القرآن وأَخفَتْ فاطمة الصحيفة وسأل عمر ما هذه الهيمنة التي سمعت فلما انكرا صاح بهما لقد علمت انكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بسعيد فقامت الزوجة فضربها فشجها فهاج اذ ذاك هائج الزوجين فصاحا به نعم اسلمنا فاقض ما أَنت قاض . فخرج القارىء من مخبئه وهو الخباب بن الارت فقرأ عليه بعض الآيات من القرآن الكريم فلان قلب عمر للاسلام .

نستنتج من هذه الحكاية امرين الاول السرية الكاملة التي كانت تحيط التحرك الاسلامي بحيث لم يكن عمر على علم باسلام اخته وزوج اخته وهما قريبان اليه بالرغم من ان قريش في ذلك الوقت كانت قد وكّلت ووزعت عيونها لرصد كل اشارة او علامة وعلى رغم هذه المراقبة فان شدة التزام المسلمين بمبدأ السرية كان يبعد عنهم انظار اقرب الناس اليهم فهناك امهات لم تعرف خبر اسلام ابنائها الا بعد فترة وبعد تفشي الخبر كأم مصعب بن عمير .

والامر الثاني الذي نستنتج من الحكاية هو وجود مخطط تنظيمي يجمع اجزاء الكيان الاسلامي في هيكل تنظيمي واحد . فهناك عصب رسالي يمتد الى كل خلية من خلايا الجسد الاسلامي ممثلاً بالدعاة والمبلغين الذين يتحملون مسؤولية تثقيف ابناء الحركة فالسابقون الى الاسلام والذين تشرّبوا من الدين الجديد وتعلموا مباداه ممن سبقهم يصبحون فيما بعد مرشدين لمن آمن حديثاً فيقومون بارشادهم وتعليمهم وهذا النمط التنظيمي يشكل السمة العامة للعلاقة البنائية التي كانت قائمة بين ابناء الكيان الاسلامي الأول. فالرسالة لا تكتفي من الفرد بان يعلن اسلامه ويقوم بالعبادات فقط فبالاضافة الى هذه الواجبات الدينية هناك مسؤوليته كمسلم نحو التجمع الرسالي وهي جزء من مسؤوليته الاسلامية . فهؤلاء المسلمون يتحولون بحكم اسبقيتهم للدين الى مرشدين لمن يأتي من بعدهم .

وقد جاء القرآن الكريم ليصف لنا هذا الواقع .

﴿ والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ﴾[(١)] .

ونموذج آخر يرسم لنا الصورة التي كانت عليها الجماعة المسلمة عندما آمن طُليب بن عُمير جاء الى امه أروى بنت عبد المطلب فقال لها قد اسلمت وتبعت محمداً (ص) فقالت امه ان احق من آزرت وعضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه وذبنا عنه فقلت يا ام فما يمنعك ان تسلمي وتتبعيه فقد اسلم اخوك حمزة؟ فقالت انتظر ما يصنع اخواتي ثم اكون احداهن[(٢)] وظل يرغّبها للاسلام قائلاً اني اسألك بالله الا اتيته وسلّمت عليه وصدّقته وشهدت ان لا الله الا الله . واخيراً قالت فاني اشهد ان لا اله الا الله واشهدِ ان محمداً رسول الله .

فدخول الفرد في الجماعة الاسلامية كان بداية لتحمله المسؤولية فبعد ان يعلن اسلامه ، عليه أن يُقنع الاخرين بالاسلام وكل من اغترف من هذا العين عليه أن يروي ظمأ الآخرين .

وكان حول رسول الله (ص) افرادٌ يعتمد عليهم في توجيه من يعتنق الإسلام حديثاً ، وكان على رأس هؤلاء الموجهين علي بن أبي طالب (ع) ، فكان يقوم بدور المسؤول لعدد من الصحابة واعتاد النبي (ص) على ربط بعض العناصر الجديدة بعلي بن أبي طالب (ع) . عندما جاءه أبو سفيان بن الحارث يريد الإسلام التفت الى علي وقال له :

---

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) الطبقات الكبرى: ج٤ ص١٥٧ . الاستيعاب: ج٤ ص١٧٧٩ .

علّم ابن عمك الوضوء والسنّة ورُح به اليّ .

ومع تزايد المرتبطين بالإمام علي (ع) بدىٰ وكأنه كيان متميّز وقد حظي برعاية رسول الله (ص) فكان يهتف بعلي ورفاقه أمام الملأ يا علي أنت وشيعتك على منابر من نور مبيضة وجوهكم حولي في الجنة وهذه شهادة توثيق لتلك الجماعة المنتظمة في سلك الإسلام الصحيح والمنفرزة عن الآخرين الذين يشوبهم الضعف والوهن .

إن وجود هذه الجماعة المؤمنة بخط الرسالة هي الضمانة لديمومية الإسلام وامتداد تعاليم النبي (ص) بعد غيابه وهي أيضاً السبيل للتحصن ضد الانحراف في غياب القائد . وظلت تلك المجموعة العين الحارسة على الاسلام والمدافعة عن مبادئه أمام التيارات المعادية والموجات الانحرافية المتسللة الىٰ داخل الصف الاسلامي .

أستراتيجية التربية

أصعب ما تواجهه الحركات البنائية في مراحلها الأولىٰ هو كيفية السيطرة على أبنائها أثناء حضورهم الدائم في البيئة المتخلفة . فالفرد هو ابن المجتمع ومن الصعب تجريده عنه وعزله إلاّ بقوة ذاتية جبارة تحل في نفسه وتقف بمرور الزمن أمام سطوة البيئة الاجتماعية المتخلفة .

والاسلام نشأ في المجتمع الجاهلي وكانت مهمته الأولىٰ هي بناء مجتمع صالح يتحلىٰ بالفضيلة والخلق ومصدر هذا البناء هو أفراد نفس هذا المجتمع المتفسخ وكان لا بُدّ لهؤلاء الذين آمنوا أن يبقوا ليؤثروا في الآخرين ويحولوا مجتمعهم المتخلف بالتدريج الىٰ مجتمع اسلامي رصين .

فكانت القيادة أمام مسؤوليتين ، الأولى تستوجب عزل الطليعة الاسلامية عن المجتمع الجاهلي كي لا تتأثر بسلبياته وانحرافاته والمسؤولية الثانية هي حث هذه الطليعة للتجذر في أوصال المجتمع والتداخل مع أفراده .

وعلى هذه الاستراتيجية كان للمسلم وقتين وقتٌ يقضيها في المجتمع أما بالعمل او الدعوة ووقت آخر ينعزلون فيه في شعاب الجبال يعبدون الله فيها ، فهي فرصتهم الذهبية للتأمل في الكون والخلق وخالق الأرض والسماء وما أنعمه

الله عليهم وما أصاب القوم من تكلس في الفكر فتمسكوا بالخرافة وتشبثوا بعبادة الأصنام . وفي تلك التأملات يكتشفون الفوارق الكبيرة بين عبادتهم لله الخالق وعبادة أولئك للأصنام .

يقول البلاذري ؛ إن النبي (ص) وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا فرادىٰ ومثنىٰ ، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في إحدىٰ شعاب مكة اذ همّ عليهما رجلان من المشركين (كانا فاحشين) فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة حتىٰ خرجا وانصرفا[1] .

ويُذكر ابن هشام في سيرته مواجهة أخرىٰ في تلك الفترة من الدعوة وهي التي وقعت بين مسلمين كانوا يعبدون الله في شعاب مكة وفيهم سعد بن أبي وقاص فإذا بجماعة من المشركين يظهرون عليهم وهم يصلون فاستنكروا عملهم وعابوا عليهم ما يصنعون وما لبث الطرفان أن دخلا في شجار عنيف واضطر سعد يومئذٍ أن يجرح رجلاً من المشركين[2] .

وخشي الرسول (ص) أن تتطور هذه المواجهة الىٰ مالا يحمد عقباه إذ كانت المرحلة تقتضي التخفي على المشركين والعمل بهدوء وسرية حتىٰ تكتمل الطليعة فرأى من الأفضل أن تتم برامج التربية الايمانية داخل البيوت ثم بعد ذلك اتخذ بيتاً فوق الصفا وتفرغ بصورة كاملة لبناء الأفراد الذين آمنوا .

---

(١) الأنساب : ج١ ص٦١٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ج٢ ص٣١٨ .

دار الأرقم مركز للدعوة

مع التوسع في الدائرة البشرية كانت الحاجة تتزايد لاتخاذ مقر ثابت للدعوة، ينطلق منها المسلمون في تحركهم وتقام فيها دروس في العقائد ويتلقىٰ فيها المسلمون الجدد التربية وقد ذكر اتخاذ دار الأرقم أغلب من كتب عن السيرة النبوية ، لكن بعض مؤرخي الشيعة لم يأتوا على ذكره إلاّ إن كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين جاء علىٰ ذكر دار الأرقم في المجلد الثامن صفحة ٣٧٢ وسماه بدار الإسلام .

وكان لدار الأرقم عدة وظائف :

أولها :

التستر علىٰ التحرك الاسلامي وابعاد الأنظار عما يجري من نشاط في ميدان الدعوة الأسلامية . فقد اختفىٰ رسول الله (ص) في دار الأرقم ولم يخرج منها الا بعد أن قوي المسلمون وازداد عددهم أربعين رجلاً .

فقد كان لاختفاء النبي (ص) في تلك الفترة أمراً هاماً بعد تفاقم الأحداث وبعد أن بدأت قريش تلمس وجود تحرك معادي لها والىٰ جانب ذلك كان

احتجاب العناصر الجديدة عن الأنظار مسألة ضرورية في تلك الظروف التي أخذت فيها بعض القبائل القرشية تضيق الخناق على أبنائها الذين أسلموا .

وكانت الاتصالات مع النبي (ص) تتم بصعوبة قبل دخوله (ص) لدار الأرقم لكن بعد اتخاذ المقر السري أصبح الاتصال أمراً ممكناً في أي وقت ودون خشية من العيون .

ثانيها :

مضىٰ علىٰ بعثة رسول الله (ص) ثلاث سنوات لم يؤمن فيها الا ثلاثين نفراً بسبب سرية التحرك والدعوة وكان لا بد من تجاوز هذه المرحلة والاعلان عن الرسالة وللوصول الىٰ هذه المرحلة كان على رسول الله (ص) أن يعد صحابته إعداداً كاملاً حتىٰ يتمكنوا من مواجهة أخطار المرحلة العلنية من الدعوة واستدعىٰ ذلك ، التفرغ الكامل والأقامة مع المسلمين في مكان واحد لتوجيههم والاشراف على تربيتهم وإعدادهم إعداداً نفسياً وحركياً للفترة القادمة .

فكان دار الأرقم ، المكان المناسب لصقل النفوس وتهذيب الأخلاق بسبب احتجاز الأفراد عن البيئة الفاسدة ولتواجدهم حول قائدهم ومُربيهم في كل الأوقات ومعايشتهم له في الليل والنهار في النوم واليقظة ، في الأكل والشرب . فقد منحتهم هذه المعايشة فرصة الانصهار والالتصاق بقائدهم والاستلهام من أخلاقه الفاضلة فقد وفرت أجواء الدار والبرامج التي كانت تنفّذ فيها السبيل الىٰ التأثر بشخصية رسول الله (ص) وتجذر الايمان في أعماق نفوسهم ثم صياغة شخصياتهم في قالب اسلامي .

ويختلف المؤرخون في طول الفترة التي مكث فيها رسول لله في دار الأرقم بين شهر وأربع سنوات وقيل إن الرسول (ص) دخل دار الأرقم عدة مرات

ومكث فيها مدداً مختلفة . المهم ان الرسول (ص) لم يخرج من دار الأرقم إلّا بعد أن أعدّ العُدةّ وأكمل مهمات المواجهة التي كانت تنتظره لا محالة .

ثالثها :

نقطة اتصال : فقد شاع خبر الإسلام أرجاء الجزيرة العربية وكان هناك من يأتي الى الحجاز ليتعرف على الدين الجديد يُرسل الى هذه الدار ليجد رسول الله جالساً مع أصحابه يعلمهم الإسلام فيتعلم بدوره منه . فمع انتشار أخبار الدعوة كان لا بد من اقامة مركز سري لاستقبال العناصر حديثة العهد بالإسلام . واستقر في الدار عددٌ من المسلمين وهناك عددٌ آخر كانوا يقومون بمهام الاتصال الخارجي ، يخرجون لتنفيذ المهام ثم يلتقون في نهاية الأمر في تلك الدار التي اتخذت مركزاً لادارة نشر الدعوة الاسلامية .

الإعلان

كان من المحتّم أن تقفز حركة الرسول (ص) يـوماً من العمـل السري لتنطلق في أُفق أوسع . فالعمل السـري إذا طال سيحـرم الحركـة الكثير من المكتسبات أهمها الانتشار الأفقي . لكن وجود فترة من العمل السري أمرٌ لا بد منه تحتمه الضرورات الأمنية والتربوية ولم يك من السهل طوى هذه المرحلة والقفز عليها إلّا بايعاز إلٰهي .

وتجلت الحكمة في تحديد موعد اعلان الدعوة . إذ لم يكن التصريح بالرسالة مسألة زمن بل هي مسألة اكتمال الاستعـدادات في الحركـة وتمكين رجالها من خوض الصراع المرير والتهيؤ لمرحلة صعبة من المواجهة . فمن كل الأبعاد كانت الحركة الإسلامية مهيأة لخوض غمار الفترة الحرجة . فعلىٰ البعد السياسي كانت الهمسات تتطاير بين القبائل وهي تحمل أنباء الرسالة الجديدة وكـانت الأوضاع في الجـزيرة من نـواحي عديـدة على استعداد لتقبـل نهضة حضارية رسالية .

فالصراعـات القبلية وخصـوصاً في يثـرب وصراع الـديانـات كاليهـودية والنصرانية وبينها وبين الوثنية وتوعدات اليهود لعرب يثرب بظهور الرسول وانهم

سيتغلبوا على خصومهم .

ومن جانب آخر كانت استعدادات الفئة المؤمنة إذانٌ بانتهاء المرحلة السرية . فالعدد كان يبدو كافياً لتأمين مستوىٰ جيد من الانتشار ، والمستوىٰ الروحي الذي بلغته الجماعة المسلمة كان مؤهلاً لمواجهة التحديات التي تفرضها المرحلة العلنية .

وقد أنضمّ الىٰ الجماعة الأسلامية عناصر ذات ثقل كبير في المجتمع القرشي كحمزة بن عبد المطلب مما منح الحركة مقداراً من الحصانة والمناعة . إذ كان التصعيد في المواجهة من قبل قريش يصطدم بالحدود التي يشكلها الثقل المعنوي لتلك العناصر في المجتمع . ومن ناحية أخرىٰ كان انتشار الدعوة بين عدد كبير من القبائل يُشكل عائقاً أمام المجتمع الوثني إذا رغب في اعلان الحرب الشاملة . إذ ان وجود الاعتبارات القبلية كان يفرض نمطاً محدوداً من المواجهة . فكان يتلقىٰ اعلان الحرب من قبل قريش بمثابة اعلان حرب شاملة ضد كل القبائل العربية التي كان لها ممثلين في الصف الاسلامي . لهذا كان القسطُ الأوفر من التعذيب قدنال المستضعفين من المسلمين ضد العبيد ومن ليست لهم عشيرة تدافع عنهم كبلال وحباب وصهيب وآل ياسر .

فمن هنا جاء اقتران نزول الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (الشعراء ٢١٤) . مع بلوغ الاستعدادات مرحلة التكامل، وبها دشن المسلمون المرحلة العلنية من الدعوة .

وقامت أستراتيجية المرحلة العلنية على دعوة أقرباء النبي (ص) لعدة ضرورات هامة .

الأولىٰ : العمل على رص البناء الداخلي أول الأمر والانطلاق منه في توسيع الدائرة . فالاصلاح يجب أن يبدأ أولاً من الداخل حتىٰ يأتي البناء قوياً منيعاً .

الثانية : كانت عشيرة الرسول (ص) تضم عناصر جيدة مستعدة للأنخراط في صفوف الحركة اذا ما وجدت الفرصة المناسبة . وقد آمن معظم من دعاهم الرسول (ص) الى ذلك الاجتماع الهام ولو بصورة تدريجبة متباطئة بالرغم من عدم انضمامهم للمسلمين في ذلك الاجتماع للأجواء المتشنجة التي سيطرت على المباحثات مما دفعت بالكثير من الحاضرين الىٰ الاقتناع عن تأييد النبي (ص) ما عدا القلة .

الثالثة : كانت المواجهة مع قريش قضية حتمية . وكان هاجس الرسول في تلك الفترة هو تعبئة قواه كافة والاستفادة من الظروف في اقتحام أسوار المواجهة المحتملة .

فاذا ما قامت المعركة فإن عشيرته ستتحمل قسطاً من أعبائها حسب العرف القبلي الذي كان سائداً يومذاك .

فقد رأىٰ النبي (ص) أن يضع أقرباءه وأبناء عشيرته وهم أقرب الناس اليه في الصورة قبل أن يحدث شيء حتىٰ تأتي حمايتهم له علىٰ أساس من الوعي وليس علىٰ أساس العصبية القبلية .

وتتضح هذه المعاني عند مراجعة مفردات ذلك الاجتماع كما جاء في كتب السير .

كما نزلت آية الانذار دعا رسول الله (ص) علياً (ع) فأمره أن يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطلب ليكلمهم ويبلغهم ما أمر به . فصنع علي (ع) صاعاً من طعام وجعل عليه رجل شاة وملأ عساً من لبن ثم دعاهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً او ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبي لهب فأكلوا قال علي (ع) فأكل القوم حتىٰ ما لهم بشيء من حاجة وما أرى الا موضع أيديهم ، وأيم الله الذي نفس على بيده وإن كان الرجل الواحد منهم

ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال :

أسق القوم؛ فجئتهم بذلك العس ، فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً ، أيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله (ص) ان يكلمهم بادره أبو لهب فقال : لقد سحركم صاحبكم ، فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول (ص) فأمر علياً في اليوم الثاني أن يفعل كما فعل آنفاً وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم رسول الله (ص) يا بني عبد المطلب إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه أفضل مما قد جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، قال فأحجم القوم عنها جميعاً وقال علي : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال : ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[1] .

وجاء في بعض التواريخ ، لما رأى أبو طالب موقف أبي لهب وكيف كان يحاول إفشال الاجتماع وانهائه بلا نتيجة توجّه اليه قائلاً «يا عورة والله لننصرنه ثم لنعيننه . ثم ألتفت الىٰ رسول الله (ص) قائلاً له يا أبن أخي إذا أردت أن تدعو الىٰ ربك فاعلمنا ، حتىٰ نخرج معك بالسلاح»[2] ومقولة أبي طالب تبين طبيعة وأهداف الاجتماع الهاشمي فقد كانت الغاية بالاضافة الىٰ دعوة بني هاشم الىٰ الإسلام هي الحصول على تعهّد من أبناء العشيرة للوقوف الى جانبه عند وقوع المواجهة بينه وبين قريش .

---

(١) ذكر هذا النص الطبري في تاريخه: ج٢ ص٦٣ . ومختصر تاريخ أبي الفداء: ج٢ ص١٤ . وشواهد التنزيل: ج١ ص٣٧٢ الكامل لابن الاثير: ج٢ ص٦٢ ـ٦٣ السيرة الحلبية: ج١ ص٢٨٦ . ومسند أحمد: ج١ ص١٥٩ . وكثير من كتب التاريخ .

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٧ .

وكان للاجتماع أثر كبير على بني هاشم ، فعلىٰ رغم محاولات أبي لهب لافشال الاجتماع فقد أدىٰ غرضه من الانعقاد فأغلب الذين شاركوا وحضروا فيه تـأثروا بكـلام النبي (ص) واتخذوا مـواقف مشرفـة عندمـا وقـع الصـدام بين النبي (ص) وقريش على رغم كفرهم وهذا خلاف ما حاول البعض ان يُظهر الاجتماع وكأنه فاشل بالمرة وكان من نتائج الاجتماع انتشار خبر الدعوة ، فأقبل أصحاب القلوب والعقول النيرة من كل حدب وصوب وشهروا إيمانهم . أمـا المعاندين فازدادوا غيظاً على غيظهم فشرعوا حرباً لا هوادة فيها مستخدمين كل السبـل المتاحـة لتضعيف الشلال المتـدفق . وفي مثل هـذه الأجـواء تنضـج الشائعات وتصطخب الدعايات المغرضة فكان لا بُدّ من مـوقفٍ فجاءه الأمـر الألهي باعلان الدعوة .

﴿ فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انـا كفيناك المستهـزئين ﴾ (الحجر٩٤/٩٥) . فالآية حددت مهمات المرحلة :

الاسراع في ابلاغ الدعوة . وخطوط عامة للمرحلة الجديدة .

الاعراض عن المشركين وغض الطرف عنهم .

أما المستهزؤون مثيروا الدعايات المضللة . فانّ لهم ربهم بالمرصاد فهو سيكفل الرد عليهم فلا بأس على الـدعوة . فـامضى يا رسـول الله (ص) فإن الطريق سالك وإن لا خوف من أحد طالما كان الله معك .

ذهب رسول الله (ص) بقلب راسخ ونفس مطمئنة بوعد الله وبروح عالية بالاصرار والعزيمة وقـام على الصفا ونـادى قريشـاً من كل نـاحية ، فجـاؤوا يتزاحمون لسماع مقالته فقال لهم : أريكم لو أخبرتكم أن خيلاً في سفح هذا الجبل قد طلعت عليكم ، أكنتم مصدقي فقالوا بأجمعهم : نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط ، قال : اني نذير لكم من عذابٍ شديد ، يا بني

عبد المطلب ويا بني عبد مناف ويا بني زُهرة ويا بني تميم ، ويا بني مخزوم وأسد ومضىٰ يعدد أسماء القبائل ثم قال : إن الله أمرني ان أنذركم من عقابه واني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً الا أن تقولوا لا اله الا الله فنهض أبو لهب وكان رجلًا بديناً سريع الغضب وصاح به تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعت الناس فنزلت في حقه سورة ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ .

وبذلك الاعلان حسم رسول الله (ص) الأمر بينه وبين قريش . فقد اتضح أمر الدين الجديد لأهل مكة وعرف القاصي والداني ما جاء به محمد بن عبدالله ليس من قبيل ما كانوا يسمعونه ردحاً من الزمن على لسان نوفل بن عمرو وعثمان ابن الحويرث ، ادركوا بعد البيان الذي أدلىٰ به رسول الله إنهم أمام دين جديد مناهض للوثنية يدعو الى نبذ العصبيات القبلية ، يدعو العبيد الى الانفكاك من قيود العبودية . ويدعو الىٰ المساواة بين السيد والعبد وبين الرجل والمرأة .

وأخذت آيات القران الكريم تتلىٰ في العلن بعد أن كانت تقرأ همساً . .

ومنها عرف الجميع ماذا يقول الدين الجديد . .

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتىٰ يبلغ أشدهّ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط . . لا نكلف نفساً الا وسعها وإذا قلتم فأعدلوا ولو كان ذا قُربىٰ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

فكشفت هذه الآيات لأهل مكة معالم الدين الاسلامي فهو دين لا يرضىٰ بعبادة الأصنام ويعتبر ذلك شرك ويدعو الىٰ احترام الوالدين والاحسان اليهم ويحرم قتل الأطفال بسبب الفقر ويحرم التعدي على الآخرين . وهو دين يعمل

على اصلاح الإنسان من الداخل فإذا صلح الانسان وزكيّ عمله أصبح عنصراً نافعاً في المجتمع يحترم أموال اليتامىٰ ويوفي الكيل والميزان ويدعو الى التمسك بالعدل والانصاف في كل مناحي الحياة وحتىٰ في حديثه يجب عليه أن يصدق في القول ويعتبر ما تقدم من إلتزامات ميثاقاً بينه وبين ربه قبل أن يكون ميثاقاً بين الفرد والفرد الآخر فعليه أن يفي بعهد الله .

ففي هذه المرحلة لم يترك رسول الله (ص) شيئاً مبهماً بعد أن أوضح كل ما يتعلق برسالته وبات كل فرد في قريش وهو يعرف ما كان يجهله بالأمس عن الدين الجديد فلا حجة بعد ذلك أذا ما أبطأ في الاستجابة ولا حجة لمن وضع نفسه قبال الرسالة بعد أن عرف أهدافها الانسانية .

لقد حدق رسول الله (ص) الىٰ المستقبل بعين واعية فوجد إن المواجهة بينه وبين اسياد قريش مسألة حتمية ، فكان عليه أن يوقظ الناس ويدلي لهم بمعالم الرسالة حتىٰ اذا ما أعلنت قريش حربها سيعرف الجميع خلفياتها . ولم يبق شيئاً مخفياً فهذا هو الإسلام وهذه مبادؤه وتلك أهدافه . فلم يتوان البعض أن يسرع الىٰ رسول الله (ص) ليعلن عن أسلامه بقلب مطمئن بالايمان والأخلاص وكذلك لم يتخلف البعض الآخر عن اظهار ضغائن قلبه بضرب الرسالة في الصميم وهي في المهد بعد أن أدلىٰ النبي (ص) بكل شيء ولم يخفي موقفه من الوثنية والمتعبدين بها .

وهنا بدأ فصلٌ جديد من معركة الإسلام مع الشرك الجاهلي .

المواجهة

أدرك قادة الشرك في مكة مخاطر الدين الجديد على عباداتهم وعلى مكانتهم الدينية في الجزيرة العربية والذي سيكون له عواقب وخيمة على مركزهم التجاري بين القبائل .

ورسم هذا الهاجس خريطة العلاقة المتوترة بين قادة الشرك والرسول الأكرم (ص) .

ففي بداية الأمر أخذت المواجهة النمط السلمي ، إذ لم يكن هيناً على سادة قريش أن يقوموا بتصفية الحركة تصفية جسدية لانحدار المسلمين من أصلاب عشائرية مختلفة ومراعاة للمواقف المحتملة التي ستقفه عشيرة النبي (ص) .

وبسبب هذه المحاذير فضّل قادة قريش المواجهة السياسية علىٰ المواجهة الساخنة في بداية الصراع الذي نشب بينهم وبين رسول الله فكان أول ما قاموا به هو تشكيل وفدٍ للتفاوض مع رسول الله عبر عمه أبي طالب . اشترك في الوفد عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البختري بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن

المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونُبيه ومنبّه ابنا الحجاج ، جاؤوا الى ابي طالب قائلين له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا فانك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً فانصرفوا عنه .

وفي رواية انهم قالوا له إن لك سناً وشرفاً وانّا قد أستهيناك أو (استنهيناك) ان تنهي ابن أخيك فلم تفعل وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه آرائنا وعيب آلهتنا حتىٰ تكفه عنا أو ننازله وإياك حتىٰ يهلك أحد الفريقين . فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردهم[1] .

وواصل النبي طريقه واتسع نشاطه وامتد جمعه وانضمت اليه عناصر جديدة وتوتر الوضع من جديد فعادوا مرة أخرىٰ الىٰ أبي طالب بصفقة مغرية هي تنصيبه ملكاً عليهم ومشاركته أموالهم ويُقدموا له ما يشاء إذا تراجع عن دينه . فجاءه أبو طالب وحدثه بعروض القوم ثم قال له : إبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فأجابه الرسول بذلك الجواب الذي ظلّ خالداً في التأريخ والذي نمّ عن صمود واستقامة لا مثيل لها .

قال النبي (ص) رداً على عروض قريش . .

« يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ثم بكىٰ رسول الله (ص) وقام من مجلس عمه .

فتأثر عمه من هذا الموقف فناداه قائلاً له :

---

(١) الكامل: ج٢ ص٦٣.

ادن يا بن أخي مني ، فأقبل عليه رسول الله قال له :

اذهب يا ابن أخي وقل ما شئت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً وأنشد :

والله لـن يصـلوا اليـك بـجمـعهـم حتىٰ أوسـد في التـراب دفينـا[1]

وبهذا الموقف أحبط النبي (ص) خـطط قادة الشرك ولم يترك أمـامهم طريقاً للتفاوض بعد أن رفض كل العروض المغرية التي قدموها .

وعند ذاك فكروا بأن يرسلوا أحدهم ليتفاوض مباشرة مع النبي (ص) دون واسطة بعد الذي سمعوه من ابي طالب .

فأرسلوا عتبة بن ربيعة وكان سيداً من سادات قريش فقال لقريش وقد رأى النبي (ص) جالساً في جوار البيت وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل ببعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا قالوا بلى قم إليه يا أبا الوليد ، فقام إليه عتبة وجلس إلى جنبه وقال له : يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منها .

يا ابن أخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وان كان هذا الأمر الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . ومضى عتبة بن ربيعة

---

(١) الحسني : سيرة المصطفىٰ : ص١٤٩ .

يتحدث إلى النبي باسلوب هادىء لين محاولاً بذلك اغراءه واقناعه بالعدول والتراجع عن دعوته ، والنبي (ص) يستمع إليه ، فلما انتهى من حديثه ، قال له النبي : أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم : قال اسمع مني فأصغى إليه وهو يطمع أن يجد عنده ما يرضي قريشاً وأطماعها وكبريائها ، فقال :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ومضى رسول يتلو عليه ما بقي من السورة حتى انتهى من السجدة فخر لله ساجداً ورفع رأسه واتجه إلى عتبة وقال أسمعت يا أبا الوليد فلم يدرى بما يجيب ، وقام عنه ورجع إلى أصحابه مأخوذاً بجمال ما رأى وما سمع مدهوشاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه. فأدرك ان محمداً رجلٌ من نوع آخر من الرجال الذين عرفتهم مكة وعرفهم العالم. لكن قريش لم تهدأ وهي ترىٰ سرعة انتشار الإسلام وأنضمام شبابهم الىٰ تجمع المسلمين ففكروا بأن يعودوا الىٰ ابي طالب ويُغروه بعروضهم السخية بعد أن فشلوا في أقناع النبي بتلك العروض . جاؤوا الى ابي طالب للمرة الثالثة ومعهم عمارة بن الوليد أخو خالد بن الوليد فقالوا له هذا عمارة بن الوليد فتىٰ قريش وأشعرهم وأجملهم فخذه فلَكَ عقله ونصرته واتخذه ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفّه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله فانما رجل برجل فأجاب أبو طالب .

والله لبئس ما سمتموني اتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني لتقتلوه ، هذا والله لا يكون أبداً .

فقال أحد الجالسين وهو المُطعم بن عدي بن نوفل .

والله لقد أنصفك قومك وما أراك تُريد أن تقبل منهم فقال أبو طالب والله ما

أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك وامتعضت قريش من هذا الفشل فرأت أن تُشكّل وفداً من زعمائها للتفاوض مع النبي (ص) بصورة مباشرة عله تأخذه هيبتهم ويتأثر لكلامهم فيستجيب لهم .

فانطلق أبو جهل وأبو سفيان بن حرب والأسود بن المطلب والعاص بن وائل الى النبي وقالوا له يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فانك تعلم إنه ليس من الناس أحد أضيق منا بلداً ولا اقلُ ماء ولا أشد عيشاً فسل ربك الذي يفتيك بما تدعيه ليكشف عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهاراً كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعثه قصي بن كلاب فانه رجل صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وإنك رسوله كما تقول .

وربما اعتقدوا ان النبي (ص) سيضعف في الرد عليهم وانه سيترك دينه إذا ما عجز عن الايتان بتلك الأمور . وان المسلمين سيضعفوا أيضاً في إيمانهم بأحقية الرسالة وانهم سيزدادون قوة ومنعة بعد ارغام خصمهم للاعتراف بالعجز .

لكن رسول الله (ص) المطمئن من رسالته والواثق بأنه على الحق لم يتردد لحظة واحدة في الرد عليهم قائلاً لهم :

ما بهذا بعثت اليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم فإن قبلتموه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علّي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم بالحق وهو خير الحاكمين .

وجاء الوحي ليؤكد على هذا الموقف .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب

لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[1] .

وفشلت خطة قريش في بعث الوهن في نفس القائد كما كانت حصيلة المحاولات السابقة . لكن قريش مصممة علىٰ سواجهة المد العقائدي الذي أخذ يسرى الىٰ أبناء التجار وعبيدهم .

فكيف السبيل وقد فشلت كل المفاوضات المباشرة وغير المباشرة .

خطط جديدة لضرب الرسالة :

فكرت قريش بحلول أخرىٰ لضرب الرسالة بعد أن فشل أسلوب التفاوض . فشهروا سلاح الحرب النفسية فأوعزوا الىٰ شعرائهم بأن يهجوا النبي (ص) فشرع فريق منهم فيهم أبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبدالله الزبعري بنظم القصائد والنيل من النبي (ص) وفي المقابل قام فريقٌ من الشعراء المسلمين بالرد عليهم .

ثم سارعوا أيضاً بالضغط على اصهار النبي (ص) عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب لتطليق زوجاتهم وهن أم كلثوم ورقية وزينب تنكيلاً برسول الله (ص) فعدن بنات محمد (ص) الىٰ بيت الأب وهن يلعنّ ذلك المجتمع القاسي الذي حرمهّن من أزواجهن ، ولم يك سهلاً على النبي (ص) أن يشاهد بناته وهن مطلقات تركهنّ أزواجهن بسببه . . لكن ما الذي يستطيع أن يفعله إذا كان المجتمع الجاهلي قاسياً بتلك الدرجة . لكن ما كان بمقدور هذا العمل الدنيء أن يُضعف من عضده ويوهن من عزيمته على مواصلة الدعوة حتىٰ شوطها الأخير .

لم تكتف قريش بهذا القدر من التنكيل فقد أوعزت الىٰ الحاقدين من

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ١٨٨ .

ابنائها بالاستخفاف بالنبي (ص) وعلى رأسهم ابي لهب وزوجته أم جميل فكانا من أشد المشركين عليه . كان أبو لهب يطرح القذِرة والنتن على باب النبي (ص) إذ كان بيته بجوار بيته .

وممن استخدم سلاح الحرب النفسية ضد النبي (ص) الأسود بن عبد يغوث وهو ابن خال النبي (ص) وكان إذا رأىٰ فقراء المسلمين قال لأصحابه :

هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون مُلك كسرى .

وكان يقف قبال رسول الله (ص) ويقول بطريقة ساخرة .

أما كلمت اليوم من السماء يا محمد .

ومن أعضاء فريق الحرب النفسية الحارث بن قيس بن عدي السهمي وكان يقُول :

قد غرّ محمدٌ أصحابه ووعدهم ان يحيوا بعد الموت ، وكان الحارث يأخذ حجراً فيعبده فإذا رأىٰ أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني ، حتى نزلت فيه .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ .

ومن أعضاء هذا الفريق الوليد بن المغيرة وهو الذي جمع قريشاً وقال إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه فيقول هذا ساحر ويقول هذا كاهن ويقول هذا شاعر ويقول هذا مجنون وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه ساحر لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته .

ومنهم أُبي بن خلف ومن نشاطاته في الحرب النفسية أنه أخذ عظم فخذ

---

(١) ابن الاثير، الكامل: ج٢ ـ ص٧٠.

بالٍ ففتته في يده وقال للنبي (ص) وهو في جمعٍ من أصحابه :

زعمت ان ربك يُحيّ هذا العظم فنزلت . .

﴿ قال من يحي العظام وهي رميم ﴾ .

ومنهم العاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص وهو الـذي كان يشيع علىٰ النبي (ص) إن محمداً أبتر ولا يعيش له ولد ذكر وذلك بعد أن مات القاسم فنزلت في حقه .

﴿ ان شانئك هو الأبتر ﴾ .

ومنهم ايضاً النضر بن الحارث بن علقمة الذي كان يعقد الحلقات بجوار اجتماعات النبي (ص) ويتحدث عن قصص الفرس والروم لجذب الأنظار اليه وكان يشيع بني الناس إن ما يأتي به النبي (ص) ما هو الا أساطير الأولين .

ومن أعضاء هذا الفريق نُبيه ومنبّه ابنا الحجاج السهميان فكانا يلقيان النبي فيقولان له أما وجد الله من يبعثه غيرك! إن ها هنا من هو أحسن منك وايسر .

ومنهم عقبة بن أبي مُعيط فكان يـأخذ العـذرة ويضعها علىٰ بـاب بيت النبي (ص) ومنهم الأسود بن المطلب وكان يتغامز بالنبي (ص) ومعه أصحابه فيقول جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرىٰ وقيصر فيصفر أصحابه ويصفقون .

حفلات التعذيب

وتزامناً مع شن الحرب النفسية ضد شخص النبي (ص) قامت قريش بحرب شعواء ضد المستضعفين من المؤمنين بالرسالة . فانقضت على ابنائها وعبيدها مستخدمة ابشع أساليب القمع والتعذيب من أجل إبعادهم عن النبي (ص) .

تحولت قريش الىٰ وحش كاسر وغمدت مخالبها القوية في الأجساد الضعيفة التي هزلتها العبادة ولم يعترها أدنىٰ خجل أو حياء بما فعلته بأولئك الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة .

فتلك عائلة ياسر كانت آمنة في بيتها ، فرحة مسرورة باتباعها الدين الجديد الذي أنار قلبها للحق وفتح عقلها للعالم ولما يجرى فيه من ظلم واستحقار للقيم والمثل الانسانية .

أعضاء العائلة ياسر الأب ، سمية الأم عمار الابن كانوا في البيت عندما داهمتهم عصابة من قريش تعمل لمصلحة أبي جهل . دخلوا البيت بقوة أضرموا فيه النار وأخرجوا الثلاثة مقيدين بالأغلال وساقوهم بأسنة الرماح ورؤوس الحراب حتىٰ وصلوا بطحاء مكة فرموهم أرضاً وأخذوا يضربونهم من كل مكان

حتىٰ سالت الدماء من أجسادهم . . عندما تعبوا من الضرب سلطوا النيران على صدورهم وأيديهم وأرجلهم ثم جاؤوا بالأحجار الثقيلة ووضعوها على صدورهم فأُشيع خبر تعذيبهم فجاءت قريش لتتفرج . . وجاء رسول الله (ص) فأطلّ بعينيه ليشاهد ثمار رسالته وهي يانعة علىٰ شجرة الصمود والأستقامة .

فهؤلاء آل ياسر تتفجر من تحت السياط أصوات الرفض والمقاومة .

ما اروعه من موقف .

موقف الصمود . . وموقف القائد وهو يرى ثمار جهوده في أولئك الصابرون تحت السياط وكيف أصبحوا يتحملون النار المستعرة وكيف يواجهوا السباب والشتم بروح عالية ملؤها الصمود والتضحية والكبرياء تلك الروح التي صنعتها الرسالة وأوجدتها التربية والرعاية المباشرة لقد ازداد رسول الله ثقة برسالته وبأصحابه وهو أمام مشهد حي من مشاهد الايمان العظيم فأزداد يقيناً بأن المستقبل سيكون لهذا الدين وكيف لا وإن لهذا الدين رجالاً لا يتوانون في طريق الحق ولا يترددون في أهدافهم ولا يستسلمون للضعف ولا يذعنون للضغوط مهما كبرت .

وفي لحظات التأمل لا يسع القائد إلّا أن يوصل صوته الى المعذبين ليشّد على جراحهم ضمادة من الكلمات الدافئة .

صبراً آل ياسر . .

فاستيقظ المعذبون من غفوة التعذيب فرفعت سمية بصرها فوجدت النبي (ص) بين الجموع فانتهزتها فرصة ذهبية لاطلاق صوتها الثائر لعلها تستطيع ان تحرك الضمائر الميتة أو تستثير العقول المغروسة في الجهل المتصدأة بالخرافة .

أومأت بجفون ثقيلة من التعذيب ورفعت صوتها وسط الجموع وخرجت

نبرات من وسط العذاب وأشارت بأصابع ممزقة الىٰ رسول الله (ص) قائلة ـ ؛

أشهد انك رسول الله وإن وعدك حق .

ما أعظمها من كلمات وما أروع هذا الصمود . . وما أجمل هذا الحب وهذا الولاء الصادق .

لقد قالت تلك الكلمات لتكشف للعالم انها غير متراجعة وانها غير نادمة على متابعتها للنبي (ص) وبسرعة البرق نالت سمية ثمن تلك الكلمات ، فقد انقض عليها الجلادون من كل حدب وصوب يُشبعون منها ساديتهم فغشي عليها فلما أفاقت دنا منها أبو جهل وصاح بها :

لتذكرن وآلهته بخير ومحمداً بسوء أو لتموتن؟

فماذا سيكون جوابها؟ وهي متأكدة ان مصيرها سيتحدد باجابتها .

ما أصعب الموقف لكن ما أسهل الكلمات التي نطقتها سمية جواباً على أبي جهل .

بؤساً لك ولآلهتك .

وبوحشية يندىٰ لها جبين البشر أخذ يطعنها بحربة ويكرر الضربات حتىٰ قضىٰ عليها فذهبت الى خالقها أول شهيدة في الإسلام .

ولم يكتف الطغاة بهذا القدر من السادية فقد قرروا أن يواصلوا حفلة التعذيب على أجساد بقية الضحايا جاؤا الىٰ ياسر وهو مكبّل بالحديد عاري في وهج الشمس تلفحه حرارتها المحرقة فضربوه حتىٰ ألحقوه بزوجته .

ولم يبق من حفلة التعذيب الاّ الفصل الثالث فتجمعوا حول عمار فأهالوا عليه بالسياط والرماح والحراب وهم يُخيرونه بين الموت وبين ذكر آلهتهم بخير ويذكر محمداً بما يريدون فاضطر اليها فأطلقوا سراحه وسارع الىٰ النبي باكياً

متألماً لما صدر منه وهو يقول لم أُترك يا رسول الله وقد أكرهوني حتىٰ نلت منك وذكرت آلهتهم بخير .

فقال له النبي كيف تجد قلبك يا عمار .

أجابه انه مطمئن بالايمان يا رسول الله .

فقال فما عليك . . فان عادوا اليك فعد لما يريدون فقد أنزل الله فيك . **﴿ إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ﴾** .

ومشهد آخر من مشاهد التعذيب في تلك الصحراء المقفرة ذات الرمال الساخنة ، كان هناك عبدٌ أسود نحيف الجسم مفرط في الطول كث الشعر خفيف العارضين ملقاً على الحصىٰ وحوله عدد من الجلادين فيهم أمية بن خلف كانوا يواصلون ضربه تتعب أجسامهم وهو لا يتعب من ترديد أنشودة الصمود والمقاومة . . . أحدٌ . . أحدٌ . . أحد . .

فذاك بلال الذي أصبح رمزاً للمقاومة يعدل ألف سيد وهو عبد .

لقد استطاع النبي (ص) بفكره الوقاد ان يحوّل هذا الجسد النحيل الى عملاق في الصمود والىٰ ثورة بوجه الأعراف الجاهلية .

فقد حولت قريش جسده الىٰ مختبر جربت فوقه كل ما لديها من حقد وكراهية وتجبر وتكبّر .

وحين يصابون بالكلل يأتون بحجر مستعرة ينقله من مكانه بضعة رجال ويلقون به فوق جسده وظهره . . وهم في هذه الحال يطلبون منه أمراً واحداً وهو أن يذكر آلهتهم بخير حتىٰ لو يقولها بلسانه فكان يُجيبهم [إن لساني لا يُحسنه] .

لقد أبىٰ أن ينطق باسم اللات والعُزى لانه اعتقد ان مجرد النطق بهذه

العبارات هو تنازل بحد ذاته وهو يرفض أن يقدّم أقلّ تنازل واكتفىٰ بجواب واحد هو أحدٌ . . أحدٌ . . أحد وبين الفينة والأخرى كانوا يستبدلون طريقة التعذيب ، فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا أطفالهم أن يسخروا منه ويطوفوا به في شوارع مكة حتى يشاهده الناس فيصبح مثلاً للآخرين .

وعبثاً كان الأطفال يحاولون بضجيجهم أن يخمدوا صوت بلال وهو يرتل نشيد المقاومة أحدٌ . . أحد . .

فكانت كل القلوب وكل الحناجر وكل العبيد يتضامنون مع تلك النبرات .

لقد شاهد حفلة التعذيب الكثير . . من مؤيد ومن معاند . فرأوا في بلال عظمة الدين وعظمة القائد الذي صنع هذه الملحمة .

وربما تساءل حتىٰ الأعداء ما الذي يدفع بهذا العبد لأن يقف هذا الموقف ولا يرضىٰ أن يعطي أسياده حتىٰ نصف كلمة.

ومشهد ثالث من حفلة التعذيب بطله هذه المرة خباب بن الارث ، ذلك السياف الذي كان يصنع السيوف ويبيعها في أسواق مكة ، فقد هدىٰ الله قلبه للايمان فدفع ثمن إيمانه غالياً . كانوا يأتونه الىٰ داره ويأخذون الحديد الذي يستخدمه في صنع السيوف ويحمونه حتىٰ الاحمرار ثم يربطون به رجله ويده.

وفي مرات أخرىٰ كانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم يضعون الحجارة المحماة تحت ظهره حتىٰ ذهب لحمه .

وأم أغار وهي سيدة خباب قبل أن يصبح حراً كانت تشترك في بعض الأوقات في حفلة التعذيب فكانت تأخذ الحديدة الحارة وتضعها على رأسه طالبة منه أن يترك دينه ويعبد الأصنام .

وكان رسول الله (ص) يمر على تلك المشاهد لكي يعطي المعذبين

شحنات من الصمود حتىٰ يواصلوا مقاومتهم لمسلسل التعذيب لأن كل ما بناه كان يتوقف على صمودهم وتضحياتهم .

مرّ رسول الله (ص) يوماً على خباب وهو في حالة يُرثىٰ لها الحديد الساخن يشوي رأسه وهو عارٍ في الرمضاء تحت لهيب الشمس المحرقة فدعا له .

« اللهم أنصر خباباً » .

ولم يمض طويل على دعاء الرسول (ص) حتىٰ أُصيبت أم اغار بمرضٍ غريب فكانت تعوي كالكلب فأخبروها ان علاجها أن يُكوى رأسها بالنار . فقد قدر الله لها أن تتألم بمثلما كان يتألم خباب وان تنال ما كانت تفعله به .

لقد مرت فترة من المحنة هي أشد ما عرفها التأريخ الأسلامي وتأريخ الثورات من روعة في الصمود وتألق في سماء المقاومة والتحدي ويعود الفضل في تلك المشاهد الرائعة الىٰ رسول الله (ص) الذي كان رمزاً للمقاومة فمنه أخذ أصحابه درس المقاومة والتحدي فكانت لقاءاتهم مع طغاة قريش هي صورة مصغرة عن مواقف رسول الله (ص) مع هؤلاء الطغاة .

في تلك اللحظة العصيبة لم يهدأ رسول الله (ص) في تقوية معنويات أصحابه وبعث الصمود في نفوس أولئك الذين سيواجهوا حفلات التعذيب في كل يوم وليلة .

فكان يتنقل من مشهد الىٰ آخر يصب زيت الارادة في النفوس الكبيرة لتشتعل بالثورة ضد الوثنية وكان يزرع الأمل في النفوس إذ الأمل هو بلسم للجراح المعذبة . فقد اتفق عددٌ من الصحابة الذين كانوا ينالون التعذيب بالتقسيط اليومي مع خباب بن الإرت فجاؤوا الى رسول الله (ص) طالبين منه أن يدعو الله ليضع حداً لمعاناتهم . . قالوا للنبي :

يا رسول الله . . ألا تستنصر لنا؟؟

فـاحمر وجـه رسول الله فقـال لهم . . قد كـان من قبلكم يُؤخـذ منهم الرجل ، فيحفر له في الأرض ، ثم يُجاء بالمنشار ، فيجعل فوق رأسه ، مـا يصرفه ذلك عن دينه . ويُمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه .

وليتمنّ الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعـاء الىٰ حضرمـوت لا يخشىٰ إلاّ الله عزّ وجلّ والذئب على غنمه . ولكنكم تعجلون .

إذن لا شيء ما يلاقونه في قبال أولئك الذين كانوا يقطعـون بالمنـاشير وتمشّط لحومهم من عظامهم بأمشاط الحديد .

لا شيء ما يلاقونه في قبال ما سيحصلون عليه .

فان ما يجري عليهم لا يدوم . . وأن قريش لا يمكن أن تستمر الىٰ الأبد في ممارستها الشوفينية فما هي الاّ أيام أو أسابيع أو أشهر وبعده سيأتي الخير حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشىٰ أحداً إلاّ الله .

لقد وعدهم الله إنه سينصر دينه وأن يوماً ليس ببعيد سيأتي ليحكم هذا الدين الربوع كلها وسيأتي اليوم الذي ستمرّغ فيه أنوف أسياد قريش وطواغيتها .

فاذن ما هي الا ايام . . فالصبر والمقاومة .

وبهذه الروح واصل الأباة طريق المقاومة مستهينين بالعذاب غير مُبالين بالضغوط بهذه الروح استطاع المسلمون ان يمرغوا انوف الطغاة وأن يدفعوهم الىٰ الاستسلام والاذعان لارادة الله .

فمسلسل الإضطهاد يصهر النفـوس ويصنع منهـا قالبـاً إيمانيـاً واحداً ، والمسلمون كانوا بأمس الحاجة لأن يجتازوا تلك المحنة ويتذوقوا طعم الشدائد

ليخرجوا من مدرسة المقاومة رجالاً أقوياء ولتعدهم إعداداً جيداً للمستقبل ولشدائده وأهواله .

إن مصير الأسلام أصبح مرهوناً بصمود تلك الجماعة القليلة الملتفة حول النبي (ص) ، وأن أهوال المستقبل أشدّ وأعنف وان مواجهتها بحاجة الى اعداد . وأجواء مكة في تلك الفترة كانت الميدان الأفضل لاعداد الطليعة المؤمنة .

فلولا تلك المحن وذاك الاضطهاد الذي لقيه المسلمون لما كان سينتصر الاسلام في بدر والخندق وخيبر ، ولما كان يجرأ أحدهم ليقف ذلك الموقف الذي وقفه عبدالله بن حذافة أمام كسرى ملك الفرس .

إن الأمم الخالدة تبدأ من نطفة . . وكلما كانت النطفة قوية كانت الأمة قوية أيضاً . وهذا هو الذي اراده رسول الله (ص) فقد بذل كل جهدٍ من أجل هذه النطفة الخيرة فقد رعاها بكل ما يملك ومنحها كل اهتمامه حتىٰ أصبحت نواة النطفة المباركة لولادة خير أمة أخرجت للناس .

والأمة لا تتسلق المجد إلّا بالتعب والنصب . ولا تصبح قوية إلّا بالشدائد والمحن ، فهي في الشدائد تزداد ثقة بالنفس وتتضاعف علائقها بقائدها ويزداد تشبثها بأهدافها ، وهذه هي سمات الأمة الخالدة .

ثقة واعية بالنفس .

وثقة عالية بالقيادة .

وانشداد نحو الأهداف .

لكن لم يكن سهلاً على رسول الله (ص) أن يرى اصحابه ورفاق دربه وهم مرميين فوق الرمال الحارة وفوق صدروهم الصخور الحامية وهم يتعرضون

الى التنكيل والتعذيب بأقصىٰ صورة .

كيف يتمكن ذلك القلب العطوف الـذي يرتجف لألم هـرة أن يشاهـد أصحابه وأعزته ومن سارع فآمن به وهم يئنون تحت سياط الشياطين ويتألمون تحت حراب الطغاة .

والىٰ متىٰ يستطيع المسلمون أن يتحملوا كل هذا العذاب وعلىٰ ما يبدو إن قريش غير منفكة عن ارواء حقدها الدفين من جسد المستضعفين .

فما الحيلة والقوم يزدادون حقداً على الرسالة .

ويتضاعفون في شراستهم وتنكيلهم . .

صوب الحبشة :

لم يك هناك مفرٌ سوىٰ الخروج عن مكة . .

فمع مجيء شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة أمر رسول الله (ص) أصحابه أن يتوجهوا صوب الحبشة سِراً . لوضـع حد لعمليـات التصفية التي شملت بعض الصحابة كياسر وسمية ولايجاد قاعدة جديدة للأنطلاق .

لكن لماذا الحبشة؟

لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ولبعدها عن مكة ثانياً فالمسافة الطويلة ستحول دون ممارسة قريش لطغيانها وثالثاً لضعف النفوذ المكي على السلطة الحاكمة في الحبشة بخلاف المناطق الأخرى التي يحظى فيها المكيون بنفوذ واسع .

وفي غسق الليل ، انطلق خمسة عشر من المسلمين فيهم أربع نساء هم الوجبة الأولىٰ من المهاجرين الى الحبشة (الذين ناهزوا الاثنين والثمانيين نفر)

فسارعوا للوصول الىٰ جدة حيث كانت السفن الراسية بانتظارهم .

وبنصف دينار عن كل راكب استطاع المسلمون أن يطووا صفحة من حياتهم ويبدأوا حياة جديدة على أرض أخرىٰ . . لكن هل سيكونوا بمنجا من أولئكَ الطغاة الذين أدمنوا على تعذيب المستضعفين .

واستيقظت قريش على أنباء مزعجة تهددهم في الصميم لأن الهجرة الىٰ الحبشة كانت تعني خروج الإسلام من قبضتها الحديدية .

فتحت طائل الخوف من انتشار الإسلام سارع المكيون الى ارسال وفدٍ رفيع المستوىٰ الىٰ النجاشي ملك الحبشة وحملّوه هدايا كثيرة للملك واستطاع الوفد أن ينفذ الىٰ بطارقة الملك ويقنعهم بضرورة مساعدتهم على استرداد المسلمين . . لكن أبىٰ الملك ذلك الا بعد أَن يسمع رأي المسلمين بالتهمة الموجِهة اليهم بأنهم ابتدعوا ديناً جديداً لهم .

وتم اللقاء ، وكان لقاءاً تأريخياً ، حيث استطاع المسلمون أن يقلبوا حسابات الوفد المكي . فقد انبرى جعفر بن أبي طالب ليُجيب على سؤال الملك حول ماهية الدين الجديد بكلمة رائعة ذكرها كل المؤرخين .

فنزلت كلمات جعفر كالصاعقة على رؤوس الوفد الذي لم تسعفه الهدايا ولم تنفعه العلاقات السابقة فقد انهزموا أمام أولئك القلة الذين كانوا موضع سخرية لهم . ولم يتصوروا يوماً من الأيام انهم يقفون هذا الموقف الضعيف الذليل أمام من اعتبروهم عبيداً وأفراداً من الدرجة السفلىٰ .

ولم يمر ببالهم أن يصبح للمسلمين هذا المنطق وهذه القوة في الحجة والبيان وهم الذين كانوا الىٰ الأمس حفاة فقراء فما الذي صنع بهم ذلك؟

وهنا تبرز أمامنا القيمة الحقيقية للفترة الهامة التي قضاها رسول الله (ص) في إعداد هؤلاء الكوادر الذين امتازوا بقدرة فائقة على المواجهة السياسية

والاعلامية . فإذا كان هناك فضل في مثل هذه المواقف فالفضل كله يعود الىٰ الخُطة الحكيمة التي اتبعها رسول الله في بناء تلك العناصر القيادية ورعايته المستمرة لها حتى أصبحت بمستوىٰ المواجهة من حيث المنطق والشجاعة النفسية والجرأة الأدبية .

وكانت خيبة أمل للوفد ان يخرج من قصر الملك بدون نتيجة ، فماذا سيقولون لقريش وماذا سيجيبونهم وهم ينتظرون منهم النتيجة ليحتفلوا باعادة المسلمين قهراً الىٰ مكة ماذا سيكون جوابهم لأولئك الذين أرسلوا معهم الهدايا وكلهم ثقة بقدرة الوفد على التأثير في الملك ثم على استرداد المسلمين .

وهكذا لم يرتض الوفد العودة الىٰ مكة دون أن يكسب المعركة فسارع الىٰ التفكير بدسيسة أخرى وفي الغد جاء الىٰ الملك ليقولوا له إن المسلمين ليقولون في عيسىٰ بن مريم قولاً عظيماً فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه واعتقدوا بأنهم سيربحوا هذه الجولة لأن المسلمين لا يسعهم الجواب ومهما كانت اجاباتهم فانها ستُغضب الملك .

وعلى الفور طلب الملك من حاشيته أَن يدعوا جعفر فطلب منهم الاجابة على ذلك السؤال وبلا تردد قال جعفر نقول فيه الذي جاء به نبينا يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الىٰ مريم العذراء البتول . فأخذ النجاشي عوداً وخطّ به على الأرض وقال ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط ثم قال للمسلمين .

اذهبوا فأنتم آمنون .

وصعق الوفد لهذه النتيجة غير المنتظرة ولتلك الاجابة البليغة التي تنم عن نضج وتكامل في الشخصية .

فعادوا الىٰ مكة بأيدي خالية وظل المسلمون في الحبشة بعد أن ربحوا

الجولة ووجدوا هناك مأمناً مناسباً للعيش وللدعوة . وجاء في بعض التواريخ ان النجاشي قد أسلم بعد أن أدرك سلامة الدين الاسلامي . واذا أُريد وضع هذه التجربة في دائرة التقييم فانها تعتبر من التجارب الناجحة التي خاضها المسلمون في فترة التحرك المكي . وهي تكشف عن مدىٰ ما بلغه المسلمون من حنكة سياسية وقدرة على المناورة للتخلص من الأعداء . وبالاضافة الىٰ هدف تأمين الجانب الأمني للمسلمين هناك هدفٌ آخر هو عقد علاقات سياسية مع زعيم أقرب دولة الىٰ مكة بعد أن تيقن المسلمون من سلامة السلطة وسلامة نهج ملكها وجودة البيئة كمحطة للبناء والانتشار .

ولم يقع الاختيار على الحبشة كمأوى لبعض المسلمين إلاّ بعد أنّ قدّر رسول لله (ص) الموقف بكل حذافيره ودرس الوضع العام الاجتماعي والديني . فاستنتج ان وجود المسلمين في تلك البقعة سيشكل عامل ضغط قوي على المشركين وسبعطي للحركة بُعداً سياسياً هاماً وخصوصاً إذا ما استطاع المسلمون من التأثير على السلطة الحاكمة وهذا الذي تحقق فعلاً . فقد آمن النجاشي بالاسلام ولم يرغب في الاعلان عن ذلك خوف انقلاب الوضع عليه . وقيل إن الحركة العصيانية التي وقعت في الحبشة كانت بسبب تمايله للإسلام ، وهذا ما يُبرز الدور الفاعل للمسلمين فهم لم يتحولوا الىٰ عملاء للسلطة هناك بل على العكس من ذلك تمكنوا أن يقنعوا ملك تلك الدولة باعتناق دينهم . ويعود السبب في نجاح هذه التجربة الىٰ عاملين اثنين .

الأول : الخطة الحكيمة التي تم على أساسها سفر المهاجرين الىٰ الحبشة من التوسل بالكتمان ودقة في التنظيم . العامل الثاني هو حسن اختيار العناصر القيادية في المجموعة فاختيار جعفر ببلاغته وحنكته السياسية كمسؤول عن المجموعة عامل هام في نجاح التجربة . فلولا الوقفة الباسلة التي وقفها جعفر أمام الملك لما كان المسلمون بقادرين على احراز هذه المكتسبات في الحبشة .

القبضة الحديدية

أصبح التخوف من انتشار الدين يدفع بزعماء الشرك في مكة الىٰ تصعيد نهجهم في ضرب مواقع المسلمين بلا رحمة ولا شفقة بمختلف السُبل . فقد واصلوا هجومهم على المسلمين بلا كلل ولا تعب فثمة دوافع عديدة أوجدت الحالة العدائية ، فلم تقتصر تلك الدوافع على المعوقات الاقتصادية التي ستطرأ نتيجة انتشار الإسلام وبالاضافة الىٰ ذلـك هناك العـالم العقائـدي الّذي سعّـر من نيـران المواجهـة وأجج الحقـد والكراهيـة في نفـوس المشـركين فحصـر المواجهة بين المشركين والمسلمين بالعامل الاقتصادي فقط هو محاولة لتفسير الصراع المبدئي الذي خاضه المسلمون بالمادية الجدلية وهو التفسير المشوه الذي يحاول الماركسيون الصاقه بالتأريخ الإسلامي .

ومن يتامل طبيعة المواجهة يدرك إنه لم يك صراعاً اقتصادياً . فقد عرضوا على النبي (ص) عروضاً مادية مغرية لكي ينفك عن دعوته ويتوقف عن مواجهة الآلهة .

ثم إن استمرار قريش في المعركة بلا انقطاع عرض الكثير من مصالحها الاقتصادية الـىٰ الـخـطر وجعلها مشغولة بحرب رسول الله بدلاً من التفكير في

تنميـة مواردهـا التجاريـة فبسبب البلبلة التي أحدثتهـا معركتهـا المستمرة مـع المسلمين خسرت الكثير من اسواقها .

ومن جانب آخر كان المسلمون علىٰ الطرف الآخر من الصـراع رجال عقيدة ومبدأ لم يشغلهم شيء من حطام الدنيا في مواصلة درب النضال من أجل العقيدة الإسلامية فهم قد تحملوا الأذىٰ والصعاب وتحملوا الجوع من أجـل العقيدة ، وهذا برهانٌ على خطأ التصور المادي في تفسير الصراع الإسلامي الجاهلي ولعل اروع نموذج ضربه المسلمون في التجرد عن ملذات الدنيا هو استعدادهم لتقبل الحرمان الكامل في شعب ابي طالب زهاء ثلاث سنوات .

لقد كانت السنين التي أعقبت الاعلان عن الرسالة سنين مواجهة لم تهدأ لحظة واحدة ، وإذا ما هدأت معركة تفجرت أخرى في موقع آخر .

فقد خيّم بعض الهدوء على مكة في أعقاب هجرة بعض المسلمين الىٰ الحبشة وبعث فريق من رجـالات قريش للتحـاور مع ملك الحبشـة من أجل استردادهم . فقد كانت قريش بانتظار ما ستسفر عنه محاولة وفدها الىٰ الحبشة فخلدت الىٰ الهدوء ومما أجبرها على اتخاذ هذا الموقف ما وقع بين حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل والذي تُوّج باسلام حمزة فقد وقع ذلك كالصاعقة علىٰ قريش وأحس المسلمون بقوة اضافية تتسرب الىٰ سواعدهم . لكن لم يك هدوء قريش الّا موقتاً إذ عادت الىٰ ممارسة نهجها العدواني بأبشع ما يمكن بعد عودة الوفد وهو يحمل الفشل الذريع .

ولفترة قصيرة من الهدوء فكّر بعض المهاجرين بالعودة عندما تسربت أنباء مفادها ان هدنة غير معلنة قامت بين النبي (ص) والمشركين ، لكن ما أن وصل البعض منهم حدود مكة حتىٰ سمعوا بتغير الموقف الىٰ ما هو أسوء إذا أعلنت قريش مقاطعة كاملة اقتصادية واجتمـاعية ضـد المسلمين وضد من يقف الىٰ

جانبهم وفي طليعتهم بني هاشم . إذ كان للعلاقات العائلية والقبلية التي لم يمسها الإسلام بسوء ذات أثرٌ هام في التأريخ الإسلامي . واستثمر الرسول (ص) في بداية أمره هذه الخصلة الحميدة في المجتمع المكي عندما دعىٰ عشيرته الىٰ مائدة الطعام كما سبق ذكره وأول ثمرة برزت من ذلك الاجتماع هو موقف العائلة من مسألة الحصار . وقد حدث فعلاً بعض الوقائع التي كان للعائلة موقف مشرف .

ففي احدىٰ المرات افتقد أبو طالب محمداً فلم يجده فاستولىٰ عليه الخوف مما قد سيحدث لابن أخيه فسارع الى جمع الشباب من بني هاشم وقال لهم ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارعة واتبعوني فاذا دخلت المسجد فليجلس كل واحد منكم الىٰ جانب عظيم من عظمائهم وليقتله إذا كان محمدٌ قدْ قُتل ففعلوا ما أمرهم به وقبل أن يبدأ بتنفيذ الخطة جاءه زيد بن حارثة فأخبره بسلامة النبي (ص) وفي الصباح جاء أبو طالب ومعه النبي (ص) فأخذ بيده ووقف قبال زعماء قريش وهم في أنديتهم وحوله فتيان بني هاشم فأخبرهم بما كان يريد أن يفعله لو انهم أصابوا محمداً (ص) بسوء وأراهم السلاح الذي أعدّه لهذه الغاية فانكسر القوم وكان أكثرهم انكساراً أبو جهل .

فوقوف بني هاشم الىٰ جانب النبي (ص) أفشل مخططات قريش للنيل منه وأقضى مضاجعها خصوصاً موقف أبي طالب الذي كانت له حظوة ومكانة عند القبائل .

من هنا قامت محاولات جادة للفصل بين النبي (ص) وبين بني هاشم بهدف استفراده فيمكنهم تصفيته حينذاك . وما إعلان المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية إلاّ محاولة دنيئة لتعريض المسلمين الىٰ نوع جديد من الضغوط عليهم يتركوا دينهم ، فكتبوا كتاباً يتعاقدوا فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً ، ووقع على

الصحيفة أربعين نفراً من زعماء قريش ثم علقوها في جوف الكعبة ، وجاءت نتائج هذه المحاولة كسابقتها فقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب الىٰ رسول الله وفضلّوا الانتقال الىٰ مكان أكثرُ أمناً فاختاروا شعب احدىٰ الجبال فتخندقوا فيه، وقام جمع من قريش بمراقبة مداخل الشعب لئلا يدخل اليه أحد ، فكانت الموءن تصل الى منطقة الحصار بصورة سرية بواسطة أفراد معينين . ولعبت أموال خديجة (من الطعام) دوراً هاماً في تغطية حاجات المحاصرين ، لكن امتداد الحصار لثلاث سنوات في بعض الروايات أدىٰ الىٰ نفاذ الامكانات المادية للمسلمين واضطرهم الىٰ تناول ورق الشجر لسد الرمق كما ورد في الأخبار .

وكان أبو طالب (ع) يباشر بنفسه حراسة النبي (ص) في أغلب الأوقات أو يوكل المهمة الىٰ أحد أبناءه في حالة غيابه إذ كانت انباءاً قد تسربت عن وجود مؤامرة لاغتيال النبي (ص) في نفس الوقت كان هناك جمعٌ من قريش يتواجدون طول الوقت خلف الشعب يترصدون التحركات ويتصيدون الأخبار داخل الشعب وإيغالاً في الحصار كان بعض التجار يشترون السلع بأثمان باهظة حتىٰ لا تصل بأيدي المسلمين .

أما المحاصرون فكانوا يقضون طول الوقت في الشعب إلّا في فترات العمرة والحج حيث كانوا يخرجون ليعودوا بسرعة .

وللأسف فالأخبار التي ذكرها المؤرخون عن الفترة التي قضاها رسول الله في الشعب قليلة للغاية مع أهميتها . ويُرجح إن رسول الله (ص) قد استثمر وجوده بين أصحابه وأقربائه في انماء الحس الايماني وفي التثقيف والبناء ، وهذا ما يمكن ملاحظته بعد خروجه من الحصار فقد انطلق بخطة عمل جديدة وبأساليب وطرق جديدة في التحرك سنأتي على ذكرها انشاء الله ومما ساعده على تطبيق هذه الخُطة الطريقة الفذة التي تم بها فك الحصار .

فهناك صورتان ذكرهما المؤرخون في كتبهم عن فك الحصار .

الصورة الاولى كما وردت في أمهات كتب التأريخ؛ إن هشام بن عمرو ابن الحارث كان ممن يقوم بتأمين بعض الحاجيات الأساسية ولم يذكر التأريخ عنه شيئاً سوىٰ إنه أخ لأحد المحاصرين .

لما رأى هشام ما ألمّ بالمحاصرين مشىٰ الىٰ زهير ابن أبي أمَيّة بن المغيرة المخزوميّ ، أخي أمّ سلمة ، وكان شديد الغيرة على النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، والمسلمين ، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطّلب ، فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث علمتّ؟ أما إنّي أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم ، يعني أبا جهل ، ثمّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك أبداً . فقال : فماذا أصنع؟ وإنّما أنا رجل واحد . والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها . فقال : قد وجدتَ رجلاً . قال : ومَن هو؟ قال : أنا . قال زُهَير : ابغنا ثانياً، فذهب إلى المُطْعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بني عديّ ابن عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه؟ أماَ والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنّهم إليها منكم سراعاً . قال : ما أصنع؟ إنّما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتَ ثانياً . قال : من هو؟ قال : أنا . قال : ابغنا ثالثاً . قال قد فعلتُ . قال : من هو؟ قال : زهير بن أبي أميّة . قال : ابغنا رابعاً . فذهب إلى أبي البَخْتريّ بن هشام وقال له نحواً ممّا قال للمُطعم ، قال : وهل من أحد يُعين على هذا؟ قال : نعم . قال : من هو؟ قال : أنا وزهير والمطعم . قال : ابغنا خامساً . فذهب إلى زَمَعَة بن الأسود بن المطّلب بن أسد ، فكلّمه وذكر له قرابتهم ، قال : وهل على هذا الأمر معين؟ قال : نعم ، وسمّى له القوم ، فاتّعدوا خَطْم الحَجون الذي بأعلى مكّة ، فاجتمعوا هنالك وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة . فقال زهير : أنا أبدأكم .

فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت ثمّ أقبل على الناس فقال : يا أهل مكّة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكَى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتّى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . قال أبو جهل : كذبتَ والله لا تُشَقّ . قال زَمَعَة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حين كُتبتْ . قال أبو البَخْتريّ : صدق زَمَعة ، لا نرضى ما كُتب فيها : قال المُطْعم بن عديّ : صدقتما وكذب من قال غير ذلك . وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . قال أبو جهل : هذا أمر قُضيَ بليل وأبو طالب في ناحية المسجد .

فقام المُطْعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلاّ ما كان : باسمك اللهمّ ، كانت تفتتح بها كتبها ، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عَكْرِمة ، فشلّت يده .

أما الصورة الأخرى لخروجهم من الشعب فقد ذكرت في جميع كتب السيّر بهذه الصيغة .

أرسل الله الأرضة فأكلت ما في الصحيفة من ظلم وقطيعة رحم وتركت ما فيها من أسماء الله تعالىٰ فأخبر جبرائيل النبي (ص) بذلك وهو بدوره أخبر عمه أبي طالب الذي سارع وتوجّه الىٰ الحرم فاجتمع بزعماء قريش وقال لهم إن ابن أخي أخبرني إن الله أرسل على صحيفتكم الأرضة فأكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم وتركت اسم الله تعالى فأحضروها فإن كان صادقاً علمتهم انكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا ، وإن كان كاذباً علمنا انكم على حق وأنا على باطل فقاموا سراعاً وأحضروها فوجدوا الأمر كما قال رسول الله (ص) فهلّل وجه أبي طالب ورفع صوته عالياً ، قد تبين لكم انكم أولىٰ بالظلم والقطيعة .

فنكسوا رؤوسهم حياءاً وخجلاً لما حلّ بهم .

والمرجح ان الصورتين قد وقعتا في آن واحد فعمل خطير كفك الحصار كان بحاجة الىٰ خطة حكيمة والىٰ رعاية آلهية تقف الىٰ جانب نبيه فاولئك النفر الذين تحركوا بتلك الصورة ضد المقاطعة استطاعوا بعملهم المنظّم أن يكونوا رأياً عاماً مُضاداً للمقاطعة ، لكن هذا ـ الرأي العام ـ لم يك كافياً لنقض قرار المقاطعة إذ مثل هذه المهمة بحاجة الىٰ عمل أكبر قد لا يتسنَ لأنسان القيام به . وهنا يأتي دور المعجزة في زحزحة الوضع القائم وإيجاد منفذ لتغيير القرار . فالمؤكد ان كبرياء آولئك الطغاة لم يسمح لهم بالاستسلام الا بعد أن افتضح أمرهم وكشفت المعجزة عن بطلانهم . فأصبحوا عاجزين عن الكلام إلاّ أن يهمس الواحد منهم في أذن الآخر انه سحرٌ وبهتان .

لقد أنقلب الأمر عليهم وفسح المجال أمام رسول الله (ص) لان يتحرك بحرية أوسع وبمساحة أكبر من الرقعة البشرية في مكة .

مهمات ما بعد الحصار

خرج رسول الله (ص) من حصار قريش باستراتيجية جديدة هي توسيع نطاق المجموعة التي آمنت به لتتحول الىٰ كتلة بشرية قادرة علىٰ الحركة بحرية كافية .

كانت استراتيجية الرسول (ص) تقوم على تحويل المسلمين من دور الطليعة الىٰ دور المجتمع وذلك .

١ ـ التحرك على قطاع واسع من القبائل والعشائر في انحاء الجزيرة العربية والخروج بالدعوة من نطاق مكة لاضافة مجاميع أخرىٰ الى الكيان الإسلامي .

٢ ـ البحث عن مكان مناسب لأقامة أول تجربة في بناء المجتمع الرسالي الذي تسوده قيم التوحيد والعدل وتتحكم به مبادىء الإسلام الحنيف . فقد خرج رسول الله (ص) من حصار الشِعب وهو مؤمن بأن مكة لم تعد في الوقت الحاضر مكاناً مناسباً لتوطين المجتمع الذي يطمح اليه لأنه مهما توسع في القاعدة البشرية فهو يظل محاصراً من قبل زعماء قريش فكان لا بد من البحث عن مكان آخر يستطيع فيه المسلمون أن يجدوا فيه الحرية الكافية لممارسة

طقوسهم الدينية ولاقامة نظام العدالة التي جاء بها النبي (ص) والذي سيجد فيه المناخ المناسب لتربية المجتمع الإسلامي على أسس جديدة وقواعد رصينة .

وكان الوحي يواكب نمو وتطور المسيرة الإسلامية في تلك الفترة خطوة فخطوة . ففي مرحلة البناء تركزت اشارات الوحي نحو ترسيخ عقيدة التوحيد أما في فترة العمل العلني فقد انصبت نحو كيفية المواجهة ومعالم الصراع وأصبحت الآيات تمدُّ المسلمين بالزاد الذي يحتاجونه في هذا الطريق اللاهب بالعذاب والآلام ، كما جاءت الآيات لتضيف الىٰ خبرة المسلمين أساليب وطرق جديدة في النضال السياسي .

* ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ .

* ﴿ **وأخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين** ﴾ .

* ﴿ **فإن عصوك فقل اني بريء مما يعملون** ﴾ .

* ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر وثيابك فطهر . . .** ﴾ .

* ﴿ **وأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** .

* ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ .

ويمكننا ملاحظة التعليمات الضرورية في تلك المرحلة . خفض الجناح ، الأعراض عن المشركين . الظهور بالمظهر اللائق . ثم يمكن ملاحظة ما يريد به الله أن يُثبت فيه الرسول في هذه المواجهة ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ .

وبعد أن توسعت الدائرة البشرية للكيان الإسلامي كان لا بد لهذا الكيان من أن يتحول الىٰ مجتمع قوي متراص ثم ليصبح أمة علىٰ امتداد القبائل وكان الوحي يواكب هذه المرحلة أيضاً أولاً بأول كما سنلاحظ .

عام الإحزان :

كانت السنة العاشرة من البعثة التي خرج فيها النبي (ص) من الحصار سنة المهمات الصعبة حيث لم يهدأ لحظة واحدة مستثمراً كل وقته في التحرك والنشاط حتىٰ وقع الحادث الجلل الذي بدأ يغيّر مجرىٰ المسيرة الإسلامية فقد ارتحل الىٰ الآخرة اثنان من أشدّ المساندين هما أبو طالب وخديجة ، فقد كان أبو طالب بموقعه الاجتماعي وباصراره العنيد في الدفاع عن النبي (ص) وبتأثيره القوي علىٰ البيت الهاشمي سنداً معنوياً وسياسياً للحركة الإسلامية فقد كانت قريش تهاب أيّ تحرك يفضي الىٰ المواجهة مع أبي طالب لذلك النفوذ الواسع الذي كان يمتلكه ، ليس في مكة وحسب بل حتىٰ خارج مكة أما خديجة فقد كانت بموقعها الهام في نفس النبي (ص) ولدورها المؤثر في البذل والعطاء سنداً منيعاً يضفي علىٰ المسيرة القدرة علىٰ مقاومة الضغوط .

لقد فقد النبي (ص) في ثلاثة أيام ركنين من أركان الدعوة الإسلامية فسُمىٰ ذلك العام بعام الحزن فهناك أشياءٌ كثيرة افتقدها بفقد أبي طالب على رأسها الغطاء الأَمني والحماية السياسية التي وفرها وجوده .

فاليوم من سيحميه من أذىٰ المشركين ومن سيدفع عنه كيدهم وأين يجد ذلك المدافع الذي لم يبخل بالدفاع عنه وهو حتى في فراش الموت حيث أحس أبو طالب بدنو أجله وأخذ يفكر بما سيجري على ابن أخيه من بعده وانهم سيتطاولون عليه متىٰ ما عرفوا بموته .

وجاءه زعماء قريش لعيادته فوجدها فرصة ذهبية كان عليه استثمارها . . التفت اليهم وهم من حوله؛ لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم أمره فأطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم[1] .

---

(١) الحسني ، سيرة المصطفىٰ : ص٢٠١ .

وأحسّ زعماء قريش بدنو أجل أبي طالب فعادوا اليه عله يتوسط بينهم وبين النبي (ص) فلعل النبي (ص) قد لآن قليلاً بعد الذي لاقاه في الشعب وإنه بدأ يُفكر بصورة واقعية وهو يشاهد دنو أجل عمه وما سيلاقيه من بعده فهي اذن فرصة ثمينة ومن المحتمل أن يكون دافعاً آخر في قبول عروضهم .

جاءوا في اليوم الثاني وصادف وجود النبي (ص) بجوار عمه يخفف عنه آلام المرض .

فقالوا له : يا أبا طالب ، انك منا حَيث قد علمت وقد حضرك ما ترىٰ ، فضع حداً للخصام بيننا وبين ابن أخيك فخُذ له منا ، وخذ لنا منه ليكفّ عنا ونكفّ عنه ، ويدعنا وديننا وندعه ودينه .

عرضٌ سخي يسيل له لعاب كل سياسي يُفكر بمنظار المصلحة الموقتة ويُفكر بوضع حد للمضايقات والضغوط التي تواجهه وربما جال في خلد أصحاب العرض إن محمداً سيوافق على مقترحهم لا محالة لأنهم قد أبدوا له كل تنازل بأن يتركوه وشأنه ويتركهم لشأنهم وهذا يعني اعلان الهدنة بصورة رسمية بين الطرفين لكن وعلى غير ما كانوا يتوقعون أخذ النبي (ص) بأطراف الحديث ووجّه كلامه لزعماء قريش قائلاً لهم :

أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .

فتململ جمعهم وامتدت الأعناق لهذا العرض السخي وهو أسخىٰ مما عرضوا عليه .

التفت أبو جهل ووجّه ببصره الىٰ النبي (ص) قائلاً وعلامات الدهشة والفرح بادية علىٰ محيّاه ونعم وأبيك وعشر كلمات لا كلمة واحدة!!

لكن لم يدم فرح أبي جهل عندما أستمع لبقية كلام الرسول (ص) .

قال لهم النبي (ص) :

تقولوا لا اله إلاّ الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

ومن هول الصدمة أجابوه أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً . . وقاموا من المجلس وبعضهم يهمس في أذن البعض والله إن هذا الرجل لا يعطيكم شيئاً مما تريدون .

وأرتحل أبو طالب قرير العين بعد أن وضع كل ما لديه في سبيل الرسالة . أرتحل ونفسه راضية بأنه دافع عن ابن أخيه وعن رسالته حتىٰ آخر لحظة ولم يألُ جهداً في توفير الحماية الكافية للكيان الإسلامي الناشيء .

ومع موته أحست قريش بالانفراج وإنها الآن أصبحت قادرة علىٰ النيل من النبي (ص) بعد رفضه كل تلك العروض ، فأعدت نفسها لجولة جديـدة من الاستحقار والظلم فجاءه أحدهم ورمىٰ رأسه الشريف بالتراب فأسرع الىٰ البيت والتراب لا زال على رأسه فقامت اليه عزيزته فاطمة وجعلت تغسل عنه التراب ودموعها تهطل من مآقيها . . لم يك سهلاً على الوالد أن يشاهد أعز بناته وهي تبكى ودموعها تقطر فوق خديها . . لقد تعذب أهل هذا البيت كثيراً ونالوا خلال عشر سنوات ألوان المحن والآلام . . أما آن لهذا العذاب أن ينقطع . . لقـد تفردوه عندما وجدوه وحيداً بعد أن غاب عنه المعين أبو طالب .

وما بالهم . . أيدعوهم الىٰ الحرية والىٰ الحياة السعيدة وهم يمسكون حرابهم بوجهه .

يُريد خيرهم فيجيبونه بالتراب والحجارة . . فما أغلظ قلب الانسان عندما تنطفىء فيه شعلة الضمير . . وما أتعسه عندما يفقد احساسه فيصبح لا يميز بين ما ينفعه وما يضره .

أرادوا اذلاله بتلك الأساليب الدنيئة لكنه أبىٰ الذل ووقف شامخاً متحملاً

كل تلك الصعاب وما أصعبها من لحظات مرت على تلك الفتاة التي فقدت أمها بالأمس واليوم وهي ترى أباها يطرق عليها الباب بتلك الصورة المفجعة .

أما كان من حقها أن تذرف تلك الدموع الساخنة . . فبالأمس كانت خديجة واليوم فاطمة . . فاطمة هي المسؤولة عن راحة أبيها . . لكنها لم تستطع ضبط مشاعرها الجياشة وهي تستقبل أباها وهو ترب الرأس .

وأدرك الأب ما في قلب أبنته وماذا يجول في خاطرها . .

أراد أن يخفف عنها وقد آلمه بكاءها . .

لا تبكي يا بنيه . .

فانّ الله مانع أباك . .

وكأنما وضع بتلك الكلمات البلسم علىٰ جراح فاطمة . .

فالله قد وعد رسوله بالنصر . . فلا يهم ما يلاقيه في هذا الطريق إذا كان بعين الله وبعين التأريخ الذي سجلّ هذا الموقف بأروع صورة للصمود والصبر .

البحث عن موقع أفضل

ادرك الرسول (ص) إن قريش غير تـاركة إياه وهي ساعيـة للقضاء على حركته مهما كلفها ذلك من ثمن، ولم يعد وجوده في مكة بعيداً عن الخطر بعد أن غاب المعين (أبو طالب).

والمشكلة لم تعد محصورة فيه وحده ، فقد كان وجوده هو وأصحابه في مكة يحول دون الأنطلاق الى أفق أوسع فكان عليه أن يبحث عن مكان يستطيع فيه ترسيخ دعوته، ثم ينطلق بها الىٰ أماكن أخـرى. فوقـع أختياره للوهلة الأولى علىٰ الطائف ، وهي مدينة جبلية تقع على السفوح الشرقية لسراة الحجاز لا تبعد عن مكة كثيراً وهي ترتفع عن سطح البحر (١٦٣٠ متراً) مما جعلها ذات مناخ معتدل صيفاً وشتاءاً وتحيط بها أودية تخزن كميات كبيرة من الماء هي وادي العقيق ووادي المحرْم ووادي ليّة . وقد منحتها هذه الخصائص الجغرافية مكانة مرموقة في التأريخ فكانت تنتج التمور والحبوب والرمان والعنب وتتاجر بمنتجاتها مع تجار مكة ، أضف الىٰ الانتاج الزراعي كانت الطائف تعتبر من أفضل المصايف لأهالي مكة حيث كانوا يقضون فيها فترات الصيف الحارة وكـان البعض من أغنياء قريش يستثمرون أموالهم في الزراعة في هذه المدينة بحثاً عن الـربح

ولهذين السببين أصبح الطائف مكاناً يتردد عليه الأغنياء والتجار من قريش .

وأصبحت العلاقة بين ثقيف القبيلة العربية التي سكنت الطائف وقريش من أوثق ما عليها العلاقات القبلية في الجزيرة العربية في وقت كانت فيها القبائل تتطاحن فيما بينها ولهذا السبب بالذات لم يلق رسول الله (ص) التجاوب من زعماء هذه المدينة . فقد مكث في المدينة عشرة أيام يعقد اللقاءات مع زعماء ثقيف لعله يجد أذناً صاغية لكن ما سمعه منهم ليس بأفضل مما سمعه من زعماء قريش وكأن ما بينهم وبين قريش من علاقات قد جعلتهم علىٰ نمط واحد من التفكير والعقلية ولون واحد من التعامل مع الإسلام .

قال أحدهم ساخراً :

انني أمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وآخرَ قال له :

أما وجد الله أحداً يْرسله غيرك .

ومقولة أخرىٰ تلقاها من نفر ثالث :

والله لا أكلمك أبداً . لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لَأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فتركهم النبي (ص) بعد أن يئس منهم وطلب منهم أن يكتموا أمره ولا يشيعوا خبر اتصاله بهم . . لكنهم لم يكتفوا باذاعة الخبر بل دفعوا بصبيانهم وسفهائهم بأَن يرموه بالحجارة من كل جانب فلم يكن يرفع قدماً ولا يضع أخرى إلّا على حجارة فالتجأ الىٰ بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وقد صادف وجودهما هناك وهما يتفقدان مزرعتهما . . فأخذ منه التعب والاعياء فوقف على قدمين تنزفان دماً فلم يستطع الوقوف طويلاً فاتكأ الىٰ شجرة كانت في البستان .

فيا لها من لحظات عصيبة في حياة القادة الذين يبذلون راحتهم ويُضحون بوقتهم الثمين من أجل الآخرين لكن في لحظات يجدون أن أتعابهم ذهبت أدراج الرياح ما بال آولئك الغلاظ الذين نسوا كل القيم وداسوا على أعرافهم في إكرام الضيف ، ما بالهم يعاملوا رسول الله بهذه الصورة .

وماذا يريد منهم غير النجاة والصلاح .

أما كان الأفضل لهم أن يمنحوا أنفسهم لحظة واحدة لسماع ما يقوله هذا الزائر الذي ظل ولعشرة أيام وهو يتكلم معهم . أما يكفيهم هذا العناد حتىٰ أمروا عبيدهم أن يصرخوا بوجهه|وأمروا أطفالهم أن يسبوه ويرموه بالحجارة .

هي لحظات رهيبة سجلها التأريخ بكثير من الشموخ . .

وقف رسول الله متكئاً على شجرة رافعاً يد التضرع الىٰ السماء غير نادمٍ علىٰ الطريق الذي سلكه وغير متأثر لما لحق به من اهانه وتعذيب . في تلك اللحظات التي يتخلىٰ فيها الصديق والقريب وتتراكم على الدعاة المشكلات والمصائب كغيوم الشتاء الكاملة في تلك اللحظات لن يجد الداعية مؤنساً سوىٰ ذكر الله ولن يجد شيئاً ألذ من التوجه الىٰ الله فهو النصير بعد خذلان الآخرين وهو المدافع عندما ينزوي الآخرون فليس للقلب المتألم في تلك الساعة ما يخفف أوجاعه ويضمدُ جراحه غير السفر إلى الله ليبثّ شجونه الىٰ خالقه ثم ليستمّد منه القوة والصلابة .

وهكذا فعل رسول الله (ص) وهكذا كان دأبه في الملمات . .

أدار طرفه ونبس من القلب . . .

اللهم اليك أشكو ضعف قوتي .

وقلة حيلتي .

وهواني على الناس . .

يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين .

وأنت ربي .

الىٰ من تكلني الىٰ بعيد يتجهمني أم الىٰ عدوٍ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ على سخطك .

لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ . . ولا حول ولا قوة إلا بك .

فأذاب بتلك العبارات حتىٰ الصخر الأصم وتململ اثنان من اعدائه كانا يجلسان الىٰ جواره ، فأخذتهما الرأفة لحاله . . وهما عتبة وشيبة ابنا ربيعة . . والأول هو السفير الذي بعثته قريش للتفاوض معه إذ عاد من مهمته فاشلاً أمام اصرار النبي (ص) في رفض أيّ عرض من عروض قريش في مقابل التنازل عن مبادئه .

فتحت تأثير ذلك الموقف أرسل عتبة بعبده عداس ومعه قدح فيه قليلاً من العنب .

وسارع عداس واقترب من النبي (ص) واضعاً القدح بين يديه . وأخذ يُراقب كل سكنة وحركة تبدر من هذا الرجل الغريب الذي ملأ أسمه وخبره الآفاق .

مّد رسول الله يده الىٰ العنب قائلاً بسم الله . . فكانت أول ملاحظة يسجلها هذا الغلام الفطن ، بسم الله لم يسمعها من قبل في هذه البلاد .

وعلى طبق العنب جرىٰ هذا الحوار بين النبي والنصراني . .

* نصراني ، من أهل نينوىٰ .

ـ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

وبدهشة أجاب الغلام .

ـ وما يدريك ما يونس بن متى؟ .

* ذاك أخي . . كان نبياً وأنا نبي .

وتوالت الملاحظات في ذهن الغلام وتسارعت الأدلة لتجتمع في محطة واحدة لتكشف على عظمة هذا الرجل الذي يجلس قبالَه وتيقن بأنه نبي مُرسل وإنه لا يختلف عن عيسىٰ ويونس وكل الأنبياء .

فأكبّ على الرسول (ص) يوسعه لثماً وتقبيلاً ولم تنفع تحذيرات سيده في الابتعاد عنه .

في ضيافة الله

حـامت حـول الاسـراء والمعـراج جـدال حمـل وسقيم ودارت حـولـه الاختلافات والمناقشات حول كل فقرة من فقرات هذا الحدث العظيم وكاد هذا الجدل العقيم أن يمحي الصورة الرائعة التي تجلت في هذه السياحة التي قام بها الرسول (ص) الىٰ عالم الملكوت وكادت هذه الاختلافات أن تشطب على الغاية السامية لهذه الرحلة الإلهية.

وليس مهماً متى وكيف وأين وقع الحادث وليس من الضروري التـأكيد على صحة هذا الرأي وسقم الرأي الآخر أو ترجيح أحد الرأيين . . المهم أن ندرك تلك المعاني المُشرقة التي تجلت في حـادثة الاسـراء والمعراج والتي جعلتها من أهم الأحداث التي وقعت في التأريخ الإسلامي .

ومهما اختلف المؤرخون في تأريخ هذه الحادثة فانهم يجمعون إنها كانت عقب هجرة النبي الىٰ الطائف وقبل هجرته الىٰ المدينة .

وهاتان النقطتان الزمنيتان ترسمان لنا معالم هذه الحادثة العظيمة فما لقيه النبي (ص) في الطائف وما سوف يعد نفسه للمستقبل هي التي تُبين لنا موقعية الاسراء والمعراج بين الحدثيين.

فالكشف عن دور الأسراء والمعراج يقتضي بنا دراسة وضع الحركة في تلك الفترة العصيبة ودراسة الضرورات المرحلية التي تفرزها طبيعة التحولات في تلك الفترة الزمنية ولعل أهم هذه الضرورات هي . .

١ ـ تكريم القائد الذي عان طوال السنوات الماضية من الآلام والمصائب وقاسىٰ ألوان المحن وأنواع الاهانات كان آخرها ما لقيه في الطائف .

٢ ـ إشعار المسلمين بأنهم ليسوا إلّا حلقة من حلقات حركة التوحيد التي جاء بها الأنبياء وانهم يتصلون بأولئك الأنبياء العظام بخط واحد هو خط التوحيد .

٣ ـ اقرار أصحاب الديانات السماوية بسلامة وصحة الدين الجديد وإن الإسلام هو الدين الذي يجب أن يعتقدوا به لأنه امتداد للديانات السماوية الأخرى فكان صلاة الأنبياء خلف الرسول (ص) يحمل هذا المعنىٰ الكبير .

٤ ـ ضرورة استزادة المسلمين في إيمانهم وثقتهم بالرسالة وبالرسول قبل أن يخوضوا غمار المرحلة القادمة وما فيها من صعوبات جمة .

٥ ـ كان لا بُدّ من تشخيص المتذبذبين وأصحاب الايمان الضعيف الذي يهتز مع أقل ريح . كان لابد من تصفية العناصر الضعيفة المتزلزلة وتطهير التجمع الرسالي منهم لأنه يتأهب لخوض صراع مرير .

تحسيس المشركين بأخطائهم وانهم لا حجة لهم بعد اليوم في محاربة الإسلام بعد أن تأكدّ لهم صحة الدين الجديد وإنه من الله العلي القدير .

فجاءت حادثة الاسراء والمعراج لتحقق حاجات تلك المرحلة الحاسمة من تأريخ الدعوة الإسلامية . فالحادثة في جوهرها ضيافة إلهية لتكريم الرسول (ص) ولتثبيت قلبه بعد كل الذي لقيه من أعداء الرسالة .

فقد جاءت هذه الضيافة مباشرة بعد تلك العبارات الموجعة التي قالها رسول الله ، إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أُبال . . فقد دعاه الله الىٰ السفر الىٰ أعماق ملكوته ليُظهر حبه وتكريمه لرسوله وليريه ما لم يشاهده في حياته وما لا سيشاهده أحدٌ من الأحياء ولينقل اليه أسرار الخليقة ويُـريه مصيـر الانسان الصالح والانسان الطالح .

فقد كانت سياحة الىٰ عالم يشتاق لرؤيته كل إنسان وهي فضل من الله لم يتفضل به علىٰ أحد إلّا على حبيبه ورسوله محمد (ص) الذي بذل كل شيء من أجـل الله فضحىٰ بأعـز الناس اليـه عمه وزجتـه وواصل طـريقه غيـر عـابيء بـالمعانـدين والسفهاء والجهـلاء . وتجلت في الحادثـة العلاقـة بين الإسـلام والديانات السماوية الأخرى واتضح للمسلمين من خلال هذه الحادثة إن رسالة نبيهم ورسالة الأنبياء الآخرين تستلهم من معين واحد وإن على المسلمين أن يتحملوا كما تحملّ الأوائل في عهد إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ .

وفي استقبال عيسىٰ وموسىٰ وإبراهيم ويحيـىٰ للنبي الأكرم دلائل واضحة لاصحاب الديانات بأن محمد بن عبدالله علىٰ خط أولئك الأنبياء العظام وإن عليهم ان يتبعوه كما تبعه أنبيائهم فلا حجة لهم بعد ذلك في رفض الرسالـة الإسلامية .

وكان الاسراء ابتلاءاً صعباً لأصحاب النفوس الضعيفة التي صعقت عند سماعها بالخبر فعادت الىٰ الكفر وكان تطهيرهم من هؤلاء أمرٌ ضروري للتجمع الذي يستقبل مرحلة جديدة فكان لا بُد من تمييز العناصر الضعيفة ثم نبذها بتلك الصورة . أما المؤمنون الذين ازدادوا إيماناً بعد سماعهم أخبار الأسراء والمعراج وازدادوا يقيناً بأحقية الرسالة كانوا بحاجة الىٰ المزيد من العلاقة الروحية مـع القائد ليستطيع أن يتحرك بهم الىٰ مرحلة جـديدة ومهـام جديـدة فقد سلطت الحادثة الضوء على عظمة القائد وعلى قدرته الخارقة في الاتيان بما لا يتمكن

عليه أحد وهذا ما يزيدهم صلابة في انتمائهم وقوة في ولائهم للقائد . وبعد أن جاء رسول الله (ص) وأعطىٰ الأدلة الكافية علىٰ صدق الاسراء والمعراج وتأكد المشركون من سلامة تلك الأدلة العينية التي شاهدها النبي (ص) في طريق عودته فلم يكن أمامهم سوىٰ الاعتقاد الجازم بصدق ما يقوله النبي (ص) وما جاء به من عند الله وانهم لا يمتلكون اية حجة بعد اليوم في مواصلة عنادهم .

استراتيجية جديدة في التحرك :

بدأ الرسول (ص) بخطة جديدة بعد أن قفل راجعاً من الطائف فوجد مكة ثائرة ضده سافرة عن كل ما تكنه من حقد وضغينة فكان عليه أما أن يعدل عن قرار العودة الىٰ مكة أو أن يحتمي بأحد الوجوه المعروفة والقادرة على توفير الحماية اللازمة له . فعرض الأمر على جمع من الشخصيات المكية فيهم الأخنس وسهيل بن عمرو فرفضا طلبه متعللين بحجج واهية وكانت الأمور في مكة قد تفاقمت بصورة لم تدع لآحد الجرأة في اجارة النبي (ص) الّا مطعم بن علي حيث كان حوله جمعٌ من أهل بيته يحملون السلاح وقد تمنطقوا بأسلحتهم وخرجوا الىٰ قريش معلنين عن قرارهم في إجارة النبي (ص) فوجدها النبي (ص) فرصة ذهبية لمواصلة تنفيذ بنود استراتيجية توسيع الدائرة البشرية للكيان الإسلامي للحصول على الموقع المناسب لإقامة أول دولة إسلامية .

فعلىٰ صعيد توسيع نطاق الدائرة البشرية قام رسول الله (ص) بحركة واسعة لعرض الإسلام على القبائل فأجتمع بسادة قبيلة كندة في منازلهم فدعاهم الىٰ الله وعرض عليهم دعوته فأبوا ثم ذهب الىٰ فرع من قبيلة كلب هم بني عبدالله فقال لهم إن الله عزّ وجلّ قد أحسن أسم أَبيكم وقد أخترتكم علىٰ سواكم فعرض عليهم أن يسلموا فلم يقبلوا منه ثم ذهب الىٰ بني حنيفة فردوه بصورة بشعة ثم أتى قبيلة بني عامر بن صعصعة وتم اللقاء في مكة وفي موسم الحج

فعرض عليهم الإسلام فأبدوا بعض التجاوب إذ قال رجلٌ منهم يُدعى بحيرة بن فراس والله لو اني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم التفت الىٰ الرسول (ص) وقال له أريت إن نحن تابعناك فأظهرك الله علىٰ من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فأجابهم النبي (ص) بلسان لا يعرف المساومة ،ولـم يـرد انتهاز الفرصة على حساب المبدأ قال لهم الأمر الىٰ الله يضعه حيث يشاء .

فقال له بتأسف : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا ظفرت كـان الأَمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك[1] .

وعنـد عودة أفـراد القبيلة والتفافهم حـول شيخهم الـذي لم يتمكن الأشتـراك معهم في رحلة الحج ، سألهم الشيخ عما شاهدوه في المـوسم فقالـوا جاءنـا فتىٰ من قريشٍ من بني عبد المطلب يزعم إنه نبْي ودعانا لأن نمنعه ونقوم معه وتخرج به الىٰ بلادنا . فوضع الشيخ يديه علىٰ رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف . والذي نفسي بيده ما تقولها اسماعيلي قط وإنها لحق ، وأين كان رأيكم عنه .

وظل رسول الله يعرض الإسلام علىٰ القبائل قبيلة إثر قبيلة فسار الىٰ بني محارب وفزارة وغسان ومُرّة وسليم وعبس وبني نضر والحارث بن كَعب وعُذرة والحضارمة دون أن يستجيب منهم أحد وكان يرافقه في تلك المهـام الشاقـة والمملوءة بالمخاطر بن عمه علي بن أبي طالب وفي بعض المرات زيـد بن حارثة .

وبعـد فترة من الـزمن انتهىٰ النبي (ص) بنتيجة هي ؛ إن وجـود قريش بتحالفاتها وروابطها وهيمنتها علىٰ مكة وما حولها هو السبب في أمتناع القبائل

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٩٣.

وعدم قبولها لدعوته .

فقريشٍ تفرض هيمنتها علىٰ معظم القبائل في جزيرة العرب وكانت تتبادل معها المصالح الاقتصادية في نطاق نظام الايلاف بالأضافة الىٰ الهيمنة الدينية التي كانت تفرضها على سكان الجزيرة فكان على كل صاحب دعوة ان يحطم هذا الحاجز لكسر قيود الهيمنة القرشية على القبائل ونظرة فاحصة الىٰ القبائل التي قابلها النبي (ص) ودعاها الىٰ الإسلام نجد انها كانت تنتمي في الغالب الىٰ شبكة العلاقات الاقتصادية التي صنعتها قريش لتأمين خطوطها التجارية في جزيرة العرب واستعملت قريش كل وسائلها لعرقلة تحرك النبي (ص) نحو القبائل وبالأخص تلك التي كانت تأتي الىٰ مكة في مواسم الحج وكان أشد ما كان يرعبها هو امتداد الدعوة خارج مكة مما سيعرض كيانهم الوثني الىٰ خطر حقيقي . فاجتمع الزعماء وتشاوروا فيما بينهم عما سيواجهونه من مواقف صعبة وهذه أيام الحج باتت قريبة منهم .

اقترح بعضهم أن يصفونه بالكهانة فرفض الوليد بن المغيرة ذلك وكان الاجتماع قد تم بدعوة منه .

وقال آخرون نقول عنه إنه مجنون لكن الوليد ظلّ لا يقبل بجميع تلك المقترحات وأَقترح عليهم أخيراً أن يقولوا إنه ساحر في بيانه يُفرق بين المرء وزوجه وبين الانسان وأخيه وكان من أشد المحاربين له حرباً نفسية عمه أبو لهب فكان يدور بين القبائل ليقول لها إن محمداً كذابٌ وإنه عمه يشهد على كذبه لكن عزم النبي (ص) على مواصلة نشاطه ، ثم اعجاب القبائل بكلامه ورغبتها في الاستماع اليه وهي الكلمات التي جاء بها من عند الله والتي لم يسمعوا بها في حياتهم فهي ليست بسحر ولا يمكن أن يتهم من يقول هذه الكلمات من الله بكاذب فهم قد سمعوا كلام البشر هم أهل البلاغة والفصاحة وليس صعباً عليهم أن يميّزوا بين كلام يقوله البشر وكلام آخر يعجزون عنه واستاءت قريش

لأنها فشلت في استخدام سلاح الدعاية فوجهت أنظارها الىٰ النضر بن الحارث القصاصّ الذي يمتلك القدرة الكبيرة في جذب السامعين فأخذ النضر ينتهز كل فرصة يكونُ فيها محمد (ص) بين قومه يدعو الىٰ الإسلام ، كان هو أيضاً يجلس ليقص عليهم حكايات الفرس وعباداتهم ثم يقول للمسلمين بماذا يكون محمدٌ أحسن حديثاً مني أليس محمد يتلوا من أَساطير الأولين ما أتلو . ثم أخـذوا يشيعون إنّ غلاماً نصرانياً اسمه جبر هو الذيّ يُعلم محمداً أكثر ما يأتي به . وكان رسول الله (ص) يكثر من الجلوس عند المـروة وكان في العـادة يتزامن جلوسه هناك مع وجود هذا الغلام الذي يبيع بضاعته في المروة .

وعلى رغم الاخفاقات فقد واصل النبي (ص) دعوته لكل من يتوسم فيه الخير في مواسم الحج وصادف في تلك الأعوام توتر في الأجواء السياسية في يثرب بين قبيلتي الخزرج والأوس بتـدبير من اليهـود فشهدت مكـة وفوداً من القبيلتين جاءت لاجراء بعض التحالفات لتعزيز مواقفها في قبال خصومها فكان أن قدم وفدٌ من خزرج بزعامة أبو الحيسر أنس بن رافع ومعه بعض من بني عبد الأشهل وكان الهدف من زيارتهم هو التحالف مع قريش[1] لكسب ميزان القوة الىٰ جانبهم وقبل أن يُجروا إتصالاتهم التقىٰ بهم النبي بعد أن عرف الغاية من سفرهم وقال لهم ؛ أنا رسول الله بعثني الىٰ العباد ادعوهم الىٰ أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب . . ثم واصل النبي الحديث معهم عن تعاليم الإسلام تالياً عليهم بعض آيات القرآن فتأثر أحد أعضاء الوفد لحديث النبي وهو اياس بن معاذ وكان شاباً صغيراً فقال لأصحابه :

اي قوم هذا والله خيرٌ مما جئتم له فأخذ انس بن رافع حفنة من التراب وضرب بها وجه أياس وقال دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا .

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٩٥.

وما أن عادوا الىٰ يثرب حتىٰ وقعت حرب بُعاث بين الأوس والخزرج .

النفوذ الى يثرب :

وجّه النبي (ص) اهتمامه صوب يثرب لتصبح قاعدة إسلامية قوية حيث كانت مقسمة علىٰ نفسها تفتك بها الحروب ، فأصبح يترقب مواسم الحج للالتقاء بعناصر يثربية وجرىٰ لقاء آخر وآخر وفي إحدىٰ اللقاءات حالف النبي (ص) الحظ بالتقائه بجماعة من بني عفراء فسألهم الىٰ أي القبائل ينتسبون فقالوا له من الخزرج .

فقال لهم امن موالي يهود أنتم فأجابوا نعم . فجلس معهم وعرض عليهم الإسلام ودعاهم الىٰ الله عزّ وجلّ وتلا عليهم شيئاً من القرآن فوجد في عيونهم التجاوب وفي قلوبهم اللهفة لسماع المزيد من الآيات .

وكان بين اليهود وبين هذه القبيلة مواقف متشنجة وحديث مرير ووعدٌ ووعيد . وكلما كانت تتفجّر بينهم المشاكل كان اليهود يسارعون لاطلاق تهديداتهم بالنبيّ الذي ينتظرون قدومه وكانوا يقولون لهم ان نبياً قد بُعث الآن وقد أطل زمانه وسنتبعه ونقتلكم قتل عادٍ وارم[1] .

وقد تركت هذه الخلفية أثر كبير على موقف القبيلة من دعوة الرسول (ص) وقد تأكدوا من حديث محمد (ص) إنه هو النبي الذي يقصده اليهود فأخذوا يتهامسون بينهم قائلين إنه والله النبي الذي كان يتوعدونكم به ، فلا يسبقنكم اليه . فأعلنوا في الحال موافقتهم وقالوا للنبي (ص) « انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم وعسىٰ الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الىٰ أمرك والىٰ الدين الذي أجبناك عليه» ثم مضوا الىٰ مدينتهم وكانوا

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الجزء والصفحة.

ستة أنفار شرعوا يتحدثون عما شاهدوه وسمعوه في مكة حول الرسالة داعين الآخرين من أبناء عشيرتهم الىٰ الاقتتال لهذه الدعوة ولم يمض وقت طويل حتىٰ ازداد عددهم وتسارعت الأيام وجاء موسم آخر للحج فوجدوها فرصة ذهبية للالتقاء بالنبي (ص) فقدم اثنا عشر من الرجال والتقوا به سراً في العقبة ، فأخذ النبي منهم البيعة علىٰ أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقون ولا يزنون ولا يقتلون أولادهم ولا يأتون البهتان واستنتج رسول الله (ص) من اللقاء بأن يثرب هي المكان المناسب لأنتشار الدعوة الالهية . فقد كانوا في العام الماضي ستة أنفار فازدادوا خلال سنة واحدة الىٰ الضعف بفعل تحركهم الذاتي برغم غياب العنصر الخارجي .

والتبليغ كالزراعة والمبلغ كالمزارع يبذر البذرة فاذا نمت الىٰ نبتة فسيعرف بأن هذه البيئة صالحة للزراعة .

فعندما لاحظ النبي (ص) تزايد عدد المسلمين الأنصار وشاهد بنفسه المعنويات العالية التي يحملونها أخذ يوجّه كل خططه ونشاطاته نحو إيجاد قاعدة متقدمة من المسلمين في يثرب فأرسل مصعب بن عمير مع الوفد عند عودتهم الىٰ وطنهم .

مهمة خارج الحدود :

استبشر النبي (ص) بالانجاز الذي حققه في يثرب والذي شكل تطوراً محسوساً علىٰ مسيرة الدعوة . فكان عليه أن يستثمر الواقع الجديد في دفع حركة الإسلام المتصاعد وانتهىٰ موسم الحج وها هم الذين آمنوا من أهالي يثرب يعودون الىٰ وطنهم فكان لا بد من ارسال من ينظم شؤونهم . فمن سيختار لهذه المهمة . فالقادر على النهوض بهذه المهمة يجب أن يتحلىٰ بخصال ومزايا تمكنه من الاستمرار في العمل في مكان بعيد عن مكة لا يتأثر بأجواء الشرك

التي كانت تسيطر على المدينة ولا يضعف عندما يبتعد قليلاً عن الأجواء الإسلامية الساخنة بالمعنويات العالية ، ولا تنهار قواه عندما يجد نفسه وحيداً في ساحة كبيرة غريبة عنه .

فمن لهذه المهمة؟؟ .

لم يكن اختيار الرجل المناسب أمراً صعباً على النبي (ص) الذي عرف أصحابه حق المعرفة ومثلما اختار بالأمس رجلاً مناسباً لادارة شؤون المسلمين في الحبشة وللتفاوض مع زعامتها فهو اليوم يختار من تنطبق مواصفاته على شروط المهمة التي ستوكل اليه ، وما ذلك سوىٰ مصعب بن عمير الذي أصبح أمثولة تُضرب ، عندما شاهده رسول الله وهو يرتدي جلباباً ممزقاً ومرقعاً أسرعت شفتاه . . لقد رأيت مصعباً هذا وما بمكة فتىٰ أنعم عند أبويه منه . . ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله . ويوم شهادته وقف رسول الله (ص) ليتلو علىٰ رأسه هذه الآية الكريمة .

﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . ﴾ . ثم ها أنت ذا أشعث الرأس يا بُردة لقد وجد رسول الله في مصعب رجل المهمات الصعبة يتكيف مع كل الظروف القاسية ويستصغر المشكلات وحتىٰ لو كانت كبيرة ، ويستطيع أن يجالد في المواقف الحرجة ليصنع من الهزيمة انتصار .

جاءه أُسيد بن خُضير شيخ بني عبد الأشهل وعيناه تستعران بالغضب ويداه قابضتان على حربة مشرعة لتقتحم صدر بن عمير ومضيفه أسعد بن زرارة .

وتفجّر أسيد وعروقه متوثبة ما جاء بكما الينا؟ أتسفهّان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة . . فابتسم مصعب في وجهه وقال بهدوء ورزانة .

أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهت فكف عنا .

فضعف أُسيد أمام هذا المنطق فركز حربته في الأرض وجلس ليستمع الىٰ مصعب وهو يقرأ له القرآن ويشرح له مبادىء الإسلام ولم تمض هنيئة من الوقت حتىٰ هتف أسيد منَ أعماقه كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين فأجاب مصعب :

تغتسل فتطهر ثوبك ثم تشهد أن لا الـه إلاّ الله وأن محمداً رسـول الله فأسرع أُسيد لينطق بالشهادة ثم أردف « إن ورائي رجلاً [وهو يشير الىٰ سعد بن معاذ] ان أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله اليكما الآن ».

وما لبث ان جاء سعد بن معاذ وفي نفسه من الثورة والغضب مثلما كان في نفس صاحبه أُسيد ومرة أخرىٰ تتجلىٰ حكمة مصعب ورزانته وقدرته الفائقة على تغيير النفوس الطائشة الغاضبة الىٰ نفوس مؤمنة فعلىٰ رغم صغر سنه فقد كان خبيراً بالنفـوس عارفاً بأمـراضها وكيفيـة علاجهـا ولهذا السبب وقـع اختيـار النبي (ص) عليه ليصبح أول سفير لرسول الله خارج الحدود ومكث مصعب فترة من الزمن في المدنية يدعو الناس الى الإسلام فلبىٰ دعوته جمعٌ كثير من أهل يثرب ومع قدوم موسم الحج وجد المسلمون في يثرب فرصة اللقاء بالنبي (ص) والطلب منه بالمجيء الىٰ مدينتهم . فاختاروا من بينهم وفداً من خمس وسبعين نفراً بينهم اثنان من النساء التقوا بالنبي (ص) ثم حددوا موعداً للقاء آخر موسم في أواسط أيام التشريق. وتم اللقاء دون علم أحد وحتىٰ دون علم المسلمين في مكة إلاّ من اشترك مع النبي (ص) وما أن مضىٰ من الليل ثلثه ونام الناس خـرج المسلمون من أخبيتهم يتسللون تسلل القـطا حتىٰ لا يحس بهم أحـد واجتمعـوا في الشعب ينتظرون رسـول الله فجاء ومعـه بعض أهل بيتـه فبـدأ الاجتماع وتكلم القوم ثم تحدث رسول الله (ص) فتلا شيئاً من القرآن ثم دعا الىٰ الله وقال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع أزرنا

فبايعنا يا رسول الله فنحن ابناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

ثم تحدث أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله ثم قال :

الدم الدم والهدم الهدم (أي إن كل ما يجرى عليكم يجري عليّ) انا منكم وأنتم مني احارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وبعد أن تيقن من وفائهم وصدق انتمائهم طلب منهم أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يتولون المسؤولية والاشراف على الجماعة الإسلامية ويصبحون حلقة الوصل بينهم وبين رسول الله (ص) فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وبعد أن تم الانتخاب لم يبق من الاجتماع إلاّ فقرة أخيرة هي المبايعة فقبل أن يمدوا أيديهم انبرى العباس بن عبادة وهو احد النقباء وتحدث قائلاً : يا معشر الخزرج هل تدرون على مَ تبايعون هذا الرجل : قالوا نعم ، قال انكم تبايعون علىٰ حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون انكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قُتل أسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله خزي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه علىٰ نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

فأجابوه بأجمعهم انا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ثم التفتوا الى رسول الله متسائلين . .

فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك .

قال : الجنة . .

فقالوا : أبسط يدك فبسط يده فأخذوا يتسابقون الىٰ البيعة بقلوب يغمرها الفـرح والسرور واثقين من المصيـر عـالمين بمـا سيجـرى عليهم . وانقضىٰ الاجتماع بسلام دون أية مشكلة وخرج رسول الله مزهـواً بما شـاهده وسمعـه وازداد طمأنينة على مستقبل الدعوة وتضاعف يقينه ان يثرب هي المكان الأنسب لاقامة الدولة .

الهجرة صوب يثرب

لم يكُ هناك خيار أمام الرسول (ص) إلاّ أن ينقل مكان الدعوة الىٰ يثرب . فقد توفرت على أرض يثرب كل المقومات الضرورية لاقامة الكيان الإسلامي ، فهي أرض ذات موقع استراتيجي منيع يحصنه ضد أعداءه في مكة . فهي تبتعد عنها بالقدر الذي يحول دون توجيه ضربة مفاجأة للكيان الإسلامي النامي لكنها في نفس الوقت ليست بعيدة بذلك البعد الذي يجعلها منفصلة عن محيط القضايا المكية وما يدور فيها من أحداث .

الخصائص البشرية والجغرافية والاقتصادية ليثرب :

تقع يثرب علىٰ الطريق الاستراتيجي الذي يوصل الشرايين الاقتصادية بالمركز التجاري القائم في مكة . وبهذا الموقع الممتاز أصبحت قادرة على فرض الحصار الاقتصادي علىٰ مكة دون أن تمتلك مكة هذا الامتياز .

أما الطبيعة الجغرافية فيمنحها حصانة عسكرية ضد أَي عدوانٍ خارجي ، فالموانع الطبيعية تحيط بها من ثلاث جهات ، ففي جهة الغرب تحيط بها حرة الوبرة وهي أرض وعرة تتكون من الحجارة النخرة المحترقة التي يصعب على

الأنسان والابل السير عليها ، أما من جهة الشرق فتحيط بها حـرّة واقم ، أما الجهات الأخرىٰ فتحيط بها اشجار النخيل الكثيفة التي تكوّن حائل دون اجتياز الجيوش عبر هذه النقطة نحـو يثرب . وقـد أشار النبي (ص) إلىٰ هذه الخواص الاستراتيجية عندما أخبر أصحابه قائلاً لهم : « اني رايت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان .

ويُضاف الىٰ الخصائص الجغرافية الميزات الحضارية التي تمتلكها يثرب فأرضها أرض زراعية غنية بالمحاصيل ، ويمكن اقامة نظام اقتصادي فريد مرتكز على سياسة الاكتفاء الذاتي على العكس من ذلك مكة حيث تفتقر للمرتكزات الانتاجية بسبب وعورة الأرض وجفاف المناخ فيها .

ومن ناحية أخرىٰ كان التماسك الاجتماعي في المجتمع اليثربي ضعيفاً بالمقارنة الىٰ المجتمع المكي حيث كانت قبيلتان عربيتان تعيشان على أرض يثرب في تطاحن وتقاتل . ويعيش الىٰ جانب القبيلتين قبائل يهودية كانت في نزاعٍ دائم مع العرب . وقد منح هذا التفكك الاجتماعي للدين الجديد فرصة الانتشار والتوسع دون أية مقاومة ضارية كالتي حصلت في مكة .

ويختلف عمق الاعتقاد الوثني في يثرب عما هو قائم في مكة . فالوثنية في مكة أرتبطت بشبكة الأواصر الاقتصادية أصبح من العسير الفصل بينهما إذ أصبحت العقيدة الوثنية لأهل مكة موقف حياتي بالنسبة الىٰ الزعامة . بينما لا نجد هذا الارتباط بين العقيدة الوثنية والاقتصاد اليثربي . إذ لا يشكّل تجاوز هذه العقيدة أي خطر يهدد الحياة الاقتصادية لهذه المدينة . ومفارقة أخرىٰ تكمن بين الشريحتين هي طبيعة الاستجابة والمناعة نحو الأفكار والتيارات الدينية القادمة . فقد كان المجتمع المكي محصن ضد الديانات مما حدّ من انتشارها بينما لا نجد ذلك في يثرب إذ انتشرت المسيحيـة واليهوديـة ، وأحدث وجـود هاتين الديانتين الىٰ جانب الوثنية نضوجاً فكرياً في المجتمع اليثربي اكثر من المجتمع

المكي جعله قادراً على المقارنة بين الأديان باختيار الدين الأفضل . لهذه الأسباب نجحت تجربة التوسع الإسلامي في يثرب وطرحت أمام الرسول (ص) حقيقة ناصعة حول امكانية إقامة الكيان الإسلامي علىٰ هذه الأرض .

ومما زاد في اصرار الرسول (ص) على اختيار يثرب هو نجاح تجربة النفوذ داخل المجتمع اليثربي والنمو المطرد الذي شهدته الجماعة المسلمة ، واستعداد هذه الجماعة للتضحية والفداء مما يمكن الاعتماد عليها كقاعدة قوية لاقامة الكيان الإسلامي فوقه .

وكلما اشتد أذىٰ قريش ازداد رسول الله (ص) تصميماً علىٰ الخروج من الحصار المضروب عليه في مكة وسط المجتمع الجاهلي . فهو لم يستسلم للوضع الشاذ ولم يضع يده اليمنى على اليُسرىٰ ويجلس القرفصاء بانتظار الفرج . بل شمّر عن ساعد الجد واستخدم فكره في البحث عن الطريق الأفصل للخلاص من الحصار المضروب .

فالرسول (ص) لم يتوقف بل تحرّك . . لم ييأس بل حاول . . وحاول حتىٰ وجد الطريق الىٰ يثرب . وبالطبع لم تكن محاولاته بعيدة عن الرعاية الآلهية التي كانت تمدّه في كل لحظة بالرأي السديد وبالخطة الحكيمة . واتخذ قرار الهجرة بصورة مؤكدة بعد نزول الاذن الالهي ، حينذاك أمر رسول الله أصحابه بالهجرة لكن بصورة سرية ودقيقة حتىٰ لا تفسد الخطة التي أعدها في انتقال كافة المسلمين القادرين على الهجرة ، فحرص رسول الله (ص) أن لا يصل قريش اصداء هذا التحرك الجديد حتىٰ تتم العملية بسلام فكانوا يخرجون متفرقين يتسللون ليلاً والناس نيام . وفرغت مكة من المسلمين فلفت أنظار المشركين وكشف عما يخططه النبي (ص) في نقل دعوته الىٰ يثرب فكانت الطامة الكبرى فسعت الىٰ مقاومته بكل ما أوتيت من قوة فلحقت بمن تبقىٰ في الطريق من المهاجرين مستخدمة أساليب التعذيب والاغراء لاعادتهم الىٰ مكة .

وكانت قريش حريصة أشدّ الحرص على أن تبقىٰ مكة منطقة يسودها الهدوء وهذا ما جعلها تخشىٰ عواقب قتل المهاجرين الرافضين للعودة لأن قتلهم سيسبب في نشوب حرب داخلية في مكة يدفعون ثمنها غالياً علىٰ صعيد موقعهم التجاري ومكانتهم الدينية .

وعادت قريش خائبة غير قادرة على إيقاف حركة الهجرة . . لكنها لم تحفل بما حدث طالما كان محمد (ص) في قبضتها فهو لا يزال في مكة . . لكن عليها أن تسرع قبل أن يفلت هو الآخر من أيديها فتكون المصيبة أعظم .

اجتمع زعماء قريش في دار الندوة وتباحثوا حول أساليب التخلص من محمد (ص) وبرز من بين الآراء ، رأي يدعو الىٰ تقييده بالحديد ووضعه في السجن حتىٰ يأتيه الموت ورأيٌ أخر يرىٰ الطرد من مكة فتنفض قريش يدها منه ، استبعد المجتمعون هذين الرأيين واتفقا على رأي أبي جهل بن هشام الذي يدعو على اختيار كل قبيلة فتىٰ من فتيانها الأشداء ويُعطىٰ كل واحد منهم سيفاً ماضياً فيعمدون اليه بأجمعهم فيضربونه ضربة واحدة . فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ولم يعد باستطاعة أحد من بني هاشم المطالبة بدمه فيضطرون الىٰ اختيار الدية على القتل واتفقوا أيضاً علىٰ الليلة التي سيتم فيها تنفيذ المؤامرة . وأبلغ الله رسوله بالدسيسة وأمره بالهجرة في تلك الليلة العصيبة وفي ثلث الليل خرج النبي (ص) من الدار بعد أن ترك ابن عمه علي بن ابي طالب (ع) في فراشه ليوهم الأعداء بأنه لا يزال في البيت .

وكم كانت خيبة أعداء الله عندما تفاجأوا في الصباح الباكر بأن النائم في فراش النبي (ص) لم يكن سوى علي بن ابي طالب (ع) . وكم كانت فرحة علي (ع) كبيرة عندما نجحت الخطة واستطاع أن يكسب رسول الله الزمن الكافي للخروج من مكة وتمكن أيضاً أن يُعيد الأمانات التي كانت عند رسول الله (ص) الىٰ أهلها .

وهنا تتجلىٰ خلقية الحركة الإسلامية فلم ينس رسول الله تلك الأمانات وحتىٰ وهو في أشد ضيق فقد استعّد لأن يضحي بابن أخيه وأقرب الناس اليه من أجل استرداد هذه الأمانات فعلىٰ صغر هذا الأمر في أعين بعض الناس سيما إذا كانت حالتهم كحالة رسول الله (ص) في تلك اللحظة التي كان يهاجر فيها وطنه . لكن رسول الله (ص) معلم الأخلاق لم يكن لتفوته هذه الأمور علىٰ صغرها فهو قد حسب لكل شيء حساباً وأعد لكل هدفٍ خُطة .

وفي الصباح كان علي (ع) يطرق أبواب الناس ليعيد اليهم أماناتهم حتىٰ تبقىٰ أَواصر الثقة على حالها لا تزحزحها المواقف الصعبة وكانت هذه الثقة هي الوسيلة الأقوىٰ الىٰ قلوب الناس . وقد انتشَر الإسلام في أَول الأمر عن هذا الطريق .

ومضىٰ رسول الله (ص) مستفيداً من الظلام في اقتحام أسوار المستحيل راسماً للمسلمين تأريخاً جديداً يبدأ من هذه النقطة .

فمن هذا التحرك صوب يثرب بدأ التأريخ يدور دورة جديدة .

والتأريخ يبدأ من الفعل . . من الحركة . . فالجمود لا يصنع التأريخ . . لأن التأريخ هو حشد كبير من الأحداث . . والحدث فعل وحركة .

والهجرة هي أبرز مقطع في مسيرة الحركة الإسلامية ، فقد تجلىٰ فيها الفداء بأعظم أشكاله وأبهىٰ صوره وتجلت فيها الشجاعة بأعظم ألوانها ، فلقد كانت لحظات عصيبة حقاً عندما واجه عليّ (ع) أولئك الفتية الذين جاؤا الىٰ قتل الرسول ، فأي شيء بمقدور الانسان أن يفعله في تلك اللحظة الرهيبة غير التوسل بالشجاعة والصلابة .

ولحظات عصيبة مرة أخرى عندما تابعت قريش خطوات النبي (ص) ومعها أهل الخبرة بالقيافة حتىٰ بلغوا الغار الذي يختبىء فيه رسول الله (ص)

فانقطع الأثر عند باب الغار ولم يكن بينهم وبين المطلوب سوىٰ شبر واحد ، فكم كـانت لحـظة حـرجـة عـلى النـبي (ص) وهـولائـذ فـي ذلـك الغـار .

ومرة ثالثة يحل فصل آخر من فصول اللحظات الحرجة عندما هبّ سراقة ابن مالك ليتعقب النبي (ص) عله يفوز بمائة ناقة بالجائزة التي وضعتها قريش لكل من يأتي بالرسول حياً أو ميتاً .

امتطىٰ سراقة صهوة فرسه وانطلق يبحث عن الهدف وقد وصلته أخبـار خاصـة عَن الطريق السري الذي سلكه النبي (ص) نحو يثرب . وقبل أن يلوح له الهدف كبا فرسه ثم كبا ثانية فنهض من جديد من فوق الأرض غير مبالٍ بما حصل بالرغم من ان الذي حصل لم يكن طبيعياً .

ولربما كان سراقة بحاجة الىٰ دليل ثالث كي يقتنع بأن الذي يُطارده هو رجلٌ عظيم وإن يداً قوية تحرص على حياته وتمنع النيل منه . . . أخذ سهمه من الجراب عندما لاح له النبي (ص) من بعيد ووضع السهم في كبد القوس واستعد للرمي وفجأة يكبو الفرس ثم تغوص قوائمه في الرمل هذه المرّة حتىٰ لم يعد بمقدوره التحرك من مكانه . . فلاحت له الحقيقة وتيقن ان خلاصه لا يكون الا على يد من أراد قتله . فلم ير طريقاً للنجاة سوىٰ مناشدة النبي (ص) لانقـاذه من هذه الورطة قبل أن يموت عطشاً في قعر الرمال . فنادىٰ بأعلىٰ صوته يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي وارجع عنك وارد مَن ورائي . فدعا له النبي (ص) ووفىٰ سراقة بوعده عندما عاد الىٰ القوم ليقول لهم ؛ ارجعوا فقد استبرأتُ لكم خبره فلم أجد له أثر فرجعوا وهكذا أنقذ الله رسوله من الأخطار فواصل سيره حتىٰ وصل الىٰ المدينة في استقبال بهيج لم تر يثرب مثيلاً له .

وهكذا خطىٰ رسول الله (ص) هٰذه الخطوة مسجلاً نجـاحاً آخـر بفضل الخطة الحكيمة والسرية التامة التي اتبعها في كل خطواته . فكانت الهجرة بحق

الحدث الهام في التآريخ الإسلامي إذ توقف على هذا الحدث كل المراحل التي تعاقبت فيما بعد .

فالهجرة هي انتقال الحالة الإسلامية من وضع ضعيف الىٰ وضع أقوىٰ . .

وهي أيضاً انتقال المسلمين من مرحلة العذاب الى مرحلة السعادة .

وهي أيضـاً سجلت انتقال المسلمين من مـرحلة كانـوا فيها محكـومين بقوانيين المجتمع الجـاهلي وأعرافـه الىٰ مرحلة أصبحـوا فيها حـاكمين على أوضاعهم مسيطرين على مقاليد الأمور .

الدولة

منذ ان وصل النبي (ص) المدينة شرع بوضع اللبنات الاولى للدولة الاسلامية فقد كانت الرسالة الاسلامية بحاجة الى سور لحمايتها من الاخطار الجسيمة ، كما ان المسلمين الذين ذاقوا العذاب في مكة كانوا بحاجة الى جدار صلب يدافع عنهم ويضع حداً للاخطار الخارجية .

وبالنظر لجهل العرب بالتنظيم الجديد فقد شرع الرسول (ص) في تأسيس الدولة بصورة تدريجية وبصورة متجانسة مع تكاثر احتياجات المسلمين ، ومع تحوّل الجماعة الاسلامية من مستوى الطليعة الى مستوى المجتمع الاسلامي .

فقد قام خط الدولة متوازياً مع خط المجتمع الإسلامي اذ ان الدولة ليست الا الاطار الهيكلي لتنظيم امور المجتمع فمع تزايد المسلمين وتعقّد الحياة الاجتماعية كانت الحاجة تتزايد لتنظيم امور الافراد وهذا ما كانت تتولاه الدولة .

من هنا فالدولة الاسلامية بدأت بصورة بسيطة متناغمة مع صغر المجتمع الاسلامي ومحدوديته يومذاك لكنها اخذت في التطور والنمو مع توسع هذا المجتمع وهذا ما دفع ببعض المفكرين الى نفي وجود دولة بمعنى الكلمة ايام

الرسول مخدوعين بما قرأوه في التاريخ من بساطة في إقلونات الدولة الاسلامية.

فالحقيقة ان الرسول (ص) ومنذ ان وطأت قدماه ارض المدينة اخذ يخطو خطوة فخطوة نحو تأسيس الدولة الاسلامية حتى تكاملت في السنين الاخيرة من حياته وتوفرت في دولته كل العناصر التي يجب توفرها في الدولة المثالية .

فالامة المتفاعلة مع القيادة المنطلقة من حاجة الامة والسيادة القائمة اولا على القلوب قبل ان تقوم على الارض هي من خصائص الدولة الاسلامية .

المهام الاولى :

لم يعرف العرب قبل الاسلام الدولة كمؤسسة لتنظيم شؤون الجماعة على غرار التنظيم الاسلامي للدولة فقد كان العرب منقسمين الى سكان البدو الذين ينتظمون في اطار نظام متخلف هو التنظيم القبلي والنصف الثاني من العرب هم سكان الحضر الذين انتقلوا من البداوة الى المدن واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة ففرضت عليهم ضرورات الحياة اقامة بعض اشكال التنظيم لتمشية امورهم الحياتية لكنها لم ترق الى مستوى الدولة فقد احتفظ سكان الحضر بانتماءاتهم القبلية وظل النظام القبلي هو السائد أيضا في المدن أذ كان لكل قبيلة اعراف وقيم تميزها عن القبائل الأخرى وكذلك كان لها رئيس ونظام خاص بها تنفرد به لوجودها ولرئيس القبيلة السيادة المطلقة على افراد قبيلته فقط وكان كل فرد تابع لقبيلته وحتى لو كان في مدينة فيها عدد من القبائل كما هو الحال في يثرب قبل قدوم الإسلام .

وفي العادة كانت هذه القبائل تتنافس فيما بينها ويؤدي هذا التنافس الى التقاتل في اغلب الاحوال كما حدث للأوس والخزرج .

ولم تكن عملية تغيير هذا النظام واستبداله بنظام الدولة امرٌ هيّن فقد واجهت الرسول مهمة شاقة في استبدال هذا النظام المتخلف بنظام تقدمي .

وهي المهمة التي بدأها منذ اللحظة الاولى التي صدع بالرسالة عندما اعتزم على تغيير الواقع الفكري والاجتماعي للانسان فقد أُرسى رسول الله (ص) قواعد بناء المجتمع الاسلامي مبتدءاً بالانسان فهو حجر الاساسى في المجتمع واذا تغيّر الانسان تغيّر كل شيء واستمر في اعادة بناء الانسان مدة ثلاثة عشر عاماً وفرّ خلالها الارضية الكافية لاقامة المجتمع الاسلامي بعد هدم الاسس التي قام عليها مجتمع الجزيرة العربية .

ومع دخول النبي (ص) مرحلة المدينه كان المناخ مؤاتيا لايجاد انعطافة في تركيبة النظام القبلي وذلك بتحوير هذا النظام الى نظام الدولة دون ان يمس القبيلة بسوء .

فالرسول (ص) لم يصّف القبيلة بل صّفى النظام القبلي الذي كان يقوم على رابطة الدم واستبدله بنظام الدولة الذي اصبح يقوم على رابطة العقيدة .

وحدثت عملية التغيير هذه بصورة تدريجية وكأن شيئاً لم يحدث قط . وهنا تتجلى مرة اخرى عظمة الرسول الذي كان الطبيب الحاذق الذي يضع الدواء في جوف المريض دون ان يشعره بمرارته . فقد كانت لمساته الرقيقة على كتف المجتمع قد تمت بصورة محكمة ودقيقة ومع كل لمسة كان هذا المجتمع يتحول ويتغير باتجاه المجتمع الاسلامي .

ولكي يتحول النظام القبلي الى نظام الدولة كان بحاجة الى ثلاث لمسات متدرجة .

اللمسة الاولى بايجاد مركز عام لكل المسلمين من جميع القبائل لتنتهيَ الى الأبد المركزية القبلية وليصبح المجتمع الجديد تابعاً لمركز واحد ولمصدر قرار واحد وهو ليس رئيس العشيرة بل رئيس الدولة المتمثّل شخصاً بالنبي (ص) والمتمثل مكاناً بالمسجد.

اللمسة الثانية باستبدال الرابطة القبلية بالاخوة الايمانية حتى يصبح ارتباط المسلمين اجمعهم بعصب واحد مشدود في كل طرف وتنتهى كل الاطراف بالمركز وهو القائد ومكان القيادة هو المسجد فشرع رسول الله باعلان التآخي بين المسلمين من المهاجرين والانصار للتأكيد على الرابطة الجديدة التي يقتضيها التنظيم الجديد واستطاع الرسول بهاتين اللمستين ان يوجد المناخ المناسب للمجتمع لاستيعاب نظام الدولة واستبداله بنظام القبيلة .

وقد مرت الدولة الاسلامية في عهد رسول الله بثلاث مراحل هي :

١ ـ مرحلة تثبيت القواعد .

٢ ـ مرحلة البناء .

٣ ـ مرحلة الانتشار .

أولاً - مرحلة تثبيت القواعد

وصل رسول الله (ص) يثرب وهي خاوية على عروشها فالصراع القبلي بين الخزرج والأوس قد بلغ ذروته بتشجيع من الجماعات اليهودية القآطنة في احياء يثرب وربما خمدت بعض المشاكل في السنين الاربعة قبل الهجرة وبعد جولة من الحروب الطاحنة في بغاث وربما عادت القبيلتان الى العقل وقررتا ان تعيشا بسلام واختارتا ملكاً عليها هو عبدالله بن ابي لكن كانت الاوضاع تنذر بالانفجار من جديد فقد كانت الاحقاد تتوارى خلف غطاء كثيف من الرماد وهي تتأهب في اية لحظة للاشتعال .

ومن ناحية اخرى كانت الجماعات اليهودية تتجين الفرص للدس بين القبيلتين وكانت الغالبية من اليهود تعيش على الربا باستغلال اتعاب المزارعين من القبيلتين ومن اليهود الفقراء العاملين في الزراعة .

وللوهلة الاولى كان من غير الممكن اقامة نظام مركزي واقامة نظام اقتصادي وقضائي واداري موحد في مثل تلك الظروف التي كانت تعيشها يثرب .

الا ان المنهج الذي وضعه الرسول (ص) لتشييد الدولة على ارض يثرب

مكنه من تنفيذ غرضه من دون صعوبات كثيرة .

وتتجلى قدرة النبي في مواجهة صعوبات المهمة باختيار المـداخل الى اقامة الدولة الاسلامية وهي :

اولاً : انشاء المسجد .

ثانياً : اعلان التآخي بين المسلمين .

ثالثاً : ترسيم السياسة الداخلية والخارجية من خلال الصحيفة .

اولا بناء المسجد كقاعدة للسلطة ورمز للمركزية ووحدة الصف :

وصل النبي (ص) الىٰ يثرب بعد ثمانية ايام من الجهد والعناء في رحلة شاقة بين كثبان ورمال تهامة وصخورها القـاسية وتحت رحمـة اشعة الشمس الحارقة التي كانت تلسع الوجوه فتحيلها جمرة من النار المستعرة وخف الالـم على الـرسول (ص) وهـو يشاهـد اهل يثـرب وقـد خـرجـوا عن بكـرة ابيهم لاستقباله ، ودارت الجموع من حوله تكاثرت الاصوات وكل يريـد ان يفتخر بضيافته وتوالت الدعوات من وجهاء المدينة وعامتهم . واستشعر النبي (ص) للموقف الحرج الذي وقع فيه . لكن هداه الله الى طريقة حكيمة للخروج من المأزق .

فقد القى بخطام ناقته على غاربها وتركها تسير باختيارها قائلاً لمن حوله انها مأمورة فبركت الناقة على مـربد لسهـل وسهيل ابن عمـرو فاشتـراه ليبني المسجد عليه فشرعوا بالبناء بهمة وشوق وكان رسول الله (ص) كـأحدهم في تحمل مسؤولية البناء فكان يعمل كأحدهم وعندما رأى المسلمون تفاني النبي في العمل نشطوا هم ايضا واخذوا ينشدون .

لئـن قعـدنـا والـرسـول يـعمـل   لـذاك مـنـا الـعـمـل الـمـضـلل

لا عـيش الا عـيش الاخـرة   اللهم ارحم الانصـار والمهـاجـرة

فيجيبهم النبي (ص) :

لا عـيش الا عـيش الآخـرة   اللهم ارحم المهـاجـرين والانصـار

وبدأوا ببناء المسجد بتنظيف المكان من الماء الاسن واقتلاع ما في الباحة من النخيل وشرعوا ببناء الاساس بطول ثلاثة اذرع ثم اقيم اللبن فوقها فكـان مربع الشكل ، طوله وعرضه مائة ذراع اما السقف فقد اقيم من الجريد لانجاز العمل بسرعة واقيمت القبلة جهة بيت المقدس وجعل للمسجد ثلاثة ابواب كما وانشأ حول المسجد حجرات استخدمت فيها جذوع النخل وذلك لتكون محل لسكن الرسول واهله وقد خصصت احدى نواحي المسجد لايواء الفقراء الذين لم يكونوا يمتلكون سكنا . وكان يُضاء المسجد في الليل ساعة صلاة العشاء اذ كانت توقد فيه انوار القش وبعد سنوات كانت القناديل تشد في جذوع النخيل التي كـانت تحمـل سقف المسجـد وحتى اكتمـال بنـاء المسجـد كـان رسول الله (ص) في دار ابي ايوب الانصاري حيث لمس عن قرب طبيعة العلاقة والحب الذي يكنّه الانصار نحوه .

فكان ابو ايـوب يؤثر النبي (ص) على نفسـه واهله في اختيار المكـان والطعام وكان حريصاً على توفير اقصى درجات الراحة للنبي (ص) خلال فترة اقامته . ولم تكن بينه وبين النبي (ص) سابق معرفة الا الاسلام الذي ربط بين جميع من آمن بالدين الجديد فصاغهِم الاسلام صياغة جديدة فأصبحوا يؤثرون على انفسهم بعد ان كانوا يتسمون بالانانية وحب الذات .

وبعد ان اكتمل بناء المسجد جلس رسـول الله (ص) يفكر بـالمراحـل الاخرى التي تنتظره وكيف استطاع ان يصل الى هذه المرحلة بتوفيق الله ورعايته وكيف كان حاله في مكة مطارداً محاصراً في كل مكان لا يستطيع ان يبلغ رسالته

الا بشق الانفس وكيف اصبح حاله الان حيث ارتفع بنيان هذا الدين واصبح المسلمون آمنين على اموالهم وانفسهم يستطيعون ان يؤدوا العبادات بحرية ودون وجل وتمكنوا ان يبلغوا رسالتهم دون تردد .

وهذا الدين ينتشر في يثرب بفضل الله ورعايته فلم يبق بيت لم يصله نداء الإسلام الا بعض بيوت الآوس .

وهذا المسجد اصبح رمزاً لقوة الإسلام وعظمته فكان على المسلمين ان يستثمروا هذا المكان المقدس اقصى الاستثمار .

فالمسجد هو مكان تجمع المسلمين . اذ كل امة بحاجة الى مكان تلتقي فيه ويجتمع فيها انباؤها لحل مشكلاتهم ولتدارس اوضاعهم . .

والمسجد هو مدرسة يتعلم فيها المسلمون الكثير .

يتعلمون وحدة الصف عندما يقفوا صفوفاً منتظمة خلف رسول الله (ص) ليؤدوا الفريضة ويتعلمون ايضا معالم دينهم ويسمعون فيه آيات القرآن كلما نزلت على النبي (ص) فقد شهدت باحات المسجد حلقات الدرس وحلقات تلاوة القرآن الكريم .

كما وان المسجد تحول الى مؤسسة اجتماعية لايواء الضعفاء والمساكين الذين لاسكن لهم من اهل الصفة واصبح كل من يحتاج مالاً او طعاماً يلتقي بأهل الخير في باحة المسجد لسد حاجاته الحياتية .

كما واصبح مكاناً لاجراء صفقات البيع والشراء واقامة المناسبات المختلفة ، وبالاضافة الى جميع تلك المهام التي كان يقوم بها المسجد تحول ايضا الى مكان للتعبئة العسكرية ومحل للتدريب على القتال بالسيف والرمح . فقد اصبح المسجد الرئة التي يتنفس من خلالها المجتمع الاسلامي والذي يجد

فيه الفرد المسلم متنفساً لقضاء احتياجاته الدينية والدنيوية فقد كان لهذا المكان ابعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعسكرية .

والاهم من كل ذلك كان وجود المسجد يوحي للمسلمين بالكثير من المعاني ويرسخ لديهم افكاراً عن ضرورة القيادة المركزية والنظام ووحدة الصف الواحد .

وعلى اساس هذه الافكار المترسخة في الوجدان قامت دعائم الدولة الاسلامية فأصبح المسلمون يتعاملون مع القائد بصورة مختلفة عما كانوا يتعاملون مع رئيس العشيرة .

فقائدهم اليوم ليس فقط زعيماً لجماعة يجب اطاعته والتسليم له بل هو ايضا نبي مبعوث ورسول من عند الله تعالى فطاعته ليست مَجردة بل تحمل في طياتها مسحة من الايمان والاعتقاد والاندفاع الذاتي . والمسلمون على استعداد كاف لانْ ينتظموا في نظام الدولة بعد ان كانوا ينتظمون في نطاق القبيلة .

من هنا فقد كان المسجد نقطة التغيير الاولى باتجاه تنظيم المسلمين في الاطار الجديد اطار الدولة الاسلامية .

اما نقطة التغيير الثانية فقط كانت المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين .

٢ ـ المؤاخاة :

آن لاهل يثرب ان يستريحوا من الخصام . .

وآن ليثرب وهي تستقبل قائدها ان تسدل الستار على الحروب والمعارك التي اثكلت النساء واورثت الكآبة والحزن على شفاه الاطفال.

آن ليثرب ان تنسَ عهد الاختلاف والفرقة وان تبدأ عهداً جديداً في ظل الرسالة .

آن لها ان تطوي صفحة الماضي وان تبدأ بصفحة جديدة من حياتها مملوءة بالامل والتفاؤل . وكان على القائد ان يقلب تلك الصفحة المظلمة من الشقاق والفرقة التي عاشها اهل يثرب كان عليه ان يبدأ بخطة حكيمة لاقامة امة اسلامية من هؤلاء الذين كانوا في صراع دائم .

كان عليه ان يباشر العمل على عجل لان الاعداء يتربصون وسيحاولون توجيه الضربة المناسبة للكيان الاسلامي عندما يجدون الفرصة . واقوى سلاح يُوّجه الى الصف الاسلامي هو سلاح التفرقة .

كان على القائد أنْ يَبدأ العمل الطويل من خطوة اولى ما اعظمها وما ادقها وما احكمها .

فقد اعلن المؤاخاة بين المسلمين قائلاً (تآخوا في الله اخوين اخوين) فأرسى وعبر هذه الاخوة اساساً لبناء الامة المتراصة التي ظلت على متانتها ردحاً من الزمن .

وقام على تلك القاعدة اعظم بناء لأمة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في وحدتها وتلاحمها وتفانيها .

لقد زرع رسول الله (ص) بالمؤاخاة عنصر البقاء في الامة فقد ازال بهذه الاخّوة ما تبقى في النفوس من انانية وحب للذات فاصبح المسلم لا يرى فرقاً بينه وبين اخيه المسلم وان لاخيه المسلم سهماً في ملكه وأمواله .

وهذا هو اعلى ذروة يبلغه المجتمع في تلاحمه وتقارب ابنائه ، ولم يعرف التاريخ مجتمعاً بلغت فيه الاواصر بتلك القوة التي بلغها المجتمع الاسلامي في مرحلة التكوين .

فقد كان الانصار يتسابقون على تقسيم اموالهم على المهاجرين وعندما يتكاثرون على مسلم مهاجر يريدون ابرام عقد الاخوة معه كانوا يضطرون

لاستخدام القرعة .

كان الانصاري يأتي للمهاجر لِيُقدّم له نصف امواله وبلغ التفاني باحد الانصار وهو سعد بن الربيع انه قال لاخيه المهاجر وهو عبد الرحمن بن عوف اني اكثر الانصار مالاً فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر اعجبها اليك فسمها لي اطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها .

وحتى بعد ان تحسنت اوضاع المهاجرين ظل الانصار على وفائهم وتفانيهم فبعد حصول المسلمين على اموال بني النضير وقبل ان توزع تلك الاموال التفت النبي (ص) الى الانصار قائلاً لهم .

ان احببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما افاء الله عليّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم واموالكم وان احببتم اعطيتهم وخرجوا من دوركم فاجابه الاوس والخزرج . يا رسول الله بل تُقْسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ونادت الانصار رضينا وسلمنا يا رسول الله[1] .

لم يعهد تاريخ البشر هذا النمط من التفاني وهذا اللون من الاخلاص في الاخوة وفي محيط جاهلي كمحيط القبائل العربية اذ توارت بعض الصفات الجيدة للقبائل عندما انتقلت من البداوة الى الحضر وعندما اخذت تشتغل بالانشطة الاقتصادية المختلفة فنمت عندها النزعة الفردية وطغت الانانيات لتحل محل الصفات الخيرة .

ولم يكن امراً هيناً اعادة الانسان العربي الى فطرته اذ كانت تقتضي هذه العملية ازالة تراكمات ما كدسته المدنية المادية لعقود كثيرة اصبحت فيها هذه

---

(١) المغازي، الواقدي: ج١ ص٣٧٩.

التراكمات عائقاً عن تحول الانسان وبالتالي حالت دون بلوغه مستوى الفاعلية والغت دوره النافع في المجتمع وتأثـرت العلاقـات الاجتماعيـة بهذه الحـالة السلبية واخذت القيم المادية تغزو هذه العلاقات فكان لا بد من اعادة صياغة المجتمع على اساس جديد حتى تغدو العلاقات على نمط آخر غير النمط الذي تعارف عليه المجتمع .

فكان اعلان الاخوة هـو السبيل القويم الى ذلك .

واصبح لهذا الاعلان ابعاد اربعة يمكن رصدها عبر النتائج التي خلصت اليها الاخوة الاسلامية :

البعد السياسي للمؤاخاة :

كان المسلمون على اعتاب تأسيس الدولة الاسلامية وما من دولة تتقدم الا على اساس وحدة فصائل شعبها . فكان لا بد من اذابة الفروقات والحساسيات بين ابناء الشعب الواحد ليصبح هذا الشعب نسيجاً مترابطاً واحـداً لان الامة الموحدة هي القادرة على الوقوف على اقدامها . فالوحدة هي عنوان قوة وصحوة لكل امة . وبالنسيج المتكامل تستطيع الامة ان تخطو خطوات منتظمة الىٰ بناء حضارتها وتقدمها .

فبالوحدة تصبح الامة جسداً واحداً فيسهل على السلطات تنفيذ برامجها وتطبيق خططها لأنها ستجد من يطيعها ويتفاعل معها. وبـاليد الـواحدة تصبـح الأمة رجلًا واحداً يتحرك ويقاوم . بينما التصدع يشكل عائقاً أمام الأمة الناهضة ويصبح معوقاً رئيسياً في طريق بناء الدولة القوية .

فمستقبل الدولة الاسلامية كان يحمل احتمالات المواجهة الشرسة مـع الفئات المضادة فالاعداء لن يكفوا ايديهم عن الدين الجديد فكان لا بد من ترتيب البيت الداخلي قبل ان يتعرض لمـداهمة على ايـدي الاعداء وكـانت

الخطوة الهامة في ترتيب البيت الداخلي هي ايجاد حالة التجانس بين ابناء الامة الواحدة حتى تصبح هذه الامة قطعة نسيج واحد تتحرك وفق المطلوب وبسرعة يمكن حسابها ويمكن التخطيط للمستقبل على اساسها .

وكان الرسول (ص) يرى المستقبل كما يرى الحاضر فوجد ان السبيل لبناء حضارة رسالية مشرقة هو بناء امة متماسكة تصبح قادرة بتماسكها ان تشق طريقها في الحياة نحو سلم الرقي برغم الصعاب والاهوال .

البعد الاجتماعي :

كان المجتمع اليثربي قبل ان يقدم رسول الله يتآكل من الحقد والكراهية هذا ابسط ما تتركه الحرب من مخلفات ويعود ذلك الى وساوس اليهوّد وحيلهم في تمزيق الصف فكان على رسول الله (ص) ان يعالج هذا الموقف الاجتماعي الخطير كان عليه ان يستبدل الكراهية بالمحبة والتباغض بالتقارب والالفة حتى يعاد صياغة المجتمع على اساس الحب وليس الكراهية .

والمجتمع الذي يُبنى على قاعدة الحب هو مجتمع فاضل تتقطر الفضيلة من كل جوانحه وجوانبه .

وعلى قاعدة الحب تأخذ العلاقات الاجتماعية شكلاً آخراً فيعم التعاون والخير فيصبح مجتمعاً قويماً قادراً على الحركة بفاعلية كبيرة.

والمجتمع الذي يحب ابناؤه بعضهم بعضها هو مجتمع ينعم بالتكامل فكل فرد فيه هو مسؤول عن الاخرين . فاذا ظلم يسارع لرد الظلم عنه واذا احتاج يسارع لسد حاجته واذا انحرف يسارع لتقويمه .

المجتمع المتحاب هو مجتمع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . هو مجتمع الكرم والتآخي كل عضو فيه عنصر ايجابي .

لقد قلب رسول الله (ص) موازين العلاقات الاجتماعية عندما آخى بين المسلمين ووضع حجر الاساس لمجتمع قويم متكافل متعاون ومتكامل كل فرد فيه يعمل بما تسعه طاقته من اجل الاخرين .

فقد كان رسول الله (ص) يُهيأ المناخ لتحويل الطليعة الإسلامية الى مجتمع اسلامي وكانت اول دفعة باتجاه تكوين هذا المجتمع هو ارساء الارضية القوية لهذا البناء الشامخ فكانت المؤاخاة هي السبيل لتدفق مشاعر الحب والثقة بين ابناء المجتمع الواحد .

البعد الاقتصادي :

لاستيعاب الجانب الاقتصادي من المؤاخاة يقتضي التنويه الى الظروف الاقتصادية التي كانت تعيشها المدينة يوم قدم اليها رسول الله (ص) .

تمتاز الاراضي في المدينة بخصوبتها الكبيرة لانها في الاصل اراضٍ بركانية وتنعم بمياه وفيرة فهي تفيض بمياه السيول والعيون التي تكثر في الوديان واشهر وديانها وادي العقيق الذي كان قد تحول الى منتجع فاره لاهل المدينة وامتاز اهل المدينة بشغفهم نحو الزراعة وبالاخص زراعة النخيل حيث كانوا يستفيدون من ثمرها كمصدر للطعام ويستخدمون سعفها في البناء والوقود وبالاضافة الى النخيل كانت المدينة تنتج انواعاً عديدة من الحبوب والبقول كالشعير والحنطة وتكثر فيها الخضروات أيضا .

اما مصادر الحياة الاخرى كالسمن والعسل والعنبر والعطور وبعض المنسوجات فقد كانت تستورد من الخارج وكان اليهود يحتكرون معظم التجارة في المدينة وصنف منهم كانوا يعملون في الزراعة كيهود خيبر وصنف اخر كانوا يعملون في صياغة الذهب وهم يهود بني قينقاع وكانوا يمتازون على الاوس

والخـزرج بالغنى وامتـلاك الاموال والعقـارات وكانـوا يستثمرون امـوالهم في الربا .

اما العرب المزارعون فكانوا يشتغلون وينفقون كل ما يحصلُون عليه . فهم اهل ضيافة وكرم فما كآن ليبقى لديهم ما يدخرونه وعندما كانوا يحتاجون الى المال كانوا يأخذونها بالربا من اليهود .

فغالبية اليهود كانوا يعيشون على عـرق المزارعين الفقـراء الذين كـانوا يـدفعون بحصيلة عـرقهم لجيوب المـرابين والدلالين الـذين كانـوا يتاجـرون بالكماليات كالمصنوعات الذهبية والمنسوجات القـطنية والحـريريـة والنمارق والسور والعطور والمسك .

وعندما قدم المسلمون الى يثـرب لم يكونـوا يملكون شيئـا فقد تـركوا اموالهم ومنازلهم ولم يأخذوا معهم الى المدينة الا الشيء اليسير وكان اغلبهم من الفقراء والعبيد الذين لا خبرة لهم في شؤون الانتاج وخصوصاً الزراعة اذ لم تكن ارض مكة صالحة لكن كان فيهم من كان غنياً وصاحب خبرة في التجارة وكـانت المشكلة الاولى التي واجهت النبي (ص) اعـالـة هؤلاء الـذين وردوا المدينة وبين عشية وضحاهـا دون ان تكون لهم مصـادر للعيش في مواطنهم الجديدة .

فماذا كان سيفعله الرسول (ص)؟

هل كان يترك الوضع على حاله ليبقى المهاجرون يذوقون مرارة الغربة والجوع معاً .

ام ان عليه ان يخطو بخطوة لحل هذه المعضلة سيما وانـه يتهيأ لبنـاء مجتمع سعيد ينعم بالازدهار والخيرات .

لم يكن امام الرسول (ص) الا ان يختار اسلوب دمج المهاجرين بالانصار

ليصنع منهم قوة اقتصادية واحدة .

وهذا الذي فعله عندما اعلن المؤاخاة بين اهل المدينة وضيوفهم واستطاع بهذه المؤاخاة ان يضع حجر الاساس لثورة اقتصادية كبرى دلت على عظمة الفكر الرسالي وعظمة الخطة التي اتبعها النبي (ص) المعالجة المشكلة .

فالخزرج والاوس كانوا اناسا منتجين وكان اليهود تجاراً في الغالب يعيشون على انتاج القبيلتين .

والذي نتج عن المؤاخاة هو ربط الانتاج بالتجارة وجعلهما يتحركان في حلقة واحدة .

فالخزرجي او الاوسي كان يزرع والمهاجر كان يبيع او يعمل في الارض بالايجار وكان معنى ذلك الغاء الدور الاقتصادي الذي كان يضطلع به اليهود وهذا يفسر لنا سبب انقلاب اليهود على النبي (ص) بعد ذلك الاستقبال الحار الذي استقبلوه يوم وروده المدينة .

وعلى اساس الصياغة الجديدة للعملية الاقتصادية فقد ازدهر الانتاج وتضاعف اضعافاً مضاعفة اذ كانت جسور الثقة بين الانصار والمهاجرين وتصفية الربا هي احدى دعائم التطور الانتاجي في المدينة .

وهكذا حول رسول الله (ص) العنصر الذي ورد المدينة من عالة ومجموعة استهلاكية الى دم جديد تدفق في عروق الاقتصاد المدني فاصبح عامل ازدهار ونمو وتطور في الانتاج .

وهكذا استطاع رسول الله (ص) ان يوظف هذا العنصر الذي كان من المحتمل ان يتحول الى معوق اقتصادي الى اداة لاحداث اكبر تحوّل في اقتصاد المدينة وهو بذلك ارسى القاعدة الاساسية للاقتصاد الاسلامي القائم على التعاون والتكافل والتفاعل بين العناصر المشتركة في العملية الاقتصادية .

البعد الحركي :

مع اتساع رقعة المسلمين كانت الحاجة ماسة الى اعادة تنظيم المجموعة في اطار جديد يستوعب التـطورات الجديـدة فكانت المؤاخـاة هي الاسلوب الامثل لاعادة ترسيخ الجسور التنظيمية على اسس قويمة .

فالمهاجر الذي استوعب الرسالة وفهمها والذي خرج من وطنه بتجـربة ثرية في المقاومة كان عليه ان يؤدي دوراً هاماً في المكان الجديد هو تعليم من لم يستوعب بعد مفاهيم الرسالة بصورة كاملة .

فقد عملت المؤاخاة على نقـل التجربـة الايمانيـة من المهاجـرين الى الانصار فالاندماج بين عنصر مكة وما يحمله من روح مقاومة وصمود واستقامة وعنصر المدينة الذي لم يكسب حتى الان التجربة الحركية امراً غاية في الاهمية لان هذا الاندماج سيرسي ارضية جديدة تجعل من المجتمع الاسلامي مجتمعاً قوياً قادراً على الصمود لا تهزه الرياح ولا يعصف به الاعداء مهما كانت قوتهم المادية وهذا الذي حدث فعلاً فقد تحول المجتمع الاسلامي في المدينة علىٰ اثر المؤاخاة الى مجتمع مقاوم كان يعده الرسول (ص) للمراحل القـادمة من العمل الرسالي حيث المواجهة الصعبة مع قوى الشرك في مكة وغيرها . لقد آخى رسول الله (ص) نفسه مع علي بن ابي طالب (ع) وآخى بين مصعب بن عمير وابي ايوب الانصاري خالد بن زيد ، وبين حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر ، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ، سلمان الفارسي وابي الدرداء ، بلال وابي رويحة ، ابي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو ، حاطب بن ابي بلتعه وعويم بن ساعده ابي بكر وخارجه بن زهير ، عمر بن الخطاب وعتبة بن مالك ، ابي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وزبير بن العوام ومسلمة بن سلامة وعثمان بن عفان واوس بن ثابت ، طلحة بن عبيدالله

وكعب بن مالك وبين سعيد بن زيد وأُبي بن كعب .

وكان اختصاص الامام علي بن ابي طالب (ع) بأخوة الرسول (ص) ذا معنى واضح في الدور الهام الذي كان يقوم به الامام علي (ع) في تنظيم شؤون المسلمين فقد كان الامام علي هو حلقة الوصل بين النبي (ص) وبين مجموعة من المسلمين كان يقوم بتعليمهم مبادىء الإسلام واعدادهم اعداداً جيداً للمهام المستقبلية .

فبالاضافة الى ما تحمله هذه المؤاخاة من معاني الصلة القوية بين الاثنين تعطي ايضا صورة واضحة عن الموقع الهام الذي كان يحتله الامام علي (ع) في قيادة الطليعة الاسلامية جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) .

ثالثاً الصحيفة :

بعد ان وطد رسول الله (ص) دعائم وحدة الكيان الاسلامي وجّه انظاره نحو من تبقى من سكان المدينة فقد كان همه الاول هو ان يوصل المدينة الى وحدة سياسية تكفل الارضية القوية لاقامة الدولة الاسلامية بانظمتها واجهزتها المتشعبة .

وكان في المدينة عدد من القبائل اليهودية اشهرها ثلاث هي بني النضير وبني القينقاع وبني قريظة وقد استقبلت النبي (ص) خير استقبال طمعاً في استيعابه وجماعته الاسلامية والاستفادة من هذا الوجود في مراميها السياسية والاقتصادية .

وقد ابدى النبي (ص) في بداية الامر نوايا حسنة تلقى المعاملة الحسنة من اليهود بمثابة التجاوب مع التطور الجديد. فسارع لابرام اتفاقية شاملة وضعت الخطوط العريضة لاسلوب التعامل مع الجماعات غير الإسلامية بما فيها اليهود.

وفي الـوهلة الاولى امتنعت القبائـل اليهوديـة الكبرى من التـوقيـع على المعاهدة لانها لا تحقق الغاية التي سعوا من اجلها وهي ضم النبي (ص) تحت السيادة اليهودية واذا برسول الله يطلع عليهم بهذه المبادرة التي عكست الأمر تماما اذ منحت المعاهدة السلمية امتيازاً أوسع للمسلمين وجعلت اليهود على الهامش لكنها احتفظت بجميع حقوقهم الدينية والحياتية. . واضطرت هذه القبـائل الى ابرام معاهدات ثنائية تحت ضغط النفوذ الواسع لرسول الله الذي أخذ ينمو بصورة مطردة.

وقد نصت المعاهدة على ما يلي(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا كتاب من محمـد (ص) بين المؤمنين والسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمـة واحدة من دون النـاس ، المهاجـرون من قريش على ربعتهم يتعـاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدىٰ عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تُفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفـة تُفدي عانيها بـالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنوالنجّار علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم بتعاقلون معاقلهم الأولىٰ وكل طائفة تُفـدي عـانيها بـالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنـو النبيت على اربعتهم يتعـاقلون

---

(١) ابن هشام: ص٥٠٢ ـ ٥٠٣. وسيرة المصطفى: ص٢٧٧.

معاقلهم الأولىٰ وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ ، وكلّ طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فِداء أو عقل . وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغىٰ منهم ، أو ابتغىٰ دسيعة ظلم أو اثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين . وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان وَلَد أحدهم ولا يُقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم بعضهم موالي بعض دون الناس . وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإنّ سِلم المؤمنين واحدة ، يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلّا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يُبيء بعضهم علىٰ بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين علىٰ أحسن هُدى وأقومه ، وإنه لا يُجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه علىٰ مؤمن : وإنه من أعتبط مؤمناً قتلاً عن بينه فانه قوادٌ به الا أن يرُضي ولي المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الاقتتال عليه ، وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وإن من نصره او آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ومواليهم وانفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم أحد إلا باذن محمد (ص) وانه لا يتحجر على ثائر جرح ، وانه من فتك فبنفسه وأهل بيته

إلا من ظلم ، وان الله على ابر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهـل هذه الصحيفـة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وإنه لم يـأثم امرؤ بحليفـه ، وان النصر للمظلوم وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يثرب حـرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او شجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله (ص) وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، إذ دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل ناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وان الأوس مواليهم وانفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من هذه الصحيفة وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم او وإن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله لمن بر واتقى .

ونستنتج من هذه المعاهدة الافكار التالية :

١ ـ كان السعي الحثيث لرسول الله (ص) هو بناء دولة عصرية قائمة على اسس ونظام وقواعد وهو اسلوب جديد في ادارة شؤون الناس لم يتعارف عليه في جزيرة العرب حيث كان نظام القبيلة هو النظام الحاكم على الافراد .

بينما كان هم الرسول هو تحويل ادارة الحكم الى مؤسسة قـائمة على اصول وضوابط وبالتالي تحويل الكيان المشتت الى مؤسسة منتظمة الاجزاء هي الدولة .

وقد رعى الرسول (ص) حاجة الدولة الى الدستور فسنّ في الصحيفة

الخطوط العريضة الضرورية لاقامة الدستور فهي في الواقع مشروع دستوري هدفه الاول تهيئة المجتمع المدني بكل تجمعاته الاسلامية وغيرها لتقبل الدستور والضوابط فالصحيفة منحت اتجاها للمجتمع ينتهي حتما الى اقامة المؤسسة الدستورية الشاملة والكاملة .

٢ ـ طرحت الصحيفة نمط التجمع الاسلامي في المدينة على أساس أنه امة ـ وهي بداية اشعرت كل مسلم بانه اصبح ينتمي الى امة بعد ان كان ينتمي الى تجمع مصغر من المؤمنين .

وقد اقترن اصدار الوثيقة بتوسع القاعدة الطليعية للتجمع الاسلامي وتحولها الى امة فقد ورد في مقدمة المعاهدة «انهم امة واحدة من دون الناس» .

انهم امة متميزون عن الاخرين بخصائص معينة بالتزامهم الديني وتمسكهم بالفضائل وبالصفات الحميدة .

وقد جرت مساعي النبي (ص) لاعطاء الجماعة الاسلامية شخصية متميزة عن الاخرين يمكن بسهولة معرفتهم بها وتمييزهم عن ارباب الديانات الاخرى وهذه خطوة هامة نحو استبدال الشعور القبلي بالشعور الاوسع الذي يشمل كل اخوة الايمان .

فعلى طريق بناء الكيان الاسلامي كان لا بد من ترسيخ مشاعر الولاء للامة فستشدها هذه المشاعر نحو الجماعة الاسلامية وتجعلها عنصراً متفاعلاً مع كل قضية تهم هذه الامة .

٣ ـ الابقاء على الفرز القبلي والاحتفاظ بشخصية كل قبيلة على حالها فقد ذكر النبي (ص) اسماء القبائل واحدة بعد اخرى واكد مع اسم كل قبيلة الحفاظ على شخصيتها «بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ولكل قبيلة شخصيتها التاريخية ولا بد من الحفاظ عليها وهي لهذا تتحمل بنفسها مسؤولية التكامل الاجتماعي . وبهذا الاسلوب استطاع رسول الله ان يشارك كل قبيلة في تحمل بعض اعباء الدولة فكل قبيلة عليها ان تدفع الدية عن ابنائها وتفدي فقيرها كما كانت عليها قبل الاسلام .

ويظهر هذا الاسلوب رغبة النبي (ص) في رفع بعض الكاهل عن الدولة وذلك باشراك التنظيمات الاجتماعية لتحمل بعض المسؤوليات الاجتماعية وكان ابرز مظاهر المؤسسة الاجتماعية هي القبيلة فبعد ان كانت كل قبيلة تحكم نفسها بنفسها اصبحت الان ومعها كل القبائل تحت سيادة حكومة مركزية لكنها ظلت تمارس دورها الاجتماعي وهذا هو السبب الذي جعل النبي (ص) ينصرف عن الغاء القبائل كظاهرة اجتماعية .

وربما احتار البعض في تفسير ذلك وبدى وكأن هناك تناقضاً بين السياستين اللتين انتهجهما النبي (ص) .

لكن عند التأمل تتبدد الحيرة وتتضح الصورة تماما .

فالنبي (ص) لم يلغ الجانب الايجابي من خصائص القبيلة وهي التعاون بين ابنائها والتكافل الاجتماعي فهناك جانب من القبيلة وهي الولاءات والتنظيمات والاعراف فقد عمل رسول الله (ص) على صهرها في بوتقة الإسلام ليحل محلها نظام مركزي واحد يشمل علىٰ كل القبائل وهو الدولة اما الخصائص الاخرى فقد عمل على الاحتفاظ بها واعطا ها دوراً اوسع في تنمية الحركة الاجتماعية .

٤ ـ توسيع دائرة الامة لتشمل بالاضافة الى المسلمين اليهود ايضا وكل من تبع المسلمين فقد كان هدف الرسول هو اقامة دولة اسلامية يعيش فيها المسلم جنبا الى جنب مع غيره وهذا يقتضي اقامة تنظيم اجتماعي اشمل من تنظيم

الامة الاسلامية لنظم شؤون رعايا الدولة الاسلامية حتى لا يبقى غير المسلم منفصلاً عن التنظيم الاول الذي يعتبر النواة والمحور في الدولة الاسلامية .

فالدولة بحاجة الى قاعدة اجتماعية منظمة تشمل كل الذين قبلوا بهذا النظام فقد ورد في الصحيفة وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين وهم يرتبطون بالنظام سياسياً فهناك من يرتبط بالنظام عقائدياً وسياسياً وهناك من يرتبط به سياسياً فقط .

فالدولة الاسلامية لا تحصر نفسها بطبقة دون اخرى او بجماعة دون اخرى فكل من وافق ان يعيش في ظل النظام الاسلامي هو من رعايا هذه الدولة يجب عليها ان تدافع عنه كما تدافع عن مواطنيها الاصليين .

وخلاف ذلك ، نشاهده في انظمة الحكم الراهنة سيما الدول الاسلامية التي حصرت نفسها باطارات اجتماعية ضيقة فاصبحت وكأنها وسيلة لاسعاد تلك الطبقة الاجتماعية او للترفيه عن تلك المدينة او تلك القرية اما بقية الرعية فليس لهم احد الا الله .

ان قلب الاسلام يستوعب حتى غير المسلم ويساوي بينهم وبين المسلمين فقد ورد في الصحيفة «وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» .

٥ ـ تضمين حرية العقيدة في الدولة الاسلامية ، فقد ورد في الصحيفة وان لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . فعلى عكس ما كان متعارفاً في الجزيرة العربية حيث لا يسمح اصحاب عقيدة ما لغيرهم اظهار عقائدهم بحرية تامة فقد لقي المسلمون صنوف العذاب على ايدي قريش عندما أخذوا يصدعون بالاسلام . وعندما جاء النبي (ص) الى يثرب لم يشأ ان يكرر ما فعلوا به فينسف العقائد الاخرى مثلما فعلوا على رغم سلامة العقيدة الاسلامية وانحراف العقائد

الاخرى . فلاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية تقرّ حرية العقيدة بصورة قانونية من قبل دولة قائمة على عقيدة .

لقد اراد النبي (ص) ان يبني دولة نموذجية في كل شيء لتصبح سنة جارية في التاريخ وفعلاً اقام دولته المباركة التي تقدمت حتى على الدولتين المتحضرتين الساسانية والبيزنطينية .

والحرية هي حجر الاساس في كل دولة فعلى اساسها تستمد بقية الحقوق معانيها الحقيقية فبدون الحرية لا معنى لحقوق الانسان فحرية الرأي وحرية العمل والحق في المشاركة السياسية والحق في التجمع كلها منوطة بحرية العقيدة وكان الرسول (ص) ومن خلال الوثيقة يريد ارساء لائحة حقوق الانسان في السماح بحرية العقيدة في الدولة الاسلامية فالمسلمون ضاقوا مرارة الاستبدادِ والتحجر الفكري في الفترة التي قضوها في مكة وكان عليهم ان ياخذوا العبرة ويحسبوا حساب من يريد ان يعيش كما عاشوا في مكة فكان عليهم ان يمنحوهم الحرية الكافية ويوفروا لهم الاجواء المناسبة لممارسة هذا الحق .

٦ ـ ترسيخ دعائم الاستقرار الامني فورد في الصحيفة وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة فتوطيد الامن والاستقرار هو السبيل الى التقدم والرقي فمع الاستقرار الامني يزدهر الاقتصاد وتنمو مشاعر الاخوة الصادقة وتتوطد اعمدة النظام في الدولة .

فعلى نقيض ما تعارف عليه العرب الذين لم يعرفوا للاستقرار معنى فكانوا دائما في حالة حرب أو استعداد للحرب ولهذا السبب لم تتطور البنية الاقتصادية في الجزيرة العربية الا في مكة فقد ازدهرت فيها الحركة التجارية عندما قرر اهلها العمل على استتباب الاوضاع ونبذ المشاكل وتصفية النزاعات وقد ساعد

هذا القرار المسلمين كثيرا على تثبيت دعائم الدعوة الاسلامية على رغم ارادة زعماء قريش الذين اضطروا الىٰ الإمتناع عن فتح جبهة عريضة في مكة لان ذلك سيهدد مصالحهم التجارية المتنامية .

واليوم يريد المسلمون في المدينة ان يبدأوا حياة جديدة وان يبنوا اقتصاداً متيناً ومجتمعاً قوياً تنعدم فيه الجريمة وما كان ذلك ليتحقق الا باستتباب الأمن واشاعة روح الاستقرار والطمأنينة في النفوس وقلع جذور الفساد والجريمة فقد ورد هذا النص وان لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وامن بالله واليوم الاخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وان من نصره او آواه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة .

٧ ـ اشاعة روح التعاون بين رعايا الدولة الاسلامية فوردت نصوص عديدة في الصحيفة تؤكد على ضرورة التعاون في المجالات الضرورية منها مجال التناصح وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم والتعاون على تصفية الفقر وتلبية حاجات كل صاحب حاجة وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً (المثقل بالدين والعيال) بينهم يعطوه في فداء او عقل .

والتعاون على دفع الضرر الخارجي وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة وفي مجال الدفاع المشترك يجب حتى على اليهود التعاون في هذا المجال لانهم انما يدافعون عن الاستقرار وعن نظام قبلوه عن طيب خاطر فلكي يستطيع هذا النظام ان يوفر لهم الأمن والرقي كان عليهم ان يشتركوا في الدفاع عنه لان الدفاع عنه دفاع عن مصالحهم ايضاً والتعاون هو القاعدة الرئيسية في بناء المجتمع والدولة وفي ايجاد جسور التفاعل بين اجزاء هذا المجتمع فالتعاون هو السبيل لدفع الجريمة والانحراف وتجنيب النظام المخاطر الداخلية والتعاون هو سبيل لدفع الأخطار الخارجية التي تهدد النظام .

والتعاون هو السبيل لازدهار الحياة الاقتصادية .

والتعاون هو السبيل لسيادة المحبة والتراحم .

والتعاون اخيراً هو اساس العلاقة بين الشعب والدولة فدولة الاسلام هي دولة جماهيرية تقوم على مبدأ المشاركة الشعبية والتعاون هو اساس هذه المشاركة .

٨ ـ الاقرار بسيادة الدولة وذلك بارجاع الامور المتنازع عليها الى الدولة فهي التي ستفصل في القضايا المختلف عليها . فقد اعتاد العربي الى اخذ حقه بيمينه دون التوسل بسلطة الا اللهم سلطة القبيلة وجاء الاسلام ليضع حدا لهذه الفردية التي تثير الفوضى وعدم الاستقرار فكان على جميع رعايا هذه الدولة حتى من غير المسلمين ان يقروا بوجود مرجع له السيادة على الجميع وان عليهم ان يعودوا اليه عند النزاعات .

فوردت عدة نصوص تحمل هذا المعنى .

وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او شجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله وفي مكان اخر وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد .

ويشمل ذلك حتى اليهود الذين عليهم الاقرار بسيادة الدولة الاسلامية وانه لا يخرج منهم احد (اليهود) الا باذن محمد فكان على الجميع ان يقروا بان هناك رئيس لهذه الدولة وانه من واجبهم ان يراجعوه في مواطن الضرورة وليس من حقهم ان يتصرفوا تصرفاً فردياً كما كانوا في السابق .

هذا هو اهم ما ورد في الصحيفة من معايير الحكم والدولة ومن اسس يقام عليها المجتمع الاسلامي وقد تمكن الرسول (ص) ان يرسي بتلك الاسس

قواعد بناء الدولة وان يضع نواة الامة الاسلامية التي اخذت تتوسع وتنتشر بمرور الزمن . وتظهر قيمة هذا العمل من تأمّل الاوضاع العامة في جزيرة العرب حيث النزعة الفردية والفوضى واللاقانون هي السائدة يومذاك . وفي قلب هذا المجتمع بدأ رسول الله يقيم مجتمعاً جديداً يقوم على النظام واخذ يرسي دعائم دولة تقوم على سيادة القانون وليس سيادة اهواء زعيم القبيلة او ما شابه .

ثانيا مرحلة بناء الدولة

بعد ارساء القواعد اخذ الرسول (ص) يُهيّىء السبل للمواجهة لانها هي قدره الذي لا يمكنه تجاوزه بـأي حال من الاحـوال . فالمـواجهة مـع-اعداء الاسلام قضية حتمية كان لا بد من الاستعداد لها وتهيئة الظروف القادرة على التصدي لها .

ولان المواجهة مع الاعداء مواجهة شاملة فقد اخذت الاستعدادات في مختلف المناحى حتى تصبح الارضية شاملة ايضا .

فقد عمد رسول الله (ص) على تركيز القدرة في شرايين الجسد الاسلامي في مختلف اجزاء هذا الجسد .

فعلى صعيد المجتمع قام ببناء مجتمـع قوي قـادر على الصمود بـوجه الأعاصيـر واما على صعيد الاقتصاد ارسى الرسـول دعائم اقتصـاد قادر على تحمل اعباء المواجهة واما على الصعيد العسكري اخذ المسلمون بالتـدريب على استخدام السلاح واما على صعيد العلاقات اخذ الرسـول (ص) يعرض نفسه على القبائل واخذت ترسل اليه الوفود واما على صعيد الدولة فقد عمل على ترسيخ نظام الدولة من خلال التشريعات التي سنت لتنـظيم الشؤون المختلفة .

اولا بناء المجتمع المتراص ظلت قضية البناء تحظىٰ بأولوية في منهاج الرسول الكريم (ص) عقب وصوله المدينة المنورة فبـوصولـه اليها كـان على الحركة ان تتخطى مرحلة بناء الانسان الى بناء المجتمع ثم تجذير عوامل القوة والبقاء في هذا المجتمع . وقد استمر الرسول (ص) في هذه المهمة حتى في مرحلة المواجهة بل ان المواجهة هي التي اصقلت المجتمع وعمقت فيه معاني الايمان والصمود . لكن قبل ان تحدث المواجهة كان لا بد لهذا المجتمع ان يشرع في تكوين ذاته وتنظيم شؤوناته حتى يستطيع الوقوف قبال التحديات .

فالمجتمع القوي المتراص هو الذي يفرز جيشاً قوياً متراصاً وهو المعين الذي لا ينضب في التضحية والفداء .

والمجتمـع الاسلامي المتمـاسك لا يسمـح بوجـود الثغرات في داخله ويواجه التحديات الداخلية بنفس الروح التي يواجه بها التحديات الخارجية .

أولاً : سد الثغرات :

تركبّ المجتمع الجاهلي على اسس مغايرة للعقل والمنطق فطغت عليه السلبيات وتراكمت عليه الامراض من كل صوب وكانت هناك امراضاً مـزمنة علاجها بحاجة الى وقت طويل وجهد كبير ومن هذه الامراض التي تصدى لها رسول الله (ص) وكافحها اشد مكافحة .

١ ـ **النزعة الفردية** ، نشأت النزعة الفردية نتيجة انتقال المجتمع الجاهلي من حالة البداوة الى حالة الحضر فنمت مع ازدهار الحالة الاقتصادية الانانية والنزعة الفردية وقويت هذه النزعة مع التطور الكبير الذي شهدته تجارة الايلاف التي ربطت مجموعة من القبائل العربية الواقعة على خط سير القوافل بمصالح مشتركة مع المجتمع المكي .

وكان اخطر ما واجهه الرسول أثناء بناء المجتمع الاسلامي هو التخلص

من هذه النزعة وتصفيتها تصفية شاملة لانها تنذر دائما بعودة الحالة الجاهلية فقد حث النبي (ص) على تنمية المشاعر الجماعية وتركيزها مكان النزعة الفردية فقال عمن هو مصاب بهذا الداء . ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره طاوٍ وما آمن بي من بات كاسياً وجاره عاري[1] وقال لابي ذر ، يا ابا ذر اياك وهجران اخيك فان العمل لا يستقبل مع الهجران[2] وذكر عنه صلوات الله عليه وآله وسلم من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم[3] .

وعن العلاقة مع الجار حرمة الجار على الانسان كحرمة امه[4] وقال ايضا لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه[5] .

وخاطب المسلمين يوماً جاءني جبرائيل فقال لي يا احمد الاسلام عشرة اسهم وقد خاب من لا سهم له فيها ، اولها شهادة ان لا اله الا الله والكلمة . . والتاسعة الجماعة وهي الالفة[6] .

وحثهم الرسول (ص) لاداء الصلاة في المسجد قائلاً لا صلاة لمن لم يصل في المسجد مع المسلمين الامن يليّه[7] .

وكان المجتمع الذي انغمس لفترة طويلة في الانانية وحب الذات بحاجة الى اعادة بناء من جديد وذلك من خلال الممارسة العملية فبالعمل يمكن ان

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٠ .
(٢) مكارم الاخلاق: ص٥٥٤ .
(٣) الكافي: ج٢ ص١٦٤ .
(٤) مكارم الاخلاق: ص١٤٣ .
(٥) مكارم الاخلاق: ص١٤٣ .
(٦) الوسائل: ج١ ص١٤ .
(٧) الوسائل: ج٥ ص٣٧٧ .

تزال الترسبات فبالاندماج مع المجتمع يمكن معالجة الانانية وحب الذات ، فالكلام وحده لا ينفع في علاج بعض الامراض الاجتماعية لكن الكلام يصبح نافعاً عندما ترافقه الاجواء السليمة فعبر تلك الاجواء استطاع رسول الله (ص) ان ينيب تلك النوازع الشيطانية التي لا زالت تعتمل في بعض النفوس حتى يصبح المجتمع طاهراً معافاً من كل مرض .

٢ ـ الرق، تعود نشأة الرق الى فترة الحروب التي كانت تدور رحاها في الجزيرة العربية وفي المناطق المجاورة لها فالذين كانوا يولدون في الاسر يباعون ويشترون كعبيد هكذا كان حال زيد بن حارثة وصهيب وغيرهما ومع ظهور عهد الرخاء الاقتصادي في مكة برز الرق كظاهرة اجتماعية خطرة تهدد المجتمع بتوارث الحقد والكراهية . ولم يكن من السهل على النبي (ص) تصفية هذه الظاهرة بصورة سريعة فتجذرها في الحياة الاجتماعية كان يتطلب زمنا اطول وبرنامجاً شاملاً يعمل على مواجهة هذه الظاهرة من نواحٍ عديدة .

فقد دعى القرآن الكريم المسلمين الى عتق العبيد «فك رقبة» كما وان رسول الله ما انفك يوماً وهو يعتق العبيد الذين ارتبطوا به اما بالهدية او نتيجة الحرب واول من اعتقه هو زيد بن حارثة وهو هدية من زوجته خديجة فقد ظل متعلقاً برسول الله اشد علقة وحتى بعد ان وجده ابوه فضل البقاء مع النبي (ص) على الالتحاق بأسرته وتمكن الرسول وعبر هذا المنهج ان يحدّ من انتشار هذه الظاهرة اذ لم يكن من السهل تصفيتها وبصورة نهائية لان ذلك مدعاة لمشاكل اجتماعية اخرى .

لمواجهة ظاهرة الرق في المجتمع الاسلامي حظر رسول الله على المسلمين استرقاق المسلم تأكيداً على مفهوم الامة الاسلامية التي يتساوى ابناؤها ولا فضل لمسلم على اخر الا بالتقوى .

لقد استطاع رسول الله (ص) ان يصفي هذه الظاهرة من الوسط الاسلامي وان ينقذ المجتمع الاسلامي من آثارها الوخيمة اما الرق كظاهرة انسانية فقد عمل الرسول بمثابرة لقطع دابرها من خلال الدعوة المكررة الى تحرير العبيد .

٣ ـ الانتقام. . اتسمت العلاقات الخارجية بين القبائل بحالة التوتر الدائم وكان الانتقام يلعب دوراً كبيراً في رسم خريطة العلاقات السياسية في الجزيرة العربية واغلب الحروب الطاحنة التي اندلعت بين القبائل كانت بسبب الانتقام .

وابرز حادثة تذكر في هذا الصدد معركة البسوس التي دامت أربعين عاماً بين قبيلتي تغلب وبكر وكان وراء هذه الحرب الطاحنة حادثة انتقام لمقتل ناقة . فقد كانت هذه الناقة لاحد ابناء جرم يقال لها سراب وقد سكن الجرمي بجوار البسوس بنت منقذ وهي خالة جساس صاحب الابل الكثيرة وكانت سراب ترعى مع ابل جساس وهي في نفس المكان كانت ترعى مع ابل كليب وهو زوج جليلة اخت جساس .

ففي احد الايام كان كليب يتفقد ابله فشاهد ناقة لم يعدها من قبل فسأل عنها فقيل له انها ناقة جارنا الجرمي فاغتاظ كليب وطلب ان لا تعود الناقة مرة اخرى الى هذا المكان . وتجاهل جساس فقال كليب ولم يعدلها اية اهمية فعاد كليب ليهدد هذه المرة بقتل الناقة قائلاً لاضعن سهمي في ضرعها فرد عليه جساس ، لئن وضعت سهمك في ضرعها لاضعن سنان رمحي في لبتك .

واطلعت زوجته بالذي جرى فعملت ما بوسعها لتحاشي الفتنة لكن لم يهدأ غيظ كليب فخرج الى الحمى وجعل يتفقد الابل فرأى الناقة المشؤومة فرمى ضرعها فقتلها فصرخ صاحبها بالذل وسمعت بسوس خالة جساس صراخ جارها فخرجت لترى الناقة ممددة على الارض فوضعت يدها على رأسها ثم

صاحت واذلاه وجساس يراها ويسمع فسارع جساس نحو كليب ليفي بـوعده فيرمي كليب برمح فيسقطه من على فرسه ميتاً .

وتقام المآتم على كليب وكانت جليلة اخت جساس القاتل وزوجة كليب المقتول في المآتم عندما طلب منها ان تغادر المكان لانها اخت القاتل وعادت جليلة الى بيت ابيها مرة كئيبة حزينة وكانت حاملاً بهرجس من كليب .

وكـان مُرّة والـد جليلة وجسـاس يتحلى بقـدر من الحكمـة وعلى عـادة العشائر القريبة التي بينها صلة رحم تلتقي فيما بينهـا للفصل فكـانت شروط عشيرة كليب صعبة المنال فقد وضعوا مرة امام احد اربعة خيارات اما ان يقتلوا جساس او يقتلوا اخاه هماما او يقتلوه هو او ان يعيد الى الحياة قتيلهم فاجابهم بان جساس قد فرّ وانه لا يمنع من القصاص منه واما همام فانه ابو عشرة وان اصدقائه لن يسلموه بسهولة في قبال جرم لم يرتكبه واما هو فانه يريد ان يقتل في الحرب ولن يتعجل الموت . وعوضا عن هذه الشروط قدم لهم عرضين الاول ان يأخذوا احد ابنائه ليقتلوه في قبال قتيلهم او ان يدفع اليهم ألف ناقة . فاستاء القوم من هذا العرض فقالوا له اسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب؟ فنشبت الحرب واستمرت اربعين عاماً دمـرت القبيلتان تدميـراً ولـم تخف الا بمقتل جساس ولقتله قصة ظريفة تعكس ايضا حالة العرب قبل الاسلام وكيف كانوا يقدسون الانتقام ويضعوه في الاولوية على كل شيء .

فيواصل المؤرخون تتبع الحادثة الاليمة فعندما تعود جليلة وهي حامل الى عشيرتها يقوم جساس برعايتها وعندما تلد مولودها يعتبر هذا المولود ولده فيرعى شؤونه ويعامله افضل من معاملة الاب لابنه حتى اذا كبر يـزوجه ابنتـه وينشأ هرجس وهو لا يعرف ابا له غير جساس الى ان اكتشف الحقيقة في حادثة خصام مع رجل من بكر فعيره بابيه فدخل على امه كئيباً فلم ترض ان تخبره شيئا وحاول ان يعرف الحقيقة من زوجته فانكرت معرفتها بالحادث فحدثت اباها بما ألم

بزوجها . وفي اليوم التالي طلب جساس صهره هرجس واراد ان يطمئنه قائلاً له انما انت ولدي وانت مني بالمكان الذي تعلم وزوجتك ابنتي وقد كانت الحرب في ابيك زماناً طويلاً وقد اصطلحنا وتحاجزنا وقد رأيت ان تدخل في ما دخل فيه الناس من الصلح وان تنطلق معي حتى تأخذ عليك مثل ما اخذ علينا فاضطر هرجس موافقته على ما قاله خاله لكنه كان قد بيت مؤامرة قتله فانتهز فرصة عقد المصالحة فطعن خاله وهرب الى قومه مضحياً بحياة رغيدة الى جانب زوجته وامه .

ويمضي مسلسل القتل والانتقام فالطرف الآخر يزال مصراً على الانتقام وهو لم يكتف بكل تلك الدماء التي سفكت خلال الاعوام الاربعين اذ لا زال يطالب بالثأر لكليب الذي نخرت عظامه وبليت خلال هذه الاعوام المديدة . وبعد مقتل جساس كادت الاوضاع ان تهدأ ويعود الصلح والصفاء بين القبيلتين سيما وان رجلاً حكيماً من بكر قرر ان يضحي باحد اولاده من اجل انهاء مسلسل القتل فارسل بابنه بجير الى المهلهل وارسل معه رسالة قال فيها انك قد اسرفت في القتل وادركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر وقد ارسلت ابني اليك فاما قتلته بأخيك واصلحت بين الحيين واما اطلقته واصلحت ذات البين . فقد مضى ، من الحيين في هذه الحروب من كان بقاؤه خيرا لنا ولكم . فلما وصل بجيرا الى المهلهل قتله وهو يقول بُؤ بشسع نعل كليب فسمع الاب بمقتل ابنه فتألم لموت ولده لكنه فرح بأن السلام والوئام سيعودان الى القبيلتين لكنه عندما سمع بما قاله المهلهل عندما ساوى بين ابنه وشسع نعل كليب غضب وتفجرت في عروقه العصبية القبلية فنادى بفرسه وعادت الحرب من جديد ولم تنته الفتنة الا بعد ان قرر المهلهل مغادرة الوطن الى مكان اخر هو اليمن .

ذكرنا هذه الحادثة بكل تفاصيلها لكي نتبين اولا حالة العرب في الجاهلية وكيف كانوا يعيشون مغرمين بسفك الدماء لابسط حادث وكم كان عملاً عظيماً

ما قام به رسول الله (ص) اذ قَلَب هذا المجتمع على رأسه ليقف على قدميه مع طلوع فجر الاسلام اما الامر الثاني فهو للتدليل على ما كان يكنّه العرب من قدسية للانتقام وكيف كانوا لا يكتفون حتى بأنهار الدم ثمناً. وكيف كانوا يضحون بمصالحهم وعلاقاتهم من اجل تحقيق غاية الانتقام لانها اقدم عمل يقومون به وثالثاً لكشف مواطن الضعف نتيجة غياب السلطة السياسية فكان على رسول الله (ص) ان يقلع هذه النظرة من نفوس المجتمع الذي دعاه الى الاسلام وان يضع حدا لهذه الظاهرة الخطرة على تماسك المجتمع ووحدته فوضع قانوناً بدل الانتقام هو القصاص في حالة قتل العمد والدية في غير ذلك واستطاع وخلال فترة قصيرة ان يعبّد الطريق امام قيم الاخوة الاسلامية وقيم القانون لتحل محل هذه القيمة الجاهلية ، واذا بمعركة بدر الفاصلة اصبح فيها الابن المسلم يقف في جبهة وفي مقابله كان يقف ابوه او عمه وكثير من المسلمين شهدوا مقتل ابائهم كأبي حذيفة الذي شهد مقتل ابيه عتبة ومقتل عمه شيبة ومقتل اخيه الوليد ولم يطرأ في نفسه شيء على قاتلهم وعندما وقف رسول الله (ص) على الحفر التي ووري فيها قتلى قريش اخذ يعدهم باسمائهم يا عتبة يا شيبة يا امية بن خلف هل وجدتم ما وعدكم ربكُم حقا؟ فاني وجدت ما وعدني ربي حقا فلاحت منه التفاتة فرأى تغيراً قد طرأ على وجه أبي حذيفة وكان واقفاً مع المسلمين فقال له لعلك قد دخلك من شأن ابيك شيء فاجابه ابو حذيفة لا والله يا رسول الله ما شككت في ابي وفي مصرعه ولكنه كان له عقل وحلم وفضل وكنت ارجو له الاسلام فلما رأيت ما مات عليه من الكفر احزنني ذلك .

هكذا تحول المجتمع العربي من حرب البسوس الى المستوى الذي اصبح فيه الرجل يشارك في قتل ابيه او اخيه او ابنه فاي تحول عظيم طرأ على هذا المجتمع وأية قوة كانت قادرة على احداث هذا التغيير غير قوة العقيدة والايمان الصادق .

٤ ـ تحرير المرأة :

لم تكن المرأة في الجاهلية اكثر من سلعة للمتعة واشباع الحاجات الشهوانية وتقديم الخدمة الرخيصة الا بعض النساء اللواتي برزن في التجارة والشعر والادب. فقد شاعت ظاهرة تعدد الازواج وكذلك تعدد الزوجات مما حد له ولا حصر وكان الرجل يجيز لزوجته الاتصال بالرجال الاخرين جنسياً من اجل انجاب الاولاد. وكانوا ينظرون اليها كمتاع تورث كما تورث تركة الميت فكان من حق الوارث التصرف بها كيفما يشاء فمن حقه الزواج منها او تقديمها الى من يشاء وكانت عادة وأد البنات امراً شائعاً بين العوائل الثرية والفقيرة فكانت النظرة الى المولودة نظرة ازدراء واحتقار فاذا ما بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب فكان الاب يتقدم بنفسه ليحفر لفلذة كبده حفرة ويلقي بها بيديه الاثنتين ويهيل عليها ركاماً من التراب وهي حية .

وكان في بعض الحالات يتعين على الام ان تقوم بهذا العمل تنفيذاً لاوامر الزوج . وهذه العادة لوحدها تعطي معلما واضحا على الطبيعة الهمجية للمجتمع الجاهلي وعلى النظرة القاتمة التي كان يرى المرأة من خلالها . ويمكننا القول ان المجتمع الجاهلي الذي حدد للمرأة هذه المكانة المنحطة ليس فقط يتسم بالعجز حيث نصفه مشلول عن الحركة. فوجود المرأة عمليا له أثر فاعل على حركة المجتمع. المنتظمة.

والوضع المأساوي الذي كانت تعيشه المرأة في الجزيرة العربية كان احد أسباب فقدان ذلك المجتمع لحالة التوازن فهو لم يكن مجتمعا طبيعيا كالجسم الذي يفقتد لأحد أجزاءه .

من هنا فان اعادة المرأة الى مكانتها ليس فقط لمصلحة المرأة بل

لمصلحة المجتمع ايضا إذ سيعود اليه التوازن وتتكامل فيه الاجزاء وهذا ما قام به الاسلام عندما اعاد للمرأة كرامتها وعزتها وجلالها ووضعها في مكانها المناسب . .

فقد صرح القرآن ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف** ﴾ .

وخاطب رسول الله المسلمين قائلاً لهم « خيركم خيركم لنسائه » وكان أول ما قدّم لهذا الكائن هو مساواته بالرجل فجاء في القرآن ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ مساواة في القيمة والمنزلة ومساواة في المسؤولية والجزاء قال الله تعالى . .

﴿ **فاستجاب لهم ربهم اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى . . .** ﴾ .

لقد انتشل رسول الله المرأة من الحضيض الذي كانت فيه وكان بسلوكه اول من يترجم النظرية الاسلامية في المرأة من خلال علاقاته بزوجاته وبناته ، فقد كان يقبل يد ابنته فاطمة تكريما لها واجلالاً واحتراما[1] بعد ان كان العرب يدسون ببناتهم في الرمال ويدفنونها وهي حية . . واهتمام الاسلام بالمرأة نابع من اهتمامه بالمجتمع فالمرأة الصالحة تبني مجتمعاً صالحاً ولم تكن أية خطة في اصلاح المجتمع مجدية ان لم تبدأ بأصلاح الخلية الاجتماعية وذلك باعادة المرأة الى مركزها الطبيعي كأم وزوجة وابنة .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن عائشة، وذكره صاحب أعيان الشيعة، في المجلد الاول: ص٣٠٧.

وقد أوجد هذا المنعطف تحولاً كبيراً في وضع المرأة فأصبحت ذات مكانة وقوة يحسد عليها بعض الرجال وقد شهد التأريخ الاسلامي نماذج رائعة من النساء اللواتي ضربن اروع الأمثلة في الشجاعة والجرأة وفي العلم والتربية وفي الايثار والتضحية وفي الاستقامة والصبر ولم يكن ليحدث هذا التحول الكبير لولا تلك التغييرات الفكرية الذي انجزها الاسلام والتي نقلت المرأة من القاع الى القمة .

٥ ـ ارساء دعائم نظام الأسرة . .

قام نظام الأسرة في بعض مناطق جزيرة العرب سيما في المدينة على قاعدة الانتساب الى الأم فكثيراً ما يحدّثنا التأريخ عن أشخاص ينتسبون الى امهاتهم ويعود السبب في وجود النظام الأمي الى مفاهيم المجتمع الجاهلي نحو الزواج والطلاق فقد كان هذا المجتمع يجيز للمرأة الاتصال بعدة رجال في آن واحد فكان يصعب على الولد معرفة والده الحقيقي فجرت العادة أن يحمل نسب أمه او ان تختار الأم نسباً من بين ازواجها المتعددين . . وتنشأ المشكلة ايضا في حالة الزواج من شخص آخر فتلد مولوداً لا تعرف بالضبط لمن هو هذا المولود للزوج الأول او الثاني .

وقد الغى الاسلام النظام الأمي بصورة آلية عندما وضع حدوداً وضوابط للزواج والطلاق . . فالمرأة لا يحق لها ان تتزوج اكثر من رجل واحد في وقت واحد وعندما تطلق لا يحل لها الزواج الا بعد ان تقضي فترة العدة وهي فترة وضعت لتقصي ذيول الزواج الأول فيتبين خلال هذه الفترة الكافية لتشخيص وضع المرأة حامل كانت او لا وبذلك قلب الاسلام نظام الاسرة من النظام الأمي الى النظام الأبوي وهو نظام كان قائماً قبل الاسلام في بعض مناطق الجزيرة العربية .

ومـع هذا التحـول الذي شهـده نظام الأسـرة اخذت الاسـرة كمؤسسة اجتماعية تنمو نمواً طبيعياً فأصبح توزيـع الوظـائف والمسؤوليات داخـل هذه المؤسسة يجري بصورة طبيعية .

فقد منح الاسلام قيمومة الأسرة بيد الرجـل فأصبـح المسؤول عن رعايـة هذه المؤسسة من الناحية الاقتصادية والفكرية والتربـوية ومن نـاحية أخـرى اصبح مسؤولاً عن أمن الأسرة وبذلك ضمن الإسلام وعبـر هذا التغييـر وحدة هـذه المؤسسة الاجتماعية وعدم تصدعها وتفاعلها في بحر المجتمع الكبير ، وضمن الحفاظ عليها وتوفير الحماية لأفرادها .

وبذلك استطاع الاسلام أَن يُرسي على أسس قويمة اللبنة الرئيسية في المجتمع وبقدر ما كانت هذه اللبنة سليمـة وقويـة ومنيعة من الانحـراف كان المجتمع سليماً وقوياً ومنيعاً ايضا .

وللحفـاظ على سلامـة هذه المؤسسـة وضع الإسـلام موانـع في طريق العلاقات الزوجية المنحرفة فمنع الزواج من بنت الأخ وبنت الأخت ومنع الجمع بين الأختين وكذلك منع الأبناء من الزواج من زيجات آبائهم بعد وفاتهم وهي انواع من العلاقات الزوجية كانت معروفة ومتداولة في جزيرة العرب .

اما تعدد الزوجات فقد أُقرت لمواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسببها الحروب . . فهو اسلوب أقرّه القرآن الكريم لمواجهة حالة الصراع الدائم بين الإسلام والكفر الذي يستنزف اعداداً مستمرة من الرجال . . وكان من الطبيعي ان تظهر مشكلة اجتماعية عقب الزواج وتركه لزوجته ، فلم يكن سبيلاً لحل هذه المشكلة سوى تعدد الزوجات ولا عجب ان تنزل الآية **﴿ وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فـانكحوا مـا طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ﴾** بعد معركة أُحد التي خلفت

سبعين شهيداً من بين المسلمين .

فقد كان رسول الله (ص) يعد المجتمع للمواجهة المستمرة فكان لا بد من التخطيط السليم لمعالجة آثار هذه المواجهة على الأُسر التي تفقد معيلها واغلب زوجات النبي (ص) وبقية الصحابة هنّ من تلك النساء اللواتي فقدن أزواجهن في المعارك . . وقد اشترط القرآن العدالة في حالة التعدد لكي تبقى العلاقة الزوجية محتفظة بمقوماتها الأساسية ومتجهة نحو أهدافها الحقيقية .

واذا شعر الرجل بأدنى عجز في توفير العدالة فانه لا يسمح له بتعدد الزوجات .

٦ ـ توطيد السلام . .

تتجلى دقة المنهاج الاجتماعي للرسالة الاسلامية انها غيرت معادلات المجتمع الّتي كانت تؤدي به الى التطاحن والفوضى الى معادلات اصبحت تتحكم بأجزاء المجتمع لتؤدي به الى حصيلة نهائية هي السلام .

وكأننا أمام صيدلاني يخلط المواد الكيمياوية بنسب متفاوتة ليصنع منها الدواء الشافي وهذا بالضبط ما فعله رسول الله (ص) عندما باشر بتغيير سمات المجتمع الذي كان سائداً بحذف بعض الصفات وزرع القيم مكانها وترسيخ الفضائل وتحريم بعض الممارسات والتأكيد على بعض الأفعال وادار عملية التغيير هذه بصورة دقيقة وبتتابع رائع كانت حصيلتها هو السلام وهو ما كان يهدف اليه من التخطيط وقد استخدم الرسول (ص) كل أدوات التغيير لاحداث التحول الاجتماعي من مستوى الفوضى الى درجة التجانس والتكامل فاستحدم النصيحة الكلامية وكان القدوة لأبناء المجتمع في ترسيخ الفضائل والصفات الحميدة ونبذ الصفات الرذيلة ولم يتغافل عن تأمين حد معقول من الدخل لكل عائلة كل هذه الوسائل كانت تفعل فعلها في المجتمع الذي كان يتحول تدريجياً

الى مجتمع السلام وهو القمة الذي تتكامل فيه أجزاء هذا المجتمع فيعم أرجاءه السلام والمحبة والصدق والاخلاص .

وهي الوسائل التي تبعث الحياة في المجتمع فتدفعه الى الحركة وتضع اتجاها لهذه الحركة وهو تحقيق السلام والاستقرار .

على هذه القواعد أقام الرسول (ص) مجتمعاً اسلامياً منيعاً واستطاع عبرها ان يزيل تراكمات الجاهلية وان يستبدل الرذائل بالفضائل .

وبذلك استطاع الرسول (ص) ان يؤدي الانجاز الكبير الذي تحقق في المدينة وهو تحويل الطليعة الاسلامية الى أمة اسلامية مترابطة على أساس الايمان .

أمة متكونة من أفراد يترابطون اجتماعياً فيما بينهم برباط الاخوة ويترابطون فكرياً على الاستلهام الموحد من معين القرآن الكريم .

ويترابطون عمودياً بقمة الهرم برباط الأسوة الحسنة المتمثلة بكتل الفضائل المتمركزة في شخصية النبي (ص) .

ثانياً . . تنمية الثروة الاقتصادية :

شرع رسول الله (ص) ببناء الدولة الاسلامية في المدينة ومعضلة المهاجرين ترمي بثقلها على عاتق القيادة .

فهؤلاء المهاجرون قد تركوا أموالهم ومنازلهم وحلوا ضيوفا على اهل المدينة ولم يكن من المعقول ان يظلوا عالة على الأنصار لفترة أطول اكثر من فترة الضيافة المعهودة ، فأول ما فكر به الرسول هو ايجاد حل لهذه المعضلة قبل ان يشرع بارساء دعائم النهضة الاقتصادية . . اذ لم يكن من الممكن بناء مجتمع سعيد وفيه هذا التفاوت أناس يملكون البساتين والمزارع هم الأنصار وآخرون

معدمون لا يملكون شيئا ولحل هذه المشكلة توسل الرسول (ص) كما مرّ سلفاً باسلوب ذكي هو اعلان المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين وكانت اخوة حقيقية تشمل حتى الارث .

والناظر الى المجتمع المدني يومذاك يلاحظ ان هناك فائضاً في الثروة بسبب التقدم الزراعي الذي شهدته المدينة في فترة السلم . . وفي نفس الوقت يلاحظ العوز والاحتياج في الجانب الآخر فكان على الرسول ان ينقل هذا الفائض الى الفقراء حتى لا يبقى محتاج في المجتمع . . وكانت هذه هي الخطوة الثانية في السياسة الاقتصادية التي انتهجها الرسول لاعادة بناء الاقتصاد المدني في ظل تواجد المهاجرين فقد صرح قائلاً (من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له)[1] .

ومن كان عنده زاد فليعد به على من لا زاد له[2] .

والفضل كل شيء زائد من المال او المتاع او الطعام . . .

وبعض المسلمين ممن كان له عدة زوجات قرر ترك احدى زوجاته لمن لا زوجة له من المهاجرين فهو قد اعتبر اكثر من زوجة واحدة فضل .

وكانت تلك الخطوة الاولى على طريق التكامل الاجتماعي .

ولم يكتف رسول الله (ص) بتوجيه الأنصار نحو العطاء والكرم لأن وجود هذا العطاء هو حل مؤقت بينما الهدف هو بناء اقتصاد متين قائم على ركائز قوية . . ففي الطرف الآخر دعى رسول الله (ص) المهاجرين الى النزول

---

(١) عن ابي سعيد الخدري، معالجة الاسلام لمشكلات الاقتصاد، ابراهيم الغويل: ص٤٨ .

(٢) نفس المصدر السابق.

الىٰ ميادين العمل وحاول ان يحوّل الطاقة العاطلة عن العمل المتمثلة بالمهاجرين الى طاقة انتاجية تؤدي بازدواجها مع القدرات الاقتصادية المتاحة للأنصار الى قيام نهضة اقتصادية .

فقد جاء عنه (ص) (من كانت له أرض فليزرعها فان لم يزرعها فليمنحها أخاه) . . نقله جابر بن عبدالله الأنصاري .

وجاء على لسانه عبارات شبيهة (من كانت له ارض فليزرعها ، فان لم يستطع ان يزرعها وعجز عنها ، فليمنحها اخاه المسلم ولا يؤجرها اياه) .

وبهذه المقولة وضع رسول الله (ص) حجر الأساس للخطوة الثالثة للسياسة الاقتصادية وهي احياء الأرض الموات .

فالأرض للانتاج وعلى الانسان ان يعمل عليها فاذا فضل قسم من الأرض لم يستطع العمل عليها يمنحها لمسلم آخر ليقوم هو بالعمل عليها .

وقد مهدت هذه السياسة الطريق لاستثمار كافة الاراضي الصالحة للزراعة في المدينة المنورة .

ومن طرف آخر منع استيجار الارض لأن من يريد العمل عليها لم يكن ليملك ما يدفع به ثمن الايجار وقد شجعت هذه الخطوة الحكيمة فئات كثيرة من المهاجرين على الأنخراط في الانتاج الزراعي وقد شهدت المدينة خلال فترة وجيزة نهضة زراعية كبرى كما ورد في كتب السير والتأريخ كل ذلك بفضل المنهاج القويم الذي سلكه النبي (ص) في ارساء دعائم البناء الاقتصادي . . ونجد ايضا هذا الحث في الخطب الاولى التي توج بها رسول الله (ص) بناء المجتمع الاسلامي :

« اما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن ، والله ليصعقن احدكم ثم

ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ـ ولو بشق تمرة ـ فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزي الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف . . »[1] .

فقد وضع النبي (ص) في المدينة الخطوط العامة للنظام الاقتصادي الذي أخذ يتشعب بمرور الزمن وبازدياد الحاجات الحياتية ونلمح من هذه البادرة التي قام بها الرسول (ص) ضوابط عديدة استهدفت تنظيم مصادر الثروة بحيث تصبح الثروة أداة محرّكة للاقتصاد والاتجاه الذي يكفل سعادة أبناء المجتمع .

فالاقتصاد الاسلامي يوصل المجتمع الى العدالة في مختلف ميادين الحياة على عكس ذلك الاقتصاد الذي كان سائداً في الجزيرة قبل الاسلام فقد كان يرتكز على تثبيت مراكز اصحاب الاموال من ارباب التجارة والعقار والذي كان يؤدي بهذا المجتمع في نهاية المطاف الى الاحتكار والربا وتحكم المظاهر السلبية بتلابيب المجتمع .

وعند تقصي معالم الاقتصاد الاسلامي في العهد المدني نجد انفسنا أمام عدة ضوابط اقامها الاسلام كسد منيع أمام تبذير الثروة منها تحريم الربا ، فقد حدد الاسلام طرقا مشروعة لكسب الثروة وعلى رأسها العمل ورفض الاعتراف بالطرق الاخرى التي كانت سائدة في المجتمع ومنها الربا لأن الربا كسب سهل ليس عن طريق عمل مؤثر في الحياة الاقتصادية وهو ما يريده الاسلام .

واذا عرفنا ان معظم الأرباح الناجمة عن الربا تذهب لجيوب غير المسلمين وهم اليهود عنداك سندرك المغزى السياسي والاقتصاد لتحريم الربا مع

---

(٢) الصدر، اقتصادنا: ص٣٠٤.

اول حـركة لتنظـيم الهـيكل الاقتصادي فقد نزلت هذه الآية الكريـمة :

﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، بصدهم عن سبيل الله كثيرا واخذهم الربا وقد نهو عنه** ﴾ . . وقد أدى الغاء الربا الى خروج زمام الاقتصاد في المدينة من ايدي اليهود الىٰ أيدى المسلمين الأمر الذي منحهم فرصة اعادة تنظيم الحياة الاقتصادية على أسس اسلامية بعيدة عن مـركز القـوة الاقتصاديـة اليهودية ، فقد دفع الاسلام الحياة الاقتصادية بعيداً عن الربا أو المقومـات التي تنتهى الى الربا معتبراً الربا مرضاً يصيب الجسد الاقتصادي لأية أمة فقد ورد في القرآن الكريم ﴿ **يمحق الله الربا** ﴾ فليس للربا اي مردود اقتصادي نافع وكان قد تفشى في جسد المجتمع الجاهلي بحيث اصبح له اشكالاً وصوراً مختلفة وذا تفريعات عديدة لا تشمل فقط المال بل الارض والسلع الانتاجية ايضا .

وقد روى عبدالله بن مسعود عن النبي (ص) الربـا ثلاثـة وسبعون بـابا أيسرها . . مثـل ان ينكح الـرجل أمـه وان اربى الربـا من الرجـل المسلم ، والحديث ينوه عن الآثار الاجتماعية العظيمة التي تظهر نتيجة انتشار الربا .

واوقف الرسول (ص) التعامل بالمخابرة التي كانت رائجة في عهد قبل الاسلام وقد جـاء عن زيد بن ثـابت . . نهى رسول الله (ص) عن المخـابرة قلت : وما المخابرة؟ قال : ان تأخذ الارض بنصف او ثلث او ربع فالاسلام يريد للزارع ان يهنأ بمحصوله وان يصبح مالكاً للارض التي أحياها فهذا هو السبيل لربط الانسان بالأرض ودفعـه للعمل عليهـا ، اما العمـل على قاعـدة المخابرة او العقود الملغاة الشبيهة بها كالعينة والملامسة والمزابنة والمحـاقلة فهي لا تشجع على ايجاد هذه العلاقة وبالتالي لا تزيد من الانتاج بل تعرقل مسيرة الانتاج من هنا سارع الرسول الى الغائها .

وحرم على المسلمين شرب الخمر وتعود أسباب تحريم الخمر الى عوامل

اجتماعية فهو يُوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، كما جاء في الآية الكريمة بينما يريد الاسلام ان يبني مجتمعاً نظيفاً خالياً من العقد والعداوات ومن ناحية اخرى هناك ابعاد اقتصادية لتحريم الخمر فهو شراب كان يستورد من الشام والعراق وتكلف تجارته مبالغ طائلة حتى يصل الى أيدي المستهلك في المدينة ومكة كما وان الرابح من هذه التجارة هو التاجر الوثني الذي يقوم بعملية الاستيراد .

فجاء تحريم الخمر ضربة اقتصادية موجعة لهؤلاء التجار بالاضافة الى انه وفر الكثير من الاموال التي كانت تُبذر على هذه المادة .

وبعد اقامة السدود المنيعة منح رسول الله (ص) الحياة الاقتصادية دفعة قوية من خلال ربطه للحلقتين الاقتصاديتين الانتاج والبيع فقال (ص) (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) وذلك عندما سؤل (ص) اي كسب أطيب .

فكلما بذل المسلم من عرقه وجهده هو أقرب الى الايمان والاسلام وأطيب شيء يتناوله الانسان هو ان يأكل ما انتجته يده وبنفس هذا الاحساس يبيع ناتجه لا لكي ينتفع بالربح بل لكي يسدي لبني جنسه اجل خدمة .

فالاقتصاد في خدمة المجتمع هذا هو المبدأ الذي سعى لتطبيقة رسول الله (ص) بعد ان كان المجتمع في خدمة الاقتصاد في بعض حواضر جزيرة العرب . . فهو يندفع نحو العمل من اجل رخاء المجتمع وليس اسعاد نفسه فقط ، فقد كانت اقواله (ص) تستثير فيهم الهمم . . طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة . . ومن أكل من كد يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدا . . ومن اكل من كد يده حلالاً فتح له ابواب الخير يدخل من ايها يشاء . . وجاء في الروايات ان الرسول (ص) رفع يوماً يد عامل مكدود فقبلها تقديراً للعمل .

واخذ رسول الله (ص) بعد ان ازال التراكمات يوجّه انظاره نحـو تنظيم الحياة الاقتصادية بصورة تكفل حركة المجتمع نحو الرقى والتقـدم ، فوضـع قاعدة للتبادل على أساس عملة موحدة بعد ان كان التعامل الاقتصادي يتم على اساس تبادل بضاعة بأخرى .

فقد روى ابو سعيد الخدري ان رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله (ص) أكل تمر خيبر هكذا فقـال لا والله يا رسـول الله انا لنـأخذ الصـاع من هذا بـالصاعين والصـاعين بـالثـلاثـة فقـال رسول الله (ص) لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً .

فيفهم من هذا الحديث ان تبادُل البضاعة كان شائعاً فمنعـه رسول الله ووضع عوضاً عنه اسلوب جديد في التعامل هو العملة . . وفي بعض الأحيان كان يتم التبادل بين البضاعة الواحدة في مستويات مختلفة من الجودة .

فعن ابي سعيد الخدري ايضا ان بلالاً جاء الى النبي (ص) بتمر فقال النبي من اين هذا؟ قال بلال كان عندنا تمر رديء منه صاعين بصاع .

فقال له النبي (ص) أو عين الربا لا تفعل ، ولكن اذا اردت ان تشتري ضع التمر ببيع آخر ثم اشتر به وبهـذه الخطوة حـرر رسول الله (ص) الحيـاة الاقتصادية من قيود كثيرة وبعث النشاط في شرايين التجارة الداخلية فأصبح لا يقلق على بضاعته لأنه سيبيعها في مقابل ثمن وليس في مقابل بضاعة يحتاجها و لا يجـدَ فيها حـاجته ، لقـد احدثت هـذه الخطوة قفـزة نوعيـة في النظام الاقتصادي في المدينة المنورة وجعلته يسير بحركة ثـابتة وقـوية نحـو تكميل الحلقات الأخرى للعملية الاقتصادية .

ومن الخطوات الاخرى في تنظيم الحياة الاقتصادية اقرار رسول الله (ص) المكيال لأهل المدينة كما وانه أقر الميزان لأهل مكة وتتجلى الحكمة في هذا

القرار ان اهل المدينة ينتجون الحبوب والتمور وهي تحتل مساحة واسعة من نشاطهم الاقتصادي بينما تعتمد الحياة الاقتصادية في مكة على المنتجات المستوردة من الخارج وهي توزن بميزان فقال رسول الله الميزان ميزان اهل مكة والمكيال مكيال اهل المدينة[1] .

الخزينة . .

وقد جرت العادة في الجزيرة العربية ان يقبض رئيس العشيرة ربع ارباع عشيرته وجاء الاسلام ليلغي هذه الضريبة التي لم يكن ليستفيد منها سوى شخص واحد ، وسُنّ نظاماً للضرائب يكفل اقامة خزينة الدولة .

فالدولة التي لها خزينة مملوءة بالأموال أقدر على تنفيذ برنامجها على صعيد اسعاد البشر . . وقد اولى رسول الله (ص) اهمية كبيرة لانشاء خزينة مالية للدولة تستطيع ان توفر الاحتياجات المستمرة ، وشرع رسول الله (ص) في توفير السيولة المالية بالدعوة الى الانفاق وقد حث القرآن الكريم المسلمين على الانفاق في آيات كثيرة .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون ﴾[2] .

﴿ وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ﴾ .

﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾[3] .

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾[4] .

---

(١) رواه جمع من المحدثين، رواه ابو داود، والنعماني، والدارقطني، وغيرهم . .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢ .
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٠ .
(٤) سورة الحديد، الآية .

فهناك بالاضافة الى ما تقدم عشرات الآيات القرآنية التي، ورد فيها الحث على الانفاق بهذا اللفظ وبألفاظ أخرى .

ومن جانب آخر منع الاسلام اكتناز الاموال ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[1] فالفائض يجب ان ينفق في سبيل الله .

وقد وعد القرآن الكريم المنفقين اجراً كبيراً ﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم . . .** ﴾ .

ومع نمو الثروة وزيادة الانتاج شرع الاسلام ضريبة الزكاة على الارض وعلى النقود وعلى الثروة الحيوانية وشرع الخمس على الارباح وبها وضع الاسلام اسس الخزينة المالية التي اصبحت الممول الأول لمشاريع وبرامج الدولة بالاضافة الى سد العجز في دخل الافراد الفقراء فقد كان رسول الله يدفع من بيت المال الدية عمن لا يمتلك الاموال اللازمة .

واخذ النظام الاقتصادي يتطور مع تشعب النشاط الاقتصادي وبالاتجاه المتجانس مع تطور الاوضاع ليحفظ لهذا المجتمع العدالة والمساواة فقد جاء عن الرسول (ص) ما جاع فقير الا بما متع غني فقد اقام رسول الله (ص) اروع نظام اقتصادي يقوم على اساس معالجة مشكلة الفقر اما بالتحريض على العمل او بحل المعضلات الاجتماعية المانعة عن العمل او ما شابه .

لقد بنى رسول الله (ص) مجتمع الغنى عندما رفع مستوى الفقير الى مستوى الغني فهو القائل :

نعم العون على تقوى الله الغنى ، بعكس النظام الاشتراكي الذي يعمل

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٣١.

على ازالة الفوارق بين الفقير والغني بجعل الغني فقيراً وتكون النتيجة هو المجتمع الفقير لا الغني ، وبذلك استطاع الاسلام ان يوجد قوة ذاتية في هذا المجتمع يمكنه من اداء مسؤوليته التأريخية بين الأمم ، فالاقتصاد القوي يمكن المسلمين من مواصلة العمل لاجتثاث جذور الوثنية والشرك ليس في جزيرة العرب وحسب بل في العالم بأسره .

ثالثاً . . الاستعداد العسكري :

لم يك بدا من الصراع فالاسلام دين التحرر والثورة على القيم والاعراف الجاهلية وكان من الطبيعي ان يقف الكفر كله في مواجهة الاسلام حاملاً الدعاية والسلاح والقوة .

كان المستقبل واضحاً امام رسول الله فالكفر سوف لا يتهاون مع الرسالة الاسلامية واذا استطاع الاسلام ان يخرج من مكة سالماً بالاساليب الحكيمة واذا تمكّن رسول الله (ص) ان ينجو من ايدي المشركين بالمعجزة فان هذا الوضع سوف لا يستمر الى الابد اذا لم يستعد المسلمون الاستعداد الكافي كان على المسلمين ان يحسبوا حساب ذلك اليوم الذي ستتقدم فيه قريش للقضاء على الاسلام فالايام القادمة ايام عصيبة وهي تحمل في طياتها مفاجآت كثيرة واحتمالات عديدة كان لا بد من الاستعداد لها والا فان مصير هذا الكيان مهدد بالخطر فلقد شاءت ارادة الله ان تجري الامور بأسبابها وكان بمقدور هذه الارادة ان تؤمن الحماية الكافية للمسلمين وان تتحمل عنهم اعباء الدفاع والمواجهة مثلما حدث ذلك في مواقع كثيرة حيث تدخلت فيها ارادة الله لحسم الموقف لصالح الاسلام . . لكن شاءت ارادة الله ان تصبح هذه الجماعة قدوة لأية جماعة اخرى وتأخذ على عاتقها مسؤولية الرسالة وتتقدم لحمل الراية فكان على هذه الحركة ان تمضي في طريقها بصورة طبيعية لتخزن في اعماقها تجربة رائدة

تبقى آثارها لآخر الزمن .

كان على الجماعة ان تتهيأ للصراع المرير مثلها مثـل النبتة التي تشق طريقها بعنت بين الحصىٰ والتراب من اجل ان تخـرج من باطن الارض الى السماء فالنبتة التي لا تقاوم التربة تَقبر حتى النهاية ولا يرى لها من أثر .

ومنذ ان شعر رسول الله (ص) باستحالة البقاء في مكة أخذ يخطط لمرحلة المواجهة المنتظرة فاختياره ليثرب مكاناً لاقامة الدولة كـان يحمل مؤشـراً بأن صراعاً مريراً ينتظر الدولة فالمقومات الجغرافية للمدينة تمنحها القدرة والمقاومة وتحصنها ضد الهجمات الخارجية .

وبعد تعيين الارض كان لا بد من تأسيس العلاقة بين افراد الجماعة على مبـدأ المواجهـة والصراع وكـان ذلك بـداية لارسـاء القوة العسكـرية للكيـان الاسلامي .

بيعة على الجهاد

اذا ما تتبعنا تطور نشوء الجماعة الاسلامية في المدينة للاحظنا تزايد عدد المسلمين في فترة البيعة الأولى فعمل رسول الله (ص) على تغيير اسلوب البيعة في العقبـة الثانيـة فطلب من المسلمين ان يمنعـونه بمـا يمنعون بـه نساءهم وابناءهم ، فمدّ البراء بن معرور يده الى رسول الله (ص) قائلاً . . بـايعنا يـا رسول الله فنحن والله ابناء الحروب واهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

ووقف العباس بن عبادة ليقول . .

يا معشر الخزرج اتعلمون عـلامَ تبايعون هذا الرجل؟ انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس فان كنتم ترون انتم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلاً اسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون انكم وافون له ما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف

فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : انا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف فما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك؟ فردّ عليهم النبي (ص) قائلاً : الجنة[1] فبايعوه بأجمعهم على ذلك .

وكانت تلك بداية التهيأة لفصل جديد من تاريخ الحركة الاسلامية وظهرت نتيجة هذا الاستعداد سريعاً . . فعندما احس المسلمون المجتمعون الى رسول الله (ص) انهم مراقبيين من قبل الاعداء وقف العباس بن عبادة ليقول لرسول الله (ص) والله الذي بعثك بالحق ان شئت لنميلنّ على اهل منى غدا بأسيافنا فقال لهم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم فرجعوا الى مضاجعهم .

وبهذه البيعة وضع رسول الله (ص) حجر الأساس لبناء قوة مقاتلة مهمتها حماية الدين في قبال ثمن باهظ هو الجنة . . ويتجلى في هذه الخطوة البعد السياسي والروحي فالمرحلة القادمة هي مرحلة مواجهة حقيقية بحاجة الى اناس على استعداد لتحمل اعباء المسؤولية القتالية وهو الاسلوب الافضل لاقامة كيان سياسي للأمة الإسلامية ولردع من يحاول النيل من هذا الكيان اذ سيصبح لهذا الكيان ثقلاً سياسياً بما يمتلك من قوة عسكرية اما في مقابل ما يبديه المسلمون من جهاد وتحمل للمسؤولية فانهم سينالون الجنة . . من هنا فان حمل السلاح في الاسلام هو لتحقيق غايات نبيلة وليس لتحقيق اهداف شخصية او مصلحة قبلية او منفعة قومية .

الهدف من الجهاد هو الخير وهو السبيل الى الجنة فبقدر ما تتضمن خطوة

---

(١) هيكل، حياة محمد: ص٢٠٥ .

البيعة من توجيه سياسي تتضمن ايضا توجيهاً روحياً يشد من عزيمة المسلمين ويعضد من اصرارهم على المواجهة طالما كان الثمن الذي سيقبضونه هو الجنة .

٢ ـ تحالف سياسي على مواجهة الأعداء :

وقد جاء دستور المدينة الذي ابرمه الرسول (ص) مع القبائل العربية واليهودية ليرسم معالم التحالف السياسي الذي يستهدف بالدرجة الأولى اهل المدينة بكافة قبائلهم وأديانهم في مواجهة اي عدوان خارجي فجاء في الصحيفة وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة والمقصود بهم اليهود والمسلمين معاً .

فقد كانت من اولويات المواجهة تحديد هوية الصراع فالمعركة الفاصلة هي مع الوثنية المكية التي اعتدت على المسلمين وسلبت منهم اموالهم فكان على المسلمين ان يقيموا وهم يتأهبون للمواجهة التحالف مع الجماعات الاخرى او على الاقل تحييدها ووضعها خارج خارطة الصراع عند وقوع المواجهة فكانت هناك قوى غير اسلامية ليس بالضرورة وضعها في خانة الاعداء طالما كانت هناك امكانية التحالف معها او تحييدها على الاقل ، كاليهود مثلاً .

فكانت الصحيفة بما تضمنته من دعوة للتحالف العسكري والسياسي مع اليهود خطوة رائدة نحو توظيف الاهتمام بالعدو المباشر والرئيسي وهو الوثنية المكية ، وبغض النظر عن الجماعات الاخرى التي لا تشكل خطراً على الجماعة الاسلامية او حتى التعاون مع هذه الجماعات وعقد الاتفاقية معها .

وانتهج الرسول (ص) هذه السياسة في كافة مراحل الصراع فقد كانت دائما هناك قوى مضادة مائة بالمائة وقوى تختلف في عدائها فلم يكن الرسول يعاملها بصورة مساوية بل كان يعمل على تجميد خلافاته مع بعض الجماعات

المضادة له من اجل التفرغ للعدو الرئيسي . . نلحظ هذه السياسة في الاسلوب الذي انتهجه النبي (ص) مع العدو الداخلي المنافقين وتجميده الصراع مع المكيين في صلح الحديبية لرد كيد المعتدين اليهود الذين اوغلوا في خيانتهم للعهود والمواثيق فكان صلح الحديبية مقدمة لفتح خيبر . . ففي وقت ما جمد الرسول (ص) الصراع مع اليهود ليصرف اهتمامه في المواجهة مع الوثنيين المكيين وبعد عشر سنوات نجد المعادلة المعكوسة حيث جمد النبي (ص) صراعه مع الوثنيين ليتوجه لحرب اليهود .

وهذا يؤكد لنا ان الاسلام كان يواجه في كل فترة قوى متباينة في عدائها واهدافها المبيتة ضد الاسلام وعلى أساس هذه النوايا كانت تتحدد مواقع هذه الفئات في خارطة الصراع السياسي والعسكري .

٣ ـ التسليح والتدريب :

وجد المسلمون في المدينة فرصة لتطوير كفاءتهم العسكرية مستجيبين للقرآن الكريم ﴿ **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ فالاستعداد يقتضي توفير الامكانات العسكرية من السيوف والرماح والسهام ويقتضي ايضا التدريب على انواع الاسلحة وبالأخص التدريب على الرمي .

فقد جاء في الاخبار ان رسول الله (ص) ارسل الى اليمن من يشتري الاسلحة وكان بين المسلمين من هو متخصص في صناعة السيوف والرماح هو خباب بن الارت والشطر الاهم من توفير الاسلحة هو استخدامها والتدريب عليها فقد وجّه الرسول (ص) جل اهتمامه منذ وصوله المدينة على تدريب أتباعه على فنون القتال فكان يشجع المسلمين على هذا العمل فكان ينادي بين صفوف المتدربين واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، وكان يشجع المسلمين على الفروسية قائلاً :

الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة .

وكان ايضا يدفع المسلمين الى التخصص في رمي السهام قائلاً « من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة » .

وتشجيعا لصناعة الاسلحة وحمل النبل على المقاتلين قال (ص) ان الله عزّ وجلّ ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانع يحتسبه في عمل الخير والرامي به ومنبلّه . .

ولم يكتف الرسول بتشجيع القتال البري بل ايضا شجع على ممارسة التدريب والقتال في البحر ايضا فقال (ص) « غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر والمائد فيه كالمتشحط في دمه ومن أجاز البحر فكأنما اجاز الاودية جميعاً » وذلك لأن ظروف الصراع العسكري على المدى البعيد كانت تحتم على المسلمين استخدام كل الوسائل المتاحة وطرق كل الابواب فأهداف المستقبل هو تأمين استراتيجية عسكرية في البر والبحر، فالبحر هو العائق الوحيد الذي يفصل بين الجزيرة وبعض الدول المجاورة .

ودعوة الرسول (ص) لغزو البحر يعكس مدى وعمق النظرة المستقبلية للرسول الأكرم . حيث حدثت بعد عشر سنوات أو أكثر معارك في الضفة الاخرى من البحر انتهت بتحرير مصر وشمال افريقيا وبعض الجزر في البحر المتوسط . . ولا ريب ان الفضل في الانتصارات المتلاحقة في جبهة البحر كما في جبهة البر يعود بالدرجة الاولى الى الدعائم الاولى التي وضعها رسول الله لتكوين قوة برية وقوة بحرية متدربة على افضل فنون القتال . وكان المسلمون يتخذون من المسجد مكانا للتدريب على السلاح وكانوا يذهبون الى الجبال للتدريب على التهديف فقد شاهد رجل في اطراف المدينة عقبة بن عامر يحمل السلاح ويمارس التهديف راكضاً من مكان الى مكان فسأله (تختلف بين هذين الموضعين وانت

شيخ كبير؟ فأجاب الشيخ لأمر سمعته من رسول الله (ص) قال ما ذاك أجاب الشيخ سمعته يقول من تعلّم الرمي ثم تركه فليس منا وبالرغم من ان بعض المسلمين كانوا من اهل القتال والحروب الا ان غالبيتهم كانوا من العبيد والمستضعفين الذين لم يجدوا فرصة لتعلم فنون القتال تحت ظل الجاهلية المكية فهؤلاء كانوا بحاجة ماسة الى اعادة تدريبهم على افضل صورة حتى يتمكنوا من مواجهة قريش المتدربة على أحسن فنون القتال والمتسلحة بأفضل الاسلحة الفتاكة .

٤ ـ التعبئة المعنوية :

منذ ان وطأة قدماه اخذ رسول الله (ص) يشد الهمم ويرفع من وعي المسلمين ليصبحوا بمستوى المواجهة المباشرة مع الوثنيين . . اذ كانت هناك عقبات نفسية تحول دون تحقيق هذه المواجهة فهناك التهيّب من قريش فأغلبية المسلمين اما عبيد او أجراء للسادة يعيشون في مكة فلم يكن من السهل دفع هؤلاء المستضعفين لمواجهة سادات الأمس . . وكان أمراً حتمياً ايضاً ان يحارب الأخ أخيه والابن اخيه اذ كانت العوائل لا زالت متداخلة فكانت عملية التعبئة بحاجة الى حشد من التوجيه المركز حتى يرتفع هؤلاء المستضعفين لمستوى المواجهة ويصبحوا على استعداد للدخول في حرب ضارية مع من كانوا ينظرون اليهم اسيادا لهم بالامس او مع اقربائهم او ابناء عشيرتهم .

ومنذ البدأ اخذ رسول الله يركز الفكرة الجهادية في أذهان المسلمين وقد رافق هذا التوجيه حشد من الآيات القرآنية التي كانت تنزل كجرعات معنوية تهيأ الجسد لمواجهة المعركة الفاصلة مع المكروب فقد نزلت اول آية تمنح الاذن للمسلمين بالقتال بعد ان تبين مبررات هذا القرار يقول القرآن الكريم ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من**

ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنـا الله ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمـور ﴾ ثم بعد ذلـك نزلت الآية الكريمة ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنة ويكون الدين لله . . ﴾** ثم تعاقبت الآيات التي شدت من العزائم وأزالت الحواجـز النفسية المـانعة للقتـال . . ﴿ **قل ان كان آباؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتمـوها وتجـارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهـاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾** .

وفي مجال تقوية القلب وازالة المخاوف وبعث الاطمئنان الى النفوس قال ربنا عزّ وجلّ ﴿ **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا . . ﴾** .

وعن مصير من يقتل جاء القرآن بمـا يثبت القلب ويثير الـطمأنينـة في النفوس ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيـل الله أمواتـاً بل أحيـاء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم . . ﴾** واخذ الـرسول يـردد نفس هذا المعنى قـائلاً للمسلمين :

« جاهدوا في سبيل الله فان الجهاد باب من ابواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم » .

وزادهم طمأنينة بمصير من يُقتل ان الله تعالى يقول : « ما من عبد من عبادي يخرج مجاهداً في سبيلى الا ضمنت له ان ارجعه مأجوراً غانماً . . او شهيداً اغفر له وارحمه وادخله الجنة » .

اما من يتطوع في تمويل القوة العسكرية فانه ينال أضعاف ما بـذله في

سبيل الله « من ارسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم » وقال ايضا : « من اعان مجاهداً في سبيل الله أظله الله يوم لا ظل الا ظله » .

اما من يصبه الأذي في المواجهة . . والأذى على درجات ومقابل كل درجة هناك ثواب « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار » . . « ومن جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة ويأتي جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون فلان عليه طابع الشهداء » .

اما المجاهد الذي يبذل دمه وماله . .

« والذي جاهد بنفسه وماله حتى اذا لقي العدو قاتله حتى يقتل فذاك الشهيد الممتحن خيمة الله تحت عرشه ولا يفضله النبيون الا بدرجة النبوة .

والعمل العسكري له انشطة مختلفة ولكل موقع أجر وثواب . . وقد شجع الرسول (ص) المسلمين على اقتحام كل المواقع .

ففي المراقبة والاستطلاع قال رسول الله وهو يشجع المسلمين نحو هذا العمل « حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » .

اما العمل خلف الجبهة فيقول الرسول (ص) :

«من مات ولم يفز او يجهز او يخلف غازياً في اهله بخير اصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة» ، اما رباط يوم واحد فيقول (ص) رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ومقام احدكم في سبيل الله خير من عبادة احدكم في سبيل الله ستين سنة .

وهناك حشد كبير من الاحاديث والآيات توجد الدافع للتقدم الى صوح الجهاد ، وقد اعطى هذا التوجيه المركز ثماره في بدر عندما اصطف

المستضعفون والعبيد في قبال اسياد قريش وحمل الابناء على الآباء فكانت معركة فاصلة انتصر فيها اصحاب القيم والمثل الذين حاربوا بقوة ايمانهم وانهزم فيها الاسياد والوجهاء لأنهم حاربوا بسلاح القوة المادية فقط فلم ينتصروا بها لأنها غير كافية لتحقيق شرايط النصر .

٥ ـ السرايا :

بعد ان استقر بالمسلمين المقام في المدينة وبعد ان أرسي رسول الله (ص) أسس بناء القوة العسكرية أخذ وبعد ثمانية أشهر من استقراره في المدينة يبعث بالسرايا وهي مجموعات مقاتله تتألف من عدد من المقاتلين يقودهم شخص واحد متميز بكفاءته العسكرية والهدف من ارسال السرايا امور عديدة اهمها :

١ ـ تعويد المسلمين على حياة الجندية وتعويدهم على الانتظام في مجموعات عسكرية وتربيتهم على الطاعة الصارمة والكتمان . . فقد ارسل عبدالله بن جحش ومعه اثنى عشر من المهاجرين وكتب رسول الله كتاباً وأمره الا ينظر فيه قبل مسيرة يومين فيمضي لما أمره الرسول به ولا يستكره من اصحابه احدا . وبعد يومين فتح عبدالله الكتاب السري وقرأ ما فيه :

اذا نظرت في كتابي هذا فأمضي حتى تنزل بوادي نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها . . وبعد ان قرأ الكتاب التفت الى اصحابه وقال لهم ، قد أمرني الرسول (ص) ان امضي الى نخلة ارصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني ان استكره احدا منكم ممن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فاما انا فماض لأمر رسول الله . . فأجابه اصحابه جميعا ومضوا حتى نزلوا بنخلة . . فمرت بهم قافلة قريش تحمل تجارة لمكة فهاجموها وقتلوا احد افرادها وهو عمرو بن

الحضـرمي وأسروا اثنين آخـرين وقفلوا عـائـدين بـالبضـائـع والأسيـرين الى المدينة . . وعندما عرف الرسول (ص) بما جرى عنف المجموعة لأنها تخطت الأوامر التي كانت تقتضي فقط رصد الاخبار وليس القتل وفي شهر حرام فقال لهم ما أمرتكم بقتال في الاشهر الحرم وأوقف التصرف بالاموال والأسيرين وابى ان يأخذ من ذلك شيئا .

وتتجلى في هذه القضية امور تعليمية هامة . . الأمـر الاول ، التدريب على الكتمان باستخدام الرسائل السرية وهو اسلوب جديد لم يتعوده العرب من قبل وهو اسلوب ذو اهمية قصوى في مباغتة الاعداء وكان على المسلمين ان يتعودوا الحالة الجديدة من خلال الممارسة العملية .

فكانت مرحلة السرايا هي افضل فترة لتعلم اصول الحرب وفنونهاـويظهر من هـذه القضية ايضـا التدريب على الـطاعة اذ كـان الخـطأ الـذي ارتكبتـه المجموعة بقتلها احد المشركين في الشهر الحرم وتعنيف الرسول لها درساً بليغاً للمسلمين بقي مفعوله على مدى طويل من المعارك التي خاضوها .

وهنا ننتقل الى الهدف الثاني من انشاء فرق السرايا وهي :

٢ ـ الكشف عن الثغرات ومعرفة نقاط الضعف فالسرايا كانت حـروب صغيرة من شأنها ان تشكف عن نقاط الضعف ان وجدت ثم معالجة هذه النقاط حتى تصبح المجموعة قادرة على الدخول في المعركة في المرة القادمة ، فقد كانت هذه المناوشات بمثابة مناورات حية وهي ضرورية للجماعة التي تستعد لمواجهة طويلة ومريرة وكان يلحظ خلال فترة المناورة سلوك أفراد المجموعة ومقـدار شجاعتهم وتضحيتهم سيمـا وان الطريقـة التي اتبعت في التعبئة هي طريقة طوعية فالفرد له الحريـة الكافيـة في البقاء في المجمـوعة المقـاتلة او الانصراف وكان رسول الله (ص) يختار لقيادة هذه المجموعات اشخاص أكفاء

كحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وفي احدى المرات خرج بنفسه على رأس المجموعة .

٣ ـ رصد تحركات المشركين فقد كانت قريش تتحين الفرص للانقضاض على المدينة بقصد غزوها والسيطرة عليها فقد كان الهدف من ايفاد سرية حمزة هو رصد تحرك قوة مكية متركبة من ثلثمائة جندي بزعامة ابي جهل بن هاشم . . فأكثر السرايا التي بعثها رسول الله كانت لمراقبة التحركات العسكرية لمشركي مكة الذين كانوا يبعثون باعداد كبيرة من المقاتلين لتهديد أمن المدينة المنورة .

٤ ـ اشعار المشركين بيقظة المسلمين وانهم عارفون بتحركاتهم مما سيعرقل مساعيهم في تهديد الكيان الاسلامي . . فلربما طمع المشركون بالقضاء على المسلمين وتضعيف دولتهم لولا وجود هذه التحركات التي كانت تنم عن قوة ويقظة قلبت المعادلة في اذهان المشركين . فبدلا من التعرض للمسلمين اصبح المشركون همهم الاول والاخير هو تجنب المواجهة لما يشكل ذلك من خطر على خطوط التجارة .

٥ ـ تهديد خط التجارة وفرض الحصار الاقتصادي بعد سلب حالة الامن من القوافل الذاهبة والقادمة من مكة . . وهذا هو الهدف الاستراتيجي من كل تلك المناورات التي قاربت في تعدادها سبع واربعين سرية . . فالهدف لم يكن القتال كما هو واضح من كلام رسول الله لمجموعة بن جحش بل الهدف هو عرقلة الحركة التجارية وعبر هذا الهدف استطاع المسلمون ان يصيبوا المشركين في القلب فقد أدت هذه المناوشات الى تذبذب في الحياة الاقتصادية في مكة والى تضرر مصالح اصحاب الأموال والصفقات التجارية .

ان تهديد هذه المصالح كان هو الهدف وليس القتال لأن عصب الحياة كانت قائمة على هذا الطريق الذي لا بد وان يمر عبر المدينة في كل الاحوال،

وكان هذا الطريق هو مصدر ارتزاق لأهل مكة حيث كانت منتجات الحبوب القادمة من الشام تصل مكة عبر هذا الطريق فقد أحدث الحصار الاقتصادي أزمة غذائية في مكة ولم تتمكن الطرق الاخرى من تأمين النقص في المواد الغذائية .

وقد مهدت هذه المناوشات فعلا للحرب الطاحنة حيث دفعت بقريش الى وضع قضية المسلمين موضع الجد وطرحت امرها للقضاء على الكيان الاسلامي الذي استشرى آثاره .

٦ ـ مد جسور التحالف الى القبائل العربية القاطنة على الطريق الاستراتيجي الموصل بين الشام ومكة فقد عقد المسلمون معاهدات حسن جوار وعدم اعتداء مع بني ضمرة وبني مدلج وقد نصت هذه المعاهدات على بنود هامة على رأسها عدم الاعتداء بين الطرفين وان لا ينضم احد الطرفين في حلف مضاد للطرف الآخر وان لا يساعد هذا الطرف اعداء الطرف الآخر .

وبهذه التحالفات ضمن رسول الله عدة أمور الأول تأمين المنطقة الاستراتيجية المحيطة بالخط التجاري القرشي امام النشاطات العسكرية للقوة الاسلامية . . والثاني هو الحيلولة دون تمكن قريش من الزحف نحو المدينة بقصد احتلالها لأن مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تتم بدون مساعدة القبائل القاطنة حول المدينة فقد اقامت هذه التحالفات شريطاً امنياً حول بعض مداخل المدينة فأصبحت هذه القبائل بمثابة الانذار المبكر لأي هجوم قد تتعرض اليه المدينة بالاضافة الى امكانية الاستفادة من هذه القبائل في صد اي هجوم خارجي .

٧ ـ كانت هذه المناوشات بمثابة رسالة الى من يُحدّث نفسه بضرب المسلمين من الداخل . فقد كانت الجبهة الداخلية في تلك الفترة قلقة بسبب

التواجد اليهودي المكثف في المدينة فاحتمالات حدوث التمرد وانتهاز الفرص لتوجيه الضربة الى الكيان الاسلامي قائمة .

ومن المبادىء التي التزم بها رسول الله هو ان لا يبدأ احد بالقتال بل على عكس ذلك عمل على مد جسور السلام والود مع كل جماعة ومنها اليهود وانه غير عارف بما يخططون له .

فلقد كانت الظروف كافية لكشف ما يبطنه اليهود ضد الاسلام والمسلمين فالعلاقات الهشة بينهم وبين المسلمين لم تكن لتستطيع ان تصمد أمام أطماعهم سيما وان تطور بناء الدولة الاسلامية جاء معاكساً لأفكارهم وتطلعاتهم الاقتصادية . . ولم يكن اسلوب الموعظة مجدي بهؤلاء الذين ظلوا يعملون في الخفاء للاطاحة بالاسلام فلم يكن امام الرسول (ص) الّا ان يتوسل بالقوة ليظهر دولته بالمظهر اللائق حتى يتجنب مؤامرات اليهود ودسائسهم فكانت هذه المناوشات بمثابة المناورة العسكرية لكبح جماح المتآمرين من اليهود الذين كانوا يتطلعون للحظة ضعف يصاب بها المسلمون ليبدأوا بتنفيذ دسائسهم وحيلهم ، فقد استطاعت هذه المناورات ان تؤمن الحد المناسب من الحالة الأمنية في المدينة وان تلغى ولو لوقت محدود وقصير اي مخطط تآمري يعمل اليهود الى تنفيذه ضد المسلمين .

ثالثاً: مرحلة الانتشار

وأخذ الاسلام بالانتشار في جزيرة العرب بعد التوقيع على صلح الحديبية فقد مكنّ هذا الصلح المسلمين من التوسع بين القبائل اعطاهم فرصة التفرغ لنشر الدعوة الاسلامية فأخذ النبي (ص) يرسل الرسائل والمكاتب الى زعماء الدول والقبائل داعياً اياهم الى اعتناق الاسلام فأرسل الى هرقل ملك الروم وكسرى ملك فارس والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشة وارسل الى عامل كسرى في بلاد اليمن وكتب الى ملك اليمامة وملك عمان وقد أجاب كل واحد من هؤلاء بجواب خاص .

فقد مزّق ملك فارس رسالة النبي وبعث الى عامله على اليمن يأمره بأن يلقي القبض على النبي (ص) ويبعث اليه برأسه ، اما هرقل فلم يعبأ برسالته واعتقد انها لا تشكل خطراً عليه ولم يوافق على طلب الحارث ملك الغساسنة في تجهيز جيش للقضاء على النبي (ص) اما المقوقس فقد كان رده جميلاً وارسل مع الرسالة الجوابية هدية جاريتين وبغلة بيضاء وحماراً ومقداراً من المال فقبل النبي (ص) هديته ، اما النجاشي فقد كان رده جميلاً حيث لبى دعوة النبي وآمن برسالته اما حكام اليمامة وعمان فلم يرفضوا دعوة النبي (ص) وأسلم

بعض امرائهم كالمنذر بن ساور العبدي واصبح داعية للاسلام وكتب رسالة الى النبي (ص) تتضمن هذا المعنى فأجابه النبي (ص) برسالة أخرى وجعله عاملاً له على منطقته .

وتعززت حركة الدعوة وتضاعف انتشار الاسلام بعد فتح مكة حيث أزيح بسقوط قلعة الوثنية أكبر عقبة عن طريق الدعوة الاسلامية فأخذت القبائل تدخل في دين الله أفواجاً كما جاء في القرآن الكريم في سورة النصر : ﴿ **اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً** ﴾ فأول من آمن به بعد قريش خزاعة التي كانت حليفة معه لفترة من الزمن .

وما ان عاد النبي (ص) الى المدينة بعد فتح مكة وبعد غزوة حنين حتى كانت الوفود تترى عليه من كل حدب وصوب وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة والتي حملت اسم عام الوفود لكثرة ما ورد على الرسول من اطراف الجزيرة من القبائل والرسائل التي يعلن فيها أصحابها ايمانهم بالاسلام .

وكان أول وفد قدم المدينة هو وفد ثقيف وهو يتشكل من ستة أعضاء هم زعماء قبيلة بني يسار ، بني سالم ، بني الحارث وبعد كلام طويل ومفاوضات شاقة أعلن هؤلاء الستة اعتناقهم للاسلام ثم عادوا الى الطائف ومعهم المغيرة بن شعبة وأبي سفيان فكلفا بهدم اللات وجاء من لم يسلم من بني تميم فأرسلوا أشرافهم الى النبي (ص) ودخلوا المسجد ونادوا من وراء الحجرات ان أخرج الينا يا محمد فنزلت الآية ﴿ **ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون** ﴾ وطلبوا من خطيبهم أن يقوم فيتفاخر بقومه فانتدب النبي (ص) ثابت بن قيس ليرد على خطيبهم وحسان بن ثابت ليرد على شاعرهم وفي النهاية أسلموا وأعلنوا العذر والطاعة للنبي (ص) ، وجاءته بني المصطلق ايضا وأكدوا اسلامهم واستعدادهم لدفع الزكاة .

وجاءه وفد بني عبد القيس برئاسة الجارود بن عمر فأسلم هو وأصحابه وجاء عدي بن حاتم الطائي فأسلم بعد ان أقنعه النبي (ص) بالاسلام .

وأوفدت قبيلة بلى والداريين (من لخم) وسلامان وغسان وبني أسد ممثلين عنها وجاءوا الى النبي (ص) يقولون يا رسول الله قدمنا من قبل ان ترسل الينا رسولاً .

وقدم عمرو بن معد يكرب ومعه جماعة من قبيلة من بني زبيد فأسلموا وقدم فروة بن مسيك المرادي فأسلم فولاه النبي (ص) قبائل مراد وزَبيِد ومذحج وجاء الى النبي (ص) صرد بن عبدالله الأزدي ومعه وفد ازد فأسلموا فولاه النبي (ص) على قبيلته وقدم وفد من كندة يتراوح عددهم ثمانين شخصاً بزعامة الأشعث بن قيس فأسلموا .

وأرسل ملوك حمير كتاباً الى النبي (ص) يعلنون فيه اسلامهم .

ومن العشائر الأخرى التي قدمت المدينة وأسلمت قبيلة بهراء ، وبني البكاء وبني فزارة وبني سعد ومحارب والرهاويين وعبس طيء وبني عامر بن صعصعة ، وكانوا يُختارون الوفود من وجوه القبيلة وشخصياتها وتحل في ضيافة النبي (ص) خلال فترة بقاءها وتوكل الشؤون الثقافية المتعلقة بأعضاء الوفد بخالد بن سعيد حتى يصبح كل عضو في الوفد داعية الى الاسلام ، وعندما كان يجد النبي ضرورة في ارسال المبلغين كان يبعث معهم من يعلمهم أمور دينهم .

وبعض القبائل التي لم ترسل وفدا عنها كان الرسول (ص) يبعث صحابته اليها من أجل افهامها الإسلام فبعث المهاجر بن أبي أمية الى صنعاء ومالك بن نويرة الى بني حنظلة والزبرقان بن بدر الى بني سعد وزياد بن لبيد الانصاري الى حضرموت ، وعلي بن أبي طالب الى اليمن[1] .

---

(١) ابن هشام: ص٣٧١.

وأخذ الاسلام ينتشر بين القبائل المسيحية في الشمال والجنوب ووجد طريقه الى الفرس فأسلم باذان حاكم اليمن وهو فارسي تابع لدولة فارس ولم يبق في جزيرة العرب فئة لم تؤمن الا القليل فكان لا بد من الانتقال الى مرحلة متقدمة من الدعوة بالتحرك في المناطق المحيطة بجزيرة العرب وقبل تدشين هذه المرحلة كان لا بد من توحيد الجزيرة تحت لواء نظام الاسلام والاعلان عن نهاية الشرك فنزلت سورة البراءة والتي وضعت حدا للفئات المشركة فاما ان تقبل بالاسلام نظاماً وعقيدة واما ان تغادر جزيرة العرب موطن الاسلام لأنها لا تستحق حق المواطنة ويستثنى من هذه القاعدة أهل الكتاب الذين يدفعون الجزية والمجموعات التي لها عهد مع المسلمين لمدة محددة وظلت ملتزمة بعهدها .

وكان الهدف من ذلك هو تهيأة الأمة الاسلامية وتهيأة الدولة الاسلامية التي أصبحت تشمل جزيرة العرب برمتها نحو الانطلاق الى العالم الخارجي ونقل الدعوة الى الشعوب الأخرى وعند هذه المرحلة كان التحاق النبي (ص) الى الرفيق الأعلى لكن الدعوة ظلت تواصل زحفها على القلوب بعد النبي (ص) حتى وصل صداها الى قلب القارات الثلاث آسيا ، أوروبا ، أفريقيا .

مقومات الدولة الإسلامية

هل أقام الاسلام دولة ؟

الذين روجوا لفكرة فصل الدين عن الدولة حاولوا أن ينبشوا في دهاليز أفكارهم ما يثبتوا به ان رسول الله (ص) لم يفكر في اقامة دولة لأن رسالته لا تتعدى حدود العقيدة والخلق .

وتمكنت هذه الأفكار التي روج لها المستشرقون في اذهان بعض الكتاب المسلمين الذين أخذوا بدورهم يرددون هذه النغمة على هذا اللحن منهم صاحب كتاب الاسلام واصول الحكم الشيخ علي عبد الرزاق ، وهو احد قضاة المحاكم الشرعية ومن علماء الازهر وقد ترجم كتابه الى اللغة الانكليزية ليتخذه الاعداء حجة على المسلمين بأن فيهم من يعتقد بأن الإسلام دين وليس دولة .

والمتصفح لكتاب الإسلام واصول الحكم لا يجد فيه شيئاً جديداً سوى ما جرى على ألسنة المستشرقين والغربيين وانطلاقهم في تفسير حركة الاسلام من خلال فكرة فصل الدين عن الدولة ، فقد ذكر المؤلف ان ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها ايمانَ القلب وخضوعه خضوعا صادقاً يتبعه خضوع الجسم .

وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد اخضاع الجسم من غير ان يكـون لها بالقلب اتصال ويستلهم الكاتب هذه الفكرة من افكار الغربيين في فترة الصراع الديني الذي نشب في اوروبا بين الكنيسة والـدولة والـذي أدى الى انفصال الكنيسة عن الدولة .

ولو تجرد المؤلف من تلك الافكار ودقق قليلاً في طبيعة الرسالة الاسلامية وأهدافها لما أعطى لنفسه هذا الحق بأن يقول ما قاله في كتابه وان يهفو تلك الهفوة الكبرى .

فالاسلام ليس كالمسيحية ، الاسـلام ليس دين القلب وليس مجموعـة وصايا وقيم اخلاقية وحسب وليس الهدف من الاسلام فقط هو تصحيح عقائد الانسان .

الهدف الذي جاء من اجله الاسلام هو بناء الانسـان ليصبح لبنـة لبناء المجتمع ثم بناء الدولة السعيدة . . كيف ذلك . . ؟

أول ما ابتدأ الاسلام ببناء قاعدة عقائدية قائمة على التوحيـد ونفي كل شيء ما عدا الله تبارك وتعالى ونفي غير الله يقتضي الاقرار بحاكمية الله ليس فقط على ارواح الناس بل على أبدانهم ايضاً لانه خالقهم .

وقام الاسلام ايضاً باعادة بناء المجتمع على اخلاق فاضلة والاخلاق غير محصورة في القلب الاخلاق هي السلوك والتعاون الحسن مع الآخرين في النواة الصغيرة الاسرة وهي المحيط الأوسـع المجتمع والاخـلاق تمتد الى الـوضع الاقتصادي والوضع السياسي والوضع الاجتماعي . . فهناك علاقة كبيـرة بين الاخلاق وبين النظام الذي يحكم الناس فمن غيـر الممكن ان يعير الاسـلام اهتمـامـه لـلأخـلاق وينسى تنـظيم شؤون النـاس في المجـال الاقتصـادي والسياسي .

ومن المستحيل ان يهتم الاسلام باخلاق دون ان يقيم مجتمعاً صالحاً . . فأية اخلاق حميدة يمكن لها ان تعتمد في مجتمع منحرف .

من هنا فإن الاسلام يهتم بالعقيدة وتقويم السلوك ويهتم بارساء أسس قويمة للعلاقات الاجتماعية وهذا ما نستنتجه من الآية الكريمة **﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعون ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون﴾** .

فالاسلام من خلال هذه الآية ليس عقيدة وحسب بل ايضاً تعامل بين البشر وعلاقات اقتصادية علاقات في مجال التبادل التجاري وادارة شؤون الناس في القضاء وكان لا بد لهذا الدين ان يواجه متاعب ممن يخالفوه فكان عليه ان يواجه مكاره الدهر ويقاوم محاولات الاعداء في تصفيته والقضاء عليه ولا يتحقق ذلك إلا بايجاد سلطة مركزية تعمل على اقامة قوة عسكرية من الناس المنتمين اليها وتعمل على توفير الاموال الكافية لصرفها في شؤون التسليح والقتال وتعمل ايضاً على ابرام معاهدات مع الفئات التي هي اقل خطراً من الفئات المحاربة وهذه هي خصائص الدولة وقد غابت هذه الحقائق عمن تجرأ وقال بأن الاسلام دين لا دولة وان الرسول (ص) لم يقم حكماً ولا دولة .

وحتى استناداً لآخر النظريات في نشوء الدولة وتطورها ومقوماتها نجد عند تطبيق تلك الشروط التي تضعها النظريات على الوضع الذي أسسه الرسول (ص) لوجدنا ايضاً اننا سننتهي ايضاً الى الاستنتاج السابق ان الرسول

اقام دولة في المدينة وهذه حقيقة استنتجها ايضاً جمع من المستشرقين من امثال مونتجمري وات مؤلف كتابي محمد في مكة ومحمد في المدينة الذي أقام بحثه على فكرة الاسلام دين ودولة .

عناصر الدولة :ـ

تجمع معظم النظريات السياسية بان الدولة هي كيان سياسي واطار لتنظيم حياة الجماعة الساكنة على قطعة ارض فالدولة هي سلطة تمارس سيادتها على ارض محددة يقطنها شعب متميّز بخصائص معينة فهل كانت هذه العناصر متوفرة في الكيان الذي أقامه الاسلام ؟ سنعرف الاجابة على هذا السؤال من خلال الشرح الوافي لهذه العناصر الثلاثة التي كانت تركب اجزاء الدولة الاسلامية .

وليس الهدف من البحث القادم هو الاستدلال على وجود دولة اسلامية في عهد الرسول (ص) بل الهدف هو فهم طبيعة هذه العناصر وطبيعة العلاقة العضوية التي تربط بين أجزائها والتي من خلالها سنتعرف على طبيعة الدولة الاسلامية في عهد الرسول (ص) والتي يجب ان تصبح قدوة حسنة لكل الدول الاسلامية القائمة اليوم .

العنصر الأول .. السلطة :-

وتقسم السلطة الى قسمين الأول القيادة . . ثانياً الاجهزة التنفيذية . .

وحديثنا عن القيادة يتركز على الشخصية القيادية لرسول الله (ص) وكيف كان يمارس سلطاته وما هو منهجه السياسي في تطوير قدرات المجتمع ليصبح مجتمعاً قوياً مثالياً .

أ ـ الرسول القائد :

كانت جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي تفتقر الى القدوة الصالحة ، وكان الانسان الذي ارهقته الجاهلية طاميء إلى الفكر المنقذ والى الانسان الذي يجسد هذا الفكر بسلوكه وبطريقة تفكيره فالفكر وحده لم يكن قادراً على تغيير مجتمع رزح لأمد طويل تحت ثقل الجاهلية والخرافة بل كانت هناك ضرورة وجود من يُجْسد هذا الفكر فيساعد أبناء ذلك المجتمع على التمسك به كان المجتمع بحاجة الى قدوة من طراز اعلى فهو مجتمع مكبل بالاغلال مصفد بالتراكمات وبالخرافات فأية قدوة تستطيع ان تضع أمام هذا المجتمع المثل الاعلى في السلوك الصالح والتفكير النيّر ؟ . . بالطبع لم يكن

هناك انسان بقادر ان يحمل تلك الوصفة التأريخية غير سيدنا محمد بن عبد الله (ص) الذي أصبح بشخصيته وبخُلقه وبتعامله الانساني مرتكز التغيير الاجتماعي في المجتمع الجاهلي .

فبالخُلق القويم والشخصية المثالية استطاع رسول الله (ص) ان يُغير المجتمع اكثر من اي شيء آخر .

فالناس تستهويهم دماثة الخُلق وتسحرهم الشخصية القوية وتؤثر فيهم القدوات الانسانية سيما في المجتمعات المتأخرة حيث يبحث كل واحد طريقاً للرقي فيجد في القدوة الصالحة الطريق الرحب للصعود فيأخذ بتقمص السلوك والأفكار من القدوة .

ولأن الاسلام بأفكاره ومناهجه يتناقض مع الجاهلية بدرجة مائة وثمانين فكان لا بد وان تتجسد تلك الافكار في انسان حيّ ينبض بالحياة وإلا فإنّ الفكر يظل فكراً مجرداً ما لم يُجسّد في الانسان حتى لو كان فكراً عملاقاً. فالرسول (ص) كان المُجّسد لاول للرسالة الاسلامية فكان خلقه القرآن فكان القرآن الناطق كما يصطلح عليه (ص).

فبسلوكه وخلقه استطاع الرسول (ص) ان يقرب مفاهيم الاسلام الى الانسان الجاهلي ويجعله مؤمناً بتلك الأفكار والمفاهيم .

فكان التأثر بشخصية النبي (ص) والسمعة الطيبة التي كان يمتلكها في الوسط الاجتماعي هي الجسر بينه وبين قلوب الناس فكان يصب من افكاره الى تلك الأوعية فتتولد نماذج انسانية رائعة .

فالجيل الاول من المسلمين تربى في احضان القدوة الصالحة فكان أصلب عوداً وامضى شكيمة.

ونجد من المناسب ان يكون مدخلنا الى فهم شخصية الرسول من خلال

هذه الزاوية .

فقد كان في الدرجة الرفيعة من الخلق السامي كان كما ورد في مناقب آل ابي طالب الذي أورد بعض صفاته جمعها بعض العلماء والتقطها من الاخبار كان النبي (ص) احكم الناس واحلمهم واشجعهم واعدلهم واعطفهم لم تمس يده يد امرأة لا تحل واسخى الناس، لا يثبت عنده دينار ولا درهم فان فضل ولم يجد من يعطيه ويجنّه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه وكان يجلس على الأرض وينام عليها يأكل عليها وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير فيحلبها ويطحن مع الخادم إذا اعيا ويعود المرضى في اقصى المدينة يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ويكرم اهل الفضل في اخلاقهم ويتألف اهل الشرف بالبر لهم يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله ولا يجنو على احد ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، لا يرتفع على عبيده وامائه في مأكل ولا ملبس ولا يأتيه احد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته لا فظ ولا غليظ ولا صخّاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يغفر ويصفح يبدأ من لقيه بالسلام ومن رامه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. . وكان لا يجلس اليه احد وهو يصلي إلا خفف صلاته واقبل عليه وقال ألك حاجة . . وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس .

وبالاضافة الى ضرورة تحقق القدوة الصالحة في شخصيته هناك أبعاد اخرى جعلت من شخصية الرسول (ص) في القمم العالية من الصفات الحميدة والفضائل ، من هذه الابعاد انه عاش في وسط اجتماعي هو احلك ما يكون في ظلام الجاهلية والرذيلة والخرافة فكان عليه ان يبذل ما أودعه الله له من امكانية وقدرة لاصلاح ذلك المجتمع فتغيير المجتمع الجاهلي لم يكن بمقدور احد إلا من على استعداد لتحمل الصعاب والآلام والاهانات ولم يكن حتى بين الانبياء

من يطيق ذلك الوضع الاجتماعي الذي عاشه رسول الله (ص) والذي عمل على تغييره واستبداله بنموذج انساني قل نظيره في التأريخ البشري ولم يكن ذلك ليتحقق إلا على يد ذلك النبي العظيم الذي وهبه الله تلك الصفات العظيمة . ومن هذه الأبعاد ايضاً ان رسالته عليه الصلوات والسلام هي رسالة عالمية للبشرية جمعاء ويتطلب ذلك ان تكون شخصيته بمستوى المسؤولية العظمى التي يتحملها فهو ليس قدوة لجزيرة العرب فقط بل للعالم أجمع . . بل لكل انسان خلقه الله في ذلك الوقت وإلى آخر يوم من عمر الكون ، فكل البشر يبحثون عن قدوة .

والرسول (ص) هو القدوة الصالحة فأية شخصية عظيمة يجب ان تكون شخصيته حتى تصبح قدوة لكل أبناء العالم من يومه وحتى آخر يوم من الدنيا . . وأي عمل جبار يجب ان يبذله هذا النبي (ص) ليوصل رسالته الى كل انسان يعيش على هذه الارض .

وأيّ جهد كبير عليه ان يبذله ليمد الجسور الى قلوب بني البشر الذين سيولدون وسيعيشون في كرتنا الارضية جيلاً بعد جيل .

البعد الآخر المؤثر في شخصية النبي (ص) هو ان رسالته شاملة لكافة شؤون الحياة السياسية الاقتصادية الاجتماعية الثقافية فكانت على تلك الشخصية التي ستقود البشرية باتجاه التغيير الشامل ان تكون شخصيته مثالية في كل شيء وان لا تكون محصورة في نطاق محدد ، فكان الرسول هو القائد الذي يُدير امور الناس الحياتية وكان امامهم في الصلاة وخطيبهم الذي يوعظهم وكان القائد في المعركة والمعلم للدين والاخلاق فشمولية الرسالة جعلت من شخصية النبي (ص) شخصَية شاملة في صفاتها وأبعادها وهذا هو سر عظمة الرسول ففي ذات الوقت الذي كان فيه النبي (ص) يمارس دوراً اخلاقياً كان يمارس دوراً سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ايضاً فقلما يوفق الانسان ان يجمع بين عدد من

الصفات فيصل الى ذروة القمة في أغلب تلك الصفات إلا الرسول (ص) الذي وصل القمم العالية فجمع كل الصفات الحميدة وتحلى بكل الفضائل الانسانية فكان كتلة من الاخلاق والصفات والفضائل .

محمد الحاكم الانسان :

لم يقدم التاريخ البشري حتى الآن حاكماً وزعيماً لدولة كمحمد (ص) في انسانيته وعدله واخلاصه وتواضعه للناس وصبره واستقامته وشجاعته وهذا هو سر العظمة في شخصية الرسول القائد فهو في الوقت الذي تتجلى فيه مهابة القائد وسمو الحاكم يتحلى ايضاً بالصفات الانسانية الاخرى بحيث من الصعب تمييزه عن صحابته عندما كان يجلس معهم فكثيراً ما كان الموفدون يأتون الى مجلسه فيفترسون الوجوه بحثاً عنه وعندما يصعب عليهم تمييزه يضطرون الى مناداته أيكم محمداً ولربما صعب علينا ان نتصور انساناً كاملاً في صفاته واخلاقه يستطيع ان يحتفظ بصفاته كحاكم وهو يعايش الناس كفرد بسيط يعمل معهم يحرث الارض ويزرعها يجلس على الارض وينام عليها ويأكل عليها يرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار ويعلف الناضح ويجيب دعوة المملوك ، في ذات الوقت من الصعب ان نتصور حاكماً يبقى محتفظاً بصفاته ومقومات شخصيته كانسان متواضع يتعامل مع الناس وكأنه واحد منهم .

على رغم مشاكله الكثيرة فقد كان وقته مقسم الى حصص لا تتعدى حصة على اخرى ، فعن الحسين بن علي (ع) إذا دخل منزله (ص) جزّء دخوله ثلاثة اجزاء ، جزء لله ، وجزء لأهله ، وجزء لنفسه ثم جزّء جزءه بينه وبين الناس ، هذا هو رسول الله في المحراب لا يسبقه احد في عبادته وطاعته كان (ص) يصلي الليل كله ويعلق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم[1] وفي لحظات تهجده

(١) بحار الأنوار: ص٣٠٢.

كانت تذوب مشاكله وتتوارى متاعبه وكان يستمد في تلك اللحظات القوة والعزيمة من خالقه ليمضي في اليوم التالي في مواصلة مسؤوليته الكبرى .

وفي بيته كان يساعد عياله يقطع اللحم ويطحن الطحين ويحلب عنز أهله ويتحمل تربية الاولاد يخدم في مهنة اهله (كما ورد) ولم تُسمع منه كلمةً يغضب منها احد من اهل بيته .

قال أنس بن مالك ؛ اني خدمت رسول الله (ص) عشر سنين ما رأيته قط أدنى ركبتيه من ركبة جليسه وقال لشيء صنعته لم صنعت كذا .

وفي المجتمع كان يسأل عن اصحابه واحداً واحداً كان يعود المرضى ولو في اقصى الدنيا ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده ، يصل ذوي الرحم من غير ان يفضلهم على غيرهم وكان يغفر ويصفح ويبتدأ بالسلام .

وفي دار الحكومة في المسجد كان يستقبل الناس بدون حاجب ولا حرس وكان يقول لمن يحضر ليبلغ الشاهد الغائب . . ابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغي حاجته فانه من ابلغ سلطان حاجة من لا يستطيع ابلاغها اياه ثبّت الله قدميه يوم القيامة . . وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ولا يدعوه احمر ولا اسود من الناس إلا اجابه . . وكان يُقْسم لحظاته على اصحابه ينظر الى ذا وينظر الى ذا بالسوية فقد كان يحرص على التعامل مع اصحابه بروح من المساواة .

ومن فرط عدالته حتى في الامور الطفيفة كان يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه من النظر حتى لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه من جالسه .

أما في تلبية حاجات الناس فقد ورد في كتب السيرة من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، وكان من فرط اهتمامه بالداخلين عليه ان كان يكرم من يدخل عليه

كما ورد في الروايات وكان بابه مفتوحة للسيد والعبد للمسكين والأمَة وإذا لقيه احد فقام معه أو جالسه احد لم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه .

وكان يصغي بكل مسامعه لمن يعرض عليه شيئاً من مشاكله أو ما يهمه فقد ورد عند ارباب السير ما وَضع احدٌ فمه في آذانه إلا استمر صاغياً حتى يفرغ من حديثه ويذهب وجاء ايضاً كان حسن الاصغاء الى محدثه لا يلوي عن احد وجهه ولا يكتفي بالاستماع الى من يحدثه بل يلتفت اليه بكل جسمه .

فمن كان يجلس امامه لم يكن ليلمس ما يمنعه من التحدث بصراحة فقد ازال (ص) الحواجز النفسية التي قد تنشأ بين الحاكم والمحكوم ، عندما جاءه اعرابي وأراد ان يكلمه ارتعدت فرائصه عندما استحضر انه يجلس قبال حاكم الدولة لكن الرسول اسرع مخففاً عنه ؛ هوّن عليك فلست بملك انما انا ابن امرأة كانت تأكل القد رواه ابن مسعود[1] .

فأين هذا مما يصنعه بعض الحكام من الأبهة والفخفخة أين هذا من الذين يضعون على قصورهم الحجاب والحرس ويمنعون من له حاجة ومن له مشكلة يريد حلها .

اين هؤلاء الذين لا يشاهدهم الناس إلا من شاشات التلفزيون عن ذلك الحاكم الانساني الذي كان يقول ابلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغي حاجته . اين أولئك الذين تكبروا على الناس وشمخوا بانوفهم ولم يسمحوا لأنفسهم ان يستمعوا رأياً لأحد عن ذلك النبي (ص) الذي كان يشاور اصحابه في الرأي[2] وكان يقول لأصحابه ما من احد يشاور احداً إلا هدى الى الرشد

---

(١) بحار الأنوار: ص٢٢٩ .

(٢) أعيان الشيعة: ٢٢٢ .

فاستشارهم في معركة الخندق فكان صاحب الرأي هو سلمان القادم من فارس واستشارهم في أُحد هل يبقى في المدينة او يخرج الى القوم وكان من رأي الرسول ان يبقى في المدينة . . وكان رأي اصحابه ان يخرجوا ليلتقوا بالاعداء خارج المدينة فاتبع رأي الصحابة .

اين أولئك الذين انصرفوا الى الدنيا وملاوا بطونهم بألوان الاطعمة والاشربة عن ذلك النبي (ص) الذي جاء عنه انه لم يشبع من خبز ثلاثة ايام حتى مضى لسبيله .

وجاء ايضاً في كتب السيرة لقد قبض (ص) وان درعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها ينفقه لأهله .

عن ابن عباس قال ان رسول الله (ص) دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثّر في جنبه فقال يا نبي الله لو اتخذت فراشاً فقال : ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها[1] .

ودخل على النبي (ص) رجل وهو على حصير قد أثر في جسمه ووسادة ليف قد أثرت في خده فجعل يمسح ويقول ما رضي بهذا كسرى ولا قيصر انهم ينامون على الحرير والديباج . . أنت على هذا الحصير ؟

فقال رسول الله (ص): لأنا خير منهما لأنا أكرم منهما[2] .

فأين هذا من أولئك الذين اصبح همهم ملء الارصدة وبناء القصور والفلل واليخوت فكم هم اليوم بعيدين عن منهج رسول الله (ص) وكم

---

(١) بحار الأنوار: ص٢٣٩ .

(٢) بحار الأنوار: ج١٦ ـ ص٢٨٢ .

هم بحاجة الى ان يعودوا الى ذلك القائد العظيم ليستلهموا منه الزهد والاخلاص والصدق وحب الناس وليتعلموا منه العدالة والمساواة وكيف كان يحافظ على امانات الناس ولا يخونهم حتى في الامور الطفيفة فكيف بالأمور الكبيرة .

والحاكم قد يدفعه تشبثه بالسلطة أو اعتزازه بمنصبه وغروره بكرسيه الى الانتقام ممن يخالفه فكم من حاكم قتل الآلاف دون ذنب لهم سوى عدم أمتثالهم لأوامر السلطة وكم من حاكم انتقم من اصدقائه وأهل بيته وحتى اقرب الناس اليه نتيجة كلمة غير مرضية أو عمل غير مرضي فتاريخ الحكومات تاريخ مملوء بالانتقام مصبوغ بدماء الأبرياء .

وكلما أسبرنا الغور بحثاً عن حاكم تعامل مع خصومه معاملة انسانية سوف لا نجد في سجل الحكام قائداً كرسول الله (ص) فعن عائشة انه ما انتقم لنفسه إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله . .

وجاء ايضاً انه إذا غضب لم يظهر من اثر غضبه إلا نفرة عرق بين حاجبيه .

وعن انس بن مالك قال ان النبي (ص) ادركه اعرابي فأخذ بردائه فجبذة جبذة شديدة حتى نظرت الى صفحة عنق رسول الله وقد اثرت به حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال له يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك .

فالتفت اليه رسول الله : فضحك وأمر له بعطاء .

فأين ستجدوا مثل هذا الحاكم الذي يقابل الاساءة بالاحسان .

لقد تفنن الحاكم في معاقبة المعارضة ووصل الامر بالبعض منهم ان يصدروا قراراً بقتل من ينال منهم بكلمة واحد بقصد الاهانة، فكيف إذا تطاولوا عليهم باطلاق الهتافات أو الخروج في المظاهرات فان الاعدام حينذاك

سيكون قليلا بحقهم وبحق ذويهم . .

أما رسول الله (ص) فإذا جاء رمضان اطلق كل اسير واعطى كل سائل فكان اصبر الناس على أوزار الناس كما ورد في الرواية وهكذا كان مع عبد الله ابن أُبي يوم أساء له وتآمر عليه وأراد المسلمون قتله وجاء ابنه متطوعاً لتنفيذ هذا العقاب لكن صاحب القلب الرحيم الذي كان يعطف حتى على الحيوان امتنع عن ذلك ويوم وفاة رأس النفاق خلع رسول الله ردائه ولفه بها فكان يقابل الاساءة بالإحسان .

هذا في ميدان الانسانية والرحمة أما في ميدان الحرب فكان رحيماً حتى مع الذين قاتلوه يعطف على الاسير ويداوي الجريح وقد سنّ سنة لم تكن تعرفها العرب وهو اطلاق سراح الاسير بفدية أو مقابل عمل ينجزه بعد ان كان الاسير يسترق ويصبح كالعبد المملوك وكان في ميدان المواجهة المقاتل الاول الذي يتقدم على جموع المقاتلين فعن علي (ع) قال : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي (ص) وهو اقربنا الى العدو وكان من اشد الناس يومئذ بأساً[1] .

وعنه ايضاً كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله (ص) فما يكون احدٌ اقرب الى العدو منه[2] .

وفي مواضع الخطر كان المبادر قبل الآخرين ففي رواية أنس قال كان رسول الله (ص) اشجع الناس واحسن الناس واجود الناس . قال ؛

فزع اهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت قال : فتلقاهم رسول الله (ص) وقد سبقهم وهو يقول لن تراعوا ، وهو على فرس لأبي طلحة وفي عنقه السيف قال فجعل يقول للناس : لم تراعوا وجدناه بحرا ، او انه البحر .

(١ - ٢ - بحار الأنوار: ج١٦ ص٢٣٢ .

وكان صادقاً مع نفسه ظاهره كباطنه لا يمارس الحيل السياسية التي يمارسها اليوم السياسيون . فكان يعرف رضاه وغضبه في وجهه .

فعن ابن عمر : كان إذا رضي فكأنما تلاحك الجذر وجهه (المرآة التي توضع في الشمس فيرى نورها) وإذا غضب خسف لونه .

وكان فعله وقوله واحد . . . لا يطلق الشعارات الجوفاء ولا يمارس شيئاً معاكساً لما يقوله .

ففي احد الايام كان يخطب في المسجد ويحث المسلمين على الزواج وما ان انتهت الخطبة حتى اعلن من على المنبر عن تزويج ابنة عمه ضباعة من المقدار بن الاسود وكان ولياً لها كما يظهر من الحادث فقد زوج هاشمية من بيت رفيع في قريش من انسان عادي حتى يكسر الطوق الذي اصطنعه المجتمع الجاهلي وحتى يقول للآخرين بأن المقياس في الكفاءة الزوجية هو الايمان وليس الحسب والنسب . . هكذا عبّر رسول الله (ص) وبصورة عملية عن أفكاره في المساواة فكان المترجم الاول للقيم التي حملها ودعى اليها على عكسه اليوم الكثير ممن يحملون قيماً عظيمة لكنهم في الممارسة على عكس ذلك فهناك الكثير من الحكام وغيرهم ممن يحملون شعار العدالة والمساواة لكنهم في واقعهم لا يمارسونها فيفرقون بين هذا وذاك فيفضلون من يرتاحون اليه فيغدقون عليه بالأموال والعطايا لا لكفاءة له بل لأنه فقط وفقط يمتدح هذا الحاكم ويحني رأسه له . . لم يكن رسول الله (ص) هكذا فقد كان يعامل اصحابه بالسوية حتى في توزيع نظراته أثناء الحديث وكان يحاسبهم حتى لو كانوا اقرب الناس اليه .

وكان يوعظهم ويرشدهم ان بدر منهم الخطأ فعن ابي عبد الله (ع) قال : استقبل رسول الله (ص) رجل من بني فهد وهو يضرب عبداً له والعبد يقول اعوذ بالله فلم يقلع الرجل عنه فلما ابصر العبد برسول الله (ص) قال : اعوذ بمحمد

فأقلع عن الضرب فقال رسول الله : يتعوذ بالله فلا تعيذه ويتعوذ بمحمد فتعيذه ؟ والله أحق أن يجار عائذه من محمد فقال الرجل : هو حر لوجه الله فقال رسول الله (ص) :

والذي بعثني بالحق نبياً لو لم تفعل لواقع وجهك حرّ النار[1] .

أما في عدله فليس هناك أدل على هذه الصفة مما ذكره المؤرخون ان يهودياً كان له على رسول الله (ص) دنانير فتقاضاه فقال له يا يهودي ما عندي ما اعطيك فقال : فاني لا افارقك يا محمد حتى تقضيني فقال : إذاً اجلس معك فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة وكان اصحاب رسول الله (ص) يتهددونه ويتواعدونه فنظر رسول الله (ص) اليهم فقال : ما الذي تصنعون به فقالوا يا رسول الله يهودي يحبسك فقال (ص) لم يبعثني ربي عز وجل بأن اظلم معاهداً ولا غيره . . فلما علا النهار قال اليهودي أشهد أن لا اله إلا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله ، وشطر ماله في سبيل الله . . اما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلا لأنظر الى نعتك في التوراة ، فاني قرأت نعتك في التوراة محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا متزجين بالفحش ولا قول الخنّاء وانا اشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله وهذا مالي فاحكم فيه بما انزل الله وكان كثير المال[2] .

وكان من عدله وكرمه هذه الحادثة المنقولة عن الصادق (ع) قال : جاء رجل الى رسول الله (ص) وقد بلى ثوبه فحمل اليه اثنى عشر درهما فقال يا علي خذ هذه الدراهم فاشتري لي ثوباً ألبسه قال علي (ع) فجئت الى السوق فاشتريت له قميصاً باثني عشر درهماً وجئت به الى رسول الله (ص) فنظر اليه

---

(١) بحار الأنوار: العلامة المجلسي: ج١٦ ص٢٨٢ .

(٢) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢١٦ .

فقال : يا علي غير هذا احب اليّ اترى صاحبه يقيلنا فقلت لا ادري فقال : انظر فجئت الى صاحبه فقلت ان رسول الله (ص) قد كره هذا ، يريد ثوباً دونه ، فأقلنا فيه فرد عليّ الدراهم وجئت به الى رسول الله (ص) فمشى معي الى السوق ليبتاع قميصاً فنظر الى جارية قاعدة على الطريق تبكي فقال لها رسول الله (ص) ما شأنك ؟ قالت يا رسول الله ان اهل بيتي اعطوني اربعة دراهم لاشتري لهم بها حاجة فضاعت فلا اجسر ان ارجع اليهم ، فأعطاها رسول الله (ص) اربعة دراهم وقال ارجعي الى اهلك ومضى رسول الله (ص) الى السوق فاشترى قميصاً بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله وخرج فرأى رجلاً عرياناً يقول : من كساني كساه الله من ثياب الجنة فخلع رسول الله (ص) قميصه الذي اشتراه وكساه السائل ثم رجع الى السوق فاشترى بالاربعة التي بقيت قميصاً آخر فلبسه وحمد الله ورجع الى منزله وإذا الجارية قاعدة على الطريق فقال لها رسول الله (ص) ما لك لا تأتين اهلك قالت : يا رسول الله اني قد أبطأت عليهم واخاف ان يضربوني فقال رسول الله (ص): مري بين يدي ودليني على اهلك فجاء رسول الله (ص) حتى وقف على باب دارهم ثم قال السلام عليكم يا اهل الدار فلم يجيبوه فأعاد السلام فلم يجيبوه فأعاد السلام فقالوا : عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال لهم مالكم تركتم اجابتي في اول السلام والثاني قالوا يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا ان نتكثّر منه فقال رسول الله (ص) ان هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها فقالوا : يا رسول الله هي حرة لممشاك فقال رسول الله (ص) الحمد لله ما رأيت اثنى عشر درهماً اعظم بركة من هذه كسى الله بها عريانين واعتق بها نسمة(١) .

هذا هو محمد (ص) قائد وهادي لم تنسه مشاغل الحكم ومشاكل السلطة وتعقيدات العمل الاداري انه نبي الرحمة وانه الرسول الهادي الذي بعثه الله

(١) بحار الأنوار: الخصال:٢، ص٨٦ـ٨٧، الامالي : ص١٤٤ .

لهداية الناس وانقاذهم من تخلف الجهل وتخلف الرذائل .

لم تنسه كثرة المهام التي كان يتواصل في القيام بها عن البحث عن انسان جائع ليسد جوعه وعن انسان عريان ما يتستر به ، لم تصرفه مسؤولياته الكبيرة عن البحث بين سكك المدينة عن كل محتاج ، عن تلك الجارية التي فقدت دراهمها فلم يكن هينا عليها العودة الى الا يت خاوية اليد .

فقد كان رسول الله (ص) يمثل السلطة العليا للدولة الاسلامية لكن ليس بالمفهوم الذي تعارف عليه الناس فالسلطة عند رسول الله (ص) ليست تسلطاً على رقاب الناس وليست فقط اصدار الأوامر بل هي اغاثة الملهوف واعانة الفقير والبحث عن المحتاج فلقد اقترنت السلطة بالهداية فأخذت صورة اكثر شفافية في اعين المسلمين حتى لم يعد المسلم يرى فاصلاً بينه وبين رئيس الدولة وهي شهادة أقر بها جميع من اتصلوا به (ص) .

فهذا عروة بن مسعود يعود الى قريش بعد ايفاده الى المدينة يعود ليقول لهم :

يا معشر قريش اني أتيت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه .

ومحمد (ص) لم يتغير فقد ظل على منهجه وسلوكه الرسالي حتى التحاقه بالرفيق الاعلى .

وهذه هي احدى ركائز العظمة في شخصية الرسول انه لم يتغير خلقه وسلوكه بعد ان صار الرجل الأوحد في جزيرة العرب فقد ظل على وفائه للفقراء والمساكين وظل بيته منزّهاً عن حياة الترف حتى عن الحياة الاعتيادية فقد كان يكتفي بالحدود الأدنى من احتياجاته الدنيوية وعندما اعترضن زوجاته على هذه الحياة وضع امامهن خياراً صعباً إما القبول بهذا الوضع واما الطلاق فهذه عائشة

تقول ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى قبض رسول الله (ص) ، فلما قبض صبت الدنيا علينا صبا[1] وكانت تقول : انا كنا لننظر الى الهلال ثلاثة اهلّة في شهرين وما وقدت في بيوت رسول الله نار فقال لها عـروة بن الزبيـر ما كـان يعشيكم ؟ قالت : الاسودان ، التمر والماء ، وقد ظل على هذا النهج حتى في فترة غنى المسلمين وكان باستطاعته ان يعيش على الاقل عند المستوى المتوسط من الناس لكن كان رسول الله يريد ان يواسي أفقر الناس في طعامه وشرابه حتى لا يشعر الفقير بالحسرة والحرج طالمـا قائـده يعيش بنفسه مستـواه فلم يكن رسول الله (ص) حاكماً وحسب بل كان معلماً ايضاً ، مرشـداً ايضاً فـأراد ان يجمع بتلك الخصال الـدنيا والآخـرة معاً الـواقعية والفضيلة معـاً ، السياسـة والهداية معاً ، فكان كتلة فضائل تتحرك بين الناس سواء كان في دست الحكم أو على كرسي القضاء أو في قيادة الجيش او في زعامة المجتمع ، خلق يتحرك وفضائل تجوب بين المسلمين تلبي حاجة المحتاج وترشد من هو في ظلال وتيه فكان بحق القدوة الصالحة لكل بني البشر من الانسان العادي حتى الحاكم . . من الانسان العامل وحتى المدير .

وحقاً جاء القرآن ليهتف بالمسلمين ويطلب منهم الاقتداء بنبيّهم فهو القدوة الصالحة .

ولقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة .

---

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢٤٦ .

ب ـ جهاز السلطة :ـ

لم تكن دعوة الاسلام دعوة اخلاقية او عقائدية وحسب بل هي دعوة شاملة لتغيير حياة الانسان وفق موازين جديدة . فقد عمل رسول الله (ص) ثلاثاً وعشرين عاماً على ارساء حياة جديدة للانسان تشمل حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فهو (ص) لم يبن فرداً بمعزل عن المجتمع ولم يبني مجتمعاً بمعزل عن العالم .

كما وان كل جزء من حياة الانسان يرتبط بالأجزاء الاخرى فالبقاء على العقيدة والصمود بوجه تيارات الشرك المنتشرة في الجزيرة العربية لا يتحقق إلا بوجود عوامل اخرى .

فاشاعة الاجواء الاسلامية في المجتمع وتطهير الانسان من الجشع والطمع والحرص ووضع حدود لما هو مسموح وما هو ممنوع وتوطيد بناء اقتصاد قوي يكفل للمسلم الاستغناء عن قوى الشرك وحماية هذه العقيدة بالقوة العسكرية . . وهي عوامل من شأنها ان تعمق مشاعر التوحيد في الانسان وبدونها لا يمكن الاستقامة على العقيدة التي جاء بها رسول الله (ص) .

من هنا جاء الإسلام كاملاً ليشمل جميع حالات الانسان وجميع أبعاد

حياته المرتبطة بمجال التفكير بمجال البدن وبمجال السلوك .

لكنه في مجال التطبيق العملي جاء بصورة تدريجية ، فالقرآن الكريم نزل بصورة تدريجية ليساير بناء الصرح الاسلامي .

ففي مرحلة بناء النواة العقائدية جاء القرآن ليعمق هذا البناء وليزيده قوة وصلابة وفي مرحلة بناء المجتمع كان من المحتوم ان تُنّزل الآيات تدريجياً لمسايرة عملية البناء لبنة فلبنة .

وتتواصل عملية بناء المجتمع فتأخذ شكلاً اكثر تنظيمياً ليتمخض عن هذا الشكل الصورة المتعارفة للدولة .

فالرسول (ص) وضع أسس البناء على ركائز نهايتها هو تشكّل الدولة بكافة أجهزتها التنفيذية فمنذ اليوم الاول من قدومه الى المدينة شرع في تأسيس الدولة فأسس المسجد كقاعدة انطلاق في تنظيم الدولة وجاء البناء في بدايته بسيطاً يتناسب مع حجم الكتلة الاسلامية وحجم علائقها الحياتية ومع تطور هذه الكتلة اصبح من الضروري ان تتطور تلك الاجهزة البسيطة فإذا كل شيء اصبح يسير بنظام خاص واصبح يدار عبر اجهزة تنفيذية مرتبطة بالقيادة من جهة وبالأمة من الجهة الاخرى .

وكانت حصيلة التطور التنظيمي في المجتمع الاسلامي هو قيام الدولة الاسلامية بكامل أجزائها وابعادها ولربما لا نجد الصورة الكاملة لهذه الدولة إلاّ في أواخر عهد الرسول (ص) عندما انتشر الاسلام في ربوع الجزيرة العربية برمتها واصبح للرسالة شعباً وارضاً وسيادة متمثلة بالقيادة الرسالية .

فاقامة صرح الدولة وتكميل اجهزتها لم يأخذ من الرسول سوى سنوات من التطور الاجتماعي فالدولة بدأت بنواة في العهد الاول من الهجرة ثم تكامل النواة الى كيان وهذا ما نستطيع ان نلمسه بصورة واضحة في ابتداء حياة

المسلمين في المدينة المنورة وحتى العام العاشر للهجرة حيث تكامل البنيان بعد ان حج رسول الله حجة الوداع وخطب في المسلمين تلك الخطبة المشهورة التي قال فيها كلمته الاخيرة .

إذا ما دققنا النظر في حركة المجتمع الاسلامي لوجدنا ايضاً ان هذه الحركة كانت تمضي نحو اكتساب صيغة تنظيمية متكاملة . . فالرسول (ص) كان يقود هذا المجتمع بنفسه لكنه كان يدير اوضاعه العامة عبر أشخاص كان يعينهم تعييناً وهؤلاء الاشخاص كانوا يعملون على انفراد أو بصورة اجهزة وحتى الذين يعملون على انفراد كانوا يمثلون بمجموعهم في ميدان معين جهازاً تنفيذياً .

فإذن كان التجمع الرسالي يتحرك بادارة اجهزة مختلفة كانت تمثل حلقة الوصل بين القيادة والقاعدة وهذه هي الحكومة في عرف العصر .

وكان هناك احد عشر جهاز متخصص يقوم بوظائف الحكومة في عهد رسول الله (ص) هو :

١ ـ الوزير .

٢ ـ الجهاز الاداري .

٣ ـ الجهاز القضائي .

٤ ـ الجهاز الفني .

٥ ـ الجهاز المالي .

٦ ـ الجهاز الدبلوماسي .

٧ ـ الجهاز العسكري .

٨ ـ الجهاز التعليمي .

٩ ـ الجهاز الاعلامي .

١٠ ـ جهاز الامن والحسبة .

١١ ـ جهاز المهمات الخاصة .

١ ـ . . وظيفة الوزارة

لم يكن في الدولة الاسلامية التي انشأها رسول الله (ص) منصب بهذا اللفظ لكن كان هناك من يقوم بهذا الدور [أي دور الوزير لرسول الله (ص)].

فقد كان الرسول يستشير عدداً محدوداً من اصحابه ممن يثق بآرائهم وسلامة تفكيرهم وعلى رأس هؤلاء الذين كانوا محط الاستشارة الإمام علي (ع) .

وما فتأ رسول الله (ص) يصرح بهذه الحقيقة بين الفينة والأخرى فهو يوم جمع عشيرته وأولمهم تلك الوليمة المشهورة في التاريخ طلب منهم ان يوازروه وينصروه فقام علي (ع) كما جاء في اكثر كتب التاريخ فقال النبي (ص) هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدي .

وكان (ص) ينيبه مكانه في بعض المناسبات كما حدث في غزوة تبوك عندما انابه في المدينة مع انه كان راغباً في المشاركة في الحرب فقال له رسول الله (ص) ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى[١] وفي هذه العبارة اشارة للآية الكريمة ﴿ **واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي** ﴾ وكان ينتدبه في اللحظات الحاسمة فاختاره للمباهلة مع نصارى بني نجران ، واختاره لفتح خيبر بعد ان عجز جيش المسلمين عن اقتحام الحصن فلم يجد سوى

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ج٢ ص٢٦٩ ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.

علي (ع) واختاره رسول الله (ص) ليقرأ سورة البراءة على قريش في الحج وهي بمثابة بيان سياسي هام رسمت ابعاد وحدود العلاقة السياسية بين الدولة الاسلامية والكيانات الاخرى التي لم تدخل الاسلام .

فعليّ كان المستشار الاول ورجل المهمات الصعبة والرجل الثاني في القيادة بعد رسول الله (ص) وكانت توكل اليه مهام الوزير دون ان يحصل هذا اللقب في زمن الرسول (ص) .

واختيار الرسول (ص) لعلي (ع) لتحمل اعباء هذه المهمة كان اختياراً موفقاً فهو الذي رباه واحتضنه منذ صباه وهو اول من آمن به وآزره ودافع عنه وهو الذي فدى بنفسه في ليلة الهجرة وتحمل مسؤولية رد الامانات الى اصحابها وكان في معظم غزواته هو حامل لواء الجيش والقائد مهما أوتي من عبقرية فهو بحاجة الى مساعد يقف الى جانبه يستشيره في الخطط ويوكل اليه المهام عند غيابه ويكون رقيباً على مسيرة الأمة وقد تطورت هذه المهمة في عهود دولة الراشدين والدولة الأموية والعباسية حتى اصبح يطلق على من يقوم بهذه المهمة كلمة الوزير .

٢ ـ الجهاز الاداري :

مع توسع رقعة الدولة الاسلامية وامتدادها على طول وعرض جزيرة العرب ومع تزايد عدد المسلمين تزايدت المهام المنوطة بالقيادة مما استدعت تعيين عمالاً وولاة يمثلون السلطة المركزية في مناطقهم ويقومون بوظائف القائد في ولايتهم كامامة المسلمين في الصلاة وجمع الزكاة وجبايتها وتعليم الناس مبادىء دينهم .

وكان يختار ولاته من بين اصحابه من تتوفر فيه الصفات الخيرة ليكون قدوة للناس ومن تتوفر فيه مقومات هذه المسؤولية ، فقد اختار رسول الله على

مكة بعد فتحها عتاب ببن أسيد وهو شاب لا يتجاوز العشرين ونيف وقد اسلم يوم الفتح وعُين والياً عليها يوم اسلامه حتى يزيل الخوف والرعب من قلوب المكيين الذين كانوا يخشون عواقب الامور بعد فتح مكة ويعرفون ماذا سيصنع بهم رسول الله (ص) على رغم العفو الذي اعلنه ، فبتعيين عتاب وهو من العوائل المتنفذة في مكة ازاح غطاء الخوف من القلوب واطمأن الجميع الى مستقبلهم وانهم سيعاملون معاملة حسنة في ظل الاسلام فاندفعوا الى اعلان اسلامهم .

ومن جانب آخر كانت اوضاع مكة بحاجة الى حاكم شديد مع المفسدين ولين مع المؤمنين وهي صفة كانت متوفرة عند عتاب كما نقل عن انس وذكره ابن حجر في الاصابة[1] ومن جانب آخر كان عتاب زاهداً ليس في قلبه شيء من حب الدنيا فقد نقل عنه انه سمع وهو مسند ظهره الى بيت الله يقول والله ما اصبت في عملي هذا الذي ولاني رسول الله (ص) إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاي كيسان[2] .

وكان رسول الله (ص) قد عين له مرتباً يومياً مقداره درهم وهو شأنه مع بقية الولاة قد صرح بذلك عندما خطب في الناس قائلاً: أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله (ص) درهما كل يوم فليست بي حاجة الى أحد[3] .

وقد حرص رسول الله (ص) ان يعطي لولاته ما يكفيهم حتى لا يتطاولوا على اموال الناس وكان يعطي للبعض راتباً يومياً وللبعض الآخر كان يعطيهم

---

(١) الإصابة: ص٢١٢ .

(٢) نفس المصدر: ج٤ .

(٣) النظام السياسي في الإسلام: ص١٦٢ .

مقداراً من الطعام يكفيهم فقد عين لواليه على همدان قيس بن مالك مائتي صاع من ذرة نسار ومائتي صاع من زبيب خيوان ويستمر هذا العطاء حتى بعد موته ليكون لعقبْه .

وكـان (ص) يختار الـوالي في أغلب الأحيان من ابنـاء المنـطقـة نفسهـا لعوامل نفسية تتعلق باحساسات اهالي تلك المنطقة فهم عندما يجدوا ان الوالي من ابناء منطقتهم يزداد تفاعلهم وطاعتهم للقوانين ، كما وان وجود والي من نفس المنطقة سيمكنه من اداء وظيفته على احسن مـا يرام فهـو اعرف بـأهل المنطقة وأدرى بالكيفية التي يجب التعامل مع أهلها .

ومن بين الولاة الذين اختارهم الرسول (ص) من أبناء المنطقة قيس بن مالك فقد قدم الى مكة من همدان فأسلم فرجع الى النبي (ص) يوماً آخر وقال بأن قومه اسلموا فكتب عهده على قومه همدان عربها ومواليها وخـلائطهـا ان يسمعوا له ويطيعوا وان لهم ذمة الله ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .

وكتب رسول الله (ص) الى قيس السلام عليكم : أما بعد فاني استعملك على قومك[1] كما وان رسول الله (ص) قد قسم اليمن الى مقاطعـات وجعل على كل مقاطعة احد ابنـاء او حفدة لـوذان وهو الحـاكم الاصلي لليمن قبل الاسلام وبعده فكان ممن اختارهم عمرو بن هزم بن زيد لوذان ، شهر بن باذام وابنه عامر بن شهر .

واختار عدي بن حاتم على منطقته طي وعين فروة بن مسك المرادي على مراد .

وقد تجلى في هذا العمل حنكة سياسية إذ ساعدت هذه التعيينات على

---

(١) الإصابة : ج٥ ص٢٦٤ .

تهدأت الخواطر وكسب الناس الذين لم يسلموا بعد. فقد كشف رسول الله بهذا المنهج عن احترامه لمشاعر القبائل وحرصه على حماية حقوقهم في اختيار الرجل المناسب من بينهم ومع حسن اختياره للولاة لم يدع فرصة إلّا وقدم لهم فيها النصائح ووضعهم أمام واجباتهم الكبيرة .

في كتاب تعيينه لعمرو بن حزم جاءت هذه النصوص الارشادية :

هذا بيان من الله ورسوله يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعهد عهد من محمد النبي رسول الله (ص) لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن أمره بتقوى الله في امره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، امره بأن يأخذ بالحق كما أمره الله وان يبشر الناس ، ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن انسان إلا وهو طاهر ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم ويلّين الناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال : الا لعنة الله على الظالمين » ويبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس بالنار وبعملها ويستأنف الناس حتى يفهموا في الدين ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما امر الله به والحج الكبير .

وجاءت في وصيته الى معاذ بن جبل عندما ارسله والياً :

يا معاذ علمهم كتاب الله واحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة وانزل الناس منازلهم خيرهم وشرهم وانفذ فيهم امر الله ولا تماش في امره ولا ماله احداً فانها ليست بولايتك ولا مالك واد لهم الامانة في كل قليل وكثير وعليك بالرفق والعفو في غير ترك للحق يقول الجاهل قد تركت من حق الله واعتذر الى أهل عملك من كل امر خشيت ان يقع اليك منه عيب حتى يعذروك وامت امر الجاهلية إلا ما سنه الاسلام واظهر امر الاسلام كله صغيره وكبيره وليكن اكثر همك الصلاة فانها رأس الاسلام بعد الاقرار بالدين وذكر الناس بالله واليوم

الآخر واتبع الموعظة فانه اقوى لهم على العمل بما يحب الله ثم بث فيهم المعلمين واعبد الله الذي اليه ترجع ولا تخف في الله لومة لائم . . وأوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الامل وحب الآخرة والجزع من الحساب ولزوم الايمان والفقه في القرآن وكظم الغيظ وخفض الجناح واياك ان تشتم مسلماً او تطيع آثماً او تعصي اماماً عادلاً او تكذب صادقاً أو تصدق كاذباً واذكر ربك عند كل شجر وحجر واحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية .

وتشتمل وصايا رسول الله (ص) الى ولاته اموراً تتعلق بالولاة انفسهم واموراً تتعلق بالوظائف التي يؤديها الى الناس واموراً تتعلق بالوظائف العامة التي عليه ان يقوم بها .

فأما القسم الاول من الوصايا فهي تتضمن :

١ ـ تعميق الصلة بالله والانابة اليه والاقرار بالخطأ ان كان في السر يكون الاقرار سراً وان كان الخطأ علني فيجب ان يكون الاعتراف والتوبة علانية امام الملاء .

٢ ـ التخلق بالاخلاق السلامية كصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الأمل وحب الآخرة وكظم الغيظ وخفض الجناح وعدم السب ليصبح الوالي قدوة حسنة في الاخلاق يقتدي به غيره .

٣ ـ الالتزام بالحق وعدم التهاون فيه وان لا يخاف في الحق لومة لائم وان لا يسام فيه فيُجاري الناس على حساب الحق طمعاً في البقاء في السلطة .

٤ ـ اطاعة رؤساءه ان كانوا على عدل فإذا كان رئيسه آثماً او يأمره بأمر

منكر فلا يجب اطاعته بل عليه ان يطيع الذي يأمره بالعدل .

٥ ـ ويذكرهم الرسول (ص) بيوم الآخرة وبالحساب والعقاب وبالجنة وما أعده الله للمؤمنين ولمن يسيرون في الناس بالعدل .

أما الوظائف التي يجب ان يؤديها للناس فهي :

١ ـ ان يكون داعية للحق مبشراً به بين الناس .

٢ ـ يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين وكيف يمارسوا العبادات .

٣ ـ ان ينزل الناس منازلهم فيقرب اليه خيّرهُم ويبعد عنه الاشرار منهم وان يعطي لكل فرد مكانته في المجتمع .

٤ ـ تطبيق احكام الله على الناس .

٥ ـ الرحمة باليتيم وحسن العمل مع الجميع .

٦ ـ يعلم الناس حقوقهم والواجبات التي عليهم .

٧ ـ اشاعة الاخلاق الحميدة بين الناس .

أما الوظائف العامة التي يقوم بها الوالي فهي :

١ ـ احياء سنن الله واماتت السنن الجاهلية .

٢ ـ الاعتراف بالخطأ أمام الناس إن صدر هذا الخطأ بصورة علنية .

٣ ـ الفطنة والذكاء فلا يصدق كاذباً ولا يكذب صادقاً من الناس .

محاسبة الولاة :

وبعد تعيين الوالي يظل رسول الله (ص) يراقبه عن كثب خشية انحرافه عن الجادة وإذا ما زل زلة وحتى ولو كانت صغيرة فسيتم عزله كما حدث للعلاء

ابن الحضرمي عندما شكته قبيلة عبد القيس فأرسلوا وفداً الى رسول الله (ص) يطالبونه بعزله فاختار لهم رسول الله (ص) ابّان بن قيس وهو من أكابر قريش اسلم في خيبر وشارك في المعركة بعد اسلامه وله قصة معبرة عند اسلامه فكان ابّان بن قيس يتاجر بين مكة والشام فالتقى في الطريق براهب اسمه يكا وصف له صفة النبي (ص) وعندما رجع ابّان الى مكة وجد هذه الاوصاف متطابقة على النبي (ص) فجمع قومه وذكر لهم ذلك ثم رحل الى المدينة فأسلم ، ارسله النبي (ص) على سرية في قطاع نجد قبل ان يرسله الى البحرين ليحل محل العلاء بن الحضرمي فالولاة الذين كان يختارهم النبي (ص) ذو سابقة عريقة واصحاب تجارب قبل ان يتولوا المسؤولية وقد يزل البعض منهم عندما يجد من يحاسبه .

استعمل النبي (ص) رجلاً من الأزد على الصدقات وعندما حاسبه في الاموال التي جاء بها قال الازدي هذا لكم وهذا أهدي اليّ فغضب رسول الله (ص) من كلامه وقال لأصحابه ما بال الرجل نستعمله على العمل من ولانا الله فيقول هذا أهدي لي ؟ أفلا قعد في بيت أمه وأبيه فنظر أيهدى اليه ام لا والذي نفسه بيده لا نستعمل رجلاً على العمل مما ولانا الله منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ان كان بعيراً له رغاء ، وإن كانت بقرة لها خوار وان كانت شاة تمغر ثم رفع يده الى السماء وقال اللهم هل بلغت قالها مرتين او ثلاثة[1] .

وكان في الخطاب عبرة ودرس للولاة الآخرين .

والتأريخ يقدم لنا نماذج معكوسة ايضاً فقد استعمل رسول الله (ص) عبد الله بن رواحة على اموال خيبر وحاول اليهود ان يرشوه بمقدار من الحلي من حلي نسائهم قائلين له هذا لك ، طالبين منه ان يخفف عنهم .

---

(١) القرشي: النظام السياسي في الإسلام: ص١١٦.

فهاج عبد الله بن رواحة فرد على طلبهم مخاطباً اياهم . .

يا معشر اليهود انكم لمن أبغض خلق الله تعالى الي ، وما ذاك بحاملي على ان احيف عليكم واما ما عرضتم علي من الرشوة فانها السحت وانا لا نأكلها . . فأعجب اليهود بهذه المقالة فأقروا بعظمة الاسلام الذي صنع مثل هذه النماذج قائلين بهذا اقامت السماوات والارض .

وكان رسول الله (ص) لا يعيّن احداً في هذا المنصب إلا بعد ان يتأكد من صلاحيته وبعد ان يجتاز فترة من التجربة واكتساب الخبرة .

فقراءة سريعة في حياة العلاء بن الحضرمي تشير الى انه كان من العناصر القوية في الجهاز الاداري فكان يتحلىٰ بقدرة فائقة على الاقناع والتأثير في الآخرين وهي سمات هامة في الشخص الذي ينتخب . . فقد ارسله الرسول (ص) الى البحرين وكان زعيمها يومذاك المنذر بن ساوى فاستطاع العلاء بحنكته السياسية ان يقنع الملك بالمصالحة وان يستثمر هذه المصالحة لنشر الدين الاسلامي في هذه البقعة وعلى رغم هذه الكفاءة نجد ان رسول الله (ص) يعزله لمجرد ان تصل اليه شكوى من اهالي تلك المنطقة إذ ليس من السهل على الحاكم وحتى ولو كان جيداً ان يحكم في اجواء انعدام الثقة .

فقد كانت البحرين منطقة بعيدة عن المركز وتتكون من مجتمع غير متجانس فيضم بالاضافة الى المسلمين المسيحيين وبالاضافة الى العرب الفرس ايضاً وتأريخياً كانت البحرين للدولة الفارسية وكانت تطمح الى التحرر على ايدي المسلمين .

وكانت محاسبته (ص) لولاته تشمل حتى الامور الطفيفة فقد جاء أهل اليمن يشكون اليه تطويل معاذ بن جبل في صلاته فزجره رسول الله (ص) وقال من أمّ في الناس فليُخفّف.

٣ ـ الجهاز القضائي :

نشأ في العهد الاسلامي الاول نواة للجهاز القضائي وأول من تصدى امور القضاء كان هو (ص) إذ لم يكن التجمع الاسلامي من السعة بحيث يحتاج الى اكثر من قاضي واعظم المشكلات التي واجهت المسلمين يومذاك كانت ذو منشأ سياسي او عقائدي حيث كانت المدينة تعج بالفئات الاخرى غير الاسلامية الامر الذي جعل رسول الله (ص) يتحمل بنفسه مسؤولية القضاء في الدولة الاسلامية .

ويذكر لنا التأريخ انه كان يقضي في الخصومات التي كانت تبرز في بداية تكوين الدولة الاسلامية .

ووضع رسول الله من خلال ممارسته لهذه المسؤولية أسس القضاء في الاسلام فالذين عينهم لهذه المهمة فيما بعد كانوا يسلكون نفس هذا الطريق في القضاء فكانوا يجدون الطريق امامهم معبدا فقد سنّ رسول الله (ص) من خلال اقواله وافعاله طريقة اصدار الحكم في المسائل القضائية فقال البينة على من ادعى واليمين على من أنكر وهو بذلك يضع قانوناً هاماً في فصل المنازعات والمخاصمات بين المدعي والمدعى عليه .

ويدع الرسول (ص) مجالا للقاضي لأن يعمل فكره في استنباط الحكم القضائي فيقول إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وان اخطأ فله اجر . فكان أمام القضاة ثلاثة مصادر لاصدار الحكم الكتاب ، سنة رسول الله ، والاجتهاد . ولخطورة امر القضاء كان رسول الله (ص) لا يعتمد في هذا الامر إلا على من يثق بحسن قضائه وكان يدفع باصحابه للتمرس في هذه الوظيفة الهامة فخرج من بين اصحابه افراد متخصصين في القضاء كالإمام علي (ع) وكان (ص) قد أقر بهذه الحقيقة بين اصحابه بقوله أقضاكم علياً ويشهد التأريخ

ان افضل من تولى هذه المسؤولية بعد رسول الله هـو الإمام علي (ع) وكـان موضع اعتماد الخلفاء الراشدين إذ بدونه لم يكن باستطاعتهم ان يفكوا الغاز المشاكل القضائية المعقدة حتى قال فيه الخليفة عمر بن الخطاب لـولا علي لهلك عمـر . . إذ كان علي بن ابي طـالب (ع) أوعى المسلمين بكتـاب الله وافهمهم لسنة رسوله واقدرهم على الاجتهاد وهي الأسس التي تعتمد عليهـا المهمة القضائية .

ونستنتج من تولي رسول الله (ص) مهمة القضاء ثم اعتماده على قلة من اصحابه كمحمد بن مسلمة الانصاري الذي خاض عدة مهمات قبل أن يصل الى دفـة القضاء فكـان ممن شارك في اغتيـال كعب بن الاشـرف واستخلفـه الرسول (ص) على المدينة في عدة غزوات ولم يصل الى مرتبة القضاء إلا بعد ان عُرف بأمانته وصدقه وتفانيه .

وايضاً معاذ بن جبل حيث عرف بامانته وصدقه حتى قال فيه رسول الله يوم بعثـه في مهمـة القضـاء (اني قـد عـرفت بـلاءك في الـدين)[1] واراد رسول الله (ص) ان يعلمه كيفية القضاء فسأله عنـدما اراد ارسـاله الى اليمن « كيف تقضي إذا عرض عليك قضاء » قال اقضي بكتاب الله ، قال فإن لم تجد في كتاب الله قال فبسنة رسول الله (ص) قال فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله قال اجتهد رأي ولا الو فضرب رسول الله صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسوله[2] .

وفي القضايا المعقدة كان القضاة يستشيرون الرسول (ص) . فقد جاء في احدى وصاياه لمعاذ لا تقضين ولا تفصلن إلا بما تعلم وإن أشكل عليك أمر

---

(١) الإصابة: ج٦ ص١٠٦

(٢) سنن أبي داوود: ج٢ ص٢٧٢ .

فقف حتىٰ تبينه أو تكتبه اليّ فيه .

والرسائل المتبادلة بينه وبين الإمام علي (ع) في مجال القضاء يرسم الرسول (ص) معالم النظام القضائي في الاسلام . فقد روى عن الإمام علي (ع) إنه قال بعثني رسول الله الى اليمن قاضياً فقلت يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء فقال إن الله يهدي قلبك ويثبت لسانك فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الاول فإنه أحرى ان يتبين لك القضاء قال : فما زلت قاضياً وما شككت في قضاء بعد[1] وسأل علي (ع) الرسول مرة يا رسول الله ان عرض لي امرٌ لم ينزل فيه قضاء في امره ولا سنة كيف تأمرني ؟ قال تجعلونه شورىٰ بين اهل الفقه والعابدين من المؤمنين ولا تقضي فيه برأي خاصة[2] .

وهناك جملة وصايا وردت على لسان النبي (ص) في القضاء وفي القاضي منها .

لسان القاضي بين حجرتين من نار حتىٰ يقضي بين الناس فإما الى الجنة وإما الى النار[3] .

ساعة إمام عادل أفضل من عبادة سبعين سنة وقد يقام لله في الارض أفضل من مطر أربعين صباحاً[4] .

ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل وأبغض الناس الى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر[5] .

(١) سنن أبي داوود: ج٢ ص٧٢.
(٢) كنز العمال: ج٥ ص٨١٢.
(٣) الوسائل: ج١٨ ص١٦٧ .
(٤) الوسائل: ج١٨ ص٣٠٨.
(٥) سنن الترمذي: ج٢ ص٣٩٤.

وورد عنه أيضاً الله مع القاضي ما لم يجر ، فإذا جار تخلىٰ عنه ولزمه الشيطان[1] .

ويُستنتج من ذلك إنه (ص) كان يهتم بالقضاء لارتباطه المباشر بالعدالة الاجتماعية والسياسية . وأنشأ جهاز دقيق على رأسه أكفأ أصحابه وبالرغم من تصديه المباشر لامور القضاء إلا إنه (ص) كان ينتهج أسلوباً يؤدي الى فصل السلطة القضائية عن السلطات الاخرى ، عندما كان يجلس بين الخصمين لم يكن يتمثل حينذاك إلا بالقاضي العادل ويذكر لنا التأريخ إنه (ص) كان في احدى المرات طرفاً في قضية قضائية رفعت ضده من يهودي وتمكن اليهودي ان يحتجز النبي (ص) وقتاً طويلاً بسبب افتقار النبي (ص) للبينة .

وجرت العادة على تقسيم الجهاز القضائي الى قسمين الاول يتولىٰ مسؤولية النظر في القضايا والفصل فيها وكان يُسمى (بالايجاب) أي إيجاب الحكم ويكمله جهاز آخر للتنفيذ يُسمىٰ (الاستيعاب) ويقوم بتنفيذ الحكم[2] .

كما وإنه قد أعدّ مكاناً لحجز المتهم فقد اتخذ من بيت بنت الحارث مكاناً للسجن وهو خاص لحجز الرجال واتخذ مكاناً في باب المسجد لحجز النساء وفي عهد عمر كان المتهم يوضع في البئر حتى عهد الإمام علي الذي كان أول من بنى السجن المتعارف عليه .

٤ ـ الجهاز الفني

ويشمل الكتاب والمترجمين الذين كانوا يعملون في مقر القيادة كموظفين دائمين او كمتطوعين في هذا العمل في فترات الحاجة .

---

(١) سنن الترمذي : ج٢ ص٣٩٥ .

(٢) محمد نظرة عصرية أول دستور للدولة الإسلامية، محمد عمارة : ص٩٩ .

ومع تنوع مسؤوليات الدولة الاسلامية توسعت الحاجة الى الكتبة فكانت هناك ضرورة وجود من يكتب للملوك ورؤساء القبائل من يقوم بتحرير المعاهدات والمواثيق التي كانت تُبرم بين المسلمين وغيرهم وهناك من كان يكتب القرآن الكريم ويحرر المعاهدات المالية والمداينات التي كانت تجري بين المسلمين وهناك من كان يدون الأموال التي تُجبىٰ من الزكاة ومن الصدقات ومن الكتاب من كان يكتب أسماء الجنود واحتياجاتهم والعطاء الذي يأخذونه بعد كل معركة .

وقد خصص النبي (ص) لكل حقل من حقول الكتابة شخصاً معيناً . فاختص الإمام علي بن أبي طالب في كتابة المواثيق الرسمية كمعاهدة الحديبية وزيد بن ثابت كان يتولىٰ تحرير الرسائل للملوك ورؤساء العشائر . وممن كان يعمل في هذا الجهاز أُبي بن كعب الذي كان يكتب الوحي عند نزوله على النبي (ص) وممن كان يكتب له عبد الله بن الأرقم بن أبي أرقم وهو خال النبي[1] وكان يكتب الرسائل الىٰ الملوك وبلغ من فرط أمانته ، انه كان يكتب الرسائل ويختم ولا يقرأ ما يكتبه . وكانت طريقته في الكتابة إنه كان يكتب فحوىٰ الرسالة ثم يعرضه علىٰ رسول الله (ص) .

كُتب للنبي (ص) كتاباً فطلب من عبد الله بن الأرقم ان يجيب عليه فأجابهم ثم جاء به الى النبي (ص) فرضي عما كتبه[2] . وظلّ عبد الله على مهنة الكتابة حتىٰ بعد وفاة النبي (ص) ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان على الأموال وفي عهد عثمان على هذه الوظيفة ، ويذكر إن عثمان بن عفان قد أجازه ثلاثمائة ألف فأبىٰ أن يقبلها قائلاً ؛

---

(١) الإصابة : ج٤ ص٣٢.
(٢) الإصابة : ج٤ ص٣٣.

انما عملت لله

وهذا ما يدلل على مدىٰ اخلاص عبد الله وأمانته وهي سمة مطلوبة في مثل هذه الوظائف وكان عبد الله الموظف المتفرغ في الكتابة في عهد رسول الله وإذا ما غاب أناب عنه رسول الله (ص) أحد صحابته .

وعلى الظاهر إن هؤلاء الكتاب كانوا يحررون ما يريده رسول الله (ص) ثم يعرضونه عليه فيما بعد ثم يُختم بختم خاص كان مع أحد الصحابة هو المعيقب ابن ابي فاطمة الدوسري الذي كان موظفاً بخزانة الخاتم والتصديق على الكتب بعد الموافقة عليها .

ومن الكتاب حذيفة بن اليمان فهو كان يكتب خرص ثمار الحجاز ، وزيد كان يكتب اموال الصدقات والمغيرة بن شعبة كان يكتب المداينات والمعاملات وشرحبيل بن حسنة كان يكتب التوقيعات الى الملوك .

ومع مرور الزمن تطور جهاز الكتابة فأصبح جهازاً فنياً متخصصاً يعتني في رسم الحروف بصورة جميلة فهذا علي بن أبي طالب (ع) يطلب من كاتبه عبدَ الله بن أبي رافع ان يحسن كتابته فيقول له يا عبد الله الَقِ دواتك واطِل شباه قلمَك وفرّج بين السطور وقمطّ بين الحروف .

ويجدر ذكره هنا أيضاً التطرق الى قسم الترجمة ضمن الجهاز الفني ، فمنذ أن وطأ رسول الله (ص) أرض المدينة جاءه شاب وقف قباله وأخذ يقرأ سوراً من القرآن فقرأ سبع عشرة سورة فأعجبه ذلك فطلب منه أن يتعلم العبرية قائلاً له ؛

تعلم كتاب يهود فاني ما آمنهم عَلى كتابي ولم يمض عليه نصف شهر حتىٰ حذقه ولنباهته اختاره الرسول (ص) لأعمال الترجمة ، فكان يترجم له الى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية وقد تعلم جميع هذه اللغات في المدينة

لانها كانت تضم اقليات من فارس والروم ومصر والحبشة . وكان زيد بن ثابت يكتب الرسائل باللغات المذكورة أيضاً بالاضافة الى قيامه بالترجمة الفورية بين يدي الرسول للخطب والأحاديث المتبادلة بينه وبين الوفود القادمة من خارج الجزيرة العربية .

ويُستنتج من ذلك إن الدولة الاسلامية كانت تمتلك جهازاً فنياً متكاملاً كان له نصيبٌ وافر في إدارة دفة الحياة السياسية والمالية في الدولة الاسلامية .

٥ ـ الجهاز المالي :

ويشمل هذا الجهاز جباة الصدقات والموكلون على بيت المال والكتبة الذين يكتبون العطاءات السنوية . وقد برزت الحاجة لانشاء هذا الجهاز مع تدشين مرحلة المواجهة المسلحة التي كانت تدر مقادير كبيرة من الغنائم ، وبالأضافة الى الغنائم كان لتشريع الزكاة سبب آخر في انشاء هذا الجهاز لكنه بدأ بصورة بسيطة في عهد رسول الله (ص) وتوسع في العهود المتعاقبة حتى أصبح من اكبر الأجهزة الادارية العاملة في الدولة الاسلامية .

مصادر الخزينة :

تقوم الخزينة (بيت المال) بدور كبير في تدوير كتل الأموال من أيدي الأغنياء الى أيدي الفقراء ، وتدويرها من أماكنها الراكدة الى ميادين العمل والانتاج والبناء فبيت المال هو قلب الاقتصاد الاسلامي وعصب الحياة في الدولة الاسلامية .

من هنا جاء اهتمام الرسول الأكرم (ص) بانشاء بيت المال والتركيز على جباية الأموال (الصدقات). والطريقة الانسانية التي تُجبى فيها الأموال من مصادرها المشروعة . والمصادر المشروعة هي :

١ ـ الزكاة .

٢ ـ الخراج .

٣ ـ الجزية .

٤ ـ الغنائم .

٥ ـ الفيء .

١ ـ الزكاة :

وهي أول ضريبة وضعت على أموال الأغنياء وفي بداية الأمر كانت ضريبة اختيارية حيث أثنى القرآن الكريم على من يعطيها ﴿ **والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾ وظلت هكذا حتى نزول الآية ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ، ان صلاتك سكن لهم** ﴾ ولا تجب الزكاة إلّا في ثلاثة شروط هي : انها تجب على الغلات الأربع (الحنـطة ، الشعير ، التمر ، الزبيب) وعلى الأنعام الثـلاثة (الابـل ، والبقر ، والغنم) وعلى النقدين (الذهب والفضة) .

٢ ـ وصول الثروة حد النصاب ، ونصاب الغلات الأربع ما يعادل ٨٤٧ كيلو غراماً و٣٠٧ غراماً أما نصاب الأنعام فللإبل اثني عشر نصاباً يبتدىء من خمس وزكاته شاه حتى ١٢٠ وأكثر وزكاته ان يعـطي مقابـل كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فله نصابان الأول ثلاثون فيدفع مقابلها تبيعة[1] والنصاب الثاني أربعون وزكاتـه مسة[2] . أمـا نصاب الغنم فهـو على خمسة أشكـال أربعون وزكاتها شاة و١٢١ وزكاتها شاتان و٢٠١ وزكاتها ثلاث شياة و٣٠١ وزكاتها أربع و٤٠٠ فما فوق كل مائة يدفع عنها شاة .

---

(١) تبيعة: البقر الذي دخل في السنة الثانية.

(٢) مسة: البقر الذي دخل في السنة الثالثة.

أما نصاب الذهب فهو نصابان الأول عشرون مثقالا مثقالاً شرعياً فعليها (١/٤٠) أي ربع عشرها والنصاب الثاني هو زيادة أربعة مثاقيل شرعية على النصاب الأول فيدفع ربع عشر ٢٤ مثقالاً . أما نصاب الفضة فالأول هو بلوغه ١٠٥ مثقالاً وزكاته ربع العشر والثاني إذا ازداد عن النصاب الأول بمقدار ٢١ مثقال فيجب الزكاة على ١٢٦ مثقال .

وهذه الأنصبة والمقدار الموضوع عليها لم يأت بها القرآن الكريم بل حددتها السنّة النبوية .

٣ ـ مرور عام على ملكية الأشياء التي تجب عليها الزكاة فدون هذه لا يأخذ منها .

وقد وضع رسول الله (ص) وعبر هذه الفريضة أساساً متيناً للعدالة الاجتماعية ومحو مشاعر الطبقية بين الأغنياء والفقراء . فالمال الذي يعطيه الغني هو مال الله وهو ليس إلا أمين على هذا المال يجب عليه ان يعيده الى أصحابه . من هنا جاءت الآية الكريمة صريحة في ذلك ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾[1] ومن هنا أيضاً صدع القرآن ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها** ﴾ فالزكاة هو تطهير للغني ومناعة ضد الأمراض الاجتماعية والاقتصادية من احتكار واستغلال وتكبر والزكاة تطهير للمجتمع من الفقر ومن الطبقية لأن الغني الذي يعيش الى جنب الفقير لا يجد ما يرضي ضميره إلا وان يخرج هذه الضريبة التي وضعها الاسلام على ماله فهو يدفع الزكاة الى الفقير براحة قلب وضمير أما الفقير فهو لا يشعر بالضعة عندما يقبض ذلك المال الذي فرضه الله له في مال الغني وهو في الأصل من مال الله الذي أودعه أمانة عند الاغنياء وعلى

(١) سورة النور، الآية: ٣٣ ـ ٢٤ .

هذا الاساس القويم استطاع الاسلام ان يُزيل الكثير من الفروقات الطبقية في المجتمع الاسلامي ليس في مجال المال وحسب بل حتى في مجال المشاعر والاحاسيس .

٢ ـ الخراج :

وهي الضريبة التي تفرض على الأرض المفتوحة عنوة أو التي صالح المسلمون عليها المشركين على مقدار معين من حاصلاتهم أو من أموالهم . وهي أراضي كانت تتزايد مع تزايد الفتوحات وتتزايد معها الأموال المفروضة .

وقيمة هذه الضريبة ليست ثابتة بل تتراوح حسب الاتفاق المبرم وحسب الانتاج . فالنبي (ص) صالح أهل خيبر على نصف ما تدّره الأرض ، وأصبح الخراج أهم مصادر التمويل للميزانية في عهد الخلفاء الراشدين حيث ازدهرت الفتوحات في عهدهم . فازدادت الأراضي التي استولى عليها المسلمون . ومع تزايد عدد الذين أسلموا من الشعوب الاخرى وحدوث انخفاض محسوس في ضريبة الجزية كان الأعتماد يزداد على الخراج في تمويل الخزينة الاسلامية ..

٣ ـ الجزية :

وهي ضريبة توضع على الرؤوس لا على الأرض وهذا هو محل الفرق بين الجزية والخراج . وهي تفرض على الذميين في قبال توفير الأمن والحماية لهم ولأهلهم ولأموالهم وهي تماثل الزكاة التي تفرض على المسلمين ولا حد لها عند الكثير من الفقهاء بل هي موكولة لحاكم الشرع الذي يقرر مقدار الجزية على حسب المصلحة الاسلامية . وهي تؤخذ من الأغنياء فقط مثل الزكاة ولا تؤخذ من النساء والأطفال والمجانين والشيوخ والمقعدين والعميان والفقراء . والجزية لم تكن شيئاً جديد ابتدعه المسلمون بل كانت قائمة قبل الاسلام وبصورة مضاعفة ، فاليونان كانوا يفرضون الجزية على الأمم الخاضعة لهم

وكذلك الفرس وكان المقدار المفروض سبعة أضعاف أو أكثر من الجزية التي فرضها رسول الله (ص) بالاضافة الى أنه لا تؤخذ إلا من الغني كما وأن الأسلوب الذي يؤخذ فيه الجزية يختلف بين الاسلام وغيره . فكان المسلمون يتلطفون مع أهل الذمة حين أخذهم الجزية ولا يعتدون عليهم عند ممانعتهم . وفي مقابل أخذ الجزية كان الاسلام يكفل المساكين والمقعدين والعاطلين عن العمل من اهل الذمة . في الواقع انّ الاسلام أراد ان يوجد توازناً اقتصادياً واجتماعياً فليس من المعقول ان يدفع المسلمون الضريبة التي عليهم ويعفى أهل الذمة الذين يتنعمون بظل الدولة الاسلامية من أية ضريبة .

٤ ـ الغنائم :

وهي من المصادر الهامة في تقويم الخزينة الاسلامية . والغنائم مصدرها الحرب .

وتقسّم بعد استخراج الصوافي[١] خمسة اخماس ، الخمس الأول يقسم حسب الآية الكريمة : **﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** أما أربعة أخماس الآخرى فهي تصرف على المقاتلين وعلى المسلمين .

وكان أول ما غنمه المسلمون كان بعض ابل لقريش محملة أدماً وتجارة في جمادي الآخرة من السنة الثانية في مكان يقال له نخلة بين مكة والطائف وذلك قبل معركة بدر أثناء عملية استكشافية كانت تقوم بها سرية من الجيش الاسلامي ثم حصلت معركة بدر في رمضان السنة الثانية للهجرة فغنم المسلمون أموالاً طائلة وسلاحاً وفيراً . وبعد شهر أي في شوال من نفس ذلك العام غنم

(١) وهي ما تكون للإمام خاصة .

المسلمون أموال يهود بني قينقاع بعد ان نقضوا العهد فاجلوا من أماكنهم الى بلاد الشام . وبعد ستة أشهر من معركة أحد حاصر المسلمون بني النضير الذين تواطأوا مع الأعداء ونقضوا العهد مع رسول الله (ص) وأرادوا قتله عندما ذهب اليهم في أخذ دبّة القتيلين . وبعد حصار استمر خمسة عشر يوماً صالحهم على ان يتركوا أرضهم للمسلمين ويأخذوا معهم ما حملت الابل ما عدا الحلقة وهي السلاح .

وتوالت الانتصارات ومع كل انتصار يكسب المسلمون ثروة طائلة ففي معركة الأحزاب غنم المسلمون أموالاً وأسلحة كثيرة ولأن الأحزاب اجتمعوا لتصفية المسلمين بتدبير من يهود بني قريظة آخر قبيلة يهودية في المدينة فقد مال رسول الله (ص) عليهم ولم ينته القتال إلا بتحكيم سعد بن معاذ الذي قضى بقتل المقاتلة وتقسيم الأموال .

ويقدم النبي (ص) الى مكة ويعقد صلح الحديبية وبعد تأمين الطرف الجنوبي يتحول الى الشمال نحو خيبر آخر قلاع المتآمرين ويفتحها عنوة في محرم السنة السابعة للهجرة ويغنم المسلمون من خيبر خيراً كثيراً أما الأراضي فصالح رسول الله أهلها على ثمرها بصورة مقاسمة على النصف . وبعدها يصالح رسول الله (ص) فدك على نصف الأرض فتكون له خالصة لأنها أُخذت بلا قتال . وفي رمضان السنة الثامنة للهجرة يفتح المسلمون مكة لكن دون ان تمس أموال المكيين . وفي شوال من نفس السنة يحققون نصراً موزراً على قبيلة هوازن في غزوة حنين فيغْنم المسلمون أموالاً كثيرة ويأسرون اعداد كبيرة من المشركين فيعفو رسول الله عن السبي ويتأسى به المسلمون وتأتي السنة التاسعة ففي رجب تقوم غزوة تبوك فيصالح القبائل الخاضعة للنفوذ البيزنطي على الجزية . فصالح بعضها على المال (دينار) عن كل شخص وصالح قبائل أخرى على ثمارها مثل أهل قضا صالحهم على ربع ثمارها وهي قبيلة يهودية

ومع تلاحق الانتصارات سارعت القبائل الى عقد المصالحة مع الدولة الاسلامية على اعطاء الجزية .

فعقد مع نجران صلحاً على ان يدفعوا في قبال الحماية التي توفرها لهم الدولة الاسلامية ألفي حلة وان عليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، إذا كان باليمن كيد كما ان عليهم ضيافة الرسل الذين يرسلهم النبي (ص) عند مرورهم في منطقتهم . وكان رسول الله يقسم الغنائم حسب المصلحة الاسلامية ، فقسم أموال بني النضير على المهاجرين الذين لم يك يملكون إلا القليل لاعادة التوازن الى المجتمع الاسلامي ومنح اثنين من الأنصار قسماً من الغنيمة وهم من الفقراء .

أما في بقية الحروب فكانت الغنائم تقسم على شكل أسهم للفارس ثلاثة أسهم فللفرس سهمان وللراكب سهم . أما للرجل فسهم واحد . وظل يسير على هذه القاعدة في معظم معاركه الأخيرة لكنه في بعض الأحيان كان يرى من المصلحة ان يعطي للبعض اكثر من سهمهم مثلما حدث في حنين عندما أعطى أسهم لأبي سفيان وبقية المؤلفة قلوبهم أكثر من استحقاقهم وذلك لتحقيق مصلحة سياسية .

٥ ـ الفيء :

وهي أموال يغنمها المسلمون دون قتال ودون ايجاف بخيل ولا ركاب فهي تقسم على ستة أسهم بناءاً على الآية الكريمة **﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** قيل كان قسمة الفيء في مبدأ الاسلام هكذا ثم نسخ ذلك بالآية **﴿ واعلموا انما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه .. ﴾**[1] .

---

(١) كنز العرفان في فقه القرآن : ج١ ص٢٥٦ .

بعد ان اختلف الصحابة في تقسيم غنائم بدر إذ جاءت الآية (واعلموا) لتشرح طريقة القسمة لكان للامام مع من ذكر في الآية الخمس وصارت الأربعة الأخماس الباقية حقاً للفاتحين[1] .

الجباة :

وقد عيّن رسول الله (ص) أشخاصاً من أصحابه قد عرفوا بأمانتهم وحسن خلقهم لجلب الصدقات فبعث عُدّي بن حاتم وهو نجل كـريم آل طيء الى عشيرته وعلى بني أسد لتصفية صدقاتهم وبعث زياد بن لبيد الى حضرموت . وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة . وبعث بالزبرقان بن بدر وقيس ابن عصام على صدقات بني سعد في جهتين مختلفتين وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين وبعث بالمهاجر بن أبي أمية بن المغيرة الى صنعاء كما وبعث علي بن أبي طالب (ع) الى أهل نجران ليجمع صدقاتهم .

السياسة النقدية :

استبدل رسول الله (ص) نظام تبادل البضائع وهو ما كان شائعاً قبل الاسلام ووضع بدلاً منه نظاماً نقدياً قائماً على الذهب والفضة . فقد ورد عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله (ص) أكل تمر خيبر هكذا فقال لا والله يا رسول الله انا لنأخذ الصالح من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة فقال رسول الله (ص) لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا .

وهو بذلك قد وضع سياسة نقدية ثابتة أساسها الدرهم والدينار . وقد أوجدت هذه السياسة قفزة نوعية في الحياة الاقتصادية في جزيرة العرب فقد

---

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية : ص١٢٥ .

منحت حرية واسعة في عملية البيع والشراء بعد ان كانت هذه العملية مقيدة . كما وان النظام النقدي الجديد سهل عملية البيع والشراء وجعلها تجري بسهولة ودون بروز أي اختلاف بين طرفي الصفقة وبهذا قللت هذه السياسة المشاكل القضائية التي قد تنشأ من مبادلة البضائع . وأيضاً سهّل النظام النقدي الجديد عملية انتقال البضائع والأموال من بلد الى آخر دون خوف عليها من تلف قيمتها .

كما وان النظام النقدي بالذهب والفضة أضاف مساحات كبيرة في عمليات التبادل التجاري فأصبح من يبيع التمر قادراً على شراء ما يريد في أي زمان كان وليس مقيداً بشراء بضاعة مساوية قد لا يحتاجها .

ولتدعيم النظام النقدي أقام رسول الله (ص) قواعد هامة هي :

١ ـ تثبيت قيمة العُملة بحيث تصبح بعد تثبيتها هي المقياس في تعيين قيمة البضائع التي يراد بيعها او شراءها . فقد حدد رسول الله قيمة مثقال الذهب بدينار وقيمة ألف دينار مساوية لمائة من الابل وذلك عند تحديده ديّة النفس المؤمنة فقال في كتابه الى أهل اليمن « وان في النفس المؤمنة مئة من الابل وعلى أهل الورق ألف دينار » فجعل للنقد قيمة ثابتة فأصبح مقياساً للقيم الأخرى .

٢ ـ وضع مقاييس نقدية تقوم على ميزان الذهب والفضة كالأوقية والدرهم والدانق والقيراط والمثقال والدينار فأصبح الذهب والفضة المقياس الذي تقوّم عليه هذه الموازين . فالدينار هو مثقال من الذهب الشرعي وهو ما يساوي اليوم ثلاثة أرباع مثقال الصاغة وكل عشرة دراهم يساوي سبعة مثاقيل شرعية من الفضة الخالصة وهو ما يساوي خمسة مثاقيل وربع مثقال من مثاقيل الصاغة والأوقية الشرعية أربعون درهماً والدرهم ست دوانق والدينار أربعة وعشرون قيراطاً . وكانت تجري المعاملات الاقتصادية على هذه الموازين الشرعية .

٣ ـ منع كنز الذهب والفضة ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة لا ينفقونها في سبيل الله** ﴾ والعلة في ذلك ان الذهب والفضة هما نقدان يجب تداولهما لضمان السيولة النقدية في السوق . فكنز العملة يسبب ركوداً اقتصادياً وسيترك آثاراً وخيمة على الحياة الاقتصادية . فطالما ان الاسلام قد اعتبر الذهب والفضة نقدين فلا بد من تداولهما وعدم حجزهما في أماكن لا ينتفع منها .

٤ ـ ومن أجل منع تراكم العملة في ايدي واحدة فرض الاسلام ضريبة على الذهب والفضة وسميت (بزكاة النقدين) . وهي مقدار من المال يفرض على هذين النقدين عندما يبلغا حدّ النصاب . وهذا أفضل السبل لمنع تراكمهما في مكان واحد بنقل قسم من هذا النقد الى أيدي محتاجة فتعود العملة الى التداول من جديد بعد ان كانت مهددة بالركود .

وبزكاة النقدين وضع الاسلام نظاماً رائعاً في تضمين التداول المستمر للنقد فالذي في يده مقداراً فائضاً من النقد يعطيه لمن لا يملك وبذلك تبقى حركة النقد فعالة لا تتوقف ومعها تتحرك عجلات الاقتصاد .

٦ ـ الجهاز الدبلوماسي :

أخذ الرسول (ص) يتحرك سياسياً بعد ان ثبّت ركائز الدولة الاسلامية خلال ست سنوات وبالضبط بعد صلح الحديبية التي أعتبرت بمثابة اعتراف رسمي من قبل قريش بدولة الاسلام فقد استفاد الرسول (ص) من الأجواء التي أفرزها هذا الاعتراف القانوني حيث كانت الدول المجاورة تتعامل مع قريش باعتبارها تمثل الزعامة العربية في جزيرة العرب ومن ناحية اخرى أدى صلح الحديبية الى تفرغ الرسول (ص) نحو ترتيب الوضع السياسي للدولة الاسلامية بايصال صوت الاسلام الى أرجاء العالم فكانت مخاطبته للملوك والرؤساء بعد ان انتشر خبر ظهور الدين الجديد وبروزه ككيان مستقل عن الكيان القرشي .

شعر الرسول (ص) وبعد استتباب الدولة الاسلامية وتكوّن أمة من المؤمنين الصامدين الأقوياء في ايمانهم وشجاعتهم انه قادر على الانتقال الى مرحلة جديدة هي مرحلة الانتشار فشرع بحمل سلاح الكلمة وطفق جمعٌ من الصحابة يجوبون بهذه الكلمة من عاصمة الى اخرى حاملين روح الاسلام وكلمته عبر الرسائل التي خطتها يد رسول الله (ص) .

والاسلام دين المنطق والعقل فهو لا يخشى الكلمة ولا يخاف الحوار وهما الطريق الأرحب الى الانتشار . . الاسلام لم ينتشر بالسيف إذ كان دور السيف في نهاية المطاف عندما تفقد الكلمة قدرتها على التأثير في بعض العقول المتحجرة . فالاسلام دين الفكر يعيش بالفكر والتفكير والحوار وينتشر بالفكر والتفكير والحوار يؤمن به أصحاب القلوب الواعية والأفكار النيّرة وأرباب الحوار والمناقشة السليمة .

لقد ظَلَم الاسلام أولئك المستشرقون الذين قالوا عنه انه انتشر بالسيف . . كيف انتشر الاسلام بالسيف وهو يدشن أهم وأخطر مرحلة من مراحل تأريخ التحرك بالكلمة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض .

كتب الى قيصر كتاباً يقول فيه . . بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد ابن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . . فإني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك اثم الآريسين **﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾** .

فهي إذن دعوة واضحة عبادة الخالق الواحد وعدم الشرك به وترك عبادة الأرباب مهما علا شأنهم وارتفعت مكانتهم وهي دعوة تقرها الفطرة السليمة ويعترف بها العقل السليم . هذه هي روح الاسلام بصورة مختصرة . بهذه

الكلمة المختصرة صدع الرسول (ص) أول مرة في مكة وهو لا يزال يردد الكلمة نفسها انها كلمة التوحيد جوهر الدين الجديد وكل التفاصيل تأتي بعد كلمة التوحيد . فإذا أقر الانسان بهذه الكلمة فكأنه قد أقرّ بكل التفاصيل . فالتوحيد يعني الارتفاع الى رحاب الله والتحلي بالصفات الخيّرة وهو أيضاً نبذ الرذائل والعمل على ازالتها وهذا هو الاسلام من الألف الى الياء . لقد لخص رسول الله (ص) الاسلام الى الملوك بهـ ه الكلمة وبعث مع هذه الرسائل اشخاصاً على استعداد كامل لأن يعطوا المزيد إذا أرادوا المزيد .

فالنبي (ص) لم يكتف بالرسائل وحدها بل بعث برسل تم اختيارهم لأداء هذه المهمة فهم يجيبون إذا سؤلوا ويناقشون إذا نوقشوا .

والرسل الذين وقع عليهم الأختيار هم :

١ ـ عبد الله بن حذافة السهمي بعثه الى كسرى ملك الفرس .

٢ ـ حاطب بن ابي بلتعة بعثه الى المقوقس عظيم القبط .

٣ ـ دحية بن خليفة الكلبي أرسله الى هرقل ملك الروم .

٤ ـ جعفر بن ابي طالب الى النجاشي ملك الحبشة .

٥ ـ شجاع بن وهب الى الحارث الغساني ملك تخوم الشام .

٦ ـ سليط بن عمرو الى هوذه بن علي الحنفي ملك اليمامة .

٧ ـ عمرو بن العاص السهمي الى جعفر وعبد ملكي عمان .

٨ ـ العلاء بن الحضرمي أرسله الى ملك البحرين .

٩ ـ المهاجر بن أبي أمية ـ الى الحارث أحد ملوك اليمن .

١٠ ـ الحارث بن عمير الأزدي الى عظيم بصرى .

وقد نجح بعضهم في مهمته كجعفر بن أبي طالب حيث أسلم النجاشي على يده ومعه الرهبان والقساوسة . وأسلم ملكا عمان على أثر الرسالة التي وصلتهما من النبي (ص) . أما المقوقس ملك مصر فقد أحسن استقبال السفير وبعث برسالة جوابية فيها اشادة بالنبي (ص) وبعث مع الرسالة جاريتين كهدية الى النبي لكنه لم يعلن اسلامه .

وأما ملك الروم فقد كاد يؤمن لولا موقف القساوسة والرهبان الذين قابلوا رسالة النبي (ص) بالازدراء فخشي على ملكه واكتفى ببعث هذه الرسالة الى النبي (ص) « الى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى من قبل انه جائني كتابك مع رسولك واني أشهد انك رسول الله نجدك عندنا في الانجيل بشرنا بك عيسى ابن مريم واني دعوت الروم الى ان يؤمنوا بك فأبوا ولو أطاعوني لكان خيراً لهم ولوددت اني عندك فأخدمك وأغسل قدميك[1] . ومن الذين أسلموا المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين على يد العلاء بن الحضرمي . أما بقية الرسل فقد تعثرت مهمتهم بغباء الذين بعثت اليهم الرسائل فكسرى ملك الفرس مزّق كتاب رسول الله قبل ان يقرأه وطرد عبد الله بن حذافة من القاعة . أما شرحبيل بن عمرو الغساني عظيم بصرى فقد أوثق الحارث بن عمير الأزدي ثم قتله وهو الرسول الوحيد الذي لقي مصرعه من بين الرسل العشرة الذين بعث بهم رسول الله (ص) .

وأما هوذة بن علي ملك اليمامة فلما أتاه سليط يدعوه الى الاسلام وكان نصرانياً أرسل الى النبي بوفد يشترط على النبي شرطاً لاسلامه هو ان يحصل الأمر من بعده إذا أسلم وسار اليه ونصره وإلا قصد حربه فقال رسول الله (ص) : لا ولا كرامة اللهم أكفنيه فمات بعد قليل[2] .

---

(١) السيرة الحلبية : ج٣ ص١٧٧ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٢١٥ .

وكان وراء اختيار النبي (ص) لهـذه المجموعـة من الصحابـة المكونـة للجهاز الدبلوماسي معايير ذات أهمية في انجاز المهام الدبلوماسية وهي :ـ

١ ـ اللغة فقد كان هؤلاء يتحدثون بلغات المناطق التي بعثوا اليها كما جاء في طبقات بن سعد وهذا يعني انهم مروا بفترة من التعليم المركز تعلموا لسان وعادات الاقوام التي ذهبوا اليها .

٢ ـ فترة الانتماء الى المسلمين فقد كانوا بأجمعهم ما عدا واحد منهم هو عمرو بن العاص ممن أسلموا قديماً فكان منهم الذي هاجر الى الحبشة كسليط ابن عمرو وأكثرهم من البدريين الذين ساهموا في كـل المعارك التي خـاضها المسلمون .

٣ ـ يمتلك جميع هؤلاء الرسل القدرة على البلاغة والاقناع . فمن ينظر الى حواراتهم مع الملوك الذين التقوا بهم يجد فيهم هذه القـدرة العاليـة في البلاغة والأداء وقد سبق وذكرنا جانباً من بلاغة جعفر الطيار في قبال النجاشي .

وفي الحوار الذي دار بين المقوقس عظيم القبط وحاطب بن أبي بلتعة فأستفهم المقوقس ـ ما منعه ـ يقصد النبي (ص) ان كان نبياً ان يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده الى غيرها ان يسلط عليهم ؟

فأجابه حاطب :

ألست تشهد ان عيسى بن مريم (ع) رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم ان يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله اليه ؟

فبهر عظيم القبط بهذا المنطق الرصين فقال له . . أنت حكيم من عند حكيم .

٤ ـ الجلد والتحمل والصبر الطويل : فبعض الرسل أهينوا كعبد الله بن حذافة وبعضهم سجن ثم قتل كالحارث بن عمير ، ثم ان المهمة التي قاموا بها كانت تستدعي شجاعة عالية وقدرة كبيرة على تحمل الصعاب أقلها الطرق الطويلة التي كان عليهم ان يقطعوها في مدد قصيرة .

٥ ـ اتصافهم بالهيبة والجمال فقد أشاد المؤرخون بجمال دحية الكلبي ووصفوه بأنه كان يشبه الملائكة في روعته وان جبرائيل كان يتمثل بهيئته عندما كان ينزل على النبي (ص) في اليقظة وكذا كان جعفر وعبد الله بن حذافة والآخرون.

دار الضيافة :

أخذت الوفود تقدم على النبي (ص) حيث أخذ الملوك يرسلون الرسل ويبعثون معهم الكتب وكانت مهام هذه الوفود تتطلب المكوث في المدينة لمدد قد تطول فكان لا بد من اعداد مكان لائق لضيافتهم فأختيرت دار رملة بنت الحارث النجاوية كدار للضيافة وتعيّن على ثبوبان ان يقدم الخدمات المطلوبة لهذه الوفود عندما تحل في دار الضيافة أما المرافق العام للوفود عندما ترد الى المدينة ، فهو خالد بن سعيد بن العاص وأختير لبلاغته وقدرته على الاقناع ، وقد لعب خالد بن سعيد دوراً فعالاً في اقناع بعض الوفود التي جاءت من أجل التفاوض مع رسول الله (ص) فعادت الى أوطانها مسلمة مؤمنة بالدين الجديد بفضل هذا التنسيق والتنظيم الذي كان قائماً . وقد كان خالد يتحمل المسؤولية الفكرية منذ اللحظة التي يطأ فيها الوفد قدمه أرض المدينة بينما كان بقية المسلمين كبلال بن رباح وثبوبان يتحملون جوانب اخرى من المسؤولية فكان الوفد يعود وهو راضٍ عن الاسلام مبهور بما شاهده من سلوك المسلمين واخلاقهم الحسنة .

٧ ـ الجهاز العسكري :

منذ ان فكر رسول الله (ص) بنقل الدعوة الاسلامية الى المدينة أخذ يفكر أيضاً بكيفية مواجهة الأخطار التي تحدق بالكيان الجديد ، فبدأ بايجاد الاستعدادات الكافية لمواجهة الاحتمالات . ففي بيعة العقبة الثانية وعندما طلب من المسلمين الجدد المبايعة على قتال المشركين انما بذر في تلك البيعة بذرة المقاومة وأعدّ من تلك المجموعات نواة تشكل القوة العسكرية . فقد شرع الرسول (ص) في ذلك اليوم ببناء القوة العسكرية وترك الاذن الى الوحي .

وأصبح المسلمون في شوق الى القتال عندما وجدوا في انفسهم الاستعداد الكافي للقيام بهذه المهمة لكن سكوت الوحي عن ذلك جعل الجميع بأنتظار لحظة الانطلاق وقد جاءت الآية تصرح :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها أسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ﴾ .

وكان لا بد لنا من وقفة مع هذه الآية باعتبارها أول آية نزلت لتدشن مرحلة جديدة من عمر الحركة الاسلامية .

فقد رخصّ الله المؤمنين بالقتال بعد أن أكتملت عدتهم وقويت شوكتهم ثم بين القرآن المبررات المنطقية لصدور هذا القرار . وهو ممارسة سياسة الأضطهاد ضد المسلمين ثم اخراجهم من ديارهم بغير حق إلا لانهم يقولون لا إله إلا الله وهي مبررات كافية لحمل السلاح والدفاع عن النفس وعن الحق الذي اغتصبه الكفار .

ثم يضع القرآن الكريم أمام المسلمين المنتظرين للأذن بالقتال يضع أمامهم قانوناً في الحياة . فالحياة من طبيعتها الصراع والسبب المباشر في هذا الصراع هو تحرك قوى الشر للقضاء على مراكز التوحيد والعبادة من صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله وهي أماكن ترمز للرسالات السماوية التي جابهت قوى الشر وخاضت صراعاً مريراً على طول التأريخ وكأن القرآن يريد ان يقول للمؤمنين بأن الصراع الذي ستخوضونه قد خاضه قبلكم أناس آخرين وانه ليس بشيء جديد فهو سنة الله في الخلق .

وفي كل مرة يهجم فيه الطاغوت يقف المؤمنون يصدون الهجمة الشرسة ومن هنا يبدأ الصراع الحقيقي بين الحق والباطل ومن هنا تحتد الساحة ليتقابل فيها جنود الحق مع جنود الشيطان ومن هنا أيضاً تأتي الفرصة الذهبية لأصحاب الحق ليحققوا الانتصار على الباطل ، فالنصر هو نهاية المعركة وسيكون من نصيب أصحاب الحق .

هذه الأفكار الرائعة التي طرحها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة التي تلقاها المسلمون كبداية مرحلة جديدة من المواجهة العلنية بعد الصراع السلبي .

فقد وضع القرآن في هذه الآيـة النقاط على الحروف وحقن المؤمنين بالأفكار التي جاء بها روحاً قتالية جديدة تضاف الى ما كانوا عليه من معنوية واصرار على القتال . وهكذا كان القرآن يواكب المسيرة الاسلامية لحظة بلحظة وخطوة بخطوة وكان يمدّ المؤمنين في كل خطوة بما يحتاجون اليه من أفكار ورؤى . وكانت تلك الافكار والرؤى التي تضمنتها الآية الكريمة ضرورية في ذلك المفصل الزمني الذي كان يشهد انتقال المسلمين من وضع قديم الى وضع جديد .

ومنذ تلك اللحظة والرسول (ص) مشغول ببناء القوة العسكرية من رفع الروح المعنوية للمسلمين وتدريبهم على استخدام السلاح وتهيئة الأسلحة

وتخصيص بعض المسلمين في الشؤون الحربية المختلفة فقد استعمل بعض أصحابه ممن يثق بهم ويثق بقدرتهم على الاستطلاع كعمار بن ياسر وابن مسعود وزيد كفريق للاستطلاع قبل قيام المعركة . وكان يخوض المعركة بنفسه لكنه كان يهيء لكل قادة عسكريين ميدانيين يقومون بأدوارهم بالتعاقب مثلما حدث في غزوة مؤتة عندما استشهد زيد بن حارثة تولى قيادة الجيش عبد الله بن ابي رواحة وعند استشهاده تولى جعفر بن ابي طالب وهو أيضاً استشهد في تلك المعركة . ونفهم من ذلك أن رسول الله قد أعدّ قادة ميدانيين كاحتياط في حالة استشهاد أو اخفاق أحد القادة مثلما حدث في فتح خيبر فقد أخفق أبو بكر في فتح حصن الصعَّب وهو آخر حصون اليهود في خيبر ثم تلاه عمر في قيادة الجيش فأخفق هو الآخر فقال النبي (ص) أما والله لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله[1] فأعطاها علي بن أبي طالب .

وكان رسول الله (ص) يختار القائد العسكري على أسس وقواعد عسكرية فهو يختار الرجل المناسب في المكان المناسب . ولا يعير أهمية للقيم غير العسكرية التي كانت قائمة في المجتمع . فاختار أسامة بن زيد وهو لا يتجاوز العقد الثاني قائداً لجيش فيه الكهول والشيوخ . فقد اختار عبد الله بن جحش قائداً لاحدى السرايا فخطب في أفراد السرية قائلاً لابعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم ولكنه أصبر للجوع والعطش . فبعث بعبد الله بن جحش وهو أول أمير في الاسلام[2] .

فكان لا بد لقائد الجيش ان يكون قدوة للآخرين في الصبر والتحمل وفي الميدان الصفة المطلوبة هي صفة التحمّل والصبر وليس شيئاً آخر . ويظل يُراقب القائد العسكري بعد تعيينه . قال الإمام الرضا (ع) كان رسول الله (ص)

---

(١) ابن الاثير: ج٢ ص٢١٩ .

(٢) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة: ص٤ .

إذا وجّه جيشاً فأمهم أميراً بعث من ثقاته من يتجسس له خبره .

وفي عهد الرسول (ص) لم يكن هناك جيش فيتخصص للقتال مفروز عن بقية المسلمين فقد كان الجهاد فرض على كل مسلم . فكل مؤمن جنديّ عليه ان يتهيأ للقتال في أية لحظة وكانت المساجد تؤدي دوراً هاماً في عملية التعبئة وحتى التدريب وبلغ عدد المساجد في عهد الرسول في المدينة تسعة مساجد[١] كانت بمثابة معسكرات للتدريب والتجمع والتوجيه المعنوي .

وكان رسول الله (ص) يعمل على كسب الموازنة العسكرية لصالحه دائماً من خلال الحفاظ على تفوق القوة الاسلامية ، تفوقهم في المعنوية وتفوقهم في التدريب . ففي الجانب المعنوي كان يحثهم على الجهاد وانه باب من أبواب الجنة وكان يمنحهم الأمل بالنصر فيدخلون ساحة المعركة وهم واثقون من النصر . وفي مجال التدريب كان يدفع أصحابه الى الفروسية وكان يحثهم على الرمي وهو الجانب الاساسي الذي تفوّق فيه المسلمون على خصومهم فبعض الأعداء لم يكونوا يحسنون الرمي كالروم[٢] فكان رسول الله (ص) يُركّز على هذا السلام للحفاظ على حالة التفوق العسكري فكان يتلو الآية على المنبر ﴿ **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ويقول ألا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي . وكان يحرص الرسول (ص) على كسب التفوق العسكري على الخصم ، فثقيف كانوا بارعين في الرمي وقد أمطروا المسلمين بالنبال فاضطر الرسول (ص) ان يرميهم بالمنجنيق فكان أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق[٣] . وكان الرسول (ص) يستخدم الاسلحة غير المستعملة لدى العدو من أجل الحفاظ على التفوق العسكري فكان يستخدم الصنبور وهي أشبه ما

---

(١) صبحي الصالح ، النظم الاسلامية : ص٦٢ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي : ج١ ص٤٧٩ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج٣ ص٣٠٣ .

تكون بالمدرعة تصنع من الخشب المغطى بالجلد يدخل في داخلها المقاتلون فيقاتلون الأعداء وهم فيها .

وكان للنساء دور هام في العمل العسكري هو التضميد فكان يخصص لهن أماكن للقيام بدورهن في تطبيب الجرحى من المجاهدين .

وفي كل معركة من المعارك كان رسول (ص) يضع خطة كاملة تستوعب كل الوظائف المطلوبة في المعركة ، أفراد يذهبون الى الاستطلاع وأفراد لجمع الغنائم وآخرون للاهتمام بالأسرى بالاضافة الى الخطة الحربية في تقسيم الجيش وتعيين القادة واستخدام التكتيك العسكري الخاص بتلك المعركة .

٨ ـ الجهاز الاعلامي :

الاعلام ركيزة هامة من ركائز كل دولة ، فالدولة القائمة على الحق وصاحبة رسالة في الحياة بحاجة الى الكلمة الطيبة لتكون سبيلها الى قلوب وعقول الناس .

وفي السابق لم يكن للاعلام قيمة طالما كانت القوة هي صاحبة السيادة وهي الوسيلة الوحيدة لفرض الأمر الواقع على الشعوب وعلى الدول .

والاسلام دين المنطق والعقل فكان سبيله الى قلوب الناس هو الكلمة وليس القوة من هنا فقد حظي الاعلام باهمية خاصة في التحرك الرسالي الذي قام به النبي (ص) في مكة ثم من بعد في المدينة .

فبواسطة الاعلام اوجد رأياً عاماً في مكة لصالحه وضد مصالح قادة الشرك وفي اجواء هذا المناخ الاعلامي كان الوعي يتكامل عند بعض الناس من اصحاب النفوس النظيفة فكانوا ياتون الى النبي (ص) يعلنون عن رغبتهم في اعتناق الاسلام .

وعبر الاعلام استطاع النبي (ص) ان يوجد رأياً عاماً مضاداً لقادة قريش سيما في فترة الحصار في شعب ابي طالب دافعاً بقسم من ابناء قريش لفك ترابطهم مع هذه الزعامة والوقوف الى جانب رسول الله أو على الاقل وقوفهم على الحياد .

وعبر الاعلام تمكن رسول الله (ص) ان يوصل صوته الى القبائل المتاخمة لمكة وكان ينتهز فرصة مواسم الحج حيث تتجمع القبائل في مكة لتبليغ رسالته الاسلامية .

في ذات الوقت كان الرسول (ص) في مكة يرد على الدعايات المضلة التي كان يطلقها زعماء قريش ضد شخصيته الكريمة وتصويره على غير حقيقته باطلاق الاراجيف كالجنون والسحر والكذب ، فكان ردّه على كل دعاية بالعمل فلم يكن صعباً على الناس ان يتأكدوا بانفسهم كذب تلك الدعايات المضلة .

وعند قدوم النبي (ص) الى المدينة وشروعه ببناء الدولة الاسلامية كان الاعلام احد اهم الجوانب التي اعارها رسول الله (ص) جل اهتمامه فما من فعل أو قول قاله أو فعله إلا ورعى فيه الجانب الاعلامي حتى النشاطات السياسية والمشاريع الاقتصادية التي اقامها الرسول (ص) كانت تتضمن جانباً اعلامياً بالاضافة الى الهدف الجوهري من ذلك العمل ، فكان أول عمل قام به الرسول (ص) بعد بناء المسجد هو تعيين الاذان كشعار للدولة الاسلامية واعلام للمسلمين بالاجتماع في المسجد لاداء فريضة الصلاة ، وكان اليهود يستعملون البوق والنصارى يستعملون الناقوس وقد اشار بعض المسلمين باستخدام احد هذين الوسيلتين لكن الرسول لم يقبل كلا الرأيين وانتظر رأي السماء فجاءه جبرائيل كما جاء في الكافي عن محمد بن عمر بن حماد بن عيسى عن منصور ابن أبي حازم عن ابي عبد الله الصادق (ع) انه قال : لما هبط جبرائيل بالاذان

على رسول الله (ص) كان راسه في حجر علي (ع) فأذن جبرائيل ثم اقام ، فلما انتبه رسول الله قال يا علي اسمعت قال نعم قال : ادع بلالا وعلمه الاذان فاصبح الاذان بكلماته شعاراً للدولة الاسلامية وقد ميّز الاسلام عن الرسالتين الاخرتين .

واتخذ رسول الله المنبر وسيلة للتبليغ والتوجيه فكان المسلمون يجتمعون في المسجد ليستمعوا الى اقوال الرسول ومواعظه وكان الحاضر منهم يبلغ الغائب ما تحدث به رسول الله (ص) .

ومن النشاطات الاعلامية في العهد الاسلامي الاول قيام حديثو الاسلام بتبليغ قومهم والطلب اليهم بالانتماء الى الجماعة السلامية وخصوصاً أولئك الذين امتازوا بالمنزلة والمكانة وكان من بين من اسلم عبد الله بن سلام وهو من احبار يهود بني قينقاع ، واراد عبد الله بن سلام ان يفاجىء قومه باسلامه ويوعظهم بترك اليهودية واتباع الاسلام فاتفق مع النبي (ص) ان يمكث في احدى بيوته حتى إذا ماقدم اليهود لزيارة النبي (ص) يسألهم عن عبد الله بن سلام فإذا قالوا فيه خيراً فإنه سيخرج اليهم ليتكلم معهم فيدعوهم الى الاسلام .

وقدم اليهود فسألهم النبي (ص) أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ (حصين هو عبد الله قبل اسلامه) قالوا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا .

فعندما اطمئن عبدالله انهم لم يعرفوا باسلامه وانه لا زال موضع ثقتهم خرج عليهم وهو يقول : يا معشر اليهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فاني اشهد انه رسول الله وأؤمن به واصدقه واعرفه .

اما الشعر فقد استخدم في ميدان الصراع كاحد أدوات المواجهة وكاحد

وسائل التعبئة فقد استثمر الرسول (ص) هذا الفن في كل موضع يتطلب موقفاً اعلامياً .

أولاً : الرد على المشركين كان يطلب من الشعراء ان ينظموا القصائد فيهم ففي احدى المرات كان رسول الله (ص) يجلس في المسجد إذ لاحت منه التفاتة الى الشاعر عبد الله بن رواحة فدعاه للجلوس فسأله رسول الله (ص) كيف تقول الشعر إذا اردت ان تقول : قال انظر ثم اقول:

قال عليك بالمشركين ولم يكن قد اعد لذلك فقال :

فخبروني اثمان العباء متى كنتم بطاريق او دانت لكم مضر

أي خبروني يا معشر قريش يا مَن لا تتمنون ولا تعرفون الا ثمن العباء متى كنتم سادة[1] .

ثانياً : واستخدم الشعر في اظهار قوة المسلمين وعزتهم ومنعتهم للتأثير في القبائل من اجل دفعهم الى الايمان فقد جاء وفد بني تميم الى رسول الله (ص) وقام شاعرهم الزبرقان بن بدر يفتخر بقومه وانهم كرام وملوك اقوياء وشجعان وقد تكلم شخص اخر عن مكانة بني تميم وافتخر بنسب وحسب عشيرته .

فاراد الرسول (ص) ان تكون المقابلة بالمثل فارسل على حسان بن ثابت وكان غائباً عن هذا الاجتماع فحضر جانباً منه فعندما ختم الزبرقان قصيدته قال الرسول لحسان فاجب الرجل فيما قال ، فقام حسان فالقى قصيدة مدح فيها المسلمين وافتخر بالدين الذي بعثه الله وبعد ان ختم القصيدة قام أحد بني تميم وهو الاقرع بن حابس فقال : وابي ان هذا الرجل لمؤتي له لخطيبه اخطب من

---

(١) د ـ جودة عبدالله مصطفى (محمد نظرة عصرية): ص١٣٣ .

خطيبنا ولشاعره اشعر من شاعرنا ولاصواتهم احلى من اصواتنا فاسلموا باجمعهم[1] .

وهنا يتجلى اهمية الشعر ودوره في كسب اناس جدد للانخراط في سلك الدين الجديد ، وقد استعمل الشعر في اظهار جوانب العظمة في شخصية القائد (ص) لاداء نفس الغرض فعلى رغم ما عرف رسول الله (ص) بكرهه للمدح وللمداحين فقد اثاب من مدحه ككعب بن زهير الذي جاء بقصيدة « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول . . متيَّم إثرها لم يفد مكبول »

يعتذر عما افترفه لسانه في الماضي في هجاء النبي (ص) .

وقد مدح رسول الله (ص) معظم الشعراء المسلمين، وكان مديحهم يتركّز على جوانب الرسالة والقوة والشجاعة في شخصية النبي (ص) فاصبح لهذا الشعر اثر كبير على مسامع الانسان العربي الذي سمع الكثير من الشعر فكان ينجذب الى الشعر الجيد ويتجنب الشعر الردي .

ثالثاً : استعمال الشعر في التعبئة وفي استثارة الهمم والحث على الاقدام والشجاعة في المعارك عند وقوع النزال بين المسلمين والمشركين .

وكان المسلمون يستعملون الشعر اثناء العمل على صورة انشاد جماعي من اجل التغلب على التعب والنصب فعن البرار بن عازب[2] قال كان رسول الله (ص) يوم الاحزاب ينقل معنا التراب وقد وارى التراب بياض بطنه ويقول :

لولا انت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزل سكينة علينا وثبّت الاقدام إن لاقينا

---

(١) ابن هشام : ج٢ ص٥٦٠ .
(٢) مجمع الزوائد : ج٨ ص١٢٣ .

ان الاولى لقد بغوا علينا   وإذا أرادوا فتنة ابينا

وكان رسول الله قد وظف ثلاثة من خيرة الشعراء لخوض النزال مع شعراء الجاهلية الذين كانوا يهجونه (ص) وينالون من المسلمين .

والثلاثة هم عبد الله بن رواحة ، حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، وكان رسول الله يقول لهم اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله ، والذي نفس محمد بيده كانك تنحرهم بالنبل فقد ساوى بين من يقاتل بالنبل ومن يقاتل بالشعر .

وعلى رواية اخرى كان يردد الرسول (ص) ان المؤمن من يجاهد بنفسه ولسانه[1] وكان يقول ايضاً جاهدوا المشركين بالسنتكم[2] .

ولا غرابة ان يشبه رسول الله ابيات الشعر بالسهام التي تنطلق لتصوب الى نحور المعتدين من قوة تاثيرها فقد كان للشعر قيمة لدى العرب واثر في نفوسهم .

وافردت كتب السير فصولاً وصفحات مطولة للتحدث حول هذا النوع من الصراع الاعلامي الذي خاضه فريق الشعراء من المسلمين مع الشعراء الجاهليين وكان هذا الفريق يمثل في الواقع جهازاً اعلامياً منظماً تنظيماً دقيقاً .

وكان رسول الله (ص) يعمل على تغيير اتجاهات الشعر عندما يستمع الى الشعراء لاعطاء الهدفية الى هذا الفن وابعاده عن مواطن اللهو والعبثية فقد قال لكعب بن مالك في قصيدة له يرد فيها على هبيرة يوم أُحد قائلاً :

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة   مذربة فيها القوانس تلمع

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٢٢٧ .
(٢) ابن الاثير، الكامل: ج٢ ص١٧٨ .

فقال رسول الله ايصلح ان تقول مجالدنا عن ديننا فقال كعب : نعم فقال رسول الله (ص) فـأيٌّ حسن فقـال كعب . .

مجـالـدنـا عن ديننا كـل فخمـة مـذربـه فيهـا الـقـوانس تلمـع

وبهذا الموقف اراد رسول الله (ص) ان يبين الهدفية من الشعر بان يكون في خدمة الدين فالجهاد من اجل الدين وليس من اجل الجذم وهو الأصل ، فقد ولى عهد العصبيات الجاهلية واصبح الدين هو كل شيء في حياة الانسان .

وقد عمل رسول الله (ص) على تغيير بيت الشعر باسلوب رائع وحكيم فهو لم يفرض على الشاعر هذا التغيير بل استشاره ايصلح ان تقول مجالدنا عن ديننا واختار الكلمة المناسبة ايضاً وهذا ما يؤكد على سعة اطلاع النبي (ص) في هذا الفن وكثرة اهتمامه به .

وفي سبيل بعث الحماس واستثارة الهمم كان الشعر يستخدم في المعارك فقد حفلت الكتب بالقصـائد البليغـة التي اطلقت في سـاعـات المواجهـة مع المشركين .

وفي سبيل ابراز القوة للعدو كان للشعر دور هام في ذلك ، ففي عُمرة القضاء بعد صلح الحديبية ارتحل الرسول (ص) والمسلمون الى مكة وساق معه سبعين بدنة وكان عائداً لتوه من خيبر وقد اصطف المشركون عند دار الندوة فلما دخلها الرسول (ص) اضطبع بردائه فاخرج عضده اليمنى ثم قـال : رحم الله امراءً اراهم اليوم من نفسه قوة .

فقد وجد المكان والزمان مناسبين لاظهـار القوة امـام الخصم فاخـراج العضد والاضطباع بالرداء هو رمز للقوة والاستعداد للمواجهة وهي حركة يتجلى فيها الاعلام بابهى صوره ثم استلم الرسول(ص) الركن وخرج يهرول ويهرول اصحابه معه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته

وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله　　خلوا فكل الخير في رسوله
يارب اني مؤمن بقيله　　اعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تاويله　　كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله[1]

ويلاحظ كيف جمع الرسول (ص) بين تلك الحركة التي صُنعها امام الخصم وبين اعطاء زمام الناقة بيد احد الشعراء لينشد الاشعار الحماسية أمام الملأ فقد كان الموقف يتطلب عملاً اعلامياً مركزاً وهذا الذي فعله الرسول (ص) والاعداء يرونه من على رؤوس الجبال وحول دار الندوة .

بعث الأمل في النفوس

وكان على رأس اهداف السياسة الاعلامية التي انتهجها الرسول (ص) هو بعث الأمل في النفوس فقد كان المسلمون قلة مستضعفة ولم يكن ليقوّي هذه القلة سوى الامل الذي شدها الى الحياة والى المثابرة فلولا الامل والرجاء لما كان المسلمون بقادرين على الصمود بوجه طغيان قريش .

فعندما يواجه المسلمون اشد انواع التعذيب ويأتي خباب بن الارت الى رسول الله (ص) يشكو اليه ما اصابهم فيخفف عنه رسول الله (ص) وينقله الى عالم الصمود ويجعله يتصور المجاهدين السابقين وما كان يجري عليهم فيقول له :

قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل فيحفر لـه في الارض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل في راسه ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يغير منه ذلك عن دينه وليتمنى الله هذا الامر حتى يسير الراكب

(١) انظر الملجد الاول: ص٢١٥ من سيرة ابن هشام.

من صنعاء الى حضرموت لا يخشىٰ إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون .

وعندما سمع خباب هذا الحديث تفجر الصمود في اوصاله من جديد وقرر المضي حتى لو اصابه اكثر من ذلك .

فقد كان رسول الله يبث ويبعث الأمل في نفوس اصحابه عندما يصيبها التعب ففي غزوة الخندق والاحزاب يحيطون به من كل جهة وهو وحيد بين قلة من اصحابه اضطر المسلمون لحفر الخندق في تلك اللحظات العصيبة التي كانت صعبة على كل انسان يجد نفسه بين الحياة والموت بين ان يبقى الدين أو لا يبقى ، في تلك اللحظة التفت رسول الله (ص) الى اصحابه الذين كانت اياديهم مشغولة بالحفر وقلوبهم مشغولة بما سيحل عليهم ، اخذ المعول وضرب صخرة قاسية فصدعها فبرقت منها برقة كبّر لها رسول الله وكبرّ معه اصحابه ثم ضربها ثانية وثالثة فبرقت ومع كل بريق كانت اصوات التكبير تملأ الفضاء الواسع ثم التفت اليهم ثانية وقال لهم اضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الاولى واخبرني جبرائيل ان امتي ظاهرة عليها .

واضاء لي في الثانية القصور الحمر من ارض الشام والروم واخبرني ان امتي ظاهرة عليها واضاء لي في الثالثة قصور صنعاء واخبرني ان امتي ظاهرة عليها فابشروا فاستبشر المسلمون[1] .

مواجهة الحرب النفسية

كان الاسلام يواجه اساليب عديدة في المواجهة إذ كان يواجه اعداءاً كثيرين مختلفين في الفكر والثقافة والاساليب ففي فترات الهدنة والهدوء

---

(١) ابن الاثير، الكامل: ج٢ ص١١٧ .

السياسي كان السلاح الذي يشهره الاعداء ضد المسلمين هو سلاح الحرب النفسية بمختلف أنواعه لبعث الخوف ونزع الثقة من النفوس .

فمع اول خطوة خطاها الرسول (ص) في تأسيس الدولة الاسلامية شرع اليهود الذين كانوا قد تعاقدوا مع المسلمين ضمن بنود الصحيفة ببث الحرب النفسية فلم يكن امامهم يومذاك سوى استخدام هذا السلاح وهم قد برعوا بسبب ثقافتهم في فن الدعاية وبث الشائعات فاول عمل دعائي قاموا به هو تعييرهم لرسول الله (ص) وقولهم له : انت تابع لنا تصلي الى قبلتنا ، فاغتمّ رسول الله لذلك غماً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر الى افاق السماء وينتظر من الله تعالى امراً في ذلك ، وكان رسول الله (ص) قد اتخذ بيت المقدس قبلة له وظل على هذا الحال سبعة اشهر وهو يستمع الى دعايات اليهود حتى نزلت عليه الآية (١٤٣) من سورة البقرة ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾وبذلك أُغلق امام اليهود فرصة استثمار هذه النقطة في تضعيف معنويات المسلمين .

وكان هدف اليهود في بداية الامر هو اخضاع رسول الله (ص) وعندما حبطت خططهم في ذلك اخذوا يبثون الدعايات على شخص الرسول (ص) لاسقاط هيبته أمام المسلمين فمن دعاياتهم ان لبيد بن عاصم قد سحر النبي (ص) ومنعه من الاتصال بنسائه ، والادعاء انه ظل لمدة يتخيّل اليه انه قد فعل الشيء ولم يفعله وكان من قوة تاثير هذه الدعاية انها وجدت طريقها حتى الى كتب الصحاح والى كتب السيرة[١] ويمكننا ملاحظة اهداف هذه الدعاية المضللة وهي :-

(١) معروف الحسني ، سيرة المصطفى : ص٣٣٨ .

١ ـ إظهار قوة السحر وانه اقوى من الرسالة .

٢ ـ إظهار قوة احد اليهود الذي خضع له الرسول (ص) مضطراً .

٣ ـ ضعف الرسول (ص) في مواجهة السحر فلو كان الرسول نبياً وقادراً لما كان يخضع مرغماً للاساليب السحرية .

٤ ـ السخرية من الرسول (ص) في اختيار محور شخصي هو الاتصال بالنساء .

٥ ـ التشكيك بالقرآن وبوجود الخالق الذي يحمي رسوله من مكاره الدهر .

وعندما عجز اليهود من النيل من رسول الله (ص) ذهبت جهودهم لتحقيق الفُرقة بين الاوس والخزرج فلم يتركوا حادثة إلا واستثمروها في اهدافهم الشريرة ومنها هذه الحادثة .

مر احد شيوخ اليهود وهو شاس بن قيس على نفر من اصحاب الرسول (ص) فيهم الاوس والخزرج فغاظه ما وجد من الالفة والمحبة بين افراد تلك القبيلتين المتخاصمتين فاخذ يبث احقاده فارسل فتى كان معه من اليهود وطلب منه ان يجلس معهم فيذكر لهم يوم بعاث وما كان من القتل واخذ ينشد الاشعار التي قيلت في المعركة فذكر القوم بما كان بينهم من عداوات فاستطاع بذكاء وحنكة ان يستثير الفريقين فتغيرت الوجوه وبدأ النزاع واخذ كل طرف يفتخر بقبيلته وتواثب منهم رجلان وارادا ان يتقاتلا وكادت الحرب ان تقع بينهم ولولا اسراع الرسول (ص)بعد وصول الخبر اليه ، فوقف بينهم ليقول يا معشر الانصار الله الله افبدعوى جاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله للاسلام واكرمكم به وقطع عنكم امر الجاهلية واستنقذكم من الكفر والفّ بين قلوبكم ، فندموا على ما فعلوا واحسوا بالدسيسة التي ارادها اليهود .

وظل ايقاع الفرقة بين المسلمين هدف اساسي من اهداف اعداء الاسلام معتقدين بان الماضي القبلي هو من اهم الثغرات التي يمكن استثارتها لتحطيم الوحدة الدينية بين القبائل التي وحدّها الاسلام .

فقد حاول عبد الله بن أُبي زعيم فئة المنافقين ان يجرب حظه اثناء عودة النبي (ص) من غزوة بني المصطلق فاستغل حادثة شجار بين احد الانصار واحد المهاجرين حول بئر ماء وكاد ان يقع الشر بينهما فسارع ابن أُبي ليقذف سمومه لقد كاثرونا في بلادنا ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . ولولا حكمة القيادة ووعي المسلمين لنفذ السهم في الهدف .

وكان لجماعة المنافقين دور خطير في بث الدعايات والترويج لها ولانهم كانوا يعيشون الى جانب المسلمين فقد كانوا يستغلون كل حادثة في خدمة مصالحهم ، فيبثون سمومهم في المواقع الحساسة وفي الظروف الحرجة .

فهذا معتب بن قشير كان مع المسلمين في معركة أُحد فعندما شاهد كثرة القتل بين المسلمين سارع لاستغلال الموقف فاصبح يشيع بين المقاتلين (لو كان لنا في الاوس ما قتلنا هاهنا فانزل الله تعالى في ذلك **﴿ وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾** .

ويوم الاحزاب اصبح يشيع بين المسلمين هذه العبارة : كان محمد يعدنا ان ناكل كل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن ان يذهب الى الغائط فانزل الله تعالى :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ .

عندما ضلت ناقة رسول الله (ص) اخذ المسلمون يبحثون عنها ووجد

اعداء الاسلام في هذه الحادثة وسيلة للدعاية فاستغلوها فاخذ زيد بن الصلت يبث الدعايات ويقول : يزعم محمد انه ياتيه خبر السماء وهو لا يدري اين ناقته فسارع رسول الله (ص) لسد هذه الثغرة فقال لاصحابه : ان قائلاً يقول : يزعم محمد انه ياتيه خبر السماء ولا يدري اين ناقته : واني والله لا اعلمُ إلا ما علّمني ربي وقد دلني عليها الان فهي في هذا الشِعبْ قد حبستها شجرة بزمامها .

وحديث الافك هو نموذج اخرِ من اساليب الدعاية التي استهدفت شخص النبي (ص) عندما تعرضت احدى زوجاته الى الدس الرخيص وكان رد فعل النبي (ص) في ذلك رداً حكيماً فقد التزم الصمت حيال هذه الدعاية الى أن نزلت الآيات القرآنية لتفصح عن الحقيقة ولترد كيد المنافقين الى نحورهم وكان القرآن الكريم يساير الانبعاثة الاسلامية ويعمل على معالجة كل موقف صعب كان يواجهه المسلمون .

فمع كل شائعة كان القرآن الكريم يقف ليؤازر الفئة المؤمنة وليكشف عن الحقيقة ناصعة لا يستطيع احد انكارها .

الاعلان الحربي

وفي المعارك كان رسول الله (ص) يشمر عن سواعد الجد مستخدماً كل الاسلحة المتاحة في تحطيم معنويات العدو ، وكان في نفس الوقت يواجه محاولات العدو للنيل من معنويات المسلمين وإذا تناولنا معركة من معارك المسلمين كنموذج حي لوجدنا حشداً من المواقف الاعلامية التي تزدحم في هذه المعركة .

فلنأخذ معركة بدر الكبرى وما فيها من ابعاد اعلامية :

١ ـ رؤية عاتكة بنت عبد المطلب كان لها اثر في تضعيف معنويات المشركين ، كانت عاتكة قد رأت في المنام راكباً على بعير له وقف بالابطح ثم

صرخ باعلى صوته ان انفروا يا ال غُدر لمصارعكم في ثلاث فرأت الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد فمثل بعيره على الكعبة ثم صرخ مثلها ثم مثل بعيره على رأس ابي قبيس فصرخ مثلها ثم اخذ صخرة عظيمة وارسلها فلما كانت باسفل الوادي ارفضت فما بقي بيت من مكة إلا دخله فلقة منها[1] وكانت هذه الرؤيا قد رافقت وصول انباء عن المناوشات والتحركات العسكرية التي قام بها النبي (ص) ولعب العباس بن عبد المطلب دوراً هاماً في نشر هذه الرؤيا بين المشركين وقد غضب ابو جهل من انتشار خبرها لانها ادخلت الخوف في كل بيت .

فعندما قابل العباس قال له : ما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، ولم يمر وقت طويل حتى فزعت قريش لصوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة اموالكم مع ابي سفيان قد عرض له محمد واصحابه لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث .

٢ ـ مقالة الاخنس بن شريق وكان مع المشركين في بدر وهي ، يا بني زهرة قد نجى الله عيركم وخلص اموالكم ونجى صاحبكم مخرمة بن نوفل وان خرجتم تبغونه وماله ، ومحمد رجل منكم وابن اختكم فان يك نبياً فانتم اسعد به وان يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من ان تلوا انتم قتل ابن اختكم فارجعوا واجعلوا خبثها لي ، فلا حاجة لكم ان تخرجوا في غير ما يهمكم ، ودعوا ما يقوله ابو جهل فانه مهلك قومه سريع في فساده ، فاطاعته بنو زهرة وتحايلوا بهذه الحيلة لترك الجيش عندما حل المساء اسقط الاخنس نفسه من البعير فتجمعت حوله عشيرته ورفضوا السير مع قريش قائلين لا نفارق صاحبنا حتى نعلم احي هو ام ميت[2]فتحرك ركب قريش وما ان وصلوا الابواء حتى سمعوا عن بني زهرة

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج٢ ص٧١.

(٢) فتح الباري: ج١ ص٤٥١.

انهم عادوا الى مكة وكان عددهم زهاء الثلثمائة نفر .

واختلفت الاقوال في الاخنس هل كان مسلماً ، قد كتم ايمانه حين فعل ذلك الفعل الذكي ام لم يكن مسلماً . .

المهم انه حتى لو لم يكن مسلماً كان متعاطفاً مع المسلمين فهو الذي كان يستمع الى رسول الله (ص) اثناء تلاوته للقرآن وكان هو وابو سفيان وابو جهل يجتمعون حول بيت النبي (ص) اثناء تلاوته للقرآن وكان الثلاثة يلتقون عند العودة فيلوم الواحد منهم الاخر ، وفي احدى المرات قال الاخنس لابي سفيان

ما تقول فأجابه اعرف وانكر .

ثم سأله ابو سفيان وما تقول انت

فأجابه اراه الحق .

٣ ـ أما رسول الله (ص) فقد جمع اصحابه واراد ان يستشيرهم في امر القتال بعد ان لاحت رايات قريش فقام خطيباً فيهم قائلاً :

هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها فتحدث الصحابة بين موافق ورافض للحرب فتحدث عمر بن الخطاب يا رسول الله انها قريش وغدرها والله ما ذلت منذ عزت ولا امنت منذ كفرت والله لا تسلم عزها ابداً ولتقاتلنك فاتهب لذلك أهبته واعد لذلك عدته فشعر المقداد ان هذه المقالة ستؤثر في معنويات المقاتلين فسارع في التحدث بما يليق وبما لا يدع مجال لاي اثر سلبي في النفوس مما سمعوه فقال يا رسول الله امضي لامر الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيها : اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون والذي بعثك بالحق لو سرت بنا

الى برك العماد لسرنا معك فقال له رسول الله خيراً ودعا له .

وفي معركة أحد نلاحظ ما يلي :ـ

١ ـ الاخبار التي كانت تصل النبي (ص) من العباس بعد ان عاد الى مكة من اسر المسلمين فقد كتم اسلامه فصار يكتب الى النبي بالاخبار وهو في جيش العدو فكتب الى النبي (ص) كتاباً وصف له به صنيعهم واجتماع كلمتهم وعدتهم وعددهم ودفعه سراً الى رجل غفاري ليوصله الى النبي واوصاه بالكتمان وان يجد السير ليلاً ونهاراً .

وعندما وصلت الرسالة الى النبي (ص) دفعها الى أُبي بن كعب فقرأها عليه فامره النبي ان يكتم الخبر ولا يحدث احداً بما فيه .

٢ ـ عند ما تردد المسلمون في امر القتال فهناك من كان رأيه الخروج والالتقاء بالعدو خارج المدينة وهناك من كان رأيه البقاء في المدينة وقد ادلى المنافقون ايضاً بدلوهم وكادت روح القتال تخفت في المجاهدين لولا مبادرة الرسول (ص) وحسمه للمشكلة بلحظة بان ارتدى لامة حربه ولبس درعه وتقلد سيفه وتنكب القوس ووضع الترس في ظهره بهذه الصورة اوجز رسول الله رأيه فدفع بالصحابة الى الاسراع بالتهؤ للعدو ولم يكن موقف اخر بقادر على حسم المشكلة غير تلك المبادرة العملية الرائعة .

٣ ـ كان للنساء دور هام في حشد المقاتلين فقد قرب احد المنافقين وهو قزمان ان يتخلف عن المعركة فلما أصبح عيرته نساء بني ظفر وقلن له يا قزمان لقد خرج الرجال وبقيت الا تستحي بما صنعت ما انت إلا امرأة وما زلن يؤنبنه حتى دخل بيته ولبس لامته .

٤ ـ اشاع المشركون بان محمد (ص) قد قتل وكانت الشائعة من القوة بحيث دفعت المقاتلين الى الهروب من ساحة المعركة إلا نفر قليل فالتجأ

الهاربون الى صخرة أختبأوا فيها واصبحوا يتحدثون بينهم لقد قتل محمد(ص) فسمعهم اسد بن النضر فقال لهم يا قوم ان كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد (ص) .

٥ ـ وعند انتهاء المعركة اراد ابو سفيان ان يتظاهر بانه انتصر في الحرب فرفع صوته أعلَى هبل .

فلم يدع له رسول الله فرصة استثمار الموقف فرفع بصوته الله اعلى واجل .

فقال ابو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله الله مولانا ولا مولى لكم قال ابو سفيان هذا يوم بيوم بدر والحرب سجال .

٦ ـ اراد المسلمون ابعاد المشركين عن المدينة ومنعهم من مواصلة الهجوم عليها فارسلوا معبداً وكان مسالماً للنبي (ص) لكنه مشرك فجاءه معبد الى ابي سفيان فقال له ان محمداً خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم ار مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فرجعوا الى مكة بعد ان كانوا عازمين الزحف نحو المدينة .

واما فتح مكة فنلاحظ الابعاد الاعلامية التالية :

١ ـ احاط(ص) استعداداته لفتح مكة بهالة من الكتمان فطلب من عائشة ان تتجهز ولم يخبرها بالهدف ومنع احداً ان يخرج من المدينة مخافة تسرب خبر الاستعداد حتى ظن الجميع بانه لا يريد قريش بل بعض الاعراب القاطنين حول مكة .

٢ ـ اخذ العباس في عهدته مرافقة ابي سفيان عندما ارسلته قريش وذلك للتأثير فيه وغسل دماغه فقال له وهو يريه جيش الاسلام ويحك هذا رسول الله في عشرة الاف مقاتل وهو مصبحكم فقال ابو سفيان بابي وامي هل من حيلة

فاجابه نعم تركب معي عجز هذه البغلة لكي اذهب بك الى رسول الله فاخذه الى النبي (ص) فـانبه وطلب منـه ان يشهر اسـلامه فـاسلم على كره منـه فالتفت النبي (ص) الى العباس وقال انصرف به واحبسه عند حطيم حتى تمر به جنود الله فيراها فمرت الكتائب وهي تهتف بالله اكبر استعداداً لفتح مكة فانبهر ابو سفيان فقال للعباس لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً يا ابا الفضل فقال لـه العباس ويحك انه ليس بملك انما هي النبوة .

وعلى عجل تم ارسال ابي سفيان الى قومه ليثبطهم عن القتال وليقول لهم اني رأيت من الرجال والكراع والسلاح ما ليس لاحد به طاقة ان محمداً في عشـرة الاف مقاتـل اسلموا تسلمـوا وهكذا استـطاع الرسـول (ص) باسـاليبه الاعلامية ان يدفع اهل مكة للتسليم وان يفتح أبوابها دون قتال وهذا ما كان قد خطط له .

٣ ـ وكان رسول الله(ص) يستخدم العباس في اطلاق النداءات لانه كان يمتاز بصوت غليظ يقوم مقام مكبرات الصوت .

٤ ـ وامر رسول الله (ص) بلالا بان يعتلي فوق الكعبة للاذان فشرع في الاذان وعندما بلغ الى قوله اشهد ان محمداً رسول الله رفع صوته بها كأشد ما يمكن فقال جماعة من قريش ليتنا متنا قبل هذا اليوم ولم نسمع بلالا ينهق فوق الكعبة وهناك مواقف اعلامية كثيرة تخللت غزوات الرسول (ص) الاخرى وهي تشير الى وجود منهج اعلامي متكامل سار عليه المسلمون في تحركهم نحو تبليغ الرسالة الاسلامية سواء تحركهم السلمي أو العسكري .

٩ ـ الجهاز التعليمي :

كان رسول الله (ص) يحث الخطى نحو بناء حضارة مشرقة تشع بانوارها ارجاء الكون كله وليس جزيرة العرب فقط .

وما من حضارة إلّا وتبنى على العلم .

فبدون العلم يغدو التفكير في المستقبل الحضاري ضرباً من المحال .

فالمال لا يأتي بالحضارة ان لم يرافقه العلم . لان بالمال يمكن إقامة مدينة واسعة وليس حضارة .

وجزيرة العرب كانت ظامئة الى الحضارة وكان ظمأ جزيرة العرب الى الحضارة يشبه ظمأها الى الماء فالحضارات كانت تحيط بها من كل جانب حضارة الفرس والروم واليمن مثلما يحيط بها الماء من جوانبها الثلاثة .

وكان المجتمع يومذاك يترقب ظهور الحضارة في جزيرة العرب فجاء الاسلام لينقل هذا الترقب الى واقع .

والاسلام لم يشأ بناء دولة يسعد فيها المسلمون فقط بل كان يريد ان يبني حضارة للانسان ولا حضارة بدون العلم وبدون التعليم .

من هنا اتجه رسول الله (ص) الى ايجاد حركة تعليمية ثقافية واسعة في المدينة بعد وضع اللبنات الاولى للدولة الاسلامية .

فدفع بصحابته الى التعلم وطلب من زيد بن حارثة ان يتعلم العبرية فتعلمها زهاء خمسة عشر يوماً وطلب من اصحابه ان يقوموا بتعليم ذويهم مبادىء الكتابة والعلوم فقال : ثلاثة لهم اجران رجل من اهل الكتاب آمن بنبيه وامن بمحمد ، والعبد المملوك إذا ادى حق الله تعالى وحق مولاه ورجل كانت عنده أمة فأدبّها فاحسن تاديبها وعلمها فاحسن تعليمها ثم اعتقلها فتزوجها فله اجران ولم يقصر طلب العلم على الرجال فقط بل طلب على غير عادة العرب من النساء ايضاً ان يطلبن العلم فقال :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . فجعل طلب العلم بمنزلة

العبادة وجعل من حق الولد على الاب تعليمه وتأديبه .

ولعل ابرز حادثة تؤكد حرص النبي (ص) على العلم واصراره على الصحابة بالتعلم هو فرضه على كل اسير من اسرى بدر لا يستطيع ان يفدي نفسه ان يعلم عشرة من ابناء المسلمين القراءة والكتابة تلك الحادثة التي استدل بها حتى المناوئين بأحترام الاسلام للعلم والعلماء وكان الرسول (ص) المعلم الاول في حياة الإمام علي بن ابي طالب (ع) فقد علمه صنوف العلم حتى قال علي (ع) عن ذلك علمني رسول الله (ص) الف باب من العلم .

ونبغ الإمام علي [ع] (في كل علم اخذه عن معلمه حتى قال فيه رسول الله انا مدينة العلم وعلي بابها) فما من مشكلة في القضاء أو الشريعة أو السياسة إلا كان الحل مع علي (ع) حتى اصبح الصحابة يقولون : قضية ولا ابا حسن لها ونبغ بالاضافة الى علي(ع) العديد من الصحابة الذين اخذوا يتخصصون في العلوم فتخصص معاذ بن جبل في الحلال والحرام وزيد بن ثابت في تقسيم المواريث والانصبة في الغنائم وأُبي بن كعب في قراءة القرآن وقد منحت هذه الحركة التعليمية الواسعة ثمارها فيما بعد حيث اوجدت القاعدة القوية لنهضة علمية ازدهرت لعدة قرون حتى اصبح العالم الاسلامي قبلة للعلماء والمفكرين والفلاسفة من كل انحاء العالم وكان للاسلام الفضل الاكبر في الازدهار العلمي في أوروبا يوم كانت تغط في ظلام الجهل والتخلف .

١٠ ـ الجهاز الامني والحسبة :

اصبحت الدولة الاسلامية امراً واقعياً وبات من الصعب على الاعداء الضعاف مواجهة الدولة بصورة مباشرة فالتجأوا الى الاساليب الخفية لمحاربة الدولة الاسلامية وازداد خطر هؤلاء لانهم كانوا يتظاهرون بالاسلام لكنهم يبطنون العداء والحقد على الدولة الاسلامية فكان لا بد من كشف العناصر

المتلونة التي تحيك المؤامرات في الخفاء وكان لا بد من وجود جهة تتولى هذه الوظيفة فتقوم بمسؤولية تشخيص العناصر الهدامة والمخربة قبل ان تباشر تخريبها وتوجه ضربتها .

ولم يكن صعباً على رسول الله (ص) أن يختار العنصر الجيد القادر على تحمل هذه المسؤولية فقد كان بين اصحابه من يتسم بالخفة والذكاء وسرعة البديهية وقوة الملاحظة وقوة الذاكرة وهي سمات اساسية لرجل الامن فكان حذيفة بن اليمان من بين اولئك الرجال الذين اختارهم رسول الله (ص) لهذه المهمة الصعبة واختار معاوناً له هو عمار بن ياسر فآخى بينهما واصبحا معاً في مواقع العمل يؤديان مهمتهما في فحص العناصر المخربة وتشخيصها ثم تحذير المسلمين منها .

وقد عمل رسول الله (ص) على تنمية الحاسة الامنية عند حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وزيد بن حارثة عبر المهام الخاصة التي اوكلها لهم .

فارسل عمار بن ياسر في مهام الاستطلاع عن قوى المشركين في بدر وكذلك فعل بزيد بن حارثة .

كما وارسل حذيفة بن اليمان في مهمة سرية الى جبهة المشركين وهم مجتمعون حول الخندق يريدون استئصال الدين ، وقد دلت حادثة تسلل ابن اليمان الى صفوف المشركين وايهامه العدو انه واحد منهم وسرعة مبادرته حين طلب من كل فرد ان يسأل من هو الى جانبه عن اسمه فسارع حذيفة ليطرح السؤال على من يجلس الى جانبه حتى لا ينكشف امره وهو يدل على حالة الهدوء والطمأنينة التي اتسم بها ابن اليمان في تلك اللحظات الحرجة والتي دلّت على قدرة فائقة في المناورة وتغيير الشخصية وهي سمات ملازمة لرجل الامن الجيد .

ومع تزايد مؤامرات المنافقين اتسعت المسؤولية على عاتق حذيفة بن اليمان فقد كان كثير اللقاء بالرسول (ص) وهو امر طبيعي حيث تحظى القضايا الامنية باهمية لدى القادة فتكون لقاءاتهم مع مشاورهم الامني لقاءات مكثفة .

يقول حذيفة عن لقاءاته بالنبي (ص) لقد حدثني رسول الله (ص) ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة فكان(صاحب السر) كما قال ابو الدرداء لعلقمة اليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره وقد جرت بعد غزوة تبوك محاولة دنيئة لاغتيال النبي (ص) فقد تجمع اثنا عشر او اربعة عشر من المنافقين خلف صخرة في ليلة ظلماء وكانت الخطة ان ينفروا ناقة النبي (ص) حتى ترمي به ولاحت لرسول الله خيوط المؤامرة فاستعان بجهاز الامن فاخذ حذيفة بزمام الناقة واخذ عمار يسوقها حتى وصلوا الى الصخرة فشاهدوا المتآمرين عن قرب .

وكان حذيفة اعرف الناس بالمنافقين وكان عمر إذا اراد ان يصلي على احد من المسلمين كان يستشير حذيفة ليعرف هل هو في خانة المنافقين ام لا وكان يحتفظ بقائمة باسماء العناصر المناوئة والمخربة .

وكان تشخيص حذيفة للمنافق تشخيصاً دقيقاً ، فسئل من هو المنافق فقال الذي يصف الاسلام ولا يعمل به .

وكان يقول؛ القلوب اربعة قلب اغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح فذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب فيه نفاق واعيان فمثل الايمان كمثل شجرة يحدها ماء طيب ومثل المنافق مثل القرحة يحدها قيح ودم فايهما غلب عليه غلب .

وهي كلمات لا يقولها إلا العارف بنوايا الناس وما يخفون في قلوبهم من اسرار فالدور الذي كان يقوم به حذيفة بن اليمان وبمساعدة عمار بن ياسر كان

دوراً هاماً يرتبط بامن الدولة الاسلامية القائد فهو كان يقوم بدور رجل الامن بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى . .

لكن اي رجل امن كان ؟ وهل الجهاز الامني الـذي انشأه النبي (ص) شبيه بالاجهزة الامنية المعروفة اليوم ؟

للآجابة نذكر بعض صفات حذيفة بن اليمان . .

* روى احمد في مسنده عن عبد الرحمن بن ابي العلى قال : خرجت مع حذيفة الى بعض هذا السواد فاستسقى فاتاه دهقان باناء من فضة فرماه به في وجهه ، فلما كان بعد ذلك قال اتدرون لم رميت به في وجههم قلنا لا قال اني كنت قد نهيته قال النبي (ص) لا تشربوا في الذهب ولا في الفضة ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج فانهما لهم في الدنيا ولكم في الاخرة .

وكان حذيفة(رض) يقول : كان اصحاب النبي(ص) يسألونه عن الخير وكنت اسأله عن الشر فقيل له لم فعلت ذلك ؟

قال : من اتقى الشر وقع في الخير .

* أخرج ابن عساكر في تأريخ دمشق عن بريدة : ان النبي (ص) استعمل حذيفة بن اليمان على بعض الصدقة ، فلما قدم قال يا حذيفة : هل بقي من الصدقة شيء ؟ فقال لا يا رسول الله أنفقنا بقدر إلا ان ابنة لي أخذت جدياً من الصدقة . فقال كيف بك يا حذيفة إذا أُلقيت في النار وقيل لك ائتنا به ؟ فبكى حذيفة ثم بعث اليها فجيء به فألقُي في الصدقة .

* اشترك في جميع المعارك إلا بدر لان المشركين كانوا قد أخذوا عليه عهداً ان لا يقاتلهم فأمره النبي (ص) بالوفاء لهم .

* في الاستيعاب وأسد الغابة سئل حذيفة أي الفتن أشد ؟ قال ان يعرض

عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تركب .

* قال حذيفة : جئت النبي (ص) فقلت : يا رسول الله ان لي لساناً ذرباً على أهلي ، وأخشى ان يدخلني النار .

فقال لي النبي (ص) : فأين أنت من الاستغفار ؟؟ اني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة .

* خاطب الناس مرة :

إياكم ومواقف الفتن . قالوا وما مواقف الفتن يا ابا عبد الله ؟ قال :

أبواب الأمراء . . يدخل أحدكم على الأمير أو الوالي فيصدقه بالكذب ويمتدحه بما ليس فيه .

هذه هي شخصية رجل الأمن في الدولة الاسلامية .

● ايمانٌ واستغفار . كان يستغفر الله في اليوم مائة مرة .

● صدقٌ وأمانة جعلته يحرم ابنته من الجدي .

● رفض زخارف الحياة مع ما كان له من منصب ودرجة سامية .

●مجاهدفي طليعة العاملين والطالبين للشهادة . . هذه هي سمات تلك الشخصية التي رباها رسول الله (ص) ليعهد اليها بتلك المسؤولية الخطيرة . فدماء الناس وأسرارهم بحاجة الى أشخاص يمتلكون الورع والصدق والأمانة . وإلا فإنّ النتيجة ستكون التلاعب بمصير الناس وبدمائهم وأسرارهم . لقد عاش حذيفة مرتاح الضمير وعندما جاءه الموت استقبله قائلاً : مرحباً بالموت . . حبيب جاء على شوق لا أفلح من ندم .

أما جهاز المراقبة وهي وظيفة يتولاها الشرطة في يومنا هذا وكان يسمى

من يتصدى لهذه الوظيفة بالمحتسب .

فكان رسول الله (ص) على رأس هذا الجهاز . فيدور في الأسواق فإذا وجد بضاعة قد احتكرت طالَبَ أصحابها باخراجها الى السوق . ففي خبر سعد الاسكافي عن أبي جعفر (ع) قال :

مرّ النبي (ص) في سوق المدينة بطعام فقال لصاحبه ما أرى طعامك إلا طيباً وسأله عن سعره ، فأوحى الله عز وجل اليه ان يدس يده في الطعام ففعل فأخرج طعاماً رديئاً فقال لصاحبه : ما أراك إلاّ وقد جمعت خيانة وغشاً للمسلمين[1] .

وعن أبي هريرة ان رسول الله (ص) مر على صبرة طعام فأدخل يدِه فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال : يا صاحب الطعام ما هذا ؟

قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس . ثم قال : من غشّ فليس منا[2] .

ولم يكتف رسول الله (ص) بمراقبته المستمرة للسوق بنفسه فقد أوكل هذه المهمة أيضاً الى أشخاص آخرين فكان سعيد بن سعيد بن العاص يقوم بهذه المهمة في سوق الباعة من صنف الرجال أما من صنف النساء فقد أوكلت هذه المهمة الى سمراء بنت نهيل الأسدية فكانت تمر في الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنهى النساء عن ذلك بسوط معها .

وقد تطورت وظيفة الحسبة حتى أصبحت من الأجهزة الواسعة في الدولة الاسلامية في العهود التي أعقبت عهد صدر الاسلام . ويعود الفضل في تطور

---

(١) الوسائل: ج١٢ ص٢٠٩ الباب ٨٦.

(٢) سنن الترمذي: ج٢ ص٣٨٩ ـ الباب ٧٢.

هـذا الجهاز الى تلك النـواة الصغيرة التي تـركبت من رسـول الله واثنين من الصحابة والتي وضعت أسس هذه الوظيفة المقدسة .

١١ ـ جهاز المهمات الخاصة :

الولاءات في الجاهلية بالدرجة الاولى هي للأشخاص كرؤساء القبيلة أو رموز المجتمع ، فهؤلاء الذين سماهم القرآن الكريم بأئمة الكفـر هم الذين يصدون عن الايمان ويمنعون الناس من الاقتراب من الاسلام وهم المسؤولون عن كـل الحروب والفتن التي قـامت في زمن رسول الله (ص) وهم بـالتـالي مسؤولون عن الدماء التي سفكت في تلك المعارك .

فمعركة بدر أججها قلة من التجار الذين خـافوا على تجـارتهم عندمـا تعرض لها المسلمون . وهم أنفسهم جاءوا في أحد لينتقموا من قتالهم وهم الـذين اتصلوا بحلفائهم وأصـدقائهم من القبـائل وجنـدوا الآلاف في معركـة الأحزاب . فكل المعارك التي قامت كانت بتدبير من هؤلاء النفر القليل فهم أصحاب المصلحة في سن تلك المعارك . أما التابعين لهم فهم وقودها فلم تكن لهم في تلك المعارك لا ناقة ولا جمل .

والاسلام دين السلام ولم يـرغب رسول الله (ص) في رفـع السلاح إلا اضطراراً . عندما لم يجد سبيلاً آخر لرد العدوان ورد كيد الطغاة الذين كانوا يمثلون رموز الجاهلية .

ومن أجل الحيلولة دون وقوع المعارك وزهق الأرواح وسفك الدماء من الطرفين كان على رسول الله (ص) ان يستخدم الخيـارات المتاحـة ومن تلك الخيارات تصفية أئمة الكفر ورموز الشر تصفية جسدية حتى يتخلص المجتمع من وبالهم وفتنهم .

وهو أسلوب لم يتوان الرسول (ص) في اتباعه مع رؤوس العدوان الذين

كانوا يتآمرون على الاسلام ولا يتركون فرصة إلا وحملوا السلاح بوجه المسلمين غير مبالين بالأرواح التي تزهق .

وكان من بين هؤلاء الرموز كعب بن الأشرف وهو احد بني نبهان من طيء وكان قد سعى الى جمع قوة عسكرية لمحاربة المسلمين بعد معركة بدر فجاء الى مكة وحرض على رسول الله (ص) وكان يشبب بنساء المسلمين ويستعمل الشعر ضد الاسلام والمسلمين . وعندما تحقق رسول الله (ص) من خططه التآمرية جهز له فرقة فدائية متركبة من محمد بن مسلمة وأبو نائلة والحارث بن أوس بن معاف وعباد بن بشر وأبو عبس بن خبر وأعطيت قيادة المجموعة الى محمد بن مسلمة .

وقبل ان ينفذوا المهمة اتفقوا على خطة ذكية ، ففي الصباح جاء أبو نائلة الى بيت كعب بن الاشرف لوحده مستفيداً من صداقته القديمة قائلاً له : يا ابن الاشرف اني قد جئتك لحاجة فاكتمها عليّ . قال : افعل . قال : كان قدوم هذا الرجل (ويقصد النبي (ص) شؤماً على العرب قطع عنا السبل حتى ضاعت العيال وجمدت البهائم . فقال كعب ؛ قد كنت أخبرتك بهذا . قال أبو نائلة : وأريد ان تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك . قال : ترهنونني أبناءكم . قال : أردت ان تفضحنا ان معي أصحابي على رأيي تبيعهم وتحسن ونجعل عندك رهناً من الحلقة ما فيه وفاء . فقال : ان في الحلقة وفاء[1] .

فبعد ان كسب أبو نائلة ثقة كعب بالنيل من النبي (ص) . قدّم اليه عرضاً هو ان يرهنوا اسلحتهم (الحلقة) حتى لا يتفاجأ كعب من مشاهدة الاسلحة وهي معهم اثناء تنفيذ العملية .

رجع أبو نائلة الى أصحابه فأخبرهم . فأخذوا السلاح وساروا اليه ليلاً

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج٢ ص١٤٣ .

وعندما بلغوا حصن كعب هتف أبو نائلة فجاءه كعب فأخذوا يتمشون في شعب العجوز وكانت رائحة العطر تهب من كعب فقد كان حديث العهد بالزواج . فأخذ أبو نائلة برأس كعب فشمّه وهو يقول : ما رأيت كالليلة طيباً أعرف قط ثم واصلوا المشي حتى اطمأن كعب وفي اللحظة المناسبة انقض أبـو نائلة على الفريسة وصاح برفاقه اضربوا عدوّ الله فقطعوه ارباً واجتمع اليهود حول الأشلاء المقطعة وهم يرتجفون فأصبح مقتلُ ابن الأشرف درساً لكل من حدّث نفسه التآمر على المسلمين .

وكان هناك يهودي آخر يقوم بنفس الدور الـذي كان يقـوم به كعب بن الأشرف هو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق وكان بخيبر وقد أعدّ رسول الله فرقة فدائية لاغتياله أيضاً تتكون من عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة وخزاعيّ بن الأسود ومرّ عليهم عبد الله بن عتيك . فخرجوا حتى قدموا خيبر فأتوا دار أبي رافع ليلاً . فأغلقوا كل الأبواب التي كانت مفتوحة حتى لا يسمع أحداً صوتاً . . طرقوا باب أبي رافع فخرجت أمراته فقالت : من أنتم ؟ قالوا : نفر من العرب يلتمسون الميرة . قالت : ذاك صاحبكم فادخلوا عليه . فلما دخلوا أغلقوا باب العلية ووجدوه على فراشـه وابتدروه ضـرباً بسيـوفهم فصاحت زوجته فأراد أحدهم قتلها فتذكر وصية النبي (ص) بأن لا تقتلوا امرأة ولا صبياً فتركوها وخرجوا من الدار بَعد أن هبّ اليهود لنجدته .

وبعد ان وصلوا الى قواعدهم أرسلوا أحدهم فجاء الى خيبر فتأكد من مقتله فعاد الى أصحابه يبشرهم بنجاح العملية .

وبعد معركة أُحد ارتأى رسول الله (ص) ان يرسل مجموعة فدائية الى مكة لاغتيال أبا سفيان للتخلص من شره فهو كان المباشر في حرب أحد وبعد ان قتل كبار زعماء قريش في بدر لم يبق سوى أبى سفيان فالقضاء عليه سيمهد الطريق أمام عودة السلام والاخاء وقبول قريش بالمصالحة .

لكن ليس من السهل ارسال مجموعة الى مكة وأعين قريش شاخصة لكل انسان غريب . فقرر رسول الله (ص) ان يقلص عدد المجموعات من أربعة الى اثنين فكلّف عمرو بن أمية الضمري مع رجل من الانصار.

ونترك لعمرو ليقص علينا الخطة بكل تفاصيلها كما ورد في الكامل لابن الأثير:

خرجت أنا ومعي بعير لي وبرجل صاحبي علّة فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن يأجج ، فعقلنا بعيرنا في الشعب وقلت لصاحبي : انطلق بنا الى أبي سفيان لنقتله فإن خشيت شيئاً فالحق بالبعير فاركبه والحق برسول الله (ص) وأخبره الخبر وخل عني .

فدخلنا مكة ومعي خنجر قد أعددته ان عاقني انسان ضربته به . فقال لي صاحبي : هل لك ان تبدأ فنطوف ونصلي ركعتين . فقلت ان أهل مكة يجلسون بأفنيتهم وأنا أعرف بها .

فلم نزل حتى أتينا البيت فطفنا وصلينا ثم خرجنا فمررنا بمجلس لهم . فعرفني بعضهم فصرخ بأعلى صوته : هذا عمرو بن أمية فثار أهل مكة الينا وقالوا : ما جاء إلا لشر وكان فاتكاً متشيطناً في الجاهلية . فقلت لصاحبي : النجاة هذا الذي كنت أحذر . أما أبو سفيان فليس اليه سبيل فانج بنفسك . فخرجنا نشتد حتى صعدنا الجبل فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا ننتظر ان يسكن الطلب .

قال : والله اني لفيه إذ أقبل عثمان بن مالك التميمي بفرس له فقام على باب الغار فخرجت اليه فضربته بالخنجر فصاح صيحة أسمع أهل مكة فأقبلوا اليه ورجعت الى مكاني فوجدوه وبه رمق فقالوا : من جذبك . قال عمرو بن أمية ثم مات ولم يقدر يخبرهم بمكاني . وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبي فاحتملوه ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا الى التنعيم

فإذا بخشبة خبيب وحوله حرس فصعدت خشبته واحتملته على ظهري فما مشيت به إلا نحو أربعين خطوة حتى نذروا بي فطرحته فاشتدوا في أثري فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي (ص) فأخبره . وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك وكأن الأرض ابتلعته .

قال وسرت حتى دخلت غار بضجنان ومعي قوسي وأسهمي فبينما أنا فيه إذ دخل علي رجل من بني الدُئل أعور طويل يسوق غنماً فقال : من الرجل ؟ قلت : من بني الدئل ، فاضطجع معي ورفع عقيرته يتغنى ويقول :

ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

ثم نام فقتلته ثم سرت ، فإذا رجلان بعثهما قريش يتجسسان أمر رسول الله (ص) فرميت أحدهما بسهم فقتلته وأستأسرت الآخر فقدمت على النبي (ص) وأخبرته الخبر فضحك ودعا لي بخير[1] .

ونستنتج من هذه القضية :

* كان يفترض بعمرو أن لا يسمع كلام الانصاري الذي كانت نفسه تتوق الى الطواف والصلاة فوضع الأنصاري وهو غير معروف لدى المكيين يختلف عن حال عمرو وهو من أهل مكة ويعرفه الجميع . وكان هذا العمل اللا انضباطي وراء فشل المهمة .

* وإذا كان عمرو قد فشل في اغتيال أبي سفيان فهو لم يرض أن يعود الى المدينة دون ان يشف غليله من أعداء الله .

وقد تختلف المهمة التي كان يرسل رسول الله (ص) أصحابه اليها في حجمها . ففي احدى المرات أرسل محمد بن مسلم على رأس فرقة فدائية

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج٢ ص١١٩ - ١٧٠ .

عددها ثلاثون مجاهداً للاغارة على جماعة من الأعداء من بني كلاب فسار محمد مع رفاقه بالليل حتى بلغوا مكان أعدائهم فانقضوا عليهم انقضاض رجل واحد فقتلوا منهم عدداً وهرب الباقون واستولوا على الابل والغنم وأسروا زعيم أهل اليمامة تمامة بن أثال ومعه بعض أصحابه .

ومرة أخرى أرسل رسول الله (ص) محمد بن مسلمة ومعه عشرة من الفدائيين الى معادين من بني ثعلبة في مكان اسمه ذو القصة . فأحاط بهم مائة من الأعداء واشتد القتال بين القلة والكثرة فنال الشهادة أفراد الفرقة بأجمعهم أما محمد فقد جرح جُرحاً بليغاً لم يستطع معها الحركة فحسب المشركون انه قد مات فتركوه وانصرفوا . فمرّ عليه المسلمون فوجدوه جريحاً فأخذوه فشفي من جراحه .

وهناك عددٌ آخر من العمليات الفدائية التي قامت بها هذه المجموعات وكان الهدف منها هو تصفية رموز الشر في جزيرة العرب . وقد لا يستسيغ البعض مثل هذه الممارسات ومن المحتمل ان ينعتوها بالارهاب وقد يتطاولون أكثر ليسموا النبي (ص) برجل الأرهاب والعياذ بالله . ولايضاح هذه النقطة كان لا بد من ذكر هذه الحقائق . .

١ ـ الارهاب هو استهداف الأبرياء وهو عمل كل الطواغيت والظالمين الذين لا يفرقون بين المذنب والبريء ، فيعتدون على من تصل اليه أياديهم . أما استهداف الظالمين والمعتدين فهو ليس بارهاب بل هو عمل من أجل تصفية الارهاب .

٢ ـ ما قام به رسول الله (ص) من اغتيال كعب بن الأشرف وأُبي بن رافع وغيرهما هو أمر مشروع يتطابق مع المنطق الانساني والقانون العام فهؤلاء الذين قضى عليهم النبي (ص) يستحقون الموت دون محاكمة لان الجرائم التي

ارتكبوها ثابتة بحقهم وكانت أعظم جريمة ارتكبوها بالاضافة الى التسبب في قتل الآخرين احداث الفتن والفتنة أشدّ من القتل .

٣ ـ ان قتل هؤلاء الطغاة سيكون السبيل لحقن دماء الكثير من الناس الذين كان من المحتمل ان يشاركوا في حروب يسببها هؤلاء فتسفك دمائهم فيها .

فالرسول (ص) لم يقم بتلك الاغتيالات حباً بالدماء كما يقول بعض الاعداء من المستشرقين بل كانت هناك مصلحة عامة اضطرته لاتخاذ ذلك الموقف . وفي قبال تلك الاغتيالات لرؤوس الكفر كان رسول الله (ص) يعفو عن الكثير ممن يستحقوا الموت بعد تشخيصه إنّ تركهم لا يترك أثراً سلبياً فالذين عفا عنهم الرسول هم اكثر بكثير من الذين أصدر القرار بتصفيتهم .

العنصر الثاني : الأرض

بعـد أن تناولنـا السلطة في الدولـة الاسلاميـة ممثلة بالقيـادة والاجهزة التنفيذية سنتطرق الآن الى العنصر الثاني من العناصر الثلاثة التي تكوّن الدولة وهي الارض والسيادة عليها .

فبدون الأرض لا يمكن اقامة الدولة ، لذا كان رسول الله (ص) يسعى في مكة للبحث عن أرض مناسبة يجد فيها الفرصة كي يقيم عليها دولته . فكان تحركه نحو القبائل وهو في مكة لهذه الغاية وقد آل تحركه أخيراً الى اختيـار المدينة مقراً للدولة .

وأول ما قام به في المدينة هو تـأسيس المسجد للتـأكيد على السيـادة الاسلامية على أرض المدينة وان هـذه الارض ستكون مكـاناً لاقـامة الـدولة الاسلامية . والأمر الآخر الذي قام به الرسول (ص) هو الاعلان عن الصحيفة والتي كفلت موضوع السيادة على الارض وكيفية حماية حدود الدولة الاسلامية من الاخطار المحدقة فقد صنّفت الصحيفة القبائل الاسلامية وغير الاسـلامية وأقطعت الناس الدور وجعلت كل قبيلة مسؤولة عن توفير الحماية الخارجية كما وانها مسؤولة أيضاً عن تطبيق القانون في قضايا الديات . وجاء في الصحيفة ان

يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وهو نص يؤكد على السيادة القانونية على مدينة يثرب . ومع اتساع الارض الاسلامية كانت هذه السيادة تقوى أيضاً .

ويبقى لكل قبيلة صلاحياتها في تنظيم أمورها لكن كل حدث يخاف فساده فان مرده الى رسول الله (ص) كما جاء في الصحيفة .

والدولة الاسلامية قد فرضت سيادتها على الأرض مع وجود قبائل غير مسلمة وهذا ما يؤكد على ان الاسلام لم يكن حاكماً على المسلمين فقط بل على كل من يعيش على تلك الارض في ظل الدولة الاسلامية فعليهم الامتثال لقوانين الدولة الاسلامية . فالاعتبار في السيادة لم يكن هو تجمعات المسلمين الساكنين على هذه الارض بل الأرض كلها . فقد منحت لغير المسلم حق المواطنة طالما انه رضي بالقوانين الاسلامية . فيهود المدينة يشكلون أمة مع المؤمنين والأمة هنا بمعنى الشعب لكن يبقون محتفظين بخصائصهم العقائدية .

وعندما خالف اليهود إحدى بنود الاتفاقية وانه لا تجار قريش ولا من نصرها كان لا بد أن يخرجوا من حدود الدولة الاسلامية لانهم خرقوا قوانين هذه الدولة واعتبر هذا الخرق بمثابة عدم الاعتراف بالسيادة القانونية للدولة الاسلامية . فكان اخراجهم من المدينة أمراً مشروعاً ومتطابقاً مع القانون . والأرض التي كان يسكنها اليهود ضمن السيادة الاسلامية كما أبرم في الصحيفة ووافق عليهااليهود فمن حق الدولة الاسلامية إخراجهم منها عندما رفضوا سيادة الدولة على شؤونهم .

والأرض التي كانت تضاف الى الدولة الاسلامية عن طريق الغزوات فهي أيضاً كانت تخضع لسيادة القانون الاسلامي وحتى لو كانت تلك الارض ملكاً لأصحابها فالسيادة شيء والتملك شيء آخر .

ففي السيادة بعدٌ قانوني وليس فيها جنبة تملك ، لأن معيار التملك في

القوانين الاسلامية هو احياء الأرض . فكل مواطن يحيي أرضاً فهي له . تبقى القوانين التي تجري على هذه الأرض لا بد وأن تكون قوانين اسلامية .

فالذين دخلوا الى الاسلام أو قبلوا بحماية الاسلام ولم يسلموا سواء عن طريق الحرب أو الصلح انما قبلوا بالسيادة الاسلامية على أرضهم .

أمّا الذين لم يؤمنوا بالاسلام وصالحوا رسول الله (ص) على ان تكـون الأرض لهم وان الدولة الاسلامية توفر الحماية لهم في قبال الجزية أو خراج الأرض فان الرسول (ص) أقرّ لها ملكيتهم للأرض وحتى سيادتهم عليها طالما ظلوا ملتزمين بالأتفاقية المبرمة .

ملكية الأرض للدولة الاسلامية :

حسب القوانين الاسلامية تقسم الأرض من حيث الملكية الى ثلاثة أقسام ملكية عامة ، ملكية الدولة وملكية خاصة . وطريقة دخول الأرض ضمن حدود الدولة الاسلامية هي التي تحدد هذه الملكية وهنا نجد العلاقة بين الملكية وبين السيادة . فالملكية هي نتيجة السيادة على الارض فنوع السيادة هو الذي يحدد نوع الملكية أيضاً .

وتقسم الأرض حسب السيادة الى :

١ ـ الأرض التي أصبحت اسـلاميـة بـالفتـح وهي الأرض التي دخلت الاسلام نتيجة الجهاد المسلح وهي على ثلاثة أنواع :

* الأرض العامرة بشرياً وقت الفتح وملكيتها عامة لكل المسلمين .

* الأرض الميتـة حال الفتـح وهي أرض غير عـامرة حين دخـولها في الاسلام لا بشرياً ولا طبيعياً فهي ملك للامام وهذا ما نصطلح عليه باسم ملكية

الدولة[1] وهي أرض تدخل ضمن قانون احياء الموات .

٢ ـ الأرض المسلمة بالدعوة كالمدينة . وهي كل أرض دخل أهلها في الاسلام دون قتال . وهي تقسم الى أرض عامرة أحياها أهلها فهي لهم . وأرض عامرة بصورة طبيعية . وأرض موات فهي ملك الدولة .

٣ ـ أرض الصلح وهي الأرض التي هجم عليها المسلمون لفتحها فلم يسلم أهلها ولا قاوموا الدعوة بشكل مسلح ، وانما ظلوا على دينهم ورضوا ان يعيشون في ظل الدولة الاسلامية مسالمين وتكون ملكية الأرض حسب اتفاقية الصلح . فاذا صالحوا المسلمين على ان تكون الأرض لهم فإن ملكيتها تبقى لهم وإذا تم الصلح على عدم ملكيتهم للأرض فانها ستكون ملكية عامة[2] ، هذا ان كانت الأرض عامرة فإذا كانت موات فانها ستكون ضمن ملكية الدولة للأرض .

وتبرز في هذه التقسيمات الطريقة التي فرضت فيها السيادة على الأرض .

فالأرض التي أسلم أهلها ولم تستخدم فيها القوة فهي لهم فهم يملكون رقبتها ، أما الأرض التي فتحت بالقوة فهي ملك الأمة لأنها دخلت في حوزة الاسلام بمساهمة الأمة فملكيتها ستكون ملكية عامة .

أما الأرض الموات غير المحياة فملكيتها للدولة الاسلامية فهي تترك لها من أجل المباشرة باحيائها أما عن طريق مباشر أو عبر المواطنين . وهنا نجد طريقة مثلى في ربط المعايير الثلاثة الهامة من معايير الأرض وهي : الملكية القانونية والسيادة السياسية والاستثمار الاقتصادي بخط تكاملي واحد وهذا ما

---

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا: ص٤٥٧ .

(٢) نفس المصدر السابق: ص٤٧٣ .

يؤكد لنا ان التشريعات الاسلامية تشريعات متكاملة تنظر الى الأمور من زوايا متعددة .

فطريقة تعامل الاسلام مع الارض قامت على ثلاثة أسس :

١ ـ حماية حقوق الأمة في هذه الأرض .

٢ ـ حماية سيادة الدولة الاسلامية عليها .

٣ ـ استثمار الارض في الانتاج الى آخر مدى .

العنصر الثالث : الامة

الشعب :

وهم جماعة من الناس يعيشون على أرض واحدة ضمن نظام سياسي . وقبل قيام الدولة الاسلامية لم يكن هناك شعب بمعنى الكلمة في جزيرة العرب حيث كان مجتمع الجزيرة يتكون من مجموعة من القبائل تناهز الثلاثمائة قبيلة . وكانت العلاقة بين قبيلة واخرى أما علاقة حرب أو تحالف سياسي وهي تتغيّر تبعاً لتغيّر المصالح وتبعاً للحوادث التي تجري بين القبيلتين . وعندما جاءت الرسالة أخذت على عاتقها تأسيس نموذج مثالي لكيان اسلامي يمتد الى مساحات اجتماعية اخرى لتضم مجموعات بشرية جديدة. وهو هدف لا يتحقق إلا بقيام تنظيم اجتماعي متماسك قادر على الحركة والفاعلية باحتواء المجموعات المرشحة لدخول الاسلام .

فكان على رأس أهداف الرسالة هو تكوين مجتمع متجانس متوحّد الاهداف ومتقارب المفاهيم يشترك في ثقافة موحدة وفي قيم ومثل واحدة .

وفي جزيرة العرب لم يكن مثل هذا المجتمع موجوداً عندما نزل الوحي على نبينا (ص) فكان على رسول الله (ص) ان يبدأ خطواته في تكوين هذا

المجتمع . فمنذ ان صدع بالرسالة وهو يسير في هذا الخط حتى آخر يوم من حياته في المدينة المنورة .

فالتأريخ الاسلامي هو بمثابة العمر الطويل الذي طوته الأمة الاسلامية منذ ولادتها وحتى بلوغها مرحلة النضج . والتأريخ الاسلامي هو تأريخ صراع الأمة ضد عوامل التشتت والتبعثر . وقد شهدت مكة الخطوة الأولى في بناء الأمة كما وشهدت المدينة المرحلة الثانية حيث كان امام الرسول (ص) مهمتان :

الأول : هدم الأسس التي يقوم عليها المجتمع القبلي .

الثاني : ارساء القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي .

فقد كرّس رسول الله (ص) فترة وجوده في المدينة في انجاز الهدف الاول وباشر عند وصوله المدينة بالمرحلة الثانية مستفيداً من الاجواء الجديدة التي أوجد لها المقر الجديد للدعوة الاسلامية . وقد سبق وتحدثنا عن هذا الموضوع في فصول سابقة .

وبقي علينا ان نتناول قضية انتقال القبيلة الى أمة وهي العملية التي استغرقت التأريخ الاسلامي كله ، واستوعبت الأحداث والتطورات الناجمة عن هذا الانتقال . فقد جاء الاسلام لينسف ركيزة النظام القبلي والولاء لها واستبدله بطريقة تربوية وفكرية وروحية الى الولاء للدين وجاء القرآن الكريم ليباشر عملية التحوّل هذه من خلال الكثير من الآيات القرآنية .

ففي الآية (٧١ من سورة التوبة) صدع القرآن الكريم :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم ﴾ فالولاء والنصرة أصبحت بين المؤمن والمؤمن على أساس الايمان بعد ان كانت بين أبناء القبيلة على أساس الولاء

القبلي . والطاعة تحوّلت من رئيس القبيلة الى الله والرسول ومن أجل تعميق هذه العلاقة وتجسيدها عملياً وضَعَ الاسلام نظاماً للعلاقات الاجتماعية يقوم على قاعدة التواصي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والآية الكريمة تضع نظرية في التحول الاجتماعي من كيان قبلي الى أمة .

فالأمة تتكون من أفراد يترابطون كأعضاء الجسد الواحد بعضهم من بعض فلا فرق بين المسلم والمسلم ولا فضل لعربي على أعجمي ، فالكل سواسية أمام القانون . والكل يتحمل مسؤولية الجزء والجزء يتحمل مسؤولية الكل والجزء يتحمل مسؤولية الجزء .

والتقوى هي معيار التفاضل ، فالمجتمع الذي يؤسسه الاسلام مجتمع هرمي يقف على رأسه الإمام أو النبي (ص) وتقوم العلاقة بين ذرات الهرم والقمة على أساس الطاعة لأن هذا المجتمع متحرك وليس مجتمعاً ساكناً ، وطاعة القيادة هي ضمانة الاستمرار في الحركة والانتقال المستمر الى الواقع الافضل ويعمل الاسلام على تعميق هذه العلاقة وتجنيبها مواطن الضعف وذلك عبر تعميق الروح العبادية ﴿ **يقيمون الصلاة** ﴾ وتوطيد الصلة بالعمل والتطور الى الأفضل من خلال (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وازالة الفروقات الاقتصادية وايجاد مشاعر موحّدة بين الفقير والغني عبر اعطاء الزكاة . وهي أسس قويمة لبناء مجتمع متطور متحرك متجانس متوحّد في الأهداف والقيم وهي أهم سمات المجتمع الاسلامي .

١ ـ الديناميكية والمشاركة الذاتية :

فكل عضو من هذا المجتمع عضو فاعل متفاعل مع الاعضاء الآخرين لتحقيق هدف أكبر . . فالفرد يريد ان يحيا في نفس الوقت يريد لمجتمعه ان

يحيا أيضاً وإذا تضارب الامران فأيهما المقدّم هل سيضحي الفرد بالمجتمع من أجل حياته او العكس ، وهنا تكمن الازمة الاجتماعية التي صعب على المبادىء الوضعية حلها لكن الاسلام استطاع أن يضع حداً لهذه العقدة فربّى الانسان على التضحية بماله وحتى دمه من أجل المجموع ذلك لأن الفرد في المجتمع الاسلامي يطمح لأهداف أكبر من مجرد العيش وكسب الراحة لنفسه فهو يحيا للآخرين كما يحيا لنفسه أيضاً . وهذا ما يجعل المجتمع الاسلامي ماكنة متحركة في هذا الوجود لا يعرف السكون لأن لا حدود لعمل الانسان ولا حدود لأهدافه وسعيه في الحياة فهو لا يعمل لنفسه فقط بل يعمل لمصلحة الجماعة وللوصول الى حياة افضل .

٢ ـ الانتماء المبدئي :

والمجتمع الاسلامي مجتمع ينتمي الى المبادىء . وهو يُربي أبناؤه على تلك المبادىء التي جاء بها الوحي فهو مجتمع ملتزم يتمسك بالاخلاق ويتحلى بالفضائل . يتقدم الى العمل الصالح بدوافع ذاتية واشارات تنطلق من أعماق النفس . فميزة المجتمع المبدئي عن المجتمع غير المبدئي ان الاولوية لأبناء المجتمع الاول هو المبادىء بينما الاولوية للمجتمع غير المبدئي هي المصلحة . والتحرك ضمن زاوية المصلحة الفردية ، هو مصدر الخطر في المجتمع فكل شرخ ومرض اجتماعي ينتهي الى هذا المكروب والتأريخ الاسلامي حافل بالأمثلة الدالة على التضحية بالمصلحة الشخصية من أجل المصلحة العامة .

٣ ـ المجتمع المتجانس :

والمجتمع الاسلامي مجتمع يتجانس فيه الأفراد ، فلا فروقات ولا طبقية ولا استئثار ، فالكل اخوة في الدين . . الكل أعضاء في جسد واحد إذا اشتكى

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

والمبدأ الواحد والذي هو الاسلام والكتاب الواحد والذي هو القرآن هما أكبر العوامل في خلق التجانس في المجتمع الاسلامي بالاضافة الى عوامل آخرى كالغة والعادات والقيم .

٤ ـ التوحّد الثقافي :

فالتوجيه القرآني وتوجيه الرسول (ص) أوجد في المجتمع ثقافة مشتركة ، والثقافة هي الطريقة التي يحيا بها المجتمع والاسلوب الذي يتعامل به الانسان مع قضايا الحياة ، فالثقافة هي فكر وسلوك وقد جاء الاسلام ليوجد موقفاً فكرياً وعملاً سلوكياً مع كل قضية حياتية . . فهو بصورة عملية أوجد ثقافة مشتركة لدى المجتمع الاسلامي عندما أخضع هذا المجتمع لمصدر توجيه مشترك هو القرآن والسنة .

وقد استطاع الاسلام ان يُوجد ثقافة متينة في المجتمع حلت محل العادات والتقاليد الجاهلية. فقد استطاع الاسلام ان ينفذ الى داخل الشرنقة القبلية ويبعث الحياة في الانسان من جديد ويستبدل عقليته وممارساته القبلية بعقلية اسلامية تنظر إلى الحياة من زاوية اخرى غير الزاوية التي كان ينظر اليها في السابق.

واستطاع المجتمع الاسلامي ان يقاوم الغزو الفكري ردحاً من الزمن بسبب قوة الثقافة الاسلامية التي تأصلت في جذور هذا المجتمع لكن مع ضعف تلقي التوجيه القرآني والرسالي انحسرت هذه الثقافة فهزلت بنية الامة فأصبحت قابلة للخرق الثقافي من قبل التيارات الفكرية . وقد حدث هذا الخرق بعد سقوط الدولة الاسلامية حتى الظاهرية لأنها كانت تشكل الغطاء لحفظ ثقافة الأمة حتى الشيء القليل منها .

وتأريخياً نجد ان الامة لم تتأثر بالحروب الصليبية ولم تخضع سياسياً ولا عسكرياً لأنها كانت محتفظة بثقافتها الاسلامية، بل على العكس نجد ان الصليبيين تأثروا بالاسلام بالرغم من انهم غزاة على خلاف القاعدة المتعارفة في انتقال الثقافة من الغازي الى المحتلين وفي عهد الرسول (ص) اجتمعت الديانات الثلاثة في المدينة ولم يتخوّف الرسول (ص) من تعرض المسلمين الى مؤثرات ثقافية غير اسلامية ذلك لأن ثقافتهم كانت من المتانة بحيث أوجدت الحصانة ضد الثقافات الاخرى .

٥ ـ التوحّد السياسي :

ومن سمات المجتمع الاسلامي تمسكه بأهداف سياسية مشتركة على رغم وجود الحرية الكافية في ابداء الرأي وعلى رغم حرية العقيدة التي يكفلها الاسلام إلّا ان الجميع كانوا يشتركون في موقف سياسي . فقد كان المجتمع الاسلامي يتحرك بواقعية ويسير بخط مستقيم نحو أهداف مرسومة وكان للرسول (ص) دور المشرف والموجّه لهذه الحركة . فعندما كانت تقع الحوادث التي تستدعي موقفاً محدداً كان جميع أفراد المجتمع يمتلكون من الوعي الذي يتمكنوا به اتخاذ الموقف الموحّد فعندما أقبلت قريش على ضخامة ما لديها من الاسلحة الفتاكة لقتال المسلمين لم يكن بين المسلمين من رفض المشاركة في الحرب او كان رأيه عدم الحرب على رغم قلة المسلمون بانتظار هذه المواجهة في يوم قريش كانت أمراً لا محالة ، فقد كان المسلمون بانتظار هذه المواجهة في يوم من الأيام كما كانوا في انتظار الحلقات الاخرى من المواجهات العسكرية أو السياسية . وحتى في صلح الحديبية عندما رأى البعض عدم المصالحة إلا انّ الموقف السياسي العام الذي كان يقفه المسلمون عامة هو الصلح مع قريش للتفرغ الى عدو آخر كان يتربص بالمسلمين الدوائر وهم اليهود .

وهكذا لا نجد في المسيرة الاسلامية في عهد الرسول (ص) اختلافاً

سياسياً ينجر الى انقسام المجتمع إلا اللهم المعارضة الدائمة التي كانت تبديها فئة المنافقين والتي كانت تطوق اعلامياً وسياسياً من قبل الدولة والأمة معاً بل الـذي نجده في المسيـرة الاسلاميـة هو وحـدة الموقف السيـاسي بين القيادة والشعب وهذا منتهى التفاعل الذي يصله الشعب مع القيادة .

٦ ـ التكامل الاقتصادي :

المجتمـع الذي تتكـاتف أجزاؤه ويسـوده التعاون وروح الاخـوة يسوده التكامل الاقتصادي أيضاً ، والتكامل الاقتصادي أهم معيار لقياس مدى تقدم الشعب فعندما تتكامل الاسر فيما بينها في الانتاج ويصبح الاعتبار الاول للتكامل وليس للتنافس في النوعية الواحدة ، اي عندما يجد انساناً ان جاره ينتج محصولاً معيناً فهو ينتقل الى محصول آخر كي تتكامل المحصولات . هذه الروح هي التي تقاس على أساسها قوة المجتمع ومدى ما يبلغه من الشعور بالمسؤوليـة والعقلية الحضارية . والمجتمع الاسلامي منذ اليوم الاول من قيامه قام على مبدأ التكامل الاقتصادي فقد هبّ كل عضو في هذا المجتمـع لتكملة العضو الآخر . وكان للمؤاخاة التي جرت بين المهاجرين والأنصـار الاثر الكبيـر في ايجاد ارضية التكامل الاقتصادي . إذ أصبح الانصاري ينتج والمهاجر يتـاجر مستفيداً من خيراته السابقة في التجارة . وعلى هذه القاعدة أرسى الاسلام أقوى نظام اقتصادي عرفته البشرية حتى الآن . فالشعور بالتكامليـة يفجّر الـطاقات ويحرك حلقات الانتاج المختلفة نحو الاكتفاء الذاتي وهو أعلى مستوى يصله الاقتصاد الوطني لبلد ما .

هذه هي سمات المجتمـع الاسلامي والتي وضعت هـذا المجتمع في مصاف المجتمعات الراقية القادرة على امتلاك قرارها السياسي وتحتفظ بنظامها الحاكم .

وينتج عن هذه السمات مرتكزات لتطوير كفاءة المجتمع باستمرار نحو الافضل ، هذه المرتكزات هي : التعاون الاجتماعي والمشاركة السياسية والارتباط بمؤسسة السلطة والالتزام بالنظام السياسي والبحث عن آفات ومستقبل أفضل . وهي مرتكزات كانت قائمة في المجتمع الاسلامي وهي السبب المباشر في تطوير هذا المجتمع وبلوغه درجات عالية من الاداء الحضاري والكفاءة الانتاجية والجدارة السياسية خصوصاً في عهد رسول الله (ص) .

سياسة الدولة الاسلامية :ـ

السياسة هي رعاية شؤون الناس ، والاسلام لم يأت فقط من أجل اشباع الحاجة العقائدية في الافراد بل جاء أيضاً لرعاية شؤون الناس وادارة الحياة فبالقطع يشتمل الاسلام على سياسة واضحة في الادارة والتوجيه لأنه أوجد دولة لهذه الغاية وتقسم السياسة على حسب الواقع السكاني والدولي الى سياسة داخلية وسياسة خارجية .

أولاً السياسة الداخلية :

وهي طريقة ادارة الدولة لشؤون المسلمين الخاضعين للدولة الاسلامية ونستطيع ان نستلهم من منهج الرسول الأكرم (ص) عدة أهداف لهذه السياسة .

١ ـ ضمان الحاجات الاساسية وهي الأمن ، الصحة والغذاء فقد أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها ضمان هذه الحاجات بقوله (ص) (من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما زوِيَت له الدنيا) . فالدولة تتحمل مسؤولية الضمان العام لهذه الحاجات فهي توفر الامن بألوانه المختلفة الأمن السياسي والأمن الاقتصادي بضربها جذور الفساد والأجرام وهي أيضاً تحصن المجتمع من كل ما يهدده صحياً كالخمر ولحم الخنزير وتراعي نظافة

المجتمع فالنظافة من الايمان وتدعو الناس الى التطبيب والمداواة ، كما وان الدولة الاسلامية تعمل على ضمان الحاجة في الطعام بانتهاجها سياسة انتاجية تكفل سد حاجة الناس . هذه هي المسؤولية العامة للدولة ، اما المسؤولية المباشرة فقد حملّت الدولة الفرد مسؤولية الانفاق على نفسه وعلى عياله فإذا عجز عن الانفاق فان الدولة تتحمل المسؤولية المباشرة أيضاً .

قال رسول الله (ص) « من ترك كلاً فالينا ومن ترك مالا فلورثته » والكل هو الضعيف الذي لا يستطيع العيش لوحده وقال أيضاً « فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتيني فأنا مولاه » والضياع هم العيال الذين لا شيء لهم .

٢ ـ كفالة الحريات والحقوق : كانت السيادة في المجتمع الجاهلي للفوضى فالقوي كان يأخذ حقه بالقوة أما الفقير لم تكن قدرته الضعيفة لتسمح له بنيل حقوقه فكانت حقوقه تهضم وليس هناك مرجع يعيد له الحق .

الانسان العربي تواق للحرية فقد علمتّه حياة الصحراء كيف يعيش حراً طليقاً لكن كانت حريته بدون قيد ولا حدود وقد نشأ من ذلك الفوضى واضطراب المجتمع .

وجاء الاسلام لا لكي يكبح الحريات بل جاء ليضع حدوداً للحريات فهي تنتهي الى هذه القاعدة لا ضرر ولا ضرار . فقد أبقى الاسلام على الحريات بعد ان شذ بها ووضع لها اطاراً لم يسمح بتجاوزه لأنه حينذاك سيتجاوز على حرية الآخرين ولنا نموذج صارخ في التجاوز على حريات الآخرين . .

كانت لسمرة بن جُندب نخلة في بيت أحد الانصار ، فكان يمر الى نخلته يسقيها الماء ولا يستأذن ، مما كان يضايق عائلة الانصاري فكلّمه صاحب الدار ان يستأذن قبل ان يدخل فأبى سمرة على عادة العرب في الجاهلية حيث كان

القوي يستهين بحقوق الضعيف واضطر الانصاري أمام اصرار سمرة على فعله أن يرفع المشكلة الى رسول الله (ص) فأرسل النبي (ص) الى سمرة وطلب منه الاستئذان عند الدخول فأبى أيضاً . عندها ترجّى منه الرسول (ص) أن يبيع نخلته ما شاء على قيمتها فأبى ، عندها أراد الرسول (ص) أن يساومه بالقيمة المعنوية إذا كانت القيمة المادية لا تؤثر فيه فقال له ؛ لك بها عذق نمد لك في الجنة فأبى أيضاً . عند هذه النقطة تنتهي حدود الحرية التي كفلها الاسلام لسمرة فلم يكن أمام الرسول (ص) إلا أن يقول للأنصاري اذهب فاقلعها وارم بها اليه فانه لا ضرر ولا ضرار فجيء بالنخلة مقطوعة فقال النبي (ص) لسمرة انطلق فاغرِسها حيث شئت .

في هذه الحادثة نجد عصارة النظرية الاسلامية في الحريات والحقوق فهي مصونة الى الحد الذي لا تتطاول على حريات الآخرين وعندما تبلغ ذلك الحد فإن الدور سيكون للقانون .

٣ ـ رفع مستوى المشاركة : الدولة والشعب وحدة متكاملة وأكثر المسؤوليات تقوم بها الدولة والشعب معاً فالدولة بدون الشعب لا تستطيع ان تفعل شيئاً قال رسول الله (ص) « كلكم راع وكلٌ مسؤول عن رعيته والامام راع وهو مسؤول عن رعيته » فالمسؤولية مشتركة ، فكلما زادت المشاركة الشعبية اتحدت مسؤوليات الشعب بمسؤوليات الدولة ، وعلى هذا المحور قامت سياسة الرسول الأكرم (ص)، فقد سعى من أجل ايجاد اكبر الفرص للمشاركة الشعبية فكان يشاور أصحابه امتثالاً لأمر الله ﴿ **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ .

فقد شاور رسول الله (ص) أصحابه في غزوة بدر عندما جمعهم قائلاً لهم أشيروا عليّ أيها الناس ، ليعرف رأيهم في قتال المشركين .

ومرة ثانية يستشيرهم في معركة أحد حول البقاء في المدينة أو الخروج

للقاء المشركين في الخارج .

ومرة أخرى يشاورهم النبي في معركة الأحزاب حول البقاء أو الخروج من المدينة وطوراً آخر يسأل اصحابه في صلح الحديبية أشيروا علي ، أترون ان نميل الى ذراري هؤلاء الذين اعانوهم فنعيدهم فان قعدوا موتورين محزونين وان نجوا تكن عنقاً قطعها الله ، أو ترون ان نؤمّ البيت فمن صدنا عنها قاتلناه .

وكان أبو هريرة يقول : ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ص)[1] .

وفي غزوة الطائف يستشير أحد اصحابه حول مصير الحصار هو نوفل بن معاوية فأجابه يا رسول الله ثعلب في جحر ان أقمت عليه أخذته ، وان تركته لم يضرك فأذن بالرحيل[2] .

وكان رسول الله (ص) يوصي أصحابه بالمشورة فيقول لهم . .

* ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم (النسفي ٢٦٦/٤) .

* ما ندم من استشار ولا خاب من استخار (القرطبي ١٤٩٣/٤) .

* ما شقي عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي (القرطبي ١٤٩٣/٤) .

والذي يأمر بالمشورة لا بد وان يتحلى بها . والمشورة هي المنطق نحو المشاركة في المسؤولية والمشاركة التي حققها الاسلام هي مشاركة الناس في صنع القرار وهو أعلى درجات المشاركة وبتلك الروح العالية فسح رسول الله (ص) الطريق أمام المسلمين ليشاركوه أعباء المسؤولية انطلاقاً من قاعدة « كلكم راع » .

---

(١) سنن البيهقي : ج٩ ص٢١٨ .

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٢١٧ .

وامتثـالاً لأمر القـائد نفســه حينمـا قـال « الـدين نصيحـة قيـل لمن يـا رسول الله ؟ قال لله ولرسوله ولكتابه وللأئمة ولجماعة المسلمين » .

السياسة العامة نحو التجمعات السياسية :-

يصنف التجمع الاسلامي في المدينة الى ثلاثة تقسيمات . .

١ ـ تجمع المؤمنين .

٢ ـ تجمع المنافقين .

٣ ـ تجمع المؤلفة قلوبهم .

١ ـ تجمع المؤمنين :

فهو التجمع الأكبر والأقوى فالمؤمنون كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة في الدولة الاسلامية وهم ينقسمون الى قطاعين قطاع المهاجرين وقطاع الانصار .

وكان رسول الله (ص) يعمل على تقوية الأجنحة الاسلامية لتظهر بمظهر التكتل السياسي لتنافس التكتلات الاخرى ففي الانصار كان يقول :

«لو سلك الناس وادياً وسلك الانصار وادياً لسكلت مسلك الانصار وتركت مسلك الناس» ، فمن هذه المقولة يمكن الاستدلال بأن الانصار كانوا يمثلون تجمعاً سياسياً واضح المعالم في عهد رسول الله (ص) ولم يكن الرسول (ص) ليلغي هذا الواقع بل على العكس كان يدعم وجود حالة التكتلات كتنظيم سياسي طالما لم يؤد وجودها الى الانشقاق والفرقة والنزاع . وبهذا النهج القويم كان رسول الله (ص) يدفع بتجمع الأنصار الى المشاركة السياسية جنباً الى جنب المهاجرين الذين كانوا يتولّون الأمور باعتبارهم أول من آمن بالاسلام .

لكن من تزايد الفتوحات واتساع رقعة جماعة المسلمين كان الخوف يزداد على مصير الاسلام فكان رسول الله (ص) يعمل على تعميق الخط الاسلامي

الاصيل مع مجموعة من أصحابه ممن كانوا على استعداد لتقبل المسؤولية التاريخية .

فأصبح يراعى شؤون التجمع الرسالي الذي أقامه الإمام علي (ع) والذي كان يضم خيرة الصحابة من أمثال بلال وأبي ذر وعمار وحذيفة بن اليمان والمقداد .

وربما أوجد اهتمام الرسول (ص) بعلي وجماعته بعض الحساسيات لدى بعض الصحابة الذين أخذوا يثيرون المشاكل الأمر الذي كان يزيد من دعم رسول الله لهذا التجمع فهو كان يمثل الاسلام الاصيل ويعتبر الضمانة الاكيدة للحفاظ على الاسلام من الانحراف والانجرار نحو المتاهات .

وهذا منتهى الحكمة في القائد الذي كان يعلم بأن الخطر الأكبر الذي يهدد وجود كيانه هو الخطر القادم من الداخل فكان عليه أن يوجد وسط التيار الاسلامي المتدفق مجراً للخط الرسالي الأصيل حتى يرمي بعهدته مسؤولية بقاء الرسالة حينما تحل عليها الهزاهز والكوارث . وفعلاً كان بقاء الاسلام والحفاظ عليه من الانحراف هو بفضل ذلك التجمع الرسالي الاصيل الذي كان يضم بالاضافة الى الامام علي (ع) حسب ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، عمار والمقداد وأبو ذر وسلمان وجابر وعبد الله وأبي بن كعب وحذيفة وبريدة وأبو أيوب وسهل بن حنيف . وعثمان بن حنيف وأبو الهيثم بن التيهان وخزيمة وأبو الطفيل عامر بن واثلة والعباس بن عبد المطلب وبنوه وبنو هاشم كافة وبنوا عبد المطلب كافة ومن بني أمية خالد بن سعيد بن العاص .

وكان رسول الله (ص) يشير الى علي ومَنْ حوله عندما كانوا يدخلون المسجد كما يرويه أبو المؤيد موفق بن أحمد بالاسناد الى جابر في كتابه (فضائل أمير المؤمنين) والذي نفسي بيده ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة وكان يقول أيضاً مخاطباً علياً (ع) « وان شيعتك على منابر من نور »

وباسناد آخر « انك وشيعتك في الجنة » .

وكانت الغاية من هذه الاشارات هي تقوية هذا الخط الرسالي ومنحه شرعية التحرك باعتباره الخط الاصيل والذي يطمئن الى سلامة أهدافه واتجاهه .

وكان يوصي أصحابه بالتزام خط علي (ع) والالتفاف حوله فقال لعمار يوماً ـ على رواية أبي أيوب الأنصاري[1] ـ يا عمار انه سيكون بعدي هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً وحتى يبرأ بعضهم من بعض فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي بن أبي طالب ، فان سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فاسلك وادي عليّ وخلّ عن الناس .

ويحتمل ان الرسول (ص) قال هذه الكلمة لعمار في جمع من أصحابه كان فيهم الراوي ابو أيوب .

تعامل الرسول مع أصحابه :ـ

ظل رسول الله (ص) يتعامل مع أصحابه بعد تشكيل الدولة كما كان في مكة على عهد النضال السلبي فكان يتفقد الصحابة ويباشر قضاء حوائجهم بنفسه ويراقب أوضاعهم الفكرية والحركية حتى لا يصيبهم ما يخشى منه . فقد اتفق جمع من صحابة رسول الله (ص) على رأسهم عثمان بن مظعون اتفقوا على أن يحرّموا على أنفسهم الطيبات ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض فوجد الرسول (ص) نفسه أمام ظاهرة خطرة سرعان ما تنتشر بين أصحابه وسيكون لها آثار سلبية اجتماعية وسياسية . فسارع لايقافها بأسلوبه التربوي فقال لهؤلاء الجماعة (ان لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فاني أقوم وأنام

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ج٣ ص٥٣٤.

وأصوم وأفطر وآكـل اللحم والدسم وآتي النسـاء ومن رغب عن سنتي فليس مني)[١] .

وكان ينصح أصحابه كلما وجد موقفاً يستدعي النصح خرج رسول الله ، فإذا في المسجد مجلسـان مجلس يتفقهون ، ومجلس يـدعون الله ويسـألون فقال : كلا المجلسين الىّ خير ، أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهّون الجاهل هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم[٢] .

ويمكننا ملاحظة الاسلوب التربوي الذي ينتهجه النبي (ص) في نصح أصحابه (رض) فهو لا يسخّف عمل أولئك القوم الذين جلسوا للدعاء بل فضل عليهم أولئك الذين جلسوا لتداول العلم ولكي يدلل رضاه عنهم جلس معهم هكذا كان رسول الله يربي أصحابه ويهتم بأمور بنائهم وهو يومذاك قائداً لدولة وذو مشاغل كثيرة لكن مشاغله ومهامه لم تنسه المهمة الكبـرى وهي مواصلة عملية بناء الانسان المسلم ذو الشخصية القوية .

وإذا ما وقفنا ملياً عند وصاياه للاحظنا كم كان رسول الله يهتم في بناء أصحابه وتربيتهم التربية الاسلامية كي يصبحوا قـادة المستقبل ويتمكنـوا من تحمل اعباء المسؤولية فوصاياه للإمام علي (ع) بلغت مائة وستون وصية قالها في وقت واحد وإذا ما راجعنا مضامينها لوجدناها تتضمن منهجاً عمليـاً لقيادة الأمـة وكيف يجب أن يكون القـائد الاسـلامي في تعـامله مـع النـاس ومـع المؤمنين[٣] .

ولم تقتصر وصاياه الى ابن عمه الإمام علي (ع) فقد حظي صحابة آخرين

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ج٥ ص٢٣٦ .
(٢) منية المريد: ص١٣ .
(٣) راجع كتاب مجمع البيان، وتحف العقول، وكلمة الرسول الأعظم .

بلقاءات مركزة كرست للبناء وأخذ التعليمات .

فمن هؤلاء الصحابة ابي ذر رضوان الله عليه فقد بلغ تعداد الوصايا التي تلقاها من رسول الله (ص) ١٦٩ وصية وهي تركز بأجمعها على بناء الانسان المقاوم[1] مقاومة الهوى ومقاومة الدنيا ومقاومة السلطان الجائر وقد تركت تلك الوصايا آثاراً كبيرة على شخصية أبي ذر ظل مفعولها حتى آخر يوم من حياته فقد عاش حياة الصمود في التاريخ كرمز للمقاومة .

أما وصاياه الأخرى فكانت لابن مسعود حيث أوصاه بستٍ وثمانين وصية اشتملت على مائة وعشرين آية من القرآن الكريم استهدف منها رسول الله بناء رجل العلم الذي يستمد من القرآن الكريم علومه وشخصيته .

وقد ذكر المؤرخون في أصل وصية النبي (ص) لابن مسعود رواية يحدثنا بنفسه قال دخلت أنا وخمسة رهط من أصحابنا يوماً على رسول الله (ص) وقد أصابتنا مجاعة شديدة ولم نكن رزقنا منذ أربعة أشهر إلا الماء واللبن وورق الشجر فقلنا يا رسول الله الى متى نحن على هذه المجاعة الشديدة فقال رسول الله وذكر الوصية بالكامل ، فأمره في الوصية بالصبر والزهد في الدنيا ثم تعلم القرآن ثم معرفة الحلال والحرام ولا عجب أن يخرج ابن مسعود من مدرسة الرسول (ص) فقيه بارع في استنباط الاحكام الشرعية .

وكان رسول الله (ص) يريد عبر هذه الوصايا بالاضافة الى المهمة البنائية ان يرفع من مستوياتهم وان يمكنهم من أداء المسؤوليات الكبيرة فقد أصبح للاسلام اليوم دولة وهي بحاجة الى رجال مرشدين وموجهين للناس والى اداريين كولاة وجباة وحفظة يحفظون دين الله من الضياع .

وخصص القرآن الكريم في بعض مواضعه لارشاد النبي (ص) طريقة

---

(١) انظر الى كتاب كلمة الرسول الاعظم : من صحفة ١٦٩ ـ ٢١٥ .

التعامل مع أصحابه وأقربائه . . فنزلت الآية ١٥٩ من سورة آل عمران :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ﴾ .

وفي سورة الأعراف آية ١٩٩ :

﴿ خذ العفو وامر بالعرف . . . ﴾ .

وفي سورة الشعراء آية ٢١٥ :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك . . . ﴾ .

نزلت هذه الآيات لترسم العلاقة بين القائد وشعبه ولتبقى قاعدة ذهبية الى كل الاجيال فقد كانت صفات النبي (ص) وخصاله من المثالية بحيث كانت هذه العلاقة تجري بصورة طبيعية ولا نحتاج إلا الى اشارات من بعيد وكانت هذه الآيات اشارات ضوئية عملت على ابقاء تلك العلاقة بمستواها الطبيعي .

٢ ـ الفئة الثانية .. المنافقون :

برزت حركة النفاق في المدينة المنورة بعد قيام الدولة الاسلامية كظاهرة طبيعية وصحية . . اما كيف انها ظاهرة طبيعية فلأن الاسلام قد أصبح قوي وأصبحت له دولة وقد توسعت رقعة المسلمين في المدينة . كما وان طريقة التوجيه اختلفت عما كانت في مكة حيث كان التوجيه يتم عبر الاتصال المباشر والمستمر أمّا في المدينة فلكثرة عدد المسلمين أصبح التوجيه العام هو الاسلوب الممكن في الاتصال باعداد كبيرة من المسلمين . . وقد أدى ذلك الى بقاء بعض الترسبات في نفوس من آمنوا فكان ازالتها بحاجة الى وقت أطول وجهد أعمق .

كما وان ظهور قوتين متناقضتين قوة الكفر وما يمثله من كيان ومصالح وفلسفة قائمة على عبادة الأوثان وقوة الدولة الاسلامية وما تمثله من مثل وقيم ونظرية فكرية وممارسة عملية جعل البعض يتذبذب ويعيش على الحافة لا الى هؤلاء ولا الى أولئك وقد وصف القرآن هذه الحالة . .

﴿ مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ﴾[١] .

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٤٣ .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[1] .

ولذا لاحظنا ولادة هذه الظاهرة في المدينة المنورة مع قيام الدولة الاسلامية حيث وجد البعض أنفسهم منجذبين الى قطبين متنافرين ، فالكفر يجذبهم لأنه يضمن لهم مصالحهم المادية ويُبقي على عقائدهم وخرافاتهم والاسلام يجذبهم لانهم يجدونه القوة المنتصرة ولا يمكنهم إلا مسايرته لأنهم يعيشون في قلبه وبين جموع المسلمين .

هذه هي طبيعة الحركة بصورة عامة أما على صعيد الحركة كأفراد فهناك أسباب أخرى مستقلة ساهمت هي الاخرى في ظهور هذه الحركة فكان لا بد أيضاً من معالجة القضية من زاوية الحالات الفردية .

فالدواعي التي دفعت بعبد الله بن أُبي لأن يسقط في مستنقع النفاق ثم يتزعم هذه الحركة تختلف عن الحالات الاخرى للمنافقين .

فعبد الله بن أبي فَقَدَ مكانته في المدينة بعد قدوم النبي (ص) اليها ، فبعد حرب بعاث بين الأوس والخزرج قررت القبيلتان أن ينهيا المشاكل بينهما وأن يُوليّا عبد الله بن أُبي ليصبح ملكاً على يثرب وأخذتا تعدان العدة لاقامة أضخم مهرجان لتتويجه لهذا المنصب لكن مع مجيء رسول الله الى المدينة تبددت أحلام عبد الله بن أُبي فرأى ان محمداً (ص) قد استلبه ملكه ، ولما رأى قومه أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً وظل مصراً في قلبه على عقائده السابقة .

اما انها ظاهرة صحية . . فلأن الدولة الاسلامية كانت موعودة مع بروز هذه الظاهرة في يوم من الأيام فبروزها في زمن النبي (ص) ساعد كثيراً على

---

(١) سورة الحج ، الآية : ١١ .

معالجتها بصورة عملية يكفل التخلص منها . فظاهرة النفاق تشبه الى حد بعيد الامصال التي تزرع في الأبدان للتخلص من الأمراض الخبيثة فهي قد أوجدت في الأمة الاسلامية المناعة من الاصابة بهذا المرض وجعلت المسلمين على يقظة وحذر من الطابور الخامس الذي يزرع التفرقة والشقاق وهي بالاضافة الى ذلك جعلت المسلمين صفاً واحداً أمام التحديات الداخلية التي تواجه الدولة الاسلامية ، فمن العناصر الايجابية في ظاهرة النفاق انها كشفت للمسلمين عن ثغراتهم فسارعوا لسدها قبل ان يندس من خلالها الأعداء فمثلُ المنافقين مثل المكروب الضعيف الذي يكشف للإنسان عن نقاط ضعفه فيسرع لاتخاذ اللازم ليصبح معافاً سليماً .

ولهذا كان تعامل رسول الله (ص) مع هذه الظاهرة تعامل الرجل الحكيم والطبيب الحاذق والسياسي المتمرس فهو لم يعمل على تصفية هذا الوجود الدخيل بالقوة والعنف بالرغم من قدرته على ذلك فقد جاءته عروض كثيرة لقتل عبد الله بن ابي واحدى هذه العروض جاءته من ابنه عبد الله لكنه لم يقبل بها جميعاً لأنه كان ينظر الى ظاهرة النفاق كظاهرة اجتماعية فهي بحاجة الى معالجة اجتماعية نفسية أكثر من المعالجة السياسية وهنا تبرز الحكمة القيادية في الرسول الأعظم خلال هذه السياسة .

برنامج المنافقين في تخريب الدولة الاسلامية :-

كان المنافقون ينتهزون كل فرصة من أجل تسديد سهامهم ضد الدولة الاسلامية فكانوا يعملون بصورة جماعية أو أفراداً وكانوا يرمون بسهامهم بصورة مخططة أو بصورة عفوية وقد أتاح تواجدهم بين المسلمين أكبر الفرص للكشف عن ثغرات الدولة الاسلامية ثم الاسراع لتسديد السهم في الهدف وقبل فوات الأوان .

وكانوا يُغيرّون من أساليبهم تبعاً لتغيّر الاوضاع فكانت أساليبهم بعد انتصار المسلمين تختلف عن أساليبهم بعد الهزيمة . كما وان أساليبهم في فترة الاستقرار تختلف عن أساليبهم في فترة تأهب المسلمين للقتال .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تحيط بالدولة الاسلامية في تنفيذ مآربهم . فكان يحيط الدولة أعداء ألدّاء فقريش من جانب وثقيف وهوازن من جانب آخر وحتى في الداخل كان المسلمون مهددين بأعداء لا يقل خطرهم عن المشركين هم اليهود ، ومن جانب آخر كان الوعي الديني لدى قطاع من المسلمين الذين آمنوا لتوهم هابط فهم قد أصبحوا فريسة للقلوب الجائعة الى الدغل والتآمر .

ومن جانب آخر كان المنافقون مندسين في صفوف المسلمين فهم غير معروفين للآخرين وكان يصعب على المسلمين تشخيص هويتهم فهم في الظاهر مسلمين ومتفانين في اسلامهم لكنهم في الباطن كانوا يمارسون تآمرهم وحقدهم على المسلمين **﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن ﴾** والأخطر من كل ذلك كانوا يقربون أنفسهم الى النبي (ص) والى المسلمين ويظهرون الحماس والاهتمام المتزايد بالرسالة .

فقد حدثتنا كتب السير ان عبد الله بن أبي كان يجلس كل جمعة أمام الصفوف وينتهز فرصة جلوس الرسول (ص) بين الخطبتين فيقوم ليقول للناس :

أيها الناس هذا رسول الله (ص) بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، واستمر على هذا المنوال وحتى بعد ان انكشف أمره للمسلمين فبعد هزيمة أحد وقف ليتكلم في احدى الجمع فقام اليه المسلمون فأخذوا بثيابه من كل مكان وصاحوا اجلس أي

عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فقد حاول المنافقون أن يختفوا خلف حاجز كثيف من الأساليب والأعمال الظاهرية غافلين عن أعين الناس التي كانت تراقبهم وترسم علامات الاستفهام حول كل حركة تبدر منهم .

وإذا أردنا أن نحصي اعمالهم المعادية للاسلام في قائمة مرتبة فاننا سنجد أنفسنا أمام منهج متكامل ودقيق في أساليبه وخططه يستهدف تخريب الدولة الاسلامية ووضع العراقيل والعقبات أمامها وسنلاحظ أيضاً أن المنهج المعادي الذي سار عليه المنافقون متنوع في نشاطاته وميادينه وهي :

١ ـ ترويج الشائعات وبث الاكاذيب بهدف تضعيف معنويات المسلمين وزعزعة الثقة بالاسلام وبرسول الاسلام وخصوصاً في أيام الحرب حيث المسلمين مشغولين في الدفاع عن حريم دينهم كان المنافقون يتأهبون تماماً لشن الحرب النفسية ضد المسلمين ففي غزوة الخندق وعندما استولى على المسلمين الخوف من كثرة الأعداء الذين حاصروا المدينة ولم يكن أمام رسول الله إلا ان يرفع من معنويات أصحابه ويبعث فيهم الأمل بسقوط قصور كسرى وقيصر تحت أقدام المسلمين في ذلك اليوم هبّ المنافقون ليقذفوا بسهام حربهم النفسية فأخذوا يسخرون من قول رسول الله (ص) ويثيرون الخوف والهلع في نفوس المسلمين قائلين ، كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدهم اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط فنزلت الآية لتصف جانباً من الحرب النفسية . .

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ .

وبعضهم كان يأتي الى رسول الله (ص) ليأخذ منه الاذن بالعودة الى أهله

مشجعاً الخائفين والمتذبذبين على الانسحاب .. ﴿ **يستأذن فريقٌ منهم النبي يقولون : ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون إلا فرارا** ﴾ .

وعند الهزيمة كانت تقوى سواعدهم للفتك بالمسلمين فبعد معركة أُحد كان المنافقون يشمتون بالمسلمين الذين اشتركوا في المعركة وكانوا يقولون للمسلمين لو كان من قُتل منكم عندنا ما قُتل وأصبح عبد الله بن أُبي يقول عصاني محمد وأطاع الولدان (يقصد الشباب المراهقين) والله لكأني كنت أنظر الى هذا .

وحتى في حالة الانتصار كانوا ينتهزون كل فرصة من أجل تثبيط العزائم والهمم ، فبعد معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون عاد المقاتلون الى المدينة وهم متعبون وهو تعب طبيعي لكل من دخل المعركة لكن المنافقين استغلوا هذا الموقف ولم ينتظروا ليعرفوا نتيجة المعركة فبمجرد أن لاحت اليهم طليعة الجيش العائد من ساحة الحرب وكان في مقدمة العائدين زيد وكانت تلوح عليه امارات التعب والنصب ومن بعيد كانت النساء والشيوخ في انتظار عودة ذويهم وبينهم كان المنافقون يرددون عندما شاهدوا زيد على تلك الحالة قائلين قُتل صاحبكم ومن معه .

وهتف آخر قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده ، وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب .

هكذا كانوا يستغلون كل شيء في تبرير نهجهم المعادي للمسلمين محاولين أن يجدوا ولو منفذاً صغيراً لبث الشائعات والاكاذيب وهذا بالضبط ما يفعله اليوم الاعلام المعادي للاسلام والذي يحاول ان يستغل حتى المظاهر الايجابية من الصحوة الاسلامية في بث الدعايات وفي تسمية بعض معالم الصحوة بالارهاب أو التخلف أو التراجع الى الخلف من أجل تسميم الجو الاعلامي ضد الاسلام .

٢ ـ تدبير المؤامرات . . فلم يُضيع المنافقون أية فرصة في تدبير المؤامرات مع أعداء الاسلام في الاوقات الحرجة وهذا ما يؤكد لنا ان المنافقين كانوا يطمحون ازالة الاسلام من الوجود وليس فقط تخريبه من الداخل ففي حصار المسلمين لبني النضير في السنة الرابعة للهجرة وبينما كان المسلمون يتأهبون لاخراج هذه القبيلة اليهودية من المدينة أحس عبد الله بن أُبي بالتخوف من المستقبل فبعث برسالة الى زعماء القبيلة جاء فيها أثبتوا وتمنعوا ، فانا لن نسلمكم ، ان قاتلتم قاتلنا معكم وإن اُخرجتم خرجنا معكم . . وتكشف هذه الرسالة عن نوايا وأهداف جماعة المنافقين فهم من جانب يعملون على تقوية معنويات حلفائهم بدعوتهم الى التثبيت والمنعة ومن ناحية أخرى يعطوهم عهداً بأنهم سينصرونهم ليثيروا فيهم الاطمئنان وأكثر من ذلك إذا شنوا الحرب فانهم سيشاركونهم وسيعملوا كطابور خامس في صفوف المسلمين وقد جاءت الآية القرآنية لتفضح هذه المؤامرة الدنيئة ﴿ **ألم تر الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم** ﴾ .

ولم يكتف المنافقون بهذا القدر من التآمر بل تركزت جهودهم الحثيثة أيضاً على الطرف الاسلامي من أجل تضعيف ارادة القتال وعرقلة تقدم المسلمين نحو تحقيق الانتصار ففي حصار بني قينقاع وبينما كان المسلمون يحاصرونهم لتحقيق كسب عسكري آخر حاول ابن أُبي ان يمنع المسلمين من ذلك فجاء الى النبي متوسلاً : يا محمد احسن في مواليّ (أي اتركهم وشأنهم) فلم يجبه الرسول فاعاد : يا محمد احسن في مواليّ : فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع الرسول وراح يكرر توسلاته .

فردّ عليه الرسول (ص) :

ويحك أرسلني .

فأجاب ابن أُبي . .

لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ ، اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والاسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ اني والله امرؤ أخشى الدوائر .

فأجابه النبي (ص) هم لك ثم التفت الى اصحابه قائلاً : خلوّهم ، لعنهم الله ولعنه معهم .

والواضح ان النبي (ص) لم يكن قد استقر رأيه على قتلهم فكان رأيه ان يكتفي باخراجهم من المدينة . . وعلى أثر التماسات ابن أبي اراد الرسول (ص) منحه فرصة أخرى ليغير من نهجه فقال له هم لك لكنه في نفس الوقت لعنه أمام المسلمين من أجل أن لا يستثمر ابن أبي هذا الموقف ويثبت من خلاله شرعيته بادعاء ان النبي (ص) قد استجاب له .

٣ ـ تضعيف القوة العسكرية . . ويرمي المنافقون بكافة سهامهم أثناء التهيّؤ للمعركة مع الاعداء فيصبح كل همهم هو تفتيت الارادة القتالية للمسلمين باشاعة الدعايات لاقناع البعض على عدم المشاركة في الحرب أو دفعهم الى الانسحاب أثناء التقدم .

ففي غزوة أُحد أخذ عبد الله بن أُبي يثبط العزائم ويثير المخاوف مركزاً على مقترحه بالبقاء في المدينة والقتال فيها وكان يقول اطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ، وأثّرت اقواله في البعض واستطاع ان يقنع ثلث الجيش المتقدم للمعركة بالعدول عن القتال والانسحاب وجرت محاولات يائسة من قبل المسلمين لاعادتهم الى صف المقاتلين فسعى عبد الله بن عمرو بن حرام الاتصال بالمنسحبين واقناعهم بالعودة قائلاً لهم يا قوم اذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم .

فأجابه بعبارة مستوحاة من دعايات عبد الله بن أُبي . .

لو نعلم انكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى انه يكون قتال .

وعندما باءت محاولاته بالفشل غضب عمرو بن حرام فرد عليهم قائلاً أبعدكم الله اعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه[1] إذ لم تكن الدعايات المضللة ذات مفعول على المؤمنين الصادقين .

وفي غزوة تبوك كرر المنافقون نفس الاساليب التي استخدموها في أُحد لكن بصورة أوسع وأكثر تركيزاً فقد أقام عبد الله بن أُبي لجماعته معسكراً أسفل معسكر النبي (ص) ومن ذلك المركز اخذوا يبثون الدعايات والتبريرات والمخاوف لتثبيط المسلمين فمرة كانوا يتعذّرون بالحر وأخرى بقلة المؤنة وطوراً بقوة العدو واستطاعوا ان يثيروا البلبلة في صفوف المقاتلين مما دفع بالعشرات الى التخلف عن المعركة قدر ابن هشام عددهم بضعة وثمانين رجلاً ومعظمهم من أصحاب الأموال وضعيفي الايمان الذين لم يستطيعوا أن يكيّفوا أنفسهم مع التيار الاسلامي . . وقد استفاد المنافقون من الجو العام الذي كان يحيط بهذه الغزوة فلم يكن العرب يحلمون يوماً من الايام بمقاتلة الروم سيما وانهم قد حققوا لتوهم انتصاراً باهراً على الفرس كما وان توقيت الغزوة كان مع شدة الحر وفي الوقت الذي كانت فيها ثمار المدينة قد حان قطافها فلم يكن سهلاً على الاغنياء ترك هذه الفرصة والمضي الى حرب لا تُعرف نتائجها ولا يعرف ما سيلاقونه في الحر والغربة وكانت الغزوة امتحاناً عسيراً محصّ الله فيه المؤمنين عن المنافقين ، ولا ريب ان بعض ضعاف الايمان قد تأثروا بالحملة الشعواء المضادة للحرب التي شنها ابن أُبي وقد ندموا على تخلفهم من بينهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الذين نزلت في حقهم آية من سورة التوبة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١٧٤ ـ ١٧٥ .

قَبِلَ الله فيها توبتهم وسنأتي الى حكايتهم عند الحديث عن معالجة النبي (ص) لظاهرة النفاق .

٤ ـ إقامة كيان في قبال الكيان الاسلامي :

وازداد عدد المنافقين حتى قيل ان عدد من تخلف مع عبد الله بن أبي كان بعدد الذين كانوا مع النبي (ص) وعلى رغم المبالغة في هذا العدد إلّا ان الواقع يؤكد على تنامي عدد هذه المجموعة التي استفادت كثيراً من سماحة الاسلام وعفو النبي (ص) المستمر لهم .

وبلغ بهذا التجمع حداً ان أوجد لديهم شعوراً بضرورة اقامة كيان في مقابل الكيان الاسلامي ليصطادوا من خلاله المزيد من ضعاف الايمان وكان لا بد من التحرك بصورة غير مثيرة وبالطريقة التي يتمكنوا فيها السيطرة على الرأي العام الاسلامي فأقاموا مسجداً حتى لا تنكشف نواياهم المبيتة وكان وراء قرار بناء المسجد أحد المنافقين هو ابو عامر الراهب وكان قد ترهّب في الجاهلية وقبل ان يقدم الرسول (ص) الى المدينة ومع اسلام أهل المدينة تظاهر ابو عامر بالاسلام لكن ظل على معتقداته السابقة وبعد ان قوي الاسلام بفتح مكة التجأ أبو عامر الى ثقيف ليتمكن من هناك التحرك ضد المسلمين لكن لم يمض وقت طويل حتى اسلمت ثقيف فاضطر ابو عامر الخروج من جزيرة العرب والالتحاق ببلاد الشام بعد أن اعلن تنصره وارتداده عن الاسلام وكان ابو عامر على اتصال مع شبكة من المنافقين المنبثين في المجتمع الاسلامي الذين كانوا يأتمرون بأوامره وكان قد كلف اتباعه بناء المسجد وان يجدّوا في امرهم ووعدهم بأنه سيذهب الى قيصر ويحرضه على ارسال جيش قوي الى المدينة للقضاء على النبي (ص) ومن معه من المسلمين فكان المنافقون يتوقعون ذلك ولكن الله عجل بهلاكه قبل ان يصل الى ملك الروم .

وبُني المسجد بأموال المنافقين وأموال المغفلين عن مؤامرات المنافقين

كابي لُبابة الذي شارك بالمال فقط وقيل ان مؤسسي المسجد هم اثنى عشر رجلاً ذكر المؤرخون اسماءهم وبعد ان أتموا بناء المسجد جاؤوا الى النبي (ص) فقالوا له يا رسول الله لقد بنينا مسجداً لذوي القلة والحاجة والليلة الممطرة وانا نحب ان تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فاعتذر النبي (ص) لأنه كان يتجهز لمعركة تبوك ووعدهم انه سيصلي فيه بعد عودته .

ويفهم من العلاقة بين اقامة المسجد وتهيؤ النبي (ص) لقتال الروم بعد سماعه أنباء عن نية قصير الروم بالهجوم على شمال جزيرة العرب ومطالبة ابو عامر الراهب الاسراع في انجاز المسجد يفهم من ذلك كله ان بناء المسجد لم يكن إلا لغاية أكبر مما ذكره المؤرخون . . فكان وراء بنائه خطة انقلابية للاطاحة بالدولة الاسلامية بالتعاون مع القوى الاجنبية ، وكان دور المنافقين في هذه الخطة هو دور الطابور الخامس الذي يمهد السبيل للغزو الاجنبي ، والذي يؤكد على ذلك المحاولة الفاشلة لاغتيال النبي (ص) بعد عودته من تبوك وبعد ان انكشف امر المتآمرين واصداره قراراً بهدم المسجد واحراقه فقد كمن عدد من المنافقين في طريق النبي (ص) خلف صخرة ووضعوا خطة لاغتياله عندما يصل الى العقبة فيلقوه فيها مستفيدين من ظلام الليل لكن شاء الله ان يحبط هذه الخطة كما حبطت الخطط السابقة .

من هذه القرائن نستدل بأن الهدف الذي كان يسعى من أجله المنافقون هو القضاء على الدولة الاسلامية ولم يتركوا فرصة إلا وترجموه الى حيز الواقع .

سياسة النبي (ص) إزاء المنافقين :

لا نعرف في تأريخ الحكومات سياسة حكيمة اتبعّت في معالجة القلاقل الداخلية كالتي انتهجها النبي (ص) في تعامله الحكيم مع ظاهرة النفاق ، فعلى رغم ما كانت تشكله هذه الظاهرة من أخطار كانت قد تودي بمصير الدولة

الاسلامية إلا ان الحكمة التي اتبعها النبي (ص) في تطويق الظاهرة جعلتها في حالة انكماش مستمر حتى انتهت بنفسها دون استخدام العنف والقوة فموقف النبي (ص) من هذه الظاهرة موقف الطبيب من المرض ، عمل على حصر المكروب في أصغر مساحة ممكنة ثم سد المنافذ التي كانت تزود هذا المكروب بأسباب الحياة مما جعلها غير قادرة على الاستمرار في نشاطها أكثر مما فعلته .

وقد قامت سياسة النبي (ص) اتجاه المنافقين على أسس متينة هي :-

١ - تعامل النبي (ص) مع ظاهرة النفاق في البداية كظاهرة اجتماعية نفسية فلم يعطها جانباً سياسياً ولذلك فقد توسل بالوسائل النفسية والاجتماعية لمعالجة هذه المشكلة والمثل على ذلك تعامله مع ابن أُبي في بداية الأمر ومنعه المسلمين من مسه بسوء على رغم ما فعله من مشاكل .

٢ - تعامل النبي (ص) مع ظاهرة النفاق بصورة مجزأة فعالج كل جزء باعتباره قضية مستقلة عن القضية الاخرى اي انه لم يتعامل مع مشكلة النفاق كحركة وتجمع إلا بعد ان أخذ هذا التجمع بعده السياسي فكانت المعالجة الاجتماعية والنفسية تقتضي علاجاً نفسياً لكل عنصر مشترك في صنع الظاهرة على انفراد ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن هشام في سيرته ان نفراً من المنافقين فيهم وديعة بن ثابت ومخشن كانوا يقولون للمسلمين ؛ اتحسبون ان جلاد بني الاصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأننا بكم غداً مقرنّين في الحبال وعرف النبي (ص) بهم فأرسل اليهم عمار وقال له : ادرك القوم يا عمار وسلهم عما قالوا فإن انكروا فقل لهم قلتم كذا وكذا وانطلق عمار ابن ياسر ولما سألهم عما كانوا يتحدثون به اسرعوا الى رسول الله يعتذرون اليه ، وتقدم وديعة وأخذ بزمام ناقته وقال يا رسول الله لقد كنا نخوض ونلعب ولم نكن جادين في شيء قلناه فعفا عنهم النبي (ص) وانزل الله فيهم : ﴿ **ولئن سألتهم**

ليقولن إنا كنا نخوض ونلعب قل اباالله وآياته كنتم تستهزئون ﴾ .

٢ ـ تحصين المجتمع الاسلامي من آثار وتراكمات حركة النفاق وذلك بالكشف عن هوية المنافقين وعن وسائلهم وطرق تحديّهم للأمة الاسلامية وكان للقرآن الكريم دور كبير في الكشف عنهم وعن مخططاتهم وفي ايجاد المناعة لدى المسلمين ومنعهم من التأثر بهم وكان النبي (ص) يلعنهم بالاسماء حتى لا يدع مجالاً للتأثير في المسلمين .

٣ ـ فرض العزلة عليهم وهو من الاساليب النفسية والسياسية التي استخدمها النبي (ص) لشل حركة النفاق فمن ناحية تشعرهم بأخطائهم الجسيمة ومن ناحية أخرى تقطع الجسور بينهم وبين المجتمع فينقطع تأثيرهم المباشر وينقطع عنهم الامداد المالي لأن الحركة تقوم على تمويل بعض اصحاب الاموال وابرز مثال على هذه القاعدة ما وقع على الثلاثة الذين خُلفّوا فقد فرض النبي (ص) عليهم العزلة حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن امية وكان سبب تخلّفهم عن معركة تبوك هو التسويف وضعف الارادة والتأثر بدعايات المنافقين ولم يكن لكعب عذر في عدم المشاركة فجاء الى النبي (ص) نادماً مقراً بالخطأ وعندما سأله النبي (ص) عن سبب تخلفه فعزى ذلك الى الجدل الذي يؤدي الى حالة التردد وينشأ منها التخلف وكان الرسول قد أنهى الكلام معهم فنبذهم المجتمع وظلوا على هذه الحالة خمسين يوماً اضطر ابن الربيع وهلال بن امية ان يقعدوا في البيت يبكيان واما كعب بن مالك فكان أشبّ الثلاثة واجلدهم فكان يخرج فيشارك في الصلاة مع المسلمين ويطوف في السوق ولا يكلمه احد وكان يأتي رسول الله (ص) ويسلم عليه فيقول في نفسه هل حرك شفتيه برد السلام أم لا فيسارقه النظر فإذا التفت نحوه اعرض النبي (ص) عنه فتنكرت له الدنيا ولم يرض احد ان يكلمه ببنت شفه فجاء الى بستان ابن عمه او قتادة وهو أحب الناس اليه فسلم فلم يرد

ابو قتادة عليه السلام فقال له : يا ابا قتادة انشدك بـالله هل تعلمني حب الله ورسوله ؟ وذلك من اجل ان يجبره على الكلام لكن ابو قتادة سكت ثم اعاد عليه السؤال فسكت ايضا وأخيرا قال ابو قتادة الله ورسوله أعلم ، فزادت الكارثة على رأس كعب بن مالك عندما جاء الى زوجته ليجدها قـد عزلتـه أطاعـة لأوامـر رسول الله .

وعرف ملك غسان بالامر فارسل كتابا الى كعب يقول فيه انه قد بلغني ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحِق بنا نواسك ، وكان الملك يتوقع ان كعباً سيستجيب له بسرعـة وانه سيستخـدم ذلك ورقـة يانصيب مع المسلمين الآخرين الذين يتعرضون لمثل هذه المحنة لكن ماذا كان جواب كعب للعروض التي قدمها ملك غسان .

اخذ الرسالة فاحرقها في التنور وبهذا الموقف الصلب برهن كعب على اخلاصه واستقامته فتقبل الله توبته فنزلت في حقه والاثنين الآخرين ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الـرحيم** ﴾ . . ونستخلص من هذه الحكـاية الاسـاليب التربـوية التي اتبعهـا النبي (ص) في معالجة المشاكل من هذا القبيل ، فالنبي (ص) لم يكتف بفرض العزلة الاجتماعية بل طبق على هؤلاء الثلاثة الذين لم يأتوا بعذر مشروع لغيابهم عن غزوة تبوك العزلة الاقتصادية ايضاً وامتد قانون العزلة حتى داخل البيت . ويمكن لمس آثار المقاطعة التامة سيما مقاطعة النبي (ص) لكعب على نفسيته ونقف في هذه الحكاية عند معاودة الاعداء على استثمار هذه المقاطعة ومحاولة كسب كعب بواسطة تلك الرسالة الجذابة التي ارسلها ملك غسان وننظر ايضاً

الى نهاية الحكاية والتي تُوجّت بقبول التوبة عن الثلاثة الذين خُلّفوا وهي تؤكد فاعلية اسلوب المقاطعة في تغيير المواقف والسلوك الانساني .

٤ ـ ملء أوقات المسلمين . . فأفضل طريقة لمواجهة الدعايات هو أن يبادر القائد ويتصل بجماهيره بصورة مباشرة وعبر التوجيه المكثف والمتواصل ليمحي اثر الدعاية مهما كانت قوية. هكذا كان يفعل رسول الله (ص) في مقاومة الدعاية المضللة فهو لم يدع مجالاً لهذه الدعايات من النفوذ داخل صفوف المسلمين فكان رده يأتي سريعاً واسرع حتى من حركة الدعاية في المجتمع ، ففي عودة النبي (ص) من غزوة بني المصطلق وقعت مشكلة كادت ان تثير فتنة بين المسلمين سببها مقولة عبد الله بن أُبي فما كان من النبي (ص) عندما بلغه ذلك إلا وان يأمر اصحابه بالرحيل ولم يكن الرحيل مقرراً في تلك الساعة ، ومشى بالجيش طوال الليل وشطراً من اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس فنزلوا وقد انهكهم السير ولم يمكثوا قليلاً حتى امرهم بالسير الى المدينة فلم يدع مجالاً لانتشار الخبر وعندما انتشر حديث الأفك بين الناس سارع النبي (ص) ليقف خطيباً ليقول : ايها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت فيهم إلا خيراً وما علمت في ذلك الرجل سوءا ولم يدخل بيتاً من بيوتي إلا وانا معه ويجري النبي (ص) تحقيقاً سريعاً ويطلب من الموكلين بالتحقيق ان ينقلوا للملأ تفاصيل الحادث ، هكذا كان رسول الله (ص) يتحرك مع النشاط الدعائي الهدام الذي كان يقوم به المنافقون فهو كان يرد بالمنطق والعقل ولم يسكت على الدعايات المضللة ولم يحاول ان يتهرب من الرد ولم يتجاهلها بالرغم من تفاهتها وتعرضها غير المباشر لشخصيته الكريمة .

٥ ـ استعمال العنف : وذلك عندما تتحرك حركة النفاق من ظاهرة اجتماعية الى ظاهرة سياسية عندها لا يجدالنبي (ص) وسيلة للمقاومة سوى

التوسل بالعنف لتصفية التحرك .

وحتى في هذه المرحلة لا يتوسل النبي (ص) بالقتل بل كان يكتفي بايقاف التحرك الذي يقوم به المنافقون ففي غزوة تبوك كان المنافقون يجتمعون في بيت من بيوت اليهود يثبّطون عزائم الناس ويخوفونهم من لقاء الروم ويتآمرون على عرقلة مسيرة الجيش الى تبوك بالتعاون مع طائفة اليهود الاعداء وعندما بلغ الخبر النبي (ص) ارسل الى بيت طلحة بن عبيد الله في نفر من اصحابه فأشعلوا النار في البيت فانهزم المتآمرون وفر احدهم من خلف البيت فسقط فكسرت رجله . ومرة ثانية لم يتردد رسول الله (ص) في استخدام القوة عندما عقد المنافقون عزمهم على اتخاذ مسجد ضرار مكاناً للتآمر على المسلمين بالتعاون مع الروم فأرسل ايضاً جماعة من اصحابه لهدم المسجد واحراقه لكن اسلوب العنف لم يتعد ذلك ، فقد كان الهدف هو الحيلولة دون اصطباغ الحركة بالطابع السياسي باتخاذ الاوكار والمراكز ومنع تطور حركة النفاق الى مستوى التأثير الحاسم وقد استطاع بهذه الاساليب الحكيمة ان ينهي هذه الحركة ويزيلها من الوجود وربما كان يستشري شرها لو كان الرسول (ص) يستخدم القوة في بداية الأمر .

فقد ترك الحركة لتنتهي بنفسها فانتحرت بايديها ويعود الفضل في ذلك الى سياسة التعامل فقد تعامل معها كما يتعامل الطبيب مع المريض فالطبيب يعمل على حصر المرض في أضيق مكان ويعمل ايضاً على تقوية الجسم واعطائه المقاومة اللازمة ليتمكن بنفسه ان يقضي على المرض والحكمة في ذلك انه سيتولد في الجسم مناعة مضادة ضد هذا المرض سيجنبه الاصابة به لامد طويل .

وانتهت الحركة الى مصير معلوم فبعد موت عبد الله بن أُبي تفرق جمع المنافقين فبعضهم عاد الى حظيرة الاسلام تائباً الى الله مثل متعب بن قشير

الذي كان من العناصر النشـطة في معركة أحد يومها كان يردد لو كان لنا من الامر شيء ما قُتلنا ها هنا فقد ذكر ابن حجر في الاصابة انه تاب ومن التائبين ايضاً هلال بن أمية . . واما الآخرون فقد جمّدوا نشاطهم بعد وفاة زعيمهم ولم يعد يُسمع لهم ذكر بعد السنة التاسعة للهجرة .

الفئة الثالثة .. المؤلفة قلوبهم :

شهدت الحياة الاقتصادية في جزيرة العرب فترة ظهـور الاسلام تـطوراً نوعياً فقد انتقل قسم من المجتمع من حياة البداوة الى الحياة الحضرية وقد رافق هذا الانتقال تغيّر في التكوين الاقتصادي لحياة المدن فبعد ان كـانت الحياة الاقتصادية في الصحراء حياة متواضعة بسيطة أصبحت الحياة في المدينة أكثر تعقيداً ودخلت التجارة كعنصر هام في قلب موازين الحياة في الحضر فقد جلبت التجـارة الاموال الـطائلة ودفعت بأصحـاب رؤوس الاموال الى صـرف بعض الاموال على الترف والراحة فظهرت حياة ارستقراطية في المدن وبالأخص مكة التي كانت مركز التجارة في جزيرة العرب ورافق هذا التحول الاقتصادي بروز بعض سمات الحضارة المادية كالنفعية والبحث عن الربح وتسخير كل شيء من أجل المنافع الاقتصادية . فقد استثمرت قريش المكانة الدينية لمكة لمنافعها التجارية فتمسكت بالوثنية لأنها كانت السبيل للمحافظة على مكانة مكـة(في جزيرة العرب) وبالتالي فهو الضمان لبقاء زمام التجارة بأيديهم .

وعندما جاء الاسلام قاومت قريش الدين الجديد خوفاً منها على مصالحها وعاداتها وتقاليدها فالاسلام يساوي بين السيد والعبد وبين الغني والفقير وهذا

يتناقض مع نظام الطبقات في مكة بالاضافة الى ان الدين الاسلامي يؤمن بالله موجود في كل مكان ويمكن ان يعبد في أي مكان وهذا ما يؤثر على منزلة مكة حسب اعتقاد قريش باعتبار ان مكة هي مركز الاوثان في جزيرة العرب . لهذا وجدنا ان زعماء قريش ووجهائها لم يرفضوا فقط الدين الجديد بل حاربوه بضراوة ، غير ان قيام الدولة الاسلامية في المدينة أوجد لدى المسلمين فرصة وضع العراقيل أمام التجارة المكية فأصبحت تجارته تحت رحمة المسلمين وكانت تحدو النبي (ص) رغبة تحرير مكة بدون قتال لأنها مدينة مقدسة ولم يكن يريد النبي (ص) إضعاف مكانتها كمركز عبادي وتجاري كما انه كان على بيّنة من امر زعماء قريش وان سبب رفضهم للاسلام هو غرورهم بأموالهم فإذا ما استطاع النبي (ص) تهديد منافعهم ثم تضمينها فإنه سيتمكن من السيطرة على مكة فوجدناه يتحاشا الصدام العسكري ويعقد صلحاً مع قريش هو صلح الحديبية ثم تتنكر قريش لبنود الصلح فيجهز الرسول جيشاً جراراً كان باستطاعته ابتلاع القوة العسكرية التي تمتلكها قريش في ساعات لكن الرسول ظل على سياسته في تحرير مكة سلمياً ودفع زعمائها الى الاسلام وقد تحقق له ما شاء ففتح مكة دون اراقة الدماء ومنح زعماء مكة فرصة التفكير قبل اعلان اسلامهم لكنهم ادركوا بالبديهة ان اسلامهم يعني ضمان وضعهم الاقتصادي بل زيادة على ما يمتلكون فانهم سيحصلون على سهم من الغنائم . وهذا الذي حصل فعلاً بعد غزوة حنين حيث اعطى رسول الله زعماء قريش وسادتها ووجهائها مائة بعير وفضلّهم في العطاء على الانصار والمهاجرين . فعن طريق المال كان رسول الله يأمن شرهم ويكسبهم الى جانبه لأنه كان على علم بأن هؤلاء ليسوا رجال عقائد بل رجال منافع فأينما اتجهت المنافع اتجهوا اليها وسموا بالمؤلفة قلوبهم وأصبحوا يشكّلون بوزنهم الاجتماعي وخبرتهم في السياسة والقتال وبالأموال التي يمتلكوها قوة ذات اهمية في الخريطة السياسية وابرز هؤلاء المؤلفة قلوبهم :

أبو سفيان وولديه معاوية ويزيد ، حكيم بن حزام بن خويلد وهو ابن أخت خديجة زوجة النبي (ص) ، العلاء بن جارية ، الحارث بن هشام بن المغيرة وهو سيد بني مخزوم ، صفوان بن أمية وهو ابن الطاغية أمية بن خلف وكان من اثرياء قريش هرب يوم فتح مكة الى ساحل البحر الاحمر ومكث مطارداً حتى حصل على أمان رسول الله (ص) ، استدان منه رسول الله (ص) (٥٠ ألف درهم)لتوزيعه على المحتاجين من الانصار والمهاجرين ، سهيل بن عمرو وهو مبعوث قريش الى النبي (ص) في صلح الحديبية وكان خطيباً بارعاً ، حويطب ابن عبد العزي وكان من أثرياء قريش استدان منه النبي(٤٠ ألف درهم) ، مالك بن عوف كان رئيس هوازن يوم حنين وكان اهله ضمن أسرى في غزوة حنين وامواله ضمن الغنائم لكنه فلت من المسلمين وتحصن من جديد لقتال المسلمين لكن رسول الله أملّه باعادة أمواله وأهله إذا ما اسلم فاستجاب لرأي رسول الله فأعطاه الرسول بالاضافة الى ذلك مائة بعير من غنائم حنين .

ومن المؤلفة قلوبهم أيضاً عيينة بن حصن ، الاقرع بن حابس ، هشام بن عمر ، قيس بن عمر ، سعيد بن يربوع ، عثمان بن وهب ، العباس بن مرداس ، مخرمة بن نوفل ، عمير بن وهب ، النضر بن الحارث ، أسيد بن الحارث .

وللوهلة الأولى نجد ان هؤلاء كانوا يشكلون واجهات اجتماعية أو رؤساء عشائر أو تجار لهم خبرة في المعاملات التجارية وكان انضمامهم للمسلمين ذو فوائد جمة سياسية واجتماعية واقتصادية فهؤلاء هم رموز الشرك فأعلانهم الاسلام كان يعني انتهاء عهد الشرك الى الأبد كما وان لكل واحد من هؤلاء عدد كبير من التابعين فاسلامهم سيؤدي الى اسلامهم ايضاً ، كما ان بعض هؤلاء من اصحاب الاموال يمكن الاستفادة من اموالهم بالاستدانة منهم والاستفادة من خبراتهم التجارية .

فالسياسة التي اتبعها الرسول (ص) في مكة قامت على جذب هؤلاء الى صف الاسلام فمن ناحية أكدّ على مكانتهم عندما اعلن بأن من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن اما ولاية مكة فقد منحها لواحد من بني أمية هو عتّاب بن أسيد وأيضاً ابقى مالك بن عوف على زعامة قبيلته وهذا يؤكد بأن النبي (ص) لم يشأ احداث تغيير يشمّ منه المكيون رائحة الخطر فقد طمأنهم النبي (ص) بتلك الخطوات التي قام بها بعد ذلك بذل عليهم المال السخي من أجل ان يضمن ولائهم ، في نفس الوقت عمل رسول الله على دمجهم بالمجتمع الاسلامي على رغم صعوبات ذلك لأن بعض هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا بعيدين كل البعد عن مجالات الاعتقاد والايمان . . إلا ان محاولات الدمج نجحت في بعض هؤلاء فقد برز بين هؤلاء المؤلفة قلوبهم من حَسُن ايمانه هو بن عمرو فقد أثمرت محاولات النبي (ص) في تغييره حتى أصبح يقول والله لا أدع موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا انفقت على المسلمين مثلها ، وكان رسول الله (ص) يطيل معه اللقاء فقد نقل الينا سهيل بن عمرو جملة من الروايات منها هذا الحديث سمعت رسول الله (ص) يقول : مقام احدكم في سبيل الله ساعة من عمره خير من عمله عمره في أهله.

وكان لسهيل دور بارز في الوقوف بوجه الردّة في مكة بعد وفاة النبي (ص) فقد خطب في أهل مكة وطالبهم الاستمرار في ولائهم للاسلام وبعد ان استقرت الاوضاع ذهب سهيل بن عمرو الى الشام وهو يقول أرابط حتى أموت ولا أرجع الى مكة . فكم بلغ التحول في هذا الرجل الذي بدأ حياته ضمن مجموعة المؤلفة قلوبهم ليؤكد بأن ليس كل الذين كانوا ضمن هذه المجموعة بقوا ضعيفي الايمان .

فهناك من بقي على حاله كأبي سفيان ومعاوية الذين ظلا على نظرتهما

واهدافهما مثلما كانا أيام الجاهلية .

وعلى الرغم من أن المؤلفة قلوبهم لم يظهروا بصورة كيان سياسي إلا انهم بعد وفاة الرسول (ص) أخذوا يخططون للتسلل الى السلطة ، فتمكنوا في عهد الخليفتين عمر وعثمان ان يحققوا خطتهم فأصبح معاوية والياً على الشام فمهّد الطريق للاستيلاء على الحكم وتحويل الحكم الاسلامي الى ملكية .

فقد لعب المؤلفة قلوبهم دوراً خطيراً في تاريخ الاسلام وتسببوا في تحريف الدولة الاسلامية عن النهج الرسالي من خلال النظام الذي أوجدوه خلال فترة حكمهم .

فلقد بذل رسول الله (ص) جهداً كبيراً من أجل دمج هذه الشريحة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي وتذويبها في العقيدة الاسلامية لكن البعض من هؤلاء كان يحمل في قلبه وسادة تمنع من دخول الايمان واستقراره من أمثال أبي سفيان ومعاوية وكان وجودهم يشكل خطراً على الاسلام كالمنافق فكان رسول الله (ص) يعمل على تفهيم الأمة بحقيقتهم لدرء مخاطرهم فقد ذكر الطبري ان النبي (ص) رأى أبا سفيان مقبلاً على حمار ، معاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به فقال : لعن الله القائد والراكب والسائق[1] .

وعن ابي سعيد الحذري وعبد الله بن مسعود قال رسول الله : إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه[2] . . فقد كان رسول الله (ص) يخشى ان يقوى هذا التيار فيصبح قادراً على تحريف المسيرة الاسلامية وهو الذي حدث فعلاً عقب فترة من وفاته (ص) .

---

(١) تاريخ الطبري : ج١١ ص٣٥٧ .

(٢) السيوطي ، اللآلي المصنوعة : ج١ ص٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

السياسة الخارجية للدولة الاسلامية :ـ

لم تقم الدولة الاسلامية في محيط منعزل ومنفصل عن شعوب العالم ولم يكن الرسول(ص) ينوي اقامة دعوته بمعزل عن تلك الشعوب مثل اليهودية فهو يحمل رسالة عالمية لكل الشعوب فكان لا بد من اختيار المكان المناسب لهذه الدعوة وكانت المدينة أفضل مكان لنشر الدعوة الى الآفاق إذ كان في المدينة تجمعات فكرية تنتمي الى اليهودية والنصرانية وهي أيضاً تعتبر جسراً لامتدادات الشعوب القاطنة حول جزيرة العرب .

وكان واضحاً لدى النبي (ص) انه ذاهب الى مكان يشتمل على اتجاهات سياسية مختلفة فكان عليه ان يضع خطوط سياسته أزاء تلك الأقوام التي لا يجد بُداً من التعامل معها سلباً أو ايجاباً .

ومع أول قدومه للمدينة بدأ يرسم معالم سياستها الخارجية التي تناولت في الوهلة الاولى التجمعات اليهودية ثم بعد ذلك أخذت تتكامل هذه السياسة مع اتساع روابط الدولة الاسلامية مع التجمعات الاخرى ومع قيام صيغة جديدة في العلاقة بين الكيان الاسلامي والكيانات الاخرى .

وإذا تعمقنا في النهج السياسي الذي سلكه النبي في علاقاته الخارجية

نجد ان هذا النهج يقوم على عدة أهداف مركزية هي :ـ

١ ـ نشر الدعوة الاسلامية . . فبداية العلاقة بين الاسلام والأديان الاخرى كانت علاقة حوار استهدفت التأثير في المنتمين الى الديانات الاخرى . ويذكر لنا التأريخ ان عدداً من أحبار اليهود ورهبان النصارى قد آمنوا بالنبي (ص) وحتى في مراحل الصراع المسلح كانت الغاية هي نشر الاسلام وايصال تعاليمه الى الشعوب الاخرى وسنأتي الى ذكر هذه الأمور في فصول قادمة .

٢ ـ كسب وضع أفضل للدولة الاسلامية : فقد أرسىٰ النبي (ص) سياسته الخارجية سواء مع اليهود أو مع قريش سواء كانت سياسته السلمية أو الحربية لتحقيق هذه الغاية . فقد كانت الدولة الاسلامية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب ومكان ولم يكن أمام انطلاق المسلمين إلا كسر القيود التي كانت من حولهم بايجاد أوضاع أفضل تتمكن من خلالها الدولة الاسلامية من التحرك بحرية كافية في جزيرة العرب وخارجها .

فالاتفاق الذي أبرمه النبي (ص) مع اليهود في بداية تشكيل الدولة الاسلامية كان ضرورياً من أجل بناء البيت الداخلي للمسلمين . ثم ان اخراج القبائل اليهودية من المدينة بعد نكثها للاتفاقية كان قد أوجد لدى الرسول (ص) فرصة لفرض إلسيادة التامة على المدينة . وان الحرب او السلم مع قريش كان لتحقيق نفس هذه الغاية . ولو شئنا التدقيق في معالم أهداف كل خطوة خطاها النبي (ص) لوجدنا ان وراء كل خطوة قراراً حكيماً وان نتائج كل خطوة كانت لصالح الدولة الاسلامية مما يؤكد بأن هناك هدفاً مركزياً كان يسعى اليه النبي (ص) من وراء سياسته وهو ايجاد وضع أفضل للدولة الاسلامية .

٣ ـ تحاشي الاقتتال . . وكان من بين الأهداف الرئيسية التي سعى اليها النبي (ص) هو تحاشي الاقتتال والتوسل بأية وسيلة يمكن بها ضمان تحقيق أهدافه دون حمل السلاح . فكان من بين الوسائل التي اختارها عقد الاتفاقيات

وابرام المعاهدات وارسال الرسل وتبادل الرسائل . فقد تحاشى الصدام مع اليهود عند وصوله الى المدينة فعقد معهم الاتفاقية التي وردت بنودها في الصحيفة ونفس الشيء بالنسبة الى نصارى نجران فقد عقد معهم اتفاقية يعطون على أساسها مقداراً من المال في قبال توفير الحماية لهم على ان يبقوا على دينهم وممارسة طقوسهم ونجده أيضا (ص) ينتهج هذا النهج حتى مع قريش فهو يجهد نفسه من أجل ان يسلك طريقاً لا يؤدي الى اراقة الدماء . ومعظم اتفاقيات الصلح التي أبرمها النبي لم تكن بسبب الضعف العسكري بل وراءها جميعاً غايات نبيلة كان النبي (ص) يسعى اليها دون اراقة الدماء . ولم يكن النبي (ص) ليرفع السلاح إلا عند الاضطرار وفي حالات الدفاع عن النفس .

٤ ـ تحقيق العدالة بين الشعوب . . فالإسلام دين عدالة وقوانينه هي لانقاذ البشرية من التخلف والاضطهاد وكان من واجب كل مسلم تطبيق قوانين الاسلام لتحقيق العدالة بين الشعوب حتى غير المسلمة فقد لا يشترط على تلك الشعوب تغيير معتقداتها واعتناق الاسلام لكنه قد يشترط عليها الامتثال لقانون العدالة التي جاء بها الاسلام والذي يضمن لها الخير والسعادة وهذا هو هدف مركزي سعى اليه النبي (ص) عندما عقد مع القبائل معاهدات يفرض عليها الالتزام بقوانين العدالة مع انه لا يفرض عليها العقيدة الاسلامية .

وأول معاهدة عقدها النبي (ص) مع اليهود كانت تتضمن هذا المعنى ، فقد اشترطت الصحيفة أن تحال القضايا المتنازع عليها الى النبي (ص) باعتباره المنفّذ للعدالة .

عندما وقعت حادثة زنا قام بها يهودي محصّن اضطروا امتثالاً لبنود الاتفاقية ان يرفعوا القضية الى النبي (ص) لكن أحبارهم قالوا لهم إن حَكَمَ بالرجم فارفضوا وان كان بغيره فاقبلوا فرفض النبي (ص) ان يحكم بغير

الرجم . من هنا ندرك ان النبي (ص) رضي ان يبقى اليهود على دينهم لكنه لم يقبل أي تنازل عن قوانين الاسلام لأنها قوانين عادلة من شأنها اسعاد الانسان ووضعه على طريق الخير .

فإذا لم تُجبر الدولة الاسلامية ارباب الديانات على أعتناق الإسلام فإن عليها ان تعمل من أجل سيادة العدالة وسيادة القوانين الالهية على كافة الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية وهو هدف لا يمكن التساهل عليه بأي وجه .

جبهة عريضة للموحدين

من الاهداف التي عمل من أجلها النبي (ص) في بداية تشكيل الدولة الاسلامية هو اقامة جبهة عريضة بين المؤمنين بالديانات الثلاثة الاسلام واليهودية والنصرانية في قبال العدو المشترك وهو الوثنية .

فمرحلياً كان لا بد من السعي لتطهير جزيرة العرب من براثن الشرك المستشري في صفوف المجتمع والذي كان السبب وراء كل مظاهر التخلف والعجز والانحطاط في ذلك المجتمع . فقد رأى رسول الله (ص) اشراك أصحاب الديانات التوحيدية الاخرى في هذه المهمة وان تكون تصفية الوثنية مهمة خاصة به .

فكانت أول خطوة على طريق تنفيذ هذا المشروع هو عقد الاتفاقية مع اليهود وكانت من أهداف الاتفاقية رص الصفين الاسلامي واليهودي في قبال قريش التي كانت تمثل الكيان السياسي للشرك .

وخطى الرسول (ص) خطوة أخرى باجراء الاتصالات مع نصارى نجران وفتح أبواب الحوار المباشر مع قادة وعلماء النصارى فقد أرسل أهالي نجران وفداً من ستين راكباً بعد تلقيهم رسالة من النبي (ص) يصف فيها القواعد التي يمكن على أساسها قيام التفاهم بين المسلمين والنصارى . واجتمعت الاديان

الثلاثة على مائدة الحوار الفكري فدعاهم رسول الله (ص) الى الالتزام بالحدود المشتركة من العقائد الثلاثة قائلاً لهم : ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ .

وتشكّل هذه الآية الكريمة قاعدة راسخة في التفاهم العقائدي فهي قدمت لأصحاب الديانتين عروض مغرية فأعلنت المساواة بين المؤمنين بهذه الاديان الثلاثة وان يكون محور اللقاء هو التوحيد وعدم الاشراك بالله وان يصبح الحق هو معيار السلوك .

وعندما سئل رسول الله (ص) عن هوية العقيدة الاسلامية قال لهم : آمنا بالله وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ثم بيّنَ لهم النبي (ص) موقف المسلمين من عيسى بن مريم منكراً على النصارى عقيدتهم في التثليث واقرارهم بألوهية عيسى قائلاً لهم ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .

وكانت الغاية من هذا اللقاء هو تصحيح معتقداتهم وكشف جوانب التحريف في اليهودية والمسيحية . ووقع الاختلاف الشديد بين اليهود والنصارى إذ قالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وقال اليهود ليست النصارى على شيء . ودار نقاش ساخن وجدال عنيف أدلى كل منهم بما عنده .

فأنكر اليهود رسالة عيسى (ع) ورسالة النبي محمد (ص) معتقدين بأن الرسل يجب ان يكونوا من بني اسرائيل وزعموا ان عزير هو ابن الله وانجر الحوار الى جدل غير مجدي والى تعصب المسيحيين عند رأيهم فلم يبق أمام رسول الله سوى دعوتهم الى المباهلة : ﴿ **فمن حاجك من بعد ما جاء من العلم**

فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ وذكرت كتب السير ان النبي (ص) جاء ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين للمباهلة . وعندما رأوا الجدية على محيا النبي (ص) انسحبوا خوف افتضاح أمرهم واجتمعوا للتشاور فيما بينهم فالتفوا حول كبيرهم ابي حارثة العاقب فقالوا يا عبـ المسيح ماذا ترى فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم ان محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم .

فأجمعوا عند رأي واحد هو ان ينسحبوا من المباراة فأتوا الرسول (ص) قائلين له يا أبا القاسم : قد رأينا ألا نلاعنك وان نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث رجلاً معنا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فانكم عندنا رضا .

وباءت محاولات النبي (ص) في توحيد الديانات الثلاثة بالفشل أمام تعنت اليهود وصلفهم ورفضهم للأسس المشتركة بينهم وبين الاسلام وبينهم وبين المسيحية .

فقد ظلوا مصرين على انحرافهم الفكري رافضين أية دعوة لتصحيح معتقداتهم وظلّ الرسول (ص) ولمدة وهو يناقشهم في أفكارهم بهدف تصحيحها فلو كان اليهود قد صححوا أفكارهم لكانوا قد قبلوا بعروض النبي (ص) ولوافقوه على رسالته لأنهم يجدونه في كتابهم المقدس الا ان عنادهم وعنصريتهم العمياء جعلتهم يستبعدوا أي تقارب فكري مع المسلمين واي تعاون مع النبي محمد (ص) .

العلاقة مع اليهود :

كـان من المفترض ان يسـارع اليهود لتـأييد النبي محمـد (ص) لأنهم أصحاب دين ورسالة وان ذكر النبي (ص) قد جاء في التوراة كما أشارت الآية القرآنية﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبـاً عندهم في التـوراة والانجيل** ﴾[1] كمـا وان هناك مشتـركـات بينهم وبين المسلمين هـو التوحيد وانهم كانوا يتوجهون في العبادة الى بيت المقدس في بداية الأمر . كما وان القرآن الكريم جاء على ذكر موسى وتفاصيل عن حياته وصراعه مع فرعون وذكر نبذاً من حياة بني اسرائيل . في ذات الوقت كان اليهود يتوعدون أعدائهم بالنبي (ص) الذي سيبعث وانه سيقضّ مضاجع أعداء اليهـود . وعلى أساس هذه الخلفيات كان المتوقع من اليهود ان يساندوا النبي (ص) ويكونوا أول مؤمن به . لكن عنادهم وعنصريتهم (إذ كانوا يعتقدون بأن الرسول المنتظر يجب ان يكون من بني اسرائيل) جعلهم يفترقون عن الاسلام باستثناء عدد ضئيل من علمائهم الواعين من أمثال عبد الله بن سلام .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧ .

أما النبي (ص) فقد أبدى نحو اليهود درجة عـالية من حسن النيـة عند وصوله الى المدينة فقد ارتأى تقريب الطائفتيـن أمـة (المدينة) تضم بـالاضافـة الى المسلمين اليهود ايضاً وأعلن بنود المشروع الوحدوي في الصحيفة التي رسمت السياسة العامة وطريقة التعامل مع اليهود المتحالفين مع العرب . وكان لليهود تحالف مع الأوس والخزرج لكنهم كانوا يستثمرون تحالفهم من أجـل تمزيق القبيلتين فقد أبقى النبي (ص) على تحالفهم لكن هذه المـرة مع أمـة واحدة وليس مع أمتين مما سلب من اليهود القدرة على المناورة وبث النزاعات الداخلية ، كما وسلب منهم القدرة على فرض آرائهم على المسلمين فقد كان هدف اليهود من حسن استقبالهم للنبي (ص) هو استقطابه الى جانبهم وجعله تابعاً لهم وكانوا يرسلون أحبارهم لمناقشة النبي (ص) في أمور العقيدة وكان النبي (ص) يجيبهم على كل ما يسألون ويدحض افتراءاتهم وأكاذيبهم .

ويوماً بعد آخر أصبح يتضح لليهود ان عقيدة التوحيد التي يدعوا اليهـا النبي (ص) ليست بالصورة التي يعتقدونها وانهم غير قادرين على التفاهم معه لأنه يقرّ المساواة بين كل الاقوام ولا يعطي لقوم أفضلية على قوم آخرين بخلاف عقيدتهم القائمة على حصر الايمان بقوم معين وجعـل هذا القـوم على رأس الأقوام .

وانقطعت جسور التفـاهم بصورة كـاملة عندمـا آمن عبد الله بن سـلام برسول الله (ص) متحدياً العقيدة اليهودية ومتجاهـلاً عشيرتـه وقومـه وكان من زعماء بني قينقاع .

فقد أراد عبد الله بن سلام ان يكون اعلانه عن اسلامه بطريقة تفاجىء اليهود فقدم عدد من يهود بني قينقاع الى النبي (ص) وعبد الله بن سلام مختبئاً في احدى الغرف ولا يعلم باسلامه أحد . فأعلمهم بذلك فقالوا له كذبت ثم دفعوه بقوة .

ومن الذين آمنوا به أيضاً مخريق من بني ثعلبة وكان حبراً كبيراً غنياً يملك الأراضي الكثيرة والمحاصيل الوفيرة .

وظلت العلاقات تتوتر اكثر فأكثر كلما مضى النبي (ص) نحو تطبيق الشريعة الاسلامية فحرّم الربا ثم حرّم الخمر وكانت هذه التشريعات مدعاة للمزيد من الحقد لأنها طعنت بمصالح اليهود بعد ان نسفت عقيدتهم فازدادوا عداوة وحقداً . وهنا بدأ فصل جديد من العلاقة بين النبي (ص) واليهود اتسمت بالتشنج والتآمر ووصلت الى مستوى العنف وحمل السلاح وبذلك انتهت محاولات النبي (ص) في كسب ود اليهود .

وقد تحدّث المستشرقون سيما اليهود منهم كثيراً حول هذه النقطة فاعتقدوا ان النبي (ص) صاغ عقائده في بداية أمره في المدينة بالصورة التي يستطيع بها كسب اليهود فقد اعتبروا التوجه الى بيت المقدس اثناء الصلاة والصيام يوم عاشوراء هو تنازل من النبي (ص) من أجل ترغيب اليهود في الاسلام[1] وهو كلام لا يتطابق مع الحقيقة لأن ما ذكره من تنازلات لا علاقة لها باليهود بل هي من صلب الدين الاسلامي ، وعندما تغيّر موضع القبلة الى الكعبة جاء اليهود الى النبي (ص) وترجوا ان يستقبل بيت المقدس وعرضوا له انهم سيؤمنوا به إذا ما أطاعهم في هذا الأمر ولم يتوقعوا ان عروضهم المغرية ستقابل بالرفض . وأمامنا صور كثيرة عن مطالب اليهود في لقاءاتهم مع النبي (ص) كان يرفضها لأنها تتعارض مع الواقع ومع الشريعة فلو كان النبي (ص) يريد التنازل لليهود لتنازل لهم فكسب ودهم ولو تبحّر المستشرقون قليلاً في تأريخ العلاقة بين الاسلام واليهود لوجدوا ان جذور العداء الذي

---

(١) أنظر الجزء الثاني من كتاب محمد في المدينة، تأليف مونتجمري وات، محاولات محمد للتفاهم مع اليهود: ص٣٠٢. وانظر الى كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية، تأليف بروكلمان: ص٤٧ .

استحكم بين اليهود والنبي (ص) منشأه هو عدم تنازل النبي (ص) ، فلو كان النبي (ص) قد أذعن لليهود ولم يصدمهم بأفكارهم المناقضة للعقيدة اليهودية لكانوا قد أعلنوا تأييدهم ومؤازرتهم له ، وقد ورد هذا الاشكال على لسان أحد المستشرقين الذي أخذ على النبي (ص) موقفه الصلب من اليهود وانه دعاهم الى الاعترف برسالته التي تختلف عن العقيدة اليهودية فيقول ولفنسون في تأريخ اليهود في بلاد العرب ص١٢٢ لو وقفت تعاليم النبي (ص) عند حد محاربة الوثنية فحسب لما وقع نزاع بينهم وبين المسلمين ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول (ص) ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطم الاصنام ويقضي على العقائد الوثنية .

فباعتقاد ولفنسون ان منشأ الصراع مع اليهود هو النبي (ص) وليس اليهود على عكس نظرية بروكلمان ووات وغيرهما الذين قالوا ان النبي قدّم التنازلات الكافية لليهود وكانوا يطمحون للمزيد ولا مجال لطرح آراء بقية المستشرقين الذين وجدوا في العلاقة بين اليهود والمسلمين مادة دسمة للبحث والتحليل وقذف الدعايات وتوجيه الافكار المناهضة للاسلام . المهم ان هذه العلاقة كانت مرشحة للتوتر منذ اليوم الاول الذي قابل به بعض زعماء اليهود الرسالة الاسلامية . فقد كانوا على يقين من سلامة الدعوة الاسلامية وسلامة ما جاء به النبي (ص) لكنهم مع ذلك خالفوه وحاربوه وليس أدل على ذلك ما ذكرته صفية بنت حي بن أخطب وهو حديث نقله ابن اسحاق في سيرته قالت : كنت أَحَبَ وُلد ابي اليه والى عمي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونهم ، فلما قدم رسول الله المدينة ونزل بقبا في بني عمر وبني عوف غدا عليه أبي حيّ بن أخطب عمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا فهششت اليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت اليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمي أبا ياسر يقول

لابي حي بن أخطب أهو هو ؟ قال ؛ نعم والله ، قال : اتعرفه وتثبته قال نعم ، قال فما في نفسك منه ، قال عدوٌإنه والله ما بقيت . هذه الحكاية تؤكد ان اليهود كانوا قد قرروا المواجهة مع النبي (ص) في اللحظات الاولى من وصوله المدينة واستقبال الأوس والخزرج له ذلك الاستقبال الحافل ودخولهم في دينه وكلما قوي الدين وازداد المسلمين ازداد غيظ اليهود لكن لم يكن أمامهم خيار سوى مسايرة الوضع الجديد لترقب نتائج خططهم القاضية بالفتك بالرسول أو الحيلولة دون الاستمرار في نشاط الدعوة .

المواجهة :

فشلت كل المحاولات لايجاد علاقة طيبة بين اليهود والمسلمين وكانت هذه المحاولات تمضي الى الانهيار كلما زاد اليهود في تعنتهم وتكبرهم فأصبحت المواجهة قضية حتمية بين الطرفين لكنها سارت بصورة تدريجية حتى بلغت أوجها في المعارك الحاسمة التي أجليت على اثرها القبائل اليهودية .

١ ـ المعركة الكلامية :

في بداية الأمر انطلق اليهود في استخدام أبواقهم الاعلامية وهم المعروفون بالدعاية والتضليل ، فأخذوا يروجون استحالة بعث الرسل من غير بني اسرائيل وكانوا يتصلون بكل من يؤمن بالرسول (ص) منهم ويقولون له تلك الفكرة فقد التقى حي بن أخطب وكعب بن أسعد وأبو رافع بعبد الله بن سلام بعد ان أسلم قائلين له : ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك ملك[١] . واستعملوا هذا اللون من التضليل بين اليهود حتى لا يفكر أحد منهم بالاسلام . وأنكروا ان يكون النبي (ص) قد ذكر في توراتهم فقال مالك بن الصيف

(١) ابن هشام : ج٢ ص٤٤ .

للنبي (ص) حين ذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، والله ما عهد الينا في محمد عهد وما أخذ له علينا من ميثاق[1] ثم عمدوا الى تغيير صفاته الموجودة في التوراة واستبدلوها بصفات لا تنطبق عليه لايهام جماعتهم بأنه غير مذكور في التوراة وقد صرح القرآن الكريم بذلك ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[2] ثم زعموا ان ابراهيم كان من ملتهم ولو كان محمداً موافقاً لابراهيم لاتبع دينهم لكن القرآن أجابهم ﴿ **ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ وكانوا يظهرون للناس أنهم آمنوا ثم بعد ذلك يعلنون عدولهم عن الايمان ويجهرون بالكفر حتى يقول الناس ظهر كذب محمد فعدلوا عنه فنزلت الآية ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ . وسبوا النبي (ص) واستهزؤوا به وقد قال الله في ذلك لنبيه ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا** ﴾ . وكان البعض يجيبه بالسأم عليك ويعني الموت .

٢ ـ التآمر :

ولم يكتف اليهود بهذا القدر من العداء للاسلام ولنبي الاسلام فأخذوا يوسعون من دائرة عدائهم وأصبحوا يتحيّنون الفرص للانقضاض على الاسلام والمسلمين سيما بعد انتصار المسلمين في معركة بدر والّتي أثارت ضغائن اليهود وكانوا يقولون للنبي (ص) لا يغرنك من نفسك انك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، انك والله لو قاتلتنا لعرفت انا نحن الناس ، وانك لم تلق مثلنا . وصعدوا من صراعهم وتآمرهم بمحاولة فاشلة لاغتيال

---

(١) نفس المصدر: ج٢ ص٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤١.

النبي (ص) عندما ذهب الى بني النضير يطلب منهم المساعدة لدفع الدية عن قتيلين من بني عامر وفق ما تقتضيه الوثيقة الموقعة بينهم وبين المسلمين فأبدوا موافقتهم في اعطاء الدية ، لكنهم ذهبوا ليخططوا لدسيسة دنيئة وسارعوا لتنفيذ مخططهم الجهنمي القاضي بالقاء صخرة كبيرة على النبي (ص) اثناء جلوسه أسفل جدار بيت من بيوتهم وسارع أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب لتنفيذ الخطة فصعد سطح المنزل لكنه لم يجد النبي (ص) إذ لم يمهله الوحي فرصة لتنفيذ مأربه فقد خرج النبي (ص)، من حصنهم وفي نيته اخراجهم من أرضهم لأنهم تنصلوا من الميثاق الذي وقّعوه معه . وفي أُحد يتحمل كعب بن الأشرف أحد كبار اليهود مسؤولية تحريض قريش والقدوم الى المدينة لمقاتلة النبي (ص) وفي الأحزاب يتطوّع شخص آخر من القادة للقيام بنفس هذا الدور هو حي بن أخطب.

هذا على صعيد التحرك السري المضاد ، أما في الداخل فبالاضافة الى الدعايات التي كانوا يبثونها بين آونة واخرى ساندوا حركة النفاق بزعامة عبد الله ابن أبي فأصبحوا ممن يسهمون في تقوية هذه الحركة وساعدوها على تمزيق صفوف المسلمين فقد ذكرنا في حديث سابق محاولة شاس بن قيس وهو من اليهود في تفريق الأوس عن الخزرج وذلك باثارة الخلافات السابقة وباعادة قراءة الأشعار التي قيلت في حرب بعاث وكادت النار تشتعل بين القبيلتين المسلمتين لولا تدخل النبي (ص) السريع .

٣ ـ المواجهة العسكرية :

وبلغت أزمة العلاقة بين اليهود والمسلمين الى حد المواجهة المباشرة فبينما كانت امرأة مسلمة تتجوّل في سوق بني قينقاع ومعها بضاعة تريد بيعها لدى الصاغة عَمَدَ بعض اليهود الى الاستهزاء بها والتحرش بها طالبين منها الكشف عن وجهها فأبت وتجمع اليهود حولها وكل واحد يكيل اليها ويسخر منها

ويضحك فصاحت المرأة فسمعها رجل مسلم فوثب للصائغ اليهودي فقتله شر قتلة فرد اليهودعلى المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم أتباعهم . فلم يقف النبي (ص) مكتوف الايدي حيال هذا التحدي الصارخ فقرر فرض الحصار على حصونهم الواقعة داخل المدينة لأنهم نكثوا العهد ولم يعد لهم الحق في البقاء خصوصاً وانهم كانوا يعيشون بين المسلمين فكان شرهم أقوى وأشد واستمر حصار النبي (ص) لهم خمسة عشر يوماً حتى قبلوا الخضوع لحكم النبي (ص) الذي قضى عليهم بالجلاء من يثرب الى أيّ مكان آخر . فمنذ ذلك الوقت أصبح الرسول (ص) جدياً في مواجهة تحدياتهم ومؤامراتهم فأرسل فريقاً فدائياً لتصفية كعب بن الأشرف الذي حرض قريش وحشدهم لقتال المسلمين في أحد وكان يقول الشعر ضد المسلمين ويشبب بنساء المسلمين كأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب وهي من النساء الأوائل اللاتي آمن بالرسول (ص) ثم يرسل فريقاً آخر للقضاء على سلام بن أبي الحقيق وهو من زعماء بني النضير ولعب دوراً خطيراً في تحشيد الأحزاب ضد المسلمين . وعلى أثر محاولة الاغتيال الفاشلة التي قام بها بنو النضير ضد الرسول (ص) ، أثناء مجيئه الى حصنهم أمر رسول الله أصحابه بأن يتقدموا نحو معاقل هذه القبيلة ، وفَرَضَ حصاراً على حصونهم وأصبح يضيّق الحصار عليهم حتى دبّ الذعر والخوف في نفوسهم فوجدوا ان من الأفضل لهم ان يختاروا الطريق الذي اختاره بنو قينقاع بالجلاء عن أماكنهم حقناً لدمائهم وطلبوا من النبي (ص) ان يسمح لهم بحمل ما تقدر عليه ابلهم فيما عدا السلاح فأذن لهم فخرجوا من المدينة باتجاه الشمال فاستقروا في خيبر . ولم يفلت عمرو بن جحاش من العقاب الرادع لمحاولته قتل النبي (ص) فأرسل النبي (ص) من يتعهد بقتله كي يصبح عبرة للآخرين . وهكذا تخلص المسلمون من تجمع آخر من تجمعات اليهود التي كان وجودها في المدينة يشكل خطراً على المسلمين وبالرغم من تعاقب حصار بني النضير بعد محاولة الاغتيال الأثيمة ضد حياة النبي (ص) إلاّ

ان دواعي هذا القرار يتسع لأكثر من هذه الحادثة على رغم خطورتها فقد كان وجود هؤلاء مضر بحركة المسلمين نحو التطور وكسب وضع أفضل . فهم عقبة في طريق تقدم المسلمين بالاضافة الى أعمالهم المشينة التي قال عنها القرآن الكريم ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ .

وواصل زعماء بني النضير تآمرهم على الدولة الاسلامية متخذين من خيبر مكاناً مناسباً للتحرك السياسي فقد شكلوا حلفاً وسيعاً من القبائل العربية غطفان وقريش وجمعوا قوة عسكرية هائلة جاءت الى محاصرة المدينة فكانت أصعب تحدي يواجهه النبي (ص) طيلة صراعه المرير كل ذلك من تدبير زعماء بني النضير الذين لم يكتفوا بالقوة التي جلبوها لمحاصرة المدينة بل رأوا من الأفضل أيضاً ان تتحرك المجموعة اليهودية المتبقية في المدينة وهي بني قريظة ليوجهوا الى النبي (ص) ضربة قاضية يشترك فيها الداخل والخارج .

ولم يكن هيناً على حيِّ بن أخطب اقناع كعب بن اسد زعيم بني قريظة بالغاء المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين فقد كان مصير بني قينقاع وبني النضير عبرة لا يمكن ان ينساه . لكن اقتضاء الخطة مشاركة بني قريظة في المعركة أجبرته ان يصّر على طلبه مستخدماً المراوغة والخداع مؤملاً كعب بأن القوة التي تحاصر المدينة لا تبرح حتى تستأصل محمداً ومن معه ، فلا داعي للخوف إذا كان كل شيء سينتهي لصالحهم وان المسلمين سيقضى عليهم .

فوافق كعب بن أسد ان يشترك في المعركة وان يشنّ هجوماً في الليل على دور المسلمين لخلق البلبلة في صفوف مقاتليهم واشترط على تنفيذ ذلك الاستعانة بألفي مقاتل .

ولم يكن هيناً على المسلمين ان يسمعوا أنباء خيانة بني قريظة فأرسل النبي (ص) سعد بن معاذ زعيم أوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج من أجل

تغيير موقفهم لكنهم استقبلوا وفد رسول الله (ص) بالشتم والسب . فسلّم النبي (ص) أمره الى الله وأخذ الحيطة داخل المدينة للرد على أية محاولة للخرق يقوم بها الاعداء الداخليين .

وأنقذ الله نبيه وعباده المؤمنين من الموقف الحرج بالريح التي شتّت جمع المحاصرين وجعلتهم يفرون من مواقعهم . فلم يبق أمام النبي (ص) سوى ان يقرر مصير بني قريظة فجمع أصحابه بعد فرار الاحزاب ليقول لهم (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة)[1] .

وبفضل سرعته في اتخاذ القرار والتعجيل بالهجوم تم احباط أية محاولة لوصول الامدادات الى بني قريظة . فقد تفاجأوا بالمسلمين وهم يحاصرون حصونهم إذ لم يكن يتوقعون ذلك بهذه السرعة واستمر الحصار لخمس وعشرين يوماً ضاق فيه اليهود ذرعاً فقرروا التسليم بعد ان لم يجدوا حلاً آخر وتركوا مصيرهم لمن يختاره النبي (ص) فاختار سعد بن معاذ زعيم أوس وكان بين قبيلة أوس وبني قريظة عهد وميثاق وحلف قبل الاسلام وكان الرسول (ص) قد احترم المواثيق المبرمة في عهد الجاهلية واستفاد منها في بعض الموارد .

وجيء بسعد بن معاذ وكان مستلقياً على سرير من جُرح أصابه في المعركة فالتف حوله اليهود وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك فان رسول الله (ص) انما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما الحّوا عليه قال لهم :

لقد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم ، ثم أصدر حكمه بقتل الرجال المحاربين وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء فما كان من الرسول (ص) إلا ان قال له (لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله)[2] . وكان لدى

---

(١) سيرة ابن هشام : ص٢٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : ص٢٢٨ .

النبي (ص) المبرر الكافي لتنفيذ هذا الحكم فقد كانت جريمة بني قريظة أكبر من جريمة بني النضير وبني قينقاع وكان لا بد لليهود ان يأخذوا درساً لن ينسوه بعد اليوم . فقد وجد النبي (ص) أن الرحمة ببني النضير لم تزدهم إلا ايغالاً في الجريمة ، فزعماء هذه القبيلة الذين عفى عنهم النبي (ص) هم الذين جيّشوا الجيوش وجاؤوا بها لمحاصرة المدينة فكان لا بد ان لا تأخذه الرأفة بهم بعد اليوم لأنهم سيعودوا الى الخيانة لأن التآمر يجري في عروقهم فكان قرار القتل هو القرار الصائب والمطابق لقانون الحروب والمطابق للوضع السياسي الذي كان يعيشه المسلمون . فالذي ارتكبه بنو قريظة كان أشد من القتال وتكفي جريمة الخيانة وحدها بأن يصدر عليهم قرار الموت فكيف وانهم حملوا السلاح بوجه المسلمين في الليل البهيم .

ولم يبق أمام المسلمين إلا القضاء على الوكر الاخير لليهود في خيبر حيث كانوا يستفيدون من موقعه في حياكة المؤامرات فكل مؤامرة انطلقت من خيبر إذ أصبحت ملجأً لليهود الهاربين من العدالة فكان لا بد من القضاء على هذا الوكر قبل ان يستشري أمره ويتفاقم شره سيما وان أنباءاً وصلت الى المدينة تشير الى وجود تحرك جديد يقوم به سلام بن مشكم زعيم خيبر لاعادة بناء القوة اليهودية ثم الهجوم على المسلمين . وعلى رغم معارضة بعض الزعماء لهذه الفكرة إلا انها لقيت تأييداً واسعاً من قبل اليهود شجعت سلام بن مشكم على المضي في تنفيذ الخطة وقامت جهود لتعبئة اليهود فقد ارتأى سلام ان لا يستعينوا بالعرب بل يكتفوا في تشكيل القوة على اليهود فقط ، وقال واصفاً خطته : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ثم نسير اليه في عقر داره .

وبلغت أخبارهم النبي (ص) الذي كان في وقته يتوجّه الى مكة عاقداً مع قريش صلح الحديبية الذي منح النبي (ص) فرصة ذهبية للانقضاض على يهود

خيبر فتحرك المسلمون وكان عددهم ألف وأربعمائة و٢٠٠ فارس وأول ما قاموا به هو السيطرة على طريق خيبر غطفان لمنع وصول الأمدادات من غطفان وأوهم اليهود بأنه يريد الهجوم على غطفان لكنه عدل في طريقه فباغت يهود خيبر فجرا في وقت كانوا فيه مشغوليين بزراعتهم . ووضع الرسول (ص) خطة حربية دقيقة للسيطرة على الحصون الكثيرة والمنقسمة الى ثلاث مناطق النطاة والشق والكتيبة وكان عدد المدافعين عن هذه الحصون زهاء عشرة آلاف مقاتل . فكان ميزان القوة لصالح اليهود وهذا ما جعل البعض يعتقد بأن الدائرة ستدور هذه المرة على المسلمين لكن بالخطة العسكرية الحكيمة التي وضعها الرسول (ص) والتي على أساسها قسمت الحصون الى صغيرة وكبيرة فكان بعض المجاهدين يشاغلون القوات المعادية بينما كانت القوة الرئيسية تتركز حول الحصون الكبيرة .

كما انه قسم قواته الى أقسام على أساس القبائل وبطونها ، وجعل لكل قسم قائداً حتى يشتد التنافس بين القوات فأخذت الحصون تسقط واحدة بعد أخرى ولم يبق إلا حصن واحد منيع وقد سقط على أيدي علي بن أبي طالب(ع) الذي أبدى شجاعة فائقة في ذلك اليوم قتل مرحب احد ابطال اليهود فأدخل الرعب في قلوبهم فاضطروا لمصالحة النبي (ص) على حقن دمائهم في قبال دفعهم للمسلمين نصف حاصلاتهم فوافق النبي (ص) على ذلك ، واشترط عليهم ان شاء اخراجهم فعليهم الخروج وذلك لكي يأمن شرهم بهذا الشرط .

وتتجلى حكمة النبي (ص) في الابقاء عليهم في أراضيهم انها كانت واسعة ومزروعة بكاملها وان العمل عليها بحاجة الى عدد كبير من المزارعين المهرة ولم يكن لدى المسلمين المقدرة على توفير العدد اللازم والقدرة على استثمار كل تلك الأراضي فقد كان يهود خيبر أكفأ في الزراعة من الأنصار . كما وان النبي (ص) كان يستفيد من القوة البشرية في الأعمال الحربية ولم تكن أمام

المسلمين يومذاك فرصة للقيام بأعمال واسعة وطويلة المدى كزراعة أراضي خيبر فلم يكن أمام الرسول (ص) إلّا ان يقبل ببقاء اليهود على أراضيهم في مقابل نصف ثمر الأراضي فالرابح في هذه الصفقة بالطبع كان المسلمون .

وبعد خيبر لم يعد النبي (ص) يخشى اليهود فقد أخذ يتعامل معهم بصورة أخرى فقد اعتبرهم مواطنين للدولة الاسلامية يدافع عنهم كما يدافع عن المسلم . إذ بفقد اليهود لآخر مركز لهم في خيبر لم يعودوا قوة سياسية في جزيرة العرب .

ويستطيع المراقب لتطور العلاقة بين اليهود والمسلمين ان يلاحظ نقطة هامة جديرة بالإلتفات وهي ان النبي (ص) قد تعرض لحياة بعض اليهود في صراعه المسلح وتعرض بعض اليهود للأسر وتعرضن نسائهم للسبي وممتلكاتهم للمصادرة لكنه لم يتعرض أبداً وطيلة فترة صراعه معهم الى مقدساتهم. كان مما غنمه المسلمون في خيبر صحائف متعددة من التوراة فجاء اليهود يطلبونها فأمر الرسول (ص) بتسليمها اليهم كما وأوصى عامله معاذ بن جبل (بالا يفتن اليهود عن يهوديتهم) واليهود الذين دفعوا الجزية كيهود البحرين لم يجبرهم أحد على ترك دينهم بل ظلوا متمسكين باليهودية ويستنتج من ذلك ان صراع النبي (ص) مع اليهود لم يكن من أجل معتقداتهم أو من أجل تغيير عقيدتهم الى الاسلام بل كان سبب هذا الصراع هو العداء المستحكم الذي قابلوا به النبي (ص) والمسلمين دون مبرر وأعمالهم المنافية للقانون وللاتفاقيات المبرمة بين الطرفين . فكان كل الذي عمله الرسول (ص) هو انه ردّ على أعمالهم الشنيعة وهو في نفس الوقت الذي كان يخوض صراعاً مريراً مع ألدّ اعدائه كان يضمن لهم حرية المعتقد ويحافظ على كتابهم المقدس بخلاف ما يحدث عادة في الغزوات وحتى بخلاف ما فعله اليهود بالنصارى . وهذا يكشف لنا جانباً من طبيعة الصراع الذي كان يخوضه المسلمون مع اليهود .

العلاقة مع النصارى :

كان النصارى أكثر وداً مع النبي (ص) من غيرهم فهم أول من استقبل رسالته بالترحيب البالغ بعد أهل بيته فكان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وهو نصراني قد قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وهو أول من شدّ على يد النبي (ص) وقوّى من عزيمته في تبليغ الرسالة .

وقد تلقى المسيحيون أنباء الدين الجديد بصدر رحب وشعروا بالقوة لأنهم كانوا أقلية مضطهدة في جزيرة العرب . فأرسل أهل نجران وفداً من عشرين رجلاً من أهل الرأي والعلم فجاءوا الى النبي (ص) وهو في مكة فكان اللقاء في الحرم فسألوه عن الاسلام فحدثهم عنه وتلا عليهم بعض آيات القرآن . ففاضت أعينهم من الدمع خشوعاً فاستجابوا لله وكانت قريش تراقب هذا الاجتماع عن قرب فبعد ان انتهى الاجتماع وقام الوفد من مكانه اعترضهم أبو جهل ومعه بعض قادة قريش فقالوا لهم :

خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً احمق منكم .

فرد أعضاء الوفد مبتدئين بتحية الاسلام :

سلام عليكم . . لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما انتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا[1] .

وفي عين الحال كانت الآيات تترى وهي تحكي للمسلمين قصة عيسى (ع) مع اليهود وما عاناه المؤمنون من ألوان العذاب وجاء القرآن على ذكر أصحاب الأخدود وهم مسيحيون مؤمنون قتلوا حرقا فقد مجدّ القرآن ذكرهم وثمّن صمودهم وعَرَضَهم للمسلمين كأبطال صمدوا أمام العذاب واستقاموا على مبدئهم .

ضحايا الأخدود لم يكونوا سوى نصارى نجران الذين قتلوا على أيدي (ذو نواس) بتحريض من يهوذ اليمن وظل أهل نجران يستعيدون تلك الحادثة الأليمة التي لقي عشرون ألفاً من الرجال والنساء مصرعهم حرقاً حتى زمن البعثة وكان لتكريم القرآن الكريم لهم في سورة البروج أثر كبير على نفوس أولئك المضطهدين من نصارى نجران .

ولا ريب كل هذه الأحداث كانت تؤشر للنبي (ص) بأن النصارى سيقفون الى جانبه في صراعه المرير مع الوثنية فعمل على ايجاد خط ارتباط مع هؤلاء النصارى . ففكر بأن يرسل عدداً من المسلمين الى الحبشة لتبليغ الرسالة وللتخلص من أذى قريش . وبعد ان جمع الوفد المقرر ارساله الى الحبشة وقف فيهم (ص) قائلاً . . . « لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . وحدث ان وصلت المسلمين انباء عن انتصار الفرس على الروم فاغتموا كثيراً لكن نزلت آيات من القرآن الكريم تشير الى هزيمة الفرس أمام جيش روما في القريب

(١) سيرة ابن هشام: ج٢ ص٣٢.

العاجل فهّدأ من خواطر المسلمين هذا التنبؤ .

وكانت علاقة النبي (ص) بالنصارى على ما يرام في الفترة التي مكث فيها في مكة وعند قدومه الى المدينة أعاد اتصاله بنصارى نجران فأرسل اليهم برسالة يطلب منهم مؤازرته والايمان به وسارع النصارى بارسال ٦٠ عالماً من علمائهم وعندما وصلوا المدينة وجدوا حواراً على أشده قائم بين المسلمين واليهود فأرادوا ان يشتركوا في النقاش أيضاً فأخذوا يسألون النبي (ص) أسئلة تأريخية وعقائدية وغيبية من أجل التأكد من نبوته فأجابهم النبي (ص) عن كل ما سألوه عن عيسى بن مريم فقال لهم ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . ثم ذكر لهم النبي (ص) بعض الوقائع في حياة عيسى (ع) لكن بعض أعضاء الوفد ظل مصراً على النقاش بقصد الفرار من الحقيقة الصارخة فلم يكن بدأ من ايقاف النقاش إلا باسلوب المباهلة الذي أشار اليه القرآن الكريم إلا ان الوفد لم يجد ضرورة للمباهلة فهم واثقون من صحة ما قاله النبي (ص) وخشوا من نتائج المباهلة لأنها ستنقلب عليهم فقبل اجراء المباهلة انسحب الوفد من الميدان راضياً بالجزية . ثم كتب كتاباً يرسم العلاقة بين المسلمين ونصارى نجران والكتاب هو . .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران . ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم . وأنفسهم ، وملتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغيّر أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يأخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما في هذا

الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم ، غير مثقلين بظلم .

كما وكتب أيضاً الى ابي الحارث بين علقمة أسقف نجران كتاباً يتضمن هذا المعنى .

وفي هذه الوثيقة يتعهد رسول الله ص) لنصارى نجران توفير الحماية الكافية وضمان حرية العبادة والتأكيد على استقلالية المنطقة وانها ستكون منزوعة السلاح من أية قوة اسلامية ، ولا يحق للدولة الاسلامية ان تطلب منهم متطوعين في الحروب كما لا يحق لهم أخذ العُشر .

ويظهر من هذه اللهجة ان المسلمين كانوا ينظرون الى النصارى بنظرة تختلف عن نظرتهم الى اليهود فكانوا يتعاملون معهم دون وجل أو حذر ، وقد نزل القرآن الكريم ليضع أمام المسلمين حقيقة هامة هي :

﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ﴾[1] فرسمت هذه الآية آفاقاً وسيعة في العلاقة مع النصارى وفضلهم على غيرهم . فقامت سياسة النبي (ص) على أساس التحرك نحو القبائل المسيحية بهدف تصحيح مفاهيمها وعقائدها التي سادتها التحريف ثم تحريرها من السيطرة الأجنبية .

فقد كانت أجزاء من جزيرة العرب خاضعة للاحتلال الاجنبي . ومن هذه الأجزاء المناطق التي كان يعيشها المسيحيون في شمال جزيرة العرب وفي الجنوب . فقد كانت مناطق الشمال محتلة من قبل الروم ومناطق الجنوب محتلة من قبل الفرس بعد ان كانت خاضعة للحبشة فترة من الزمن .

وقامت سياسة النبي (ص) بعد فتح مكة على فصل القبائل المسيحية عن الدولة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

البيزنطية والدولة الفارسية وذلك لتحقيق الاستقلال الكامل لجزيرة العرب حتى تصبح جزيرة اسلامية صرفة لا وجود فيها لأية قوة سياسية بعد ان اندحرت القوة الرئيسية والمتمثلة بزعامة قريش .

وكانت أجواء التحاق مسيحيّ الجنوب بدولة الاسلام مشجعة ، فقد كانت أراضيهم محتلة للدولة الفارسية التي تدين بالزرادشتية وكان لها علاقات جيدة مع يهود اليمن ، وهي تروّج للعقيدة النسطورية التي ترفض المعتقد الذي يؤمن بطبيعة واحدة للسيد المسيح . وفي عام ٦٢٨ للميلاد قتل امبراطور دولة فارس مما تسبب ضعفا في الدولة الفارسية . فاستثمر رسول الله (ص) كل هذه العوامل وأخذ يتحرك ابتداءاً من عام ٦٣٠م نحو هذه القبائل بقصد عزلها عن الدولة الفارسية أولا ثم فتح الطريق أمامها لاعتناق الإسلام فدخلوه أعداد غفيرة منها .

أما في الشمال فقد كان الأمر أشد أهمية فقد كانت الدولة البيزنطية تراقب عن كثب تقدّم القوات الاسلامية في جزيرة العرب والتوسع الذي شهدته الدولة الاسلامية . فكان يحدو القيصر رغبة في ايقاف هذا الزحف متخذاً من القبائل العربية المسيحية التابعة للامبراطورية درعاً لكبح جماح التقدم الاسلامي باتجاه الشمال . من هنا فقد كان على الرسول (ص) ان يستبق الأحداث ويشل خطة القياصرة قبل ان يتمكنوا من تحقيق شيء يذكر .

فمن القبائل الشمالية التي آمنت بالاسلام :

١ ـ قبيلة تميم ، كانت تنتشر في المنطقة الواقعة بين اليمامة والحيرة وتنتمي الى الكنيسة السورية الشرقية (النسطورية). وأول من اعتنق الاسلام الأقرع بن حابس ومعه عشرة من قبيلته التقوا بالنبي (ص) أثناء فتحه لمكة فأغدق عليه النبي (ص) ومنحه سهم المؤلفة قلوبهم من غنائم معركة حنين

وجعله موضع احترام وتقدير ، وانتشر الاسلام في تميم وعيّن النبي (ص) مالك ابن نويرة أحد زعماء القبيلة جامعاً للصدقات .

٢ ـ قبيلتي بكر بن وائل وتغلب وهما قبيلتان مسيحيتان تؤمنان بطبيعة واحدة للمسيح وكان بينهما حروب طاحنة وكانتا من بين القبائل التي أرسلت وفوداً الى النبي (ص) فاستقبلها استقبالاً حاراً وعقد معها حلفاً وكان رسول الله (ص) ينظر الى هاتين القبيلتين بنظرة استراتيجية دقيقة فمناطق بكر وتغلب تعتبر مداخل الى العراق ، كما وان تمرس القبيلتان في القتال جعل منهما قوة عسكرية ذات ثقل في المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية لدولة فارس . أضف الى ذلك ان بكر شاركت ملوك الحيرة في المعركة الفاصلة التي اندحرت فيها دولة فارس عام ٦١١م في معركة ذي قار فقد كسبت من خلال تلك المعركة مكانة سياسية هامة . وبرز من بكر قادة عسكريين من أمثال المثني بن حارثة الشيباني وهو من شيبان أحد بطون بكر .

٣ ـ حنيفة ، وهي من القبائل المسيحية التي كانت تقطن وسط جزيرة العرب وترتبط بروابط حسنة مع الدولة الفارسية ، يشتغل معظم أفرادها بالزراعة ، يتزعم القبيلة ملك قوي هو هوذة بن علي الذي كان مسؤولاً من قِبَل الدولة الفارسية عن سلامة القوافل العاملة على طريق اليمن ـ فارس . وكانت طموحه بلا حدود فعندما كتب له النبي (ص) طارحاً عليه اعتناق الاسلام كان رده انه يقبل هذا العرض في حالة تنصيبه ملكاً فيما بعد .

٤ ـ لخم ، وهي قبيلة مسيحية تعيش في تخوم سورية وكانت تتعاون مع البيزنطيين ، آمن قسم من أبنائها من حدس وكان النبي (ص) يراسلهم باستمرار ويعدهم بالحماية .

٥ ـ كلب ، وهي قبائل تقيم على طريق العراق وعلى طريق سورية

وتحتفظ لنفسها بموقع استراتيجي هام وطالما استخدمت هذا الموقع لضرب القوافل القادمة من المدينة مما أجبر النبي (ص) على ارسال جيش بقيادة عبد الرحمن وطلب منه ان يتزوج ابنة قائد كلب واستطاع عبد الرحمن ان يعقد اتفاقاً مع الأصبغ بن عمرو وان يتزوج ابنته تماضر حسب ما أمره النبي (ص) لتعميق الصلة ، ومن أبرز شخصيات هذه القبيلة دحية الكلبي الذي استخدمه النبي كسفير له في المناطق المسيحية .

٦ ـ كندة ، وكان قسماً منها يعيش في دوحة الجندل بالقرب من منطقة كلب ، وهي قبيلة سكون أما القسم الاكبر فكان يعيش في جنوب جزيرة العرب ، وكان زعيم هذه القبيلة هو أكيدر بن عبد الملك وكان وجود هذه القبيلة يسبب عدم الاستقرار في خطوط التجارة المتجهة نحو المدينة ، فأرسل النبي (ص) قوة من اربعين شخصاً مع خالد بن الوليد تمكنت من أسر الملك أكيدر وفرضت عليهم الجزية .

وبالقضاء على هذا الجيب تمكن النبي (ص) ان يفرض سيادته على القبائل المسيحية الشمالية ، أما باعتناقهم الاسلام او بدفع الجزية مقابل توفير الحماية وحرية المعتقد او بالمواجهة وهي حالة نادرة استخدمها الرسول مع أصحاب الجرائم كجرائم السطو على القوافل .

وعلى العموم النتيجة التي نستخلصها ان النبي (ص) كان يحسب حساباً كبيراً لتلاحم النصارى مع الدين الجديد والى حد ما استطاع بأخلاقه وتعامله الانساني وبالتوعية وكشف جوانب الانحراف في العقيدة المسيحية ان يكسب الى جانبه عدداً كبيراً من المسيحيين في الشمال والجنوب وان يعبّد الطريق أمام انتشار الاسلام خارج حدود جزيرة العرب .

السياسة حيال المشركين

تصدّر أهداف الحركة الرسالية ابتداءاً من مكـة وحتى فتحها ومـا بعده مواجهة الوثنية التي كانت مستشرية طاغية فارضة سيادتهـا على عقائـد الناس وعلى علاقات القبائل فيما بينها . فكانت هذه الحركة قد خاضت حرباً حضارية مع الوثنية استغرقت ثلاث وعشرون عاماً ، واستعملت فيها كل السبل المنطقية في صراعها المرير في مقابل استخدام الوثنيين لكل ما لديهم من وسائل بطش .

فالاسلام كان قد خاض مع الشرك معركة وجود وانتهت المعركة لصالح المسلمين حيث تغلبت كلمة الحق على الباطل واندحرت الوثنيـة من جزيـرة العرب بعد سلسلة من المواجهات السياسية والعسكرية والاعلامية أحـرز فيها المسلمون انتصاراً بعد انتصار حتى توّجت هذه الانتصارات بفتح مكة والذي تم فيه تصفية الوجود السياسي للوثنية الجاهلية .

وقد مرّت المعركة مع الشرك بثلاث مراحل هي :

١ ـ مرحلة انهاك القدرة العسكرية والسياسية والاقتصادية لقريش .

٢ ـ مرحلة السلام المشروط .

٣ ـ مرحلة التحرير .

مرحلة الاستنزاف

وهي تبتدء من منتصف السنة الاولى للهجرة وحتى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وهي أهم فترة من فترات التأريخ الاسلامي حيث حفلت بأحداث هامة وخطيرة وحيث شهـدت تحولات كبيرة في الخارطة السياسية لجزيرة العرب بعد ان برزت القوة الاسلامية كمعادلة أساسية في هذه المنطقة .

وكانت استراتيجية الرسول في هذه المرحلة تعتمد النقاط التالية :

١ ـ كسب الاصدقاء من القبائل المجاورة فمنذ اقامة الدولة الاسلامية في المدينة والنبي (ص) يسعى لمد جسوره الى القبائل المجاورة وبالأخص التي تقع على الحدود بين مكة والمدينة ، ومن بين القبائل التي دخلت في تحالف مع النبي (ص) قبل قيام المواجهة مع قريش مدلج وضُمرة . . كما وأبقى النبي (ص) على التحالفات السابقة التي كانت بين القبائل العربية والقبائل التي دخلت الاسلام فكان بين خزرج وجهينة حلفاً قبل الاسلام أبقى عليه النبي (ص) وكان لهذه القبيلة دوراً هاماً قبل وقوع معركة بدر ، فهي تتمتع بعلاقات حسنة مع قريش وقد مكنها موقعها الاستراتيجي ان تشكل عازلاً بين المسلمين وقريش عندما اقتربت القوتان وكادت المعركة تقع لولا هذه القبيلة .

وكان لمزينة حلفاً مع الأوس وكان الرسول (ص) قد أبقى أيضاً على هذا الحلف واستفاد من أبناء هذه القبيلة في بعض الشؤون الاقتصادية كالرعي وما الى ذلك .

وأيضاً أبقى الرسول (ص) على تحالفات بعض الشخصيات الاسلامية مع القبائل بل كان قد عمل على تعميق هذه التحالفات كما كان بين سعد بن معاذ وبني قريظة من تحالف في الجاهلية أبقى عليه النبي (ص) . ومن كان له جوار مع احد القبائل المشركة أو مع فرد من افراد تلك القبيلة كان أيضاً يستثمر هذا

الجوار لقضاء بعض النشاطات السياسية فكان لعثمان جار في مكة هو ابان بن سعيد بن العاص وكان قد ارسله النبي (ص) في مهمة الى المسلمين في مكة قبل صلح الحديبية ليطمئنهم ان الصلح لن يكون على حسابهم وان الفتح قريب فذهب الى مكة تحت غطاء هذا الجوار .

وهكذا لم يترك النبي (ص) وسيلة يستطيع فيها أن يمد جسور التفاهم والتعاون مع القبائل العربية إلا واستخدمها وكان وراء هذه التحالفات اهداف سياسية واضحة فقد استثمر النبي (ص) علاقاته مع القبائل العربية في مواقع سياسية وعسكرية حاسمة كان لها الأثر الكبير في استراتيجيته العامة .

فقد استفاد من علاقته مع مدلج وضمرة في تأمين الجهة الجنوبية للمدينة فقد كانت هاتان القبيلتان بمثابة عازل طبيعي أمام أية محاولة للغزو تقوم بها قريش مستفيداً مما كان بين بني ضمرة وقريش من عداء قديم .

كما واستفاد النبي (ص) أيضاً من تحالفه مع خزاعة عندما انتدب احد حلفائه من هذه القبيلة بعد معركة أحد وأرسله الى قريش ليقذف فيهم الرعب وليقول لهم ان المسلمين يتجمعون من جديد ليوجهوا الضربة الانتقامية ضدكم مما جعل زعماء قريش يفكرون بالعودة الى مكة مكتفين بما احرزوه من نصر عسكري وكان رأيهم قبل ذلك هو مواصلة الهجوم حتى القضاء على الدولة الاسلامية وكان النبي (ص) يستفاد من مراكز هذه القبائل في مراقبة قريش او التصدي لها فكان المسلمون الذين يتولون مهمة الاستطلاع يراقبون خطوط القوافل القريشية من اخبية الجهيني في منطقة الحوراء ولم يكن النبي (ص) ليكتفي بالفوائد السياسية التي يجنيها من تحالفاته مع القبائل بل كان يعمل في بعض الاحيان على تسديد النصح والموعظة الى هذه القبائل مستفيداً من علاقاته الطيبة معها فكان يرسل المبلغين ، مثال على ذلك :

قَدِم الى النبي (ص) أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة فعرض عليه الرسول الاسلام فأجّل ذلك لكنه لم يرفض الاسلام وطلب من النبي (ص) أن يبعث رجالاً من اصحابه الى اهل عشيرته وهي عامر بن صعصعة ليدعوهم الى الاسلام علهم يستجيبوا له وعندما أبدى النبي (ص) تخوفه على مصير المبلغين بعد الذي حدث لهم من غدرٍ في ماء الرجيع قال أبو براء أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس الى امري فأرسل معه أربعين من الدعاة وعين مسؤولاً عليهم هو المنذر بن عمرو وعندما وصلوا بئر معونة جاءوا الى احد رؤوساء العشيرة وهو عامر بن الطفيل حيث كان هو وعامر بن مالك يتقاسمان الزعامة وعندما نظر عامر بن طفيل الى احد المسلمين وهو يقدم له كتاب رسول الله اغتاظ فضربه برمح بجنبه خرج من الشق الآخر ثم استصرخ بني عامر ان يقضوا على الدعاة فلم يجيبوه التزاماً بجوار زعيمهم الآخر أبي براء فاضطر لأن يستصرخ بقبائل سليم المجاورة فاستجابوا له وأحاطوا بالمبلغين وحدث قتال شديد لم ينج من المسلمين إلا القليل منهم وعند عودة أحدهم الى المدينة صادف في الطريق اثنين من بني عامر فقتلهما انتقاماً ممن قتل الدعاة فطلب عامر بن مالك ديتهما فاستجاب له الرسول (ص) فأعطى ديتهما بالنيابة عن القاتل ويلاحظ في هذه الحادثة المأساوية عدة نقاط هامة الأولى اصرار النبي (ص) على مواصلة العمل والنشاط التبليغي على رغم حادثة شبيهة قد وقعت قبل أيام استشهد فيها أو أسر عدد من الدعاة بنفس هذه الطريقة ، لكن من يريد العمل لا بد أن يُفكّر بالتضحيات ويحسب حساب الخسارة فبدونها لا يتحقق شيء والنقطة الثانية استثمار النبي (ص) جوار أبي البراء في مد جسوره الى بني عامر فقد كان هذا الجوار غطاءاً امنياً وفعلاً نلاحظ ان بني عامر لم يستجيبوا لطلب زعيمهم الثاني عامر بن مالك في تصفية المسلمين والنقطة الثالثة هي استجابة النبي (ص) لطلب عامر بن مالك باعطاء دية القتيلين على رغم ما فعله عامر الذي تحمل دماء ما يقارب أربعين شهيداً من المسلمين فقد

كان النبي (ص) عند التزاماته وحتى بعد خرق الطرف الآخر لهذه الالتزامات وذلك لكي يحافظ على علاقاتـه الوديـة مع القبيلة التي وقفت ذلـك الموقف الشجاع ورفضت الانصياع لأوامر احد سادتها .

٢ ـ تعميق الخلافات بين قريش والقبائل الاخرى فقد كان بين قـريش وكنانة خلافات شديدة وكادت هذه الخلافات أن تلغي قرار الحرب في معركة بدر وقد وادع النبي (ص)بني ضمرة ومدلج التي كانت تكن لقريش العداء وهي تقطن المناطق القريبة من مكة .

أما جهينة التي كانت حليفة الخزرج قبل الاسلام فقد حاول النبي (ص) بإبقائه على هذا الحلف أن يُحيّد هذه العشيرة التي كان لها علاقات طيبة مع قريش ولولا علاقته الجيدة لكانت هذه العشيرة قد دخلت الحرب ضده في غزوة بدر ويذكر لنا التاريخ ان مجدي بن عمرو الجهني حال دون قيام المواجهة بين أبي جهل (ومعه مائة راكب من أهل مكة) وبين حمزة بن عبد المـطلب (ومعه ثـلاثين راكباً) وذلك أثناء مهمة تفقدية كان يقوم بها على شاطيء بحر الأحمر ولولا حياد جهينة لوقع القتال ولقُتل عدد كبير من الثلاثين مقـاتل على أيـدي الكثرة من المشركين .

وكانت خطة النبي (ص) في استثمار خلافـات قريش مـع القبائـل هي تطويق قريش بحلقة عازلة تستطيع ان تحد من حركتها سواءً العسكرية منها أو الاقتصادية ، واغلب الـذين وادعهم النبي (ص) كانـوا يقطنـون على حافـات الطريق التجارية الذاهبة الى مكة .

٣ ـ فرض الحصار الاقتصـادي فكان عمـاد الحياة في مكـة قائم على الحبوب والمنتجات المستوردة من الشام ومن المدينة وفي حالة اغلاق الطرق كان من غير الممكن وصول هذه المواد الغذائية وليس هناك مكان آخر لاستيراد هذه المواد فالطريق من مصر عبر البحر لا بد وان يمر بطريق الجار وهو مرفأ تابع

للمدينة[1] وهو خاضع للسيطرة الاسلامية اما اليمن فقد أدّت الاضطرابات السياسية والمشاكل المناخية الى فقدان اهميتها كمصدر للمحاصيل الزراعية فكان ضرب الحصار على هذه الطرق سيؤدي حتماً الى أزمة غذائية في مكة وسيؤدي أيضاً الى التأثير في مكانة قريش بين القبائل مما سيخفف من هيمنتها على هذه القبائل وبالتالي سيمنح النبي (ص) فرصة لفتح جسور العلاقات مع هذه القبائل .

وكان أول ما قام به النبي (ص) بعد ارساء دعائم الدولة الاسلامية هو ارسال فرق عسكرية باتجاهات مختلفة غايتها سلب الحالة الامنية للطرق التجارية والذي كان سيؤدي حتما الى أزمة اقتصادية حقيقية في مكة .

٤ ـ استنزاف القدرة العسكرية لقريش . .

لم يكن خروج النبي (ص) من مكة نهائياً فمكة هي مهبط الوحي وهي المكان الذي عاش فيه ابراهيم وبنى فيه بيته الحرام ومكة هي مركز جزيرة العرب بدونها لا يمكن الانتشار الى المناطق الاخرى .

ومن ناحية أخرى فإن وجود قريش كقوة سياسية وعسكرية يحبط أية خطة للتوسع وكان لا بد للاسلام من التوسع والانتشار وكان على رسول الله (ص) ان يقيم دولته الكبرى في جزيرة العرب وان يوصل رسالته الى الدول الاخرى المجاورة وهو غير ممكن مع وجود قريش كقوة منافسة ولها شرعية دولية لدى السلطات الفارسية والبيزنطية فبدون سقوط قريش لم يك من الممكن كسب الشرعية الدولية .

ومن جانب آخر ان الغاية الأولى للاسلام هي بناء الحضارة ونشر القيم

---

(١) بيضون الحجاز والدولة الاسلامية: ص١١٢ .

والمثل وتركيز معايير الحق والتعاون والعدالة وهـذا كله لم يكن ليتحقق دون الامساك بالمجتمع واخضاعه لتوجيه عام وايجاد الظروف السياسية والاجتماعية المناسبة فكان من أولى مستلزمات بناء الحضارة الاسلامية هو توحيـد جزيـرة العرب تحت لواء واحد وهو غير ممكن مع وجود قريش العدو اللدود .

فكان لا بد من ازالـة هذا الكيـان ، لكن كيف ؟ وهنا تكمن المشكلة الحقيقية التي واجهت النبي (ص) فهو لم يكن يريد سفك الدماء في مكة وان يتحول بيت الله الحرام الى ساحة للمعارك إذ ان اي قتال في مكة سيخدش حرمة هذا المكان المقدس وان كل من يقاتل فيه سيكتب في التأريخ انه تجرّأ على قدسية بيت الله الحرام ذلك المكان الذي جعله الله مكان أمن وسلام وهو في غير صالح المسلمين .

ولذلك نلاحظ ان النبي (ص) اعتمد خطة منذ مجيئه الى المدينة تقوم على انهاك القدرات الاقتصادية والعسكرية للكيان القرشي لـدفع هـذا الكيان تدريجياً الى التلاشي حتى يمكن اخضاعه دون قتال . . ولقد كلفت هذه الخطة زمناً طويلاً دام ثمانية أعوام قضاها رسول الله (ص) في جهاد مرير لقضم قوائم الكيان القرشي حتى ينهار هذا الكيان بذاته دون استخدام قـوة خارجيـة ومنذ مجيئه الى المدينة بدأ رسول الله (ص) يهيىء نفسه للمواجهة مع قريش لكنها كانت حتمية فأخذ يرسل السرايا نحو طرق المواصلات التجارية لعـرقلة سير التجارة من والى مكة وقد تطورت الأحداث على اثر فعالية هذه السرايا لتصل الى مستوى المواجهة المسلحة والتي بدأت بمعركة بدر .

بدر: معركة الوجود

وكانت أول معركة في الاسلام وأول اختبار حقيقي للقوة التي بدأت تأخذ طريقها لأول مرة قبل خمسة عشر عاماً والتي حظيت برعاية واهتمام الرسول (ص) فقد بدأ الاسلام بواحد واثنين واليوم اصبحت له دولة وتحوّل الى مجتمع اسلامي مصغر فكان لا بد من اختبار قوة هذا المجتمع ومدى تماسكه مع القيادة . كان على الرسول (ص) ان يُجني ثمار خمسة عشر عاماً من الجهد المرير والتربية المركزة لبناء الانسان المؤمن الصابر . . كان عليه أن يبدأ الفصل الجديد من التاريخ الاسلامي بهذه المعركة الفاصلة التي هيأ نفسه لها من فترة وهيأ المسلمين لها بعد أن اعدّهم اعداداً عسكرياً ممتازاً لخوض غمار المواجهة .

وعلى رغم قلة اعداد المقاتلين وضعف العدة إلا ان ثقة النبي (ص) بالنصر كانت كبيرة للغاية لأنه كان موعوداً بالنصر إذ لم يكن الله ليترك عباده المؤمنين وحدهم في أول معركة فاصلة يتوقف عليها وجود الاسلام .

فقد كانت معركة بدر معركة وجود ، نستنتج ذلك من دعاء النبي قبل قيام

الحرب (اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تبعد) فإن الاسلام كله كان يتوقف بقائه على هذه القلة من المسلمين وان التاريخ كله كان يتوقف على تلك اللحظات التي سيكتب فيها لهذه القلة النصر او الهزيمة .

وعلى هذا الاساس فقد أعدّ النبي (ص) للمعركة إعداداً حكيماً فأول ما قام به هو طلب المشورة من اصحابه قائلا لهم أشيروا علي أيها الناس : وكان يريد بهذه العبارة ان يعرف مدى استقامة أصحابه من ألسنتهم . . وقام عدد من الصحابة وتكلموا بكلام ينم عن شجاعة واستقامة وتحول المكان الى بركان من الحماس والعواطف الجياشة وأصبح نقطة البداية في التعبئة الروحية والمعنوية العالية وتقدم الى بئر بدر بعد ان أخلف أبا لبابة وكيلاً عنه في ادارة شؤون المدينة وأخذوا ينتظرون العدو القادم اليهم بروح عالية مع علمهم الكامل بأن عدوهم ثلاثة أضعاف عددهم وعدتهم لكن ثقتهم بالنصر لم يدعهم يفكروا بالقوة المادية التي يمتلكها العدو طالما امتلكوا القوة الروحية .

ونزل القرآن الكريم ليشارك في عملية التعبئة ورفع المعنويات ﴿ **يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ .

وتقدم المسلمون للمعركة الفاصلة وهم على يقين بأن كل خطوة من خطواتهم ستكتب في التاريخ وان مصير هذا الدين سيتوقف على هذه الخطوات وبدأت المعركة بفاصلة قتالية قدّم فيها النبي (ص) أقربائه الثلاث علي وحمزة والحارث بن عبيدة بينما راحت قريش تختار أفضل مقاتليها لهذه الجولة وهم عتبة وأخيه شيبة وابنه الوليد ولم تمض لحظات حتى كان الثلاثة يتضرجون في دمائهم فانخسفت وجوه المشركين وانهارت معنوياتهم وهم يشاهدون تفاصيل تلك المعركة التي أبدى فيها علي بن أبي طالب وحمزة والحارث شجاعة قل

نظيرها استطاعت ان تغير الصورة التي كانت تحملها قريش عن المسلمين بأنهم ضعاف ولا معرفة لهم بالقتال وكانت نهاية هذه الفاصلة القتالية قد حسمت نتيجة المعركة ايضاً لصالح المسلمين فالتحم الجيشان في أروع معركة في التأريخ تجسدت فيها المثل والقيم والتضحية والايثار والشجاعة والجرأة ، كان المسلم يقاتل أبيه وأخيه وابن العشيرة يقاتل ابن عشيرته فقد تساقطت في هذه المعركة قيم الجاهلية فسحقت تحت اقدام المقاتلين العصبية القبلية لتعطي مكانها للقيم والعقيدة وتجلت في المعركة أيضاً روعة العناية الالهية التي أخذت بأيدي المسلمين نحو النصر ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ وانتهت المعركة بنصر حاسم فولت قريش بمن بقي من مقاتليها وارسل النبي (ص) اثنين من صحابته هما عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة لكي يوصل أنباء الانتصار الى أهل المدينة الذين كانوا يعيشون حالة القلق طيلة الفترة ولم يك ليحلموا بالنصر وصدم المنافقون من نصر الله للمؤمنين وحاولوا ان يستبعدوا الحقيقة متشبثين بكل حشيشة فأصبحوا يذيعون بين أهل المدينة ان محمداً قتل واصحابه هزموا وهذه ناقته نعرفها جميعاً لو انه انتصر لبقيت عنده وانما يقول زيد ما يقول إلا هذياناً من الفزع والرعب لكن خابت مساعي المنافقين وعادوا ادراجهم يجرون أذيال الخيبة بعد ان عرفوا بنصر الله للمؤمنين وعم الحزن مكة كلها على فقدان أشجع شجعانها وأعز أبنائها وشاركهم في الحزن كل من خشي انتصار المسلمين في المعركة من اليهود والمنافقين ، عاد المسلمون الى المدينة ومعهم الأسرى كأي واحد منهم على خلاف عادة العرب في التعامل مع أسرى الحروب .

فقد تعاملوا معهم بطريقة انسانية ثم قبلوا منهم الفداء ومن لم يكن لديه ما يفدي به نفسه طلب منه أن يُعلّم عشرة من أولاد المسلمين في مقابل اطلاق سراحه .

فلم يكن النبي (ص) ليحقد على أولئك الذين صنعوا به ما صنعوا ولم يك في قلبه شيئاً على الذين آذوه وعذبوا أحبائه لأن ما تلقاه كان أمراً طبيعياً وكان من الطبيعي أيضاً ان يتعامل مع اعدائه بهذه الصورة الانسانية لأنه لم يك يوماً يريد الاستقواء والظهور بمظهر القوي بل كان يريد بناء حضارة انسانية وكان أيضاً يريد أن يُعلّم قريش معنى الالتزام بالقيم لعلها تنصاع لنداء الضمير وتتوقف عن عدائها المستحكم لكن مع كل تلك المواقف الانسانية فقد ظلت قريش تتمادى في غيها وجاءت من جديد الى المدينة تريد الانتقام فكانت معركة أحد .

احد: معركة التصحيح

ما كان الله ليترك عباده المؤمنين لوحدهم وما كان ليرضى لهم الهزيمة لكن ما كان ليرضى لهم التواكل فكان يريد للأمة التي ستتحمل مسؤولية عظمى في التأريخ أن تقف على أقدامها وأن تنال النصر بكفاءة وقدرة ذاتية .

لقد تدخلت القدرة الالهية في معركة بدر . . لكن كان للمسلمين ايضاً دور حاسم في نتائج المعركة فالله لم ينصر الفئة المؤمنة إلا بعد أن نصرته بتصحيح عقيدتها وبتعلق نفوسها بالمبادىء وتقديم العلاقة بالله على العلاقة العائلية والعشائرية وهنا يكمن سر الانتصار الذي أحرزته الفئة المؤمنة في بدر .

لكن كان على هذه الفئة ان تفهم سنن الله وان تعرف ان من يخالف هذه السنن سيلقي جزاءه ، كان عليها ان تفهم ان النصر بحاجة الى عزيمة من الانسان وعناية من الله فبدون العزيمة لن يكون انتصار.

كان عليها ان تفهم فنون الحرب وان تطور أسلحتها لمواجهة العدو المدجج بالسلاح وكان عليها ان لا تغتر بالنصر فالغرور هو بداية الهزيمة .

حقائق كان لا بد من ادراكها ولو كان ثمن هذا الادراك باهظاً .

فالمعركة بين الاسلام والكفر معركة لا نهاية لها فكان على المسلمين ان

يرتبوا أوضاعهم وأن يعدوا أنفسهم لفترة طويلة من الصراع فكانت معركة أُحد خير درس وقف فيه المسلمون موقف تأمل آخذين العبر مما حدث لهم في هذه المعركة .

فقد جمعت قريش كل ما لديها من قوة وتوجهت نحو المدينة للانتقام مما حدث لها في بدر ولفك الحصار الاقتصادي الذي ما زال مضروباً عليها والتحق معها جمع من الاحابيش وأهل تهامة وثقيف حتى بلغ تعداد القوة المهيأة للقتال ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وأخذوا معهم النساء لاثارة حمية المقاتلين ولتعيير من يحاول الفرار .

وبلغ خبر الحملة المدينة المنورة فجمع رسول الله (ص) أصحابه وشاورهم حول الموقف المطلوب فاختلفت الآراء حول البقاء في المدينة أو الخروج منها وقد حسم النبي (ص) الموقف قبل ان يتسرب التردد الى نفوس المقاتلين فخرج مرتدياً لامة حربه واضعاً كافة المسلمين أمام الأمر الواقع وكان الوضع المتردد للمسلمين بحاجة الى مثل تلك المبادرة والتي على أثرها انطلق المسلمون لمواجهة أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم بأكثر من ثلاثة أضعاف .

واختار النبي (ص) ميدان الحرب كما فعل في بدر وهذه احدى الخصائص الهامة للقيادة الناجحة واستلم المسلمون جبل احد واصطفوا للقتال . . والتقى الطرفانَ في منتصف شوال وطفق أبطال الاسلام وفرسانهم يقطعون الرؤوس ويوقعون الموت والهزيمة في العدو فلم تجد قريش إلا الفرار فلم يسعفها عددها الكبير ولم تنقذها عدتها الكبيرة فعم الرعب أرجاء المعركة وأصبح الشجاع من يتمكن الفرار ولم تستطع ان تردعهم عن ذلك صرخات النساء وأهازيجهن وباتت المعركة تجري لصالح المسلمين . . لكن للحظات انقلب كل شيء وتحولت المعادلة رأساً على عقب ، فقد أخذ بعض المسلمين الغرور والطمع فتسابقوا لجمع الغنائم وخشيت القوة المسيطرة على الجبل أن

تفوتها الغنيمة فأسرعت هي أيضاً نحو الغنائم التي تركتها قريش فانتهز خالد بن الوليد الذي كان على رأس قوة من الفرسان خلف الجبل انتهز الفرصة وأحدث التفاف سريع خلف المقاتلين المسلمين الذين كانوا مشغولين بجمع الغنائم بعد ان تمكن ان يسيطر على الجبل ، وهنا بدأت المعركة تأخذ شكلاً آخر فاخترق فرسان قريش صفوف المسلمين موغلين في قتل من تصل اليه رماحهم وسيوفهم وبات مصير الحرب بأيدي قريش لولا المبادرة السريعة التي قام بها رسول الله (ص) في جمع بعض صحابته والوقوف بحزم وشجاعة بوجه زحف المشركين للحيلولة دون تحقيق المزيد من الانتصار العسكري .

وقاتلت الكتيبة التي كان فيها الرسول قتال المستميت وفيها قاتل رسول الله بشجاعة لا نظير لها فكان يتصدى لمن يتقدم لقتله ولم يستطع المشركون الاقتراب منه فأخذوا يرشقونه بالحجارة والصخور حتى كُسّرت رباعيته وسال الدم على وجهه الشريف .

وعلى رغم الاعياء والتعب فقد واصل النبي (ص) القتال هو ومن كان معه وعلى رأسهم علي بن أبي طالب (ع) حتى لا يدعوا للعدو فرصة الشعور بالقوة . . فقد حافظ النبي (ص) بهذا التكتيك حالة التوازن في المعركة وتمكن أيضاً أن ينقذ تسعين بالمائة من جنوده كانوا مهددين بالقتل لو لم تجد قريش تلك المقاومة والتي بسببها عجزت عن تحقيق ما تريد وهو كسر شوكة المسلمين والقضاء على النبي (ص) وانتهت المعركة دون أن يكسب أي طرف نتائج حاسمة .

فقريش كانت تتأنى كثيراً عندما تصطدم بمقاومة عنيدة فهي لا زالت تعيش الهزيمة النفسية التي تلقتها في بدر وهي تخشى ان تلقى نفس المصير فكانت تتحرك في المعركة بحذر .

أما المسلمون فقد عادوا يجمعون قواهم مجدداً بعد أن أدركوا فاعلية المقاومة وعرفوا ان النبي (ص) لم يُقتل وكان لبعض الصحابة من امثال خارجة وأبو ذر وسهل بن حنيف الفضل الأكبر في دحر العدو فباستقامتهم ودفاعهم المستميت عن الاسلام ألغوا ما كانت تطمح اليه قريش ، وكان لبعض النسوة دور شامخ في هذه المعركة من امثال نسيبة . فقد تركن وظيفتهم الأصلية وهي تضميد الجرحى واضطررن مع هزيمة الرجال ان يحملن السلاح دفاعاً عن النبي (ص) .

لقد تجنب المسلمون الخسائر الفادحة في هذه المعركة ويعود ذلك الى الموقف الصامد الذي وقفه النبي (ص) فقد ظل محتفظاً بهدوئه واتزانه لم تزعزعه الهزيمة العسكرية المنكرة ويعود الفضل في الدرجة الثانية الى علي بن أبي طالب (ع) الذي قاتل في ذلك اليوم قتالاً لم يقاتل مثله قط ودافع عن النبي دفاع المستميت فكان يصد الكتائب المهاجمة التي كانت تطمع برأس النبي (ص) كما ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج .

لقد انتهت المعركة ليخلص منها المسلمون بنتيجة واحدة هي ضرورة الطاعة والالتزام والانضباط وكان الدرس قاسياً الى حد لم ينساه مسلم آخر عمره .

وهكذا قُدّر للمسلمين أن يصابوا بذلك البلاء الشاق حتى يسدوا الثغرات التي في نفوسهم وحتى يتمكنوا من مواجهة العدو في معارك أخرى .

ولا عجب أن تكون الهزيمة في أُحد هي الأولى وهي الأخيرة بفضل النتائج التي أسفرت عنها وبفضل الدرس الذي أخذه المسلمون والذي ظل ماثلاً أمامهم خلال المعارك التي خاضوها .

الخندق: المواجهة الشاملة

وقعت في السنة الخامسة للهجرة ، وخلال هذه السنوات الخمس حقق المسلمون انتصارات باهرة على بعض القبائل كبني المصطلق وبني النضير وبني قريظة وطهروا منطقة دومة الجندل من المتعرضين للقوافل التجارية وذاع صيت المسلمين في جزيرة العرب بالصورة التي أثارت القلق لدى قريش . . لكن ما المخرج من هذه المشكلة ؟

فقريش وحدها غير قادرة على مقاتلة النبي (ص) لما استُنزف منهـا من شجعان وفرسان كان هناك حل واحد هو أن يجتمـع أعداؤه في جيش واحـد ويضربوه ضربة رجل واحد . . فبدأ تحرك واسع بين يهود بني النضيـر الذين أجلاهم النبي من أراضيهم في المدينة وبين قريش وغطفان لعب فيه سلّام بن ابي الحقيق وكنانة بن ابي الحقيق وحيّ بن أخطب وهوذة بن قيس الوائلي دور هام في التوفيق بين هذه المجموعـات المتباينـة في الاتجاهـات المتحدة في محاربتها للنبي (ص) ووصلت أنباء الحشود الى المدينة عن طريق خزاعة القبيلة التي كانت لها علاقات طيبة مع المسلمين .

وتقدمت جيوش الأحزاب في عشرة آلاف مقاتل وفي قـول آخر أربعـة

وعشرين ألف ولم يكن مع النبي (ص) يومذاك سوى ثلاثة آلاف مقاتل وهو عدد لا يكفي لمواجهة هذا السيل من المقاتلين ، فكان رأي النبي (ص) ان يتجنب القتال إلا إذا اضطر اليها وكانت المدينة محصنة بالجبال والأشجار من كل الأطراف إلا حدودها الشمالية فكانت حرة واقم تمتد الى الشرق وحرة وبرة الى الغرب اما من ناحية الجنوب فكانت الأشجار الكثيفة تحول دون تسلل الاعداء وداخل المدينة كان محصناً بالبنايات المرتفعة والتي كانت تشبه الحصون ، فطرح رسول الله (ص) الأمر للمشورة فأشار اليه سلمان الفارسي ان يحفر خندق في الجهة الشمالية فاستحسن المسلمون هذا الرأي وأخذ كل عشرة يحفرون أربعين ذراعاً وكان للرسول (ص) سهمٌ أيضاً في الحفر وقضى المسلمون ستة أيام في أروع عمل جماعي حتى تمكنوا من حفر الخندق بطول اثني عشر ألف ذراع ولكي لا يأخذهم التعب كانوا ينشدون أناشيد جماعية اثناء الحفر وكان الرسول يشاركهم في المقاطع الاخيرة بأن يرفع صوته ماداً الكلمة الأخيرة من الانشودة .

وجاء الأحزاب وكانوا ثلاث كتائب . . كتيبة مع أبي سفيان وكتيبة مع عيينة بن حصن وكتيبة مع ابن الاعور السلمي ووقفوا أمام الخندق بينما وقف المسلمون في الخلف وتمكن حي بن أخطب ان يقنع بني قريظة الذين لا زالوا في المدينة بالمشاركة في الهجوم فتأزّم الوضع عند المسلمين وتحركت مجموعة من الفرسان واستطاعوا أن يجدوا مكاناً ضيقاً في الخندق فسارعوا للانتقال الى الجهة الاخرى فأصاب بعض المسلمين الذعر وكان فيهم عمرو بن ود العامري ، عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار ابن الخطاب بن وادي وهم من أشهر فرسان قريش وقد طلبوا البراز فلم يتقدم اليهم سوى علي بن أبي طالب (ع) كما جاء في كل كتب التاريخ وتمكن عليّ أن يقضي على هذه المجموعة لوحده بطريق المبارزة الثنائية ولم ينجو سوى عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وقد عرض المشركون عشرة آلاف درهم

في مقابل جثة عمرو بن ود التي ظلت خلف الخندق في جانب المسلمين .

وعلى أثـر مقتل هؤلاء الفـرسان ارتفعت معنـويات المسلمين وهبـطت معنويات المشركين الذين ما كان امامهم سوى الاسراع في اتخاذ قرار الهجوم لكن شاءت ارادة الله ان يتسلل أحد المهاجمين الى النبي (ص) ليعلن اسلامه وهو نعيم بن مسعود فاتفق معه النبي (ص) على خطة لتفريق الأحـزاب فجاء نعيم الى بني قريظة وكان نديماً لهم وقال لهم : يا بني قريظة لقد عرفتم ودي لكم وصلتي بكم ، فقالوا : ماتريد فلست عندنا بمُتّهم : فقال لهم : ان قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم البلدة بلدكم وفيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم ومن الصعب عليكم ان تتحولوا لغيره ، اما قريش وغطفان فقد جاؤوا لحرب محمد وتركوا نساءهم وأموالهم وأولادهم في بلدهم آمنين ، فإن قدر لهم أن يصيبوا محمداً وأصحابه فذاك ما يريدون وإن عجزوا رجعوا الى بلادهم وخلوا بينكم وبينه ، ولا طاقة لكم له ان خلا بكم ، وأرى لكم ان لا تقاتلوا مع القوم إلا ان تأخذوا منهم رهناً من اترافهم يكونوا بأيديكم وعنـدها يضـطرون ان لا يتخلوا عنكم ويرجعوا الى بلادهم فاقتنعوا بهذا الرأي وقالوا له لقد أشرت بالصواب ثم أتى الى أبي سفيان وقال له نفس هذا الكلام ، ثم جاء الى غطفان وقال نفس الكلام وأوجد هذا التحرك اضطراباً في العلاقات فأرسل أبو سفيان وفداً من قبله الى بني قريظة ليستطلع موقفهم فأستقبلوهـم بالغضب واشترطوا على بقـائهم في جبهة القتال اعطائهم رهينة حتى يطمئنوا بأنهم لا يتركونهم وحدهم بعد ان تنته الحرب بل يظلون يقاتلون ، عندها تأكدوا من مقالة نعيم فأرسلوا اليه ان لا ندفع لكم رجلاً واحداً من رجالنا وحدث الانشقاق في جبهة الاحزاب فخشي ابـو سفيـان ان يزداد الخـوف فقرر الهجـوم في صبيحة اليـوم التـالي لكن دعـاء الرسول (ص) لم يمهلهم فقد طلب من الله أن يكشف عنه ما أحاطه من البلاء ويصرف عنه شرهم فإذا بالريح تعصف بهم والصواعق تتلاحق مثيرة الـرعب

والخوف وكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم وخشوا ان ينتهز المسلمون الفرصة ويهاجموهم وهم على هذا الحال واضطر أبو سفيان ان يعدل موقفه وان يعلن لقريش الاسراع في العودة الى الديار فعادوا الى الديار فعادوا بعد عشرين يوماً من الحصار لم يجنوا سوى الخيبة والاحباط التي أخذت تمزق نفوسهم ولم يعدوا بعدها يفكروا بقتال النبي (ص) .

وهكذا استطاع رسول الله (ص) أن ينتزع من أيدي أعدائه السلاح وان يدفعهم الى التسليم شاؤوا ذلك أم أبوا فقد عمل خلال السنوات الخمس الماضية على استنزاف العدو مادياً ومعنوياً حتى لم يعد يفكر بالعودة الى القتال من جديد ، واستثمر هزيمة قريش النفسية في ملاحقة بقايا اليهود من بني قريظة الذين خانوا العهد منهياً بذلك فصلاً آخر من فصول المواجهة مع جبهة اليهود .

ثانياً : . . مرحلة السلام المشروط :ـ

كان وضع المسلمين في ذي القعدة بعد ست سنوات من الهجرة على أحسن ما يرام فقد تمكنوا خلال السنوات الست أن يتخلصوا من أشرس أعدائهم اليهود واستطاعوا أن يوصلوا صوتهم الى القبائل العربية القريبة من مكة والمدينة وتمكنوا ان يقتلوا في قريش ارادة القتال فكانوا القوة الرئيسية في جزيرة العرب لا ينافسهم احد .

فلم لا يستثمر النبي (ص) الظروف الجيدة ويقوم بمبادرة اخرى يبرهن خلالها انه رجل سلام وليس رجل حرب وانه سلام الرجل القوي وليس الرجل الضعيف وانه رجل مبادىء وليس رجل مصالح وهذا موسم الحج قادم وقد اشتاقت القلوب الى بيت الله الحرام فهي فرصة لا يمكن اضاعتها .

وجاءت مبادرة النبي (ص) واعلانه للمسلمين بأنه عازم لأداء المناسك

ودعا كل المسلمين ان يشاركوا في هذه المرحلة وأوفد الى القبائل غير المسلمة طالباً منها مشاركته ايضاً في مسيرة السلام نحو بيت الله الحرام .

ولم يخطر ببال احد ان النبي (ص) سيفكر بمثل هذه المبادرة . . لكن القيادة الناجحة هي التي تمتلك الرؤية الثاقبة والتي من خلالها تتمكن ان تصنع المبادرات الخلاقة .

والمبادرات الجيدة هي التي لا تكلف كثيراً بل تعطي الكثير من النتائج ، وإذا ما تتبعنا سير الرحلة والمناقشات التي دارت فيها لتجلت لنا حكمة القيادة وقدرة خارقة في ادارة دفة الصراع ، وادارة الصراع في فترة السلم هي أصعب بكثير من فترة الحرب .

فقد جاء في كتب السير ان النبي (ص) وأكثر من ألف وأربعمائة من صحابته خرجوا متجهين نحو مكة بعد ان اعلن للملأ بأنه لا يريد الحرب وساق من أمامه سبعين بُدنة وأصبح يتقدمهم على ناقته القصوى واخذوا معهم سيوفهم لكنها كانت في اغمادها وما ان وصل الميقات في ذاالحليفة حتى احرّم ولبّى وجرح عدداً من البدن في الشق الايمن من سنامها ووضع قطعاً من الجلد في اعناقها اشارة بأنها هدي . . وبوصوله عسفان هبت قريش على أنباء هذه المبادرة فخرجت بأطفالها ونساءها فزعة ونزلت بذي طوي وتقدم مائتي فارس من قريش الى كراع الغميم وهو موقع لا يبعد عن مواقع المسلمين سوى ثمانية أميال وكانت مهمة هؤلاء الفرسان هو قطع الطريق على النبي (ص) ، ووصل النبي (ص) خبر استنفار قريش فقال يا ويح قريش لقد اكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فان هم أصابوني كان الذي ارادوه وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين وهي عبارات تكشف عن معالم الاستراتيجية التي كان النبي يتبعها مع قريش . فهو لا يريد القتال ولو أرادها لكان باستطاعته دخول مكة محرراً فاتحاً . . كان هدف الرسول (ص) ان يدخل

مكة مسالماً وقد كلفه ذلك الكثير فغيّر طريقه عندما سمع باستنفار قريش وتحركت المسيرة العبادية السياسية في طريق وعر كثير الحجارة بين شعاب مضنية حتى وصلوا الحديبية فنزل هناك وعندما لاحظت قريش ذلك شكّت في انه جاء للقتال فأوفدت احد قادة خزاعة هو بديل بن ورقاء في رجال من عشيرته ليتعرف عما جاء اليه محمداً (ص) فأخبرهم النبي (ص) عن نيته فرجعوا الى قريش وأخبروها عن أهداف المسيرة فلم تصدق أقوال بديل فأرسلت شخصاً آخر هو مكرر بن حفص وعاد مكرر بنفس النتيجة التي عاد بها بديل وكذلك رفضوا قوله ثم أرسلوا اليه الحليس بن علقمة وكان زعيم الأحابيش وهم يشكلون القوة الضاربة في مكة وكانت غاية قريش من ارسال الحليس هو وضعه في المواجهة الساخنة مع النبي (ص) عندما يجده جاء للقتال في شهر الحرام .

واستبشر النبي (ص) بمجيء الحليس فقال لأصحابه ان هذا من قوم يتألهون ، وامرهم بأن تعرض الهدي أمامه ليتأكد بنفسه انه لا يريد الحرب .

ولما رأى الحليس البدن في القلائد قد أكلت أوبارها من طول الحبس تأثر كثيراً لهذا المنظر وهو رجل على فطرته فلم يكلف نفسه عناء اللقاء بالنبي (ص) فرجع مسرعاً ليقول لقريش انه لم يأت للحرب فأجابوه بأنه رجل اعرابي لا يفهم شيئاً فغضب الحليس وتسمر قائلاً : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيصّد عن بيت الله من جاء معظماً له . . والذي نفس الحليس بيده لئن لم تتركوا محمداً وما جاء لأجله أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد وانقلب الوضع على قريش وازدادت ورطتها بالتحول الذي حدث للحليس فخشيت ان يتعقد الموقف اكثر من ذلك فاستدعت عروة بن مسعود الثقفي وهو رجل حكيم وموزون فأرسلته لمعالجة الموقف الصعب .

وجاء عروة غاضباً يأخذ بلحية النبي (ص) ويهزها والنبي (ص) يبتسم في وجهه ويمنع أصحابه من النيل منه على رغم خشونته فتأثر عروة بخلق

النبي (ص) وهو الرجل القوي الذي لا يخشىٰ احداً فعاد الى قريش ليقول لها يا معشر قريش انما جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في اصحابه ، رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبدا .

وارسل النبي (ص) مندوباً عنه ليضع قريش في الصورة وكادوا يقتلون ممثله لولا تدخل الاحابيش[1] وظلت قريش في عنادها فارسلت خمسين رجلاً ليقذفوا النبي (ص) وصحابته بالحجارة فأسر المسلمون هؤلاء المهاجمين فجيء بهم الى النبي (ص) فعفا عنهم وخلى سبيلهم ثم انه ارسل عثمان بن عفان لهذه الغاية مستفيداً من علاقته مع ابان بن سعيد فأجاره فاحتبسوا عثمان ثلاثة أيام حتى ظن المسلمون انه قتل ، عندها سارع اصحابه لمبايعته على ان لا يفروا عنه حتى الموت وسميت ببيعة الشجرة أو بيعة الرضوان .

وبعد أن تأكدت قريش من اهداف هذه المبادرة وان النبي لا يريد حرباً وانها غير قادرة على منعه وانه ما انفك مصراً على عزمه ارتأت ان تفاوض النبي (ص) حتى لا يعرف بأن المسلمين دخلوا على رغم انوفهم فكبريائهم كان يحول دون وقوع هذا العمل بهذه الصورة التي قدم بها المسلمون فأرسلت سهيل بن عمرو للتفاوض وبعد اخذ ورد تم الاتفاق بين الطرفين على النقاط التالية :

١ ـ عودة النبي (ص) الى المدينة وتأجيل أداء المناسك الى العام القادم .

٢ ـ ارجاء الطرفين لكل من يقدم اليهم من مكة أو المدينة .

٣ ـ السماح للطرفين بالتحالف مع من يشاؤوا من القبائل .

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ : ج٢ ص٢٠٢ .

٤ ـ إيقاف الاقتتال بين الطرفين لعشرة أعوام .

والتزم النبي (ص) بالبنود فاتفق وقد جاءه ابن سفير قريش أبي جندل بن سهيل بن عمرو وكان مسلماً فانفلت من قريش وجاء الى النبي (ص) وهو مقيد بالحديد فلما شاهد سهيل ابنه قام اليه فضربه واخذ بتلابيبه وقال يا محمد لقد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا فقال النبي صدقت فجعل يجر ولده ليرده الى قريش وهو يصرخ ويقول أأرد الى المشركين ليفتنوني عن ديني ولم يكن هيناً على النبي (ص) ذلك لكن ما الذي يستطيع أن يفعله قد وقعّ على المعاهدة فالذي تمكن عليه هو ان يقول لابي جندل : اصبر واحتسب فإن الله سيجعل لك ولمن معك مخرجاً وفرجاً ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا العهود على ذلك وان لا نضر بهم وعاد المسلمون الى المدينة وهم متألمون لأنهم لم يحققوا ما يريدون لكن ليس كل ما يريده الانسان هو الصحيح فإن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة فقد دفعت هذه المبادرة بالمسيرة الاسلامية الى الامام ومنحت المسلمين فرصة لاعادة بناء أنفسهم من جديد ومنحت الرسول (ص) فرصة التفرغ نحو بقية المهام وللالمام بهذه الخطوة السلمية اكثر لا بد ان نقف قليلاً على الوضع العام .

فالرسول (ص) في هذه العملية السلمية كانت له اليد العليا على قريش فلم تستطع قريش ان تملي عليه شيئاً ، وثانياً لم يتنازل عن هدفه الاساسي وهو أداء المناسك فالذي حدث هو تأجيل الهدف الى العام القادم . اما بند تبادل الفارين فكان لمصلحة المسلمين ايضاً إذ انه اوجد مشكلة جديدة لقريش كما حدث لها مع ابي بصير الذي التجأ الى البحر وانضم اليه المسلمون الفارون واصبحوا يشكلون عائقاً أمام تجارة مكة .

ورابعاً لم تكن معاهدة الحديبية سلام دائم بل كانت أشبه ما تكون بالهدنة وهي مشروطة بالتزام الطرفين ببنودها وكان من المؤكد لدى الرسول (ص) ان

قريش سوف لا تفي بتعهداتها طالما ظلت تتعامل مع النبي (ص) من موقع التكبر والتعجرف فهي لازالت تنظر الى النبي (ص) على انه ذلك الطريد الذي هرب الى المدينة بتلك الصورة فكانت هذه النظرة وتلك الحالة تدفعان بقريش للاستهانة بالمعاهدة ثم خرقها في يوم من الأيام .

وكان الرسول (ص) ينتظر ذلك اليوم حتى يكشف للقبائل خواء قريش ويكون سبيلاً لتحقيق هدفه الأساسي وهو الدخول الى مكة فاتحاً قالعاً لجذور الوثنية .

أما المكاسب التي حصل عليها النبي (ص) من خلال توقيعه على معاهدة الصلح مع قريش فهي :

١ ـ الظهور بمظهر القوي وانه لا يخشى أحد بدليل انه يتوجّه الى مكة معقل أعدائه مسالماً وسيفه في غمده .

٢ ـ وضع قريش في زاوية حرجة حيث أصبحت لا تدري ماذا تفعل هل تمنع المسلمين من اداء المناسك ومعنى ذلك انها لم تف بالتزاماتها أمام القبائل عندما جعلت من نفسها حامية للبيت والحجيج ثم انها تسمح لهم فيعرف العرب ان محمداً قد ارغمهم وأجبرها على ذلك وهذا يتنافى مع كبريائها وغرورها .

٣ ـ كسب الشرعية الدولية فالدول كانت تتعامل مع قريش باعتبارها الممثل الواقعي لجزيرة العرب وترفض التعامل مع أية جهة لا تعترف بها قريش وهذا ما نلاحظه عند استدعاء امبراطور الروم لأبي سفيان ليسأله عن الدعوة الاسلامية بعد وصول كتاب النبي (ص) .

واليوم وبعد ان وقّعت قريش مع المسلمين على تلك المعاهدة فانها اعترفت بوجود قوة سياسية ذات كيان مستقل عنها وكان لهذه الحقيقة مردود

سياسي لدى السلطات التي تلقت الرسائل عن النبي (ص) كما سنأتي الى ذكر ذلك .

٤ ـ أخذت القبائل تتعامل مع المسلمين بلا حذر أو خوف كان مصدره في السابق هيمنة قريش على تلك القبائل أما الآن وبعد اذعانها للأمر الواقع وتوقيعها على معاهدة السلام مع المسلمين فإن تلك القبائل التي كانت ترغب في مد جسور التعاون مع المسلمين أخذت تعمل بحرية تامة متجاهلة قريش سيما وان قريش أقرت هذا الحق في بنود الصلح .

٥ ـ التصدي والتفرغ للعدو التقليدي اليهود الذين تجمعوا في خيبر وكان يشكل تجمعهم خطراً على الاسلام والمسلمين فقد حان الوقت للتخلص منهم بعد ان جمد المسلمون صراعهم مع المشركين ولو لفترة محدودة . فقد ذكر ابن هشام ان النبي (ص) شن سبع عشرة غزوة خلال السنتين الفاصلتين بين الحديبية وفتح مكة ، وما كان ذلك ليحدث لولا الصلح الذي عقد مع قريش .

لقد برهن الرسول (ص) خلال هذه المصالحة الموقتة انه سياسي محنك لم يتنازل عن اهدافه ومبادئه وانه رجل المفاوضات لا يستطيع الخصم اجباره على شيء بالرغم مما اظهر من ليونة في بعض الامور غير السياسية كموافقته على الغاء كلمة رسول الله من الوثيقة وهي ليونة مطلوبة في العمل السياسي لكن يجب ان لا تخرج عن الحدود والذين يحاولون ان يشبهوا اتفاقية كمب ديفيد بصلح الحديبية لتبرير سياسة المصالحة مع اسرائيل على خطأ كبير لأنهم تجاهلوا حقائق هامة اول هذه الحقائق ان النبي (ص) اخذ من قريش ولم يعطها شيء في واقع الأمر فالمكسبان اللذان حصلت عليهما قريش هو عودة الأمن لشريانها التجاري بعد سنوات من التلكؤ وعدم الاستقرار والأمر الآخر كان اعادة المسلمين الفارين الى مكة لكن ماذا كانت النتيجة.. النتيجة ان طرقها الاقتصادية عادت غير آمنة وهذه المرة عبر هؤلاء الفارين الذين كانت تطمح

باعادتهم الى مكة لكنهم لم يعودوا الى مكة ولم يقبلهم النبي (ص) في المدينة حسب بنود الاتفاق فأصبحوا يفعلون ما يريدون وليس لقريش أي حق على النبي (ص) بضبطهم والزامهم بنود الاتفاقية لأنهم خارجون على القانون .

أما في اتفاقية كمب ديڤيد فقد حصلت اسرائيل على أكثر مما أعطت فهي كسبت اولاً شرعية احتلالها للأراضي الفلسطينية وعرضت مصر لغزو ثقافي واستفادت اسرائيل من منابع النفط في شبه جزيرة سيناء وفي ذات الوقت قامت بغزوها للبنان مستفيدة من تحييد اكبر دولة عربية فاسرائيل هي الرابحة في صفقة كمب ديڤيد من عدة جهات ولم تكسب مصر شيئاً سوى استرداد الارض التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ .

ويُعزىٰ هذا التفاوت الى الموقف قبل عقد الاتفاقية فالرسول (ص) وقع على الاتفاقية من موقع القوي المنتصر . لكن لم يكن موقف مصر من القوة بحيث تستطيع بها اخضاع اسرائيل لشروطها على رغم قيامها بحرب ٧٣ ، لكنها لم تستفد من نتائج هذه الحرب فقد دخلت اسرائيل في الاتفاقية من موقع القوة ، وهناك أمر آخر وهو الأهم ان النبي (ص) وقع على اتفاقية الصلح وهو طريد الأمس الذي لم يكن له ملجأ ولا مأوى ولم تك قريش لتفكر انها ستضطر في يوم من الايام لأن توقع مع النبي (ص) مثل هذه الاتفاقية . . أما في قضية كمب ديڤيد فالعكس الذي نجده .

فاسرائيل التي لم تك شيئاً ولم يكن لها ملجأ ولا مأوى اصبحت طرفاً في توقيع المعاهدة اما مصر فلم يكن ليمر بخلدها انها ستضطر في يوم من الايام ان توقع اتفاقية مع فلول من الشراذم جاؤوا إلى أرض وسكنوها ثم أخرجوا اهلها ثم قالوا هذه الارض لنا . . هذا هو الفارق الكبير بين اتفاقية كمب ديڤيد وصلح الحديبية .

ثالثاً . . مرحلة التحرير :-

كان النبي (ص) يترقب اليوم الذي تتنصل فيه قريش عن المعاهدة لينتقل الى المرحلة التالية من خطته في تحرير مكة وجزيرة العرب من الوثنية .

وفعلاً لم يمر وقت طويل حتى شنت بني بكر غارة على خزاعة وسارعت قريش لتقديم العون الى القبيلة الحليفة لها وبذلك فقد خرقت البند الأول من الاتفاقية مما جعلت الاتفاقية بحكم الملغاة وجاءت خزاعة تطلب العون من المسلمين باعتبارهم حلفاء لها فوجد النبي (ص) ان الفرصة قد سنحت فدعى المسلمين الى التهيؤ لكنه أحاط قراره بهالة من السرية فجهز قوة عسكرية وأرسلها الى الشمال للتمويه كما وانه اغلق كل الطرق المؤدية الى مكة وأفشل محاولة حاطب بن ابي بلتغة في نقل اخبار الاستعدادات الى قريش .

وتقدم المسلمون وكانوا عشرة آلاف مقاتل وتبعهم عدد كبير من القبائل التي كسبها النبي (ص) الى جانبه خلال السنتين ، فمزينة ١٠٠٠ رجل و١٠٠٠ من سليم و٤٠٠ من أسلم و٤٠٠ من جفار وعدد من جهينة واشجع وخزاعة وضمرة وليث وسعد بن بكر[1] كلهم جاؤوا مع النبي (ص) لفتح مكة وكانت خطة الرسول (ص) تتضمن قذف الرعب في نفوس المكيين ودفعهم الى الاستسلام دون حدوث المواجهة فما ان وصل الجيش الى مقربة من مكة حتى أشعلوا النيران فازداد اهل مكة رعباً فارسلوا ابي سفيان وبديل ليستطلعا الخبر فاعتقد بديل انها خزاعة قد جاءت للانتقام واستبعد أبو سفيان ذلك وكان العباس بن عبد المطلب في معسكر المسلمين يبحث عن أية فرصة يتمكن الاتصال فيها بزعماء قريش لاقناعهم بالتسليم فعندما شاهد ابي سفيان دنى منه واخذه معه في

---

(١) سيرة ابن هشام : ص٨١ - ٨٢٨ . الواقدي : ٣٣٢٥٣٢٦، ٣٥٨ .

حركة ذكية داخل معسكر المسلمين ليريه قوتهم فيثير فيه الرعب والخوف أما بديل فقد قفل راجعاً الى مكة ، ورتب العباس لقاء بين النبي (ص) وابي سفيان في خيمته .

وحاول النبي (ص) في اللقاء ان يدعوه الى الاسلام قائلاً له ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم انه لا إله إلا الله .

قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت ان لو كان مع الله إله غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد ذلك واستمر النبي (ص) في محاولته وابا سفيان يرفض بأدب فغضب العباس فقال له ويحك اسلم وأشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله قبل ان نضرب عنقك فاضطر الى اعلان اسلامه .

وقد تم اسلام ابا سفيان بتلك الطريقة ضمن خطة الدخول الى مكة دون قتال وأخذ المسلمون يستعرضون قوتهم أمام ابي سفيان وهم يتقدمون نحو مكة فكلما مرت قبيلة كبرت ثلاثاً وأبو سفيان يشاهد عن كثب والى جنبه العباس فيسأله من في هذه فيقول سليم فيقول ابو سفيان مالي ولسليم وتمر قبيلة اخرى وهكذا حتى جاءت النوبة للكتيبة الخضراء التي تضم ألف دارع من المهاجرين والانصار لا يرى منهم إلا الحدق خلال الحديد وهي كتيبة رسول الله (ص) فسأل ابو سفيان سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فأجابه هو رسول الله في المهاجرين والانصار فقال ابو سفيان ما لاحد بهؤلاء حول ولا طاقة فطلب منه العباس ان يسرع الى قومه يعلمهم بما رأى وسمع فدخل ابو سفيان مكة وراح يصرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن[1] .

---

(١) ابن هشام : ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

وهكذا تكاملت حلقات الخطة فلم يجد اهل مكة بداً من التسليم لأمر زعيمهم ابي سفيان ، وكان على الرسول (ص) ان يدخل مكة بصورة المنتصر فقسم جنوده الى أربعة أقسام وجعل على كل قسم قائداً أوصاه ان لا يقتل احداً إلا من رفع السيف بوجه المسلمين ودخل رسول الله في قسم من جنوده وكانت رايته عند علي بن أبي طالب (ع) وتحقق له وعد الله الذي بشر المؤمنين بالنصر وخرجت قريش الى ذي طوى ينظرون الى رسول الله (ص) وهو يدخل مكة بذلك الجلال وتلك العظمة وتذّكر كيف خرج هذا النبي من مكة وهو خائف يترقب وقد وضعوا لقتله جائزة ثمينة وتذكورا كيف تزايد عدد المسلمين بعد ان كانوا قلة قليلة خائفة . . وتذكروا كيف كاد الجوع أن يقضي عليهم وهم في شعب أبي طالب مرّ من أمامهم هذا الشريط وهم في لحظات الانبهار والتعجب لما وصل اليه امر الاسلام فأية قوة عظمى كانت وراء هذا الدين . . فلو لم يكن رسول الله (ص) على حق لما كان ينتصر ، ولو لم تكن قريش على باطل لما أذلها الله بهذه الصورة ، لم يبق احد في مكة لم يذعن لهذه الحقيقة إلا نفر قليل من ذوي النفوس المصابة بالغرور الذين حاولوا ان يقاوموا الجيش الزاحف لكن دون جدوى فيذكر الرواة نموذجاً لهؤلاء هو حماس بن قيس ، سارع حماس الى بيته واخذ يصلح سيفه فالتفتت اليه زوجته مستغربة : لماذا تعد سلاحك ؟ قال : لمحمد وأصحابه . .

وبغرور وصلف قال لها : واني لأرجوا ان اجد لك منهم خادماً ! . .

فقالت له : ويحك لا تفعل ولا تقاتل محمداً واني والله ما أراه يقوم لمحمد واصحابه شيء لكنه لم يسمح لنفسه حتى الرد على زوجته فطفق مسرعاً مع صفوان وجماعته واتجهوا جميعاً نحو الخندقة احدى الطرق المؤدية الى مكة وهو الطريق الذي كان قد كلف خالد بن الوليد الدخول منه الى مكة فحاولت هذه المجموعة ان تمنع تقدم المسلمين لكن دون جدوى فقد قُتل جلهم في

ضربة واحدة فلم يكن أمام الآخرين سوى الفرار وقد حالف حماس الحظ فكان من جملة الفارين فجاء الى بيته مسرعاً مرتعداً فأغلق عليه الباب ، فسخرت منه زوجته قائلة أين الخادم الذي وعدتني به قال لها ويحك لقد جاء محمد بجيش لا طاقة لاحد عليه ، وقد قال من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن فقالت له ألم أنهك عن قتال محمد انه مامقاتلكم مرة إلا وظهر عليكم .

وتكشف هذه الحكاية عن طبيعة الافكار التي كانت تسود مكة حول النبي (ص) وقوته وتكشف عن طبيعة بعض النفوس المغترة وما آلت اليه في نهاية المطاف .

أما النبي (ص) فقد واصل تقدمه حتى دخل مكة دون ان يلاقي أية مجابهة سوى الجيب الذي تعرض لقوات خالد في قاطع خندقة وكان اول عمل قام به هو أداء الطواف حول البيت الحرام وكلما مرّ على صنم كان يشير بقضيب في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فيكسر حتى وصل الى هبل فكسر أيضاً ثم أمر بفتح الكعبة وكان في داخلها التماثيل والصور وقد ملئت جدرانه فأمر بازالتها ثم صلى داخل الكعبة وخرج ووقف ببابها والجموع تنتظره فرفع صوته قائلاً الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده إلا ان كل مأثرة او دم أو ربا في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج .

وهو اذان بانتهاء الجاهلية بقيمها وقوانينها والبدء بمرحلة جديدة ثم واصل الحديث . . يا معشر قريش ان الله قد اذهب نخوة الجاهلية وتعظمها لانتماء الناس لأدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى :

﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ثم وجه كلامه الى اهل مكة وكانوا حاضرين ذلك الجمع فقال لهم ماذا ترون اني فاعل بكم وما تظنون قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وكانت غاية الرسول (ص) من انتهاجه لهذه السياسة هو كسب قلوب المكيين الذين ما كان من السهل عليهم ان يتصوروا انهم في يوم من الأيام سينضموا الى المسلمين فقد كان الشعور بالغرور لا يدعهم يفكروا في ذلك أبداً فهم سادة العرب وأكثرهم مالاً وعزة فكيف يسمحوا لأنفسهم ان ينبذوا عقائدهم وتقاليدهم في لحظة واحدة .

فكانت خطة النبي (ص) في مكة هي كسب ودهم والتأثير في نفوسهم حتى يقبلوا الاسلام عن قناعة ووعي .

فجلس في المسجد يستقبل المبايعين فجاءه الرجال والنساء جاءت هند مبايعة وقد عفى عنها النبي (ص) وهي التي أكلت كبد عمه حمزة فأخذ يوعظهم بآيات من القرآن الكريم حتى وصل النبي (ص) الى قوله ولا يقتلن أولادهن : فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتهم كبار فتجاهل النبي (ص) قولها ولم يك سهلاً على غيره ومن هو في مكانه ان يسمع هذا الكلام من عدوة لدودة لكن حلم النبي وصبره ورحمته هي الجسور الى قلوب الآخرين .

وجاءه أيضاً رجلاً ليبايعه فأخذته الرعدة والخوف فنظر اليه رسول الله بعطف ورحمة وقال له هوّن عليك فاني لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

وكان لسقوط مكة صدى واسع في أرجاء الجزيرة بين فرح مستبشر بسقوط قلعة الوثنية وبين مستاء متوجس خائف على نفسه ومن المستائين هوازن وحلفائهم من ثقيف وجشم ونصر .

سقوط آخر قلاع الشرك :ـ

عندما لاح لهوازن ان جيوش المسلمين استعدوا للقتال ظناً منهم ان النبي (ص) يريدهم لكن اتجاه النبي (ص) كان نحو مكة وظلت هوازن على استعدادها للحرب وعندما بلغها خبر سقوط مكة ازدادت يقيناً بأن النبي (ص) سيقصدهم في يوم من الأيام فلمَ لا يبادروا لقتاله بأنفسهم فتقدم ملك بن عوف زعيم هوازن وهو يسوق عشيرته نحو المواجهة الحاسمة مع المسلمين وكمنوا للمسلمين في الجبال والمرتفعات وانتظروا لحظة وصول الجيش الاسلامي وهو في طريقه الى مواقعهم .

ولم ير النبي (ص) بداً من التحرك نحو هوازن التي سبقته في الاستعداد للمعركة وما ان وصل ركب المسلمين وادي حنين حتى أُخذوا على حين غرّة فانتشر في صفوفهم الرعب وفروا منهزمين بلا هدى وأصبح الرسول يقاتل وحده ومعه جمع قليل من أصحابه وعادت صورة أُحد تتكرر من جديد لكن بشكل آخر فالمسلمون في احد كانوا قلة اما اليوم فهم كثرة وقد قال الله عن ذلك اليوم :ـ

﴿ ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها ﴾ .

فثبت النبي (ص) في المعركة ومعه جمع من بني هاشم واستطاعوا بقتالهم العنيف ان يُغيّروا الموقف وان يعيدوا ميزان القوة لصالح المسلمين عندها عاد المسلمون ليقاتلوا ببسالة وشجاعة مكبدين العدو الخسائر الجسيمة غانمين أموالاً كثيرة وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة من بقي من المشركين وفرارهم الى الطائف فواصل النبي (ص) تقدمه الى الطائف وفرض حصاراً على المدينة التي لم تستقبله ذلك اليوم الذي ذهب اليها وحيداً ،

فسخرت منه وأهانته .

ولم يكن النبي (ص) يريد من ثقيف سوى التسليم فقد استخدم ما كان بحوزته من الوسائل والأسلحة ومنها المنجنيق لدفعها الى التسليم لكنها ظلت تقاوم وطالت فترة الحصار وجاءت أشهر الحرم فرأى النبي (ص) أن يفك الحصار عن المدينة ليمنح اهلها فرصة جديدة للتفكير بمصيرهم إذ لا خوف عليه منهم وانهم لم يعودوا قادرين على الحيلولة دون قيام الدولة الاسلامية في الجزيرة كلها بعد ان سقطت عاصمة الشرك مكة وفعلاً لم يمر وقت طويل حتى جاءته ثقيف الى المدينة وهي تريد الاسلام وكانوا يريدون أن يجمعوا بين الاسلام والابقاء على صنمهم اللات فرفض منهم ذلك . . فأخذوا يساومونه في المدة ولو لفترة شهر واحد فكان يأبى ويصر على هدمها فوراً ثم ساوموه على ترك الصلاة فرفض ايضاً قائلاً لا خير في دين لا صلاة فيه وأخيراً قبلوا الاسلام دون قيد أو شرط فعادوا الى موطنهم وأمر عليهم النبي (ص) احد زعمائهم وهو عثمان بن ابي العاص بعد ان رأى انه اكثرهم حرصاً على تعلّم الاسلام من غيره .

ثم بعث النبي (ص) المغيرة بن شعبة وابي سفيان لهدم اللات فخشي ابو سفيَان ان يتقدم لهذا العمل قائلاً للمغيرة : انك امنع عندهم مني فباشر المغيرة بهدم اللات وقومه بنو متعب من حوله متأهبون للدفاع عند أي هجوم يتعرض اليه . . وبذلك سقط آخر معقل للوثنية ولم يبق أمام المسلمين سوى الزحف نحو الامبراطورية البيزنطية .

العلاقات الدولية :

لم تكن رسالة الاسلام محصورة بفئة خاصة ولا لبلاد خاصة ولا لشعب خاص فهي رسالة للعالم أجمع وعلى هذا الافق سار ركب الاسلام وعلى هذا الأساس قامت خطة الرسول في ايجاد قاعدة قوية تنطلق منها الدعوة الى أرجاء الأرض .

فكان بانتظار النبي (ص) أعباء اكبر ومسؤوليات أعظم فعليه ان يُعِدّ ويهيء الأرضية لتحمل تلك الاعباء فأول ما كان يحتاجه النبي (ص) للانطلاق الى المرحلة المتقدمة من حركته هو ايجاد قاعدة للانطلاق في المكان والانسان فأقام الدولة الاسلامية على أرض المدينة والتي اخذت تتوسع مع تطور الاحداث كما وأقام قاعدة بشرية صامدة قادرة ان تصبح نقطة صامدة للانطلاق في أرجاء الارض، وقبل ان يرحل النبي (ص) الى ربه فانه استطاع خلال السنوات الأخيرة من عمره ان يوجد امكانيات الانطلاقة الكبرى للاسلام والتي تتابعت حلقاتها في حياته وبعد غيابه.

فالرسول (ص) بذلك أرسى قواعد للعلاقات الدولية قائمة على مبدأ الالتزام بالاسلام والايمان بالدين الذي يضمن للبشرية الأمن والحياة السعيدة .

وبدأ النبي (ص) يتحرك على الصعيد الدولي بعد ان أَنجز المقـدمات وبعد ان اطمأن على وضع الاسلام في جزيرة العرب وبالضبط بعد التوقيع على معاهدة الحديبية فأرسل الرسائل الى كل من ملك الروم وملك فارس ومقوقس مصـر ونجاشي الحبشـة وملوك اليمامـة وعمان وتضمنت رسـائله الدعـوة الى الاسلام وارسل مع هذه الرسائل سفراء وانتظر ردود الفعل على هذه الخطة حتى ينتقل الى الخطوة التالية وقد تباينت ردود الفعل على هذه الرسائل وعلى أساسها تم التخطيط للمرحلة الاخرى .

. . وسنتناول كل علاقة على حدة بصورة مستقلة .

الدولة البيزنطية

١ ـ الـدولة البيـزنطيـة : وهي احدى الـدولتين العظيمتين اللتين كـانتـا تتجاذبان السيادة في العالم .

وكانت الدولة البيزنطية تسيطر على بعض مناطق الجزيرة العربية وأخذت تفرض هيمنتها على بعض مناطق الدولة الفارسية . . ففي الوقت الذي وصلت رسالة النبي (ص) الى هرقل كان ميزان القوة يمضي لصالح الدولة البيزنطية فقد عاد هرقل من حرب فارس واسترداده الصليب الأعظم الذي اخذه الفرس من بيت المقدس فكان في شغل عن رسالة النبي (ص) فلم يعتني بها وحتى بعد ان وصلتـه الرسـالة من عـامله الحارث الغسـاني يـطلب منـه الاذن في معـاقبـة النبي (ص) تجاهل الأمر ولم يعبأ بهذه الرسالة فقد كان وقتها يحتفل في بيت المقدس بالنصر على الفرس ، وذكر بعض المؤرخين رأياً مخالفاً لهذا الرأي فهم على اعتقاد جازم بـأن قيصر آمن بـالنبي (ص) لكنه خشي الاعـلان عن اسلامه بعد ان طرح الموضوع على القساوسة فرفضوا اعتناق الاسلام[١] .

---

(١) الواقدي، المغازي: ج٢ ص١٠١٩ .

كما وارسل النبي (ص) رسالة الى المنذر بن الحارث بن ابي شجر الغساني حاكم دمشق مع المنذر بن الحارث فكان رده على الرسالة سيئاً للغاية كما وأرسل الى حاكم بصرى بيد الحارث بن عمير الأزدي فأخذه شرحبيل بن عمرو حاكم الشام من قبل هرقل فقتله .

فأحس النبي (ص) ان سياسة الرسائل غير فاعلة سيما وانها قد تُعرض سفرائه الى مخاطر كثيرة ففكر بارسال سرايا من عدة أنفار يقومون بارشاد الناس ودعوتهم الى الاسلام فأرسل سرية بقيادة كعب بن عمير الى منطقة ذات اطلاع في بلاد الشام وكان مصير السرية مأساوياً حيث قتل جميع افرادها ولم ينجو منها سوى جريح واحد استطاع ان يصل المدينة بأعجوبة عندما تأكد النبي (ص) ان الروم يعيشون غرور الانتصار وانهم لا يذعنون للحق إلا باستخدام القوة العسكرية أخذ يستعد لمعركة فاصلة وتقدم بقوة عسكرية قوامها ثلاثين ألف مقاتل وعين ثلاثة من أصحابه لقيادة الجيش هم جعفر بن أبي طالب ومن بعده زيد بن حارثة ومن بعدهما عبد الله بن رواحة وعلى رواية اخرى زيد اولاً ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ولاحق النبي (ص) قطاعات الجيش حتى ثنية الوداع وهناك اخذ يوصيهم انكم ستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين الشياطين في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانيا ولا تقطعوا نخلاً وشجراً ولا تهدموا بناء لأحد .

وانطلقت جموع المقاتلين باتجاه الشام ووصلت أنباءهم مسامع البيزنطيين فجهّزوا جيشاً جراراً قوامه مائة ألف او مائتي جندي كان يقودهم هرقل او اخيه تيودور .

وكاد الانهيار يسود المقاتلين المسلمين عند سماعهم بعدد القوة المعادية التي فاقتهم بأكثر من سبعين ضعفاً لولا خطاب عبد الله بن رواحة الذي شدهم

للقتال فوقف يقول ؛ يا قوم انا لم نكن نقاتل الناس بعدد وكثرة بل نقاتل بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فانما هي احدى الحسنيين اما ظهور على العدو واما الشهادة[1] كان لهذه الكلمات أثر سحري على المقاتلين الذين مضوا للقاء أعداءهم في احدى القرى يقال لها مؤتة والتقى الصفان ثلاثة الاف في قبال مائتي ألف فقاتل المسلمون قتال المستميت العاشق للشهادة .

فتساقطوا شهداء واحداً بعد آخر وقد كبدوا العدو خسائر فاستشهد زيد وفيها قاتل جعفر قتال الابطال حتى استشهد فأخذ الراية عبد الله بن رواحة واستشهد أيضاً فانهزم من تبقى من المسلمين فأخذ الراية ثابت بن ارقم فاعاد لحمة الجيش واعطى الراية الى خالد بن الوليد الذي لم يجد فائدة من المقاومة فوضع خطة للانسحاب فصف مجموعة كبيرة من المقاتلين خلف جيشه فظن الروم ان جيشاً قدم من المدينة لمساعدة المسلمين حينها انسحب خالد من المعركة فلم يتبعه الروم خشية وجود قوة اخرى وعاد جيش خالد الى المدينة فاستقبله المسملون بالسخرية قائلين يا فرار فررتم في سبيل الله فقال النبي لهم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرّار[2] وكان المقاتل يأتي الى اهله وبيته ويدق عليهم الباب فيرفضون ان يفتحوا له قائلين له لو تقدمت مع اصحابك فقتلت كما قتلوا .

وكان درساً لا ينساه كل من شارك في المعركة فقد حفزّت المسلمين من جديد للقاء الروم وجعلتهم لا يفكروا بالعودة الى المدينة إلا بعد ان يحققوا النصر والظفر .

وفرح اعداء الاسلام بنتائج هذه المعركة واعتبروها هزيمة ساحقة

---

(١) الواقدي، المغازي : ج٢ ص٧٦٠ .

(٢) الواقدي، المغازي : ج٢ ص٧٦٥ .

للمسلمين وتجرأت قريش فتنصلت من الاتفاقية التي ابرمتها مع المسلمين فوجد النبي (ص) الفرصة قد سنحت للتحرك نحو مكة وتأجيل المعركة الفاصلة مع الروم لما بعد فتح مكة .

وفتحت مكة بتلك الصورة الرائعة وعاد النبي (ص) الى المدينة فلم يكن أمامه شيء سوى الزحف نحو الدولة البيزنطية ، فأخذ يُجهّز جيشاً قوياً لمواجهة الروم سيما وان أنباءاً وصلت المدينة تشير الى استعدادات كبيرة وحشود بيزنطية يراد لها غزو الجزيرة لكن ثمة مشاكل كانت تعيق حركة التعبئة العسكرية فالطقس كان حاراً للغاية والسنة سنة جذب وكان موسم الحصاد يقترب شيئاً فشيئاً وهو املهم الوحيد للخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة .

والمرة الوحيدة التي يخبر فيها النبي (ص) اصحابه عن الهدف من الحملة هو محاربة الروم مما كان يضاعف من صعوبة التعبئة فالذي لقيه المسلمون في مؤته لم ينس عن البال كما وان المسافة الطويلة من المدينة الى بلاد الروم وما فيها من مشاق وجوع وعطش كانت تزيد من تثاقل المقاتلين لهذه الأسباب تعثرت عملية التعبئة ونشط المنافقون في تثبيط العزائم وتضعيف ارادة المقاتلين .

وعلى رغم المعوقات فقد تمكن الرسول (ص) من تجهيز الجيش الذي سمي بجيش العسرة والذي وصل عدده ثلاثين ألفاً في بعض الروايات[1] وفي اخرى اربعين ألفاً أو سبعين ألفاً ووصل المسلمون الى تبوك وكانت قيادة الجيش تحت إمرة النبي (ص) ، وقبل ان يصل المسلمون الى تبوك بلغت أنباءهم الروم وكانت قد بلغتهم أخبار انتصار النبي (ص) على قريش وتذكروا خسائرهم الفادحة في مؤته على رغم قلة المقاتلين المسلمين . . فخافوا القتال وآثروا الانسحاب على الاشتباك . . وظل رسول الله فترة من الوقت في تبوك بعد

(١) الواقدي، المغازي : ج٢\ص١٠٠٢ .

للمسلمين وتجرأت قريش فتنصلت من الاتفاقية التي ابرمتها مع المسلمين فوجد النبي (ص) الفرصة قد سنحت للتحرك نحو مكة وتأجيل المعركة الفاصلة مع الروم لما بعد فتح مكة .

وفتحت مكة بتلك الصورة الرائعة وعاد النبي (ص) الى المدينة فلم يكن أمامه شيء سوى الزحف نحو الدولة البيزنطية ، فأخذ يُجهّز جيشاً قوياً لمواجهة الروم سيما وان أنباءاً وصلت المدينة تشير الى استعدادات كبيرة وحشود بيزنطية يراد لها غزو الجزيرة لكن ثمة مشاكل كانت تعيق حركة التعبئة العسكرية فالطقس كان حاراً للغاية والسنة سنة جذب وكان موسم الحصاد يقترب شيئاً فشيئاً وهو املهم الوحيد للخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة .

والمرة الوحيدة التي يخبر فيها النبي (ص) اصحابه عن الهدف من الحملة هو محاربة الروم مما كان يضاعف من صعوبة التعبئة فالذي لقيه المسلمون في مؤته لم ينس عن البال كما وان المسافة الطويلة من المدينة الى بلاد الروم وما فيها من مشاق وجوع وعطش كانت تزيد من تثاقل المقاتلين لهذه الأسباب تعثرت عملية التعبئة ونشط المنافقون في تثبيط العزائم وتضعيف ارادة المقاتلين .

وعلى رغم المعوقات فقد تمكن الرسول (ص) من تجهيز الجيش الذي سمي بجيش العسرة والذي وصل عدده ثلاثين ألفاً في بعض الروايات[1] وفي اخرى اربعين ألفاً أو سبعين ألفاً ووصل المسلمون الى تبوك وكانت قيادة الجيش تحت إمرة النبي (ص) ، وقبل ان يصل المسلمون الى تبوك بلغت أنباءهم الروم وكانت قد بلغتهم أخبار انتصار النبي (ص) على قريش وتذكروا خسائرهم الفادحة في مؤته على رغم قلة المقاتلين المسلمين . . فخافوا القتال وآثروا الانسحاب على الاشتباك . . وظل رسول الله فترة من الوقت في تبوك بعد

---

(١) الواقدي، المغازي : ج٢\ص١٠٠٢ .

انسحاب الروم وقد رأى ان لا يعود الى المدينة إلا بعد ان يطهر المناطق الحدودية من براثن الشرك فارسل برسله الى امراء المنطقة فجاؤوه طائعين مقرين بالاسلام أو على استعداد لدفع الجزية ، وارسل ايضاً قوة لتطهير منطقة دومة من الجيب العميل لدولة الروم اكيدر بن عبد الملك الكندي الذي كان يشكل خطراً على المسلمين بتعاونه مع الروم فعاد النبي (ص) بعد مكثه عشرين يوماً في تبوك مكللاً بالانتصار السياسي على اكبر دولة في ذلك الزمن بالرغم من عدم وقوع القتال إذ كان انسحاب الروم يشكل ضربة سياسية لهذه الدولة ويحقق فراغاً على الحدود البيزنطية يضمن الاستقرار والهدوء في المناطق المتاخمة للدولة الاسلامية يعطي للمسلمين القدرة على فرض سيادتهم على هذه المناطق . . إذ أدى انسحاب الدولة البيزنطية الى ضعف هيمنتها على القبائل العربية المسيحية التي وجدت ان من الافضل لها الاتفاق مع النبي (ص) بعد ان فقدت من تستند اليه . . وبذلك حقق النبي (ص) جزءاً هاماً من اهدافه هو فرض السيادة الاسلامية على مناطق شمال الجزيرة وضمان الطرق التجارية التي اصبحت من اليوم في خدمة الاقتصاد الاسلامي بعد ان كانت تخدم اعداء الاسلام .

دولة فارس

٢ ـ دولة فارس : لم تكن العلاقة بين الدولة الاسلامية والدولة الفارسية كالتي كانت بينها وبين الدولة البيزنطية فالعلاقة المتداخلة بين القبائل والدولة البيزنطية وتداخل المصالح التجارية كانت تحرض المسلمين للتحرك نحو الدولة البيزنطية اما الدولة الفارسية فلم تكن علاقاتها مع القبائل العربية إلا علاقة احتلال فكانت خطة النبي (ص) هي تحرير هذه المناطق من براثن الاحتلال الفارسي مستفيداً من ضعف الدولة الفارسية وهزيمتها أمام الدولة البيزنطية .

وكان النبي (ص) قد بعث برسالة الى كسرى ملك فارس يطلب منه

اعتناق الاسلام فغضب كسرى ومزق الرسالة وكتب الى عامله في اليمن بازان يأمره بأن يبعث اليه برأس النبي (ص) فقد كانت هزيمته أمام الروم قد مزقت قلبه فكان يبحث عما يعوض عن هذه الخسارة ولو كان رأس النبي (ص) كما طلب في رسالته .

وقد أوفد بازان الى النبي (ص) مرسلين من قبله لاستطلاع الأمر وعند اللقاء اخبرهم النبي (ص) بأن كسرى قد قتل وان ابنه شيرويه خلفه في مكانه ووعظهم ودعاهم الى الاسلام وطلب منهم ان يدعوا بازان الى الاسلام ومكث بازان مدة وهو ينتظر خبر كسرى فوصله الخبر كما رواه النبي (ص) فتأكد له ان محمداً (ص) هو نبي ورسول من قبل الله وكانت دولة فارس قد ضعفت واصبحت على وشك الانحلال فأعلن اعتناقه للاسلام وانضمامه للنبي (ص) وبدخول اليمن في الاسلام اصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الاسلامية بالانتشار نحو المناطق الجنوبية .

وفي الشمال كانت بعض القبائل العربية تابعة الى الدولة الفارسية فعندما لاحظت الضعف يحل بهذه الدولة في مقابل الانتصارات التي حققها الرسول (ص) ارتأت ان ترسل وفوداً الى المدينة وان تعلن عن اسلامها وبعض هذه القبائل تعاهدت مع النبي (ص) على دفع الجزية وعند هذه الحدود اقتصرت الصلة بين الدولة الاسلامية والدولة الفارسية في عهد النبي (ص) .

دولة مصر

دولة مصر : وكان رد المقوقس عظيم القبط في مصر رداً جميلاً على رسالة النبي (ص) ، فقد بعث اليه برسالة جوابية أشار فيها أنه يعتقد بان نبياً سيظهر لكن ليس في الحجاز بل في الشام وأرسل الى النبي بهدايا ثمينة جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وقبل النبي (ص) هديته وعند هذا

المستوى كانت الصِلات والعلاقة بينه وبين مصر ، ويدل هذا الرد الحسن بأن المقوقس كان راغباً في اعتناق الاسلام لولا تخوفه من امبراطور الروم فاسلامه كان سينته الى عزله بالتأكيد .

دولة الحبشة

وبدأت العلاقة بين رسول الله (ص) وملك الحبشة من أيام مكة عندما بعث جمعاً من صحابته إلى لحبشة للاستقرار فيها ولتبليغ الرسالة هناك.

وسمع النبي (ص) بحسن استقبال النجاشي للمسلمين وما رد به وفد قريش فحرص على تمتين العلاقة به فأرسل اليه الرسائل يدعوه فيها الى الاسلام حتى استجاب لدعوته فأرسله اليه قائلاً الى محمد رسول الله من النجاشي الأصم بن ابجر . . سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني الى الاسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ،فورب السماء والارض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقريناً ابن عمك وأصحابه ، فاشهد انك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك واسلمت على يديه ، وان شئت ان آتيك فعلت يا رسول الله[1] وقد حاول بعض المستشرقين ان يشككوا في اسلام النجاشي على غرار تشكيكهم في الكثير من الحقائق التأريخية الأخرى وأخذ بعض الكتاب المسلمين هذه الفكرة متأثرين بكتابات المستشرقين لكن حقائق كثيرة من بنيها هداياه التي أرسلها الى المدينة وخطبته لأم حبيبة لتصبح زوجة للنبي (ص) بعد ان تنصّر زوجها ودفعه للصداق وسماحه للمسلمين بأن يأخذوا حريتهم في تبليغ الاسلام تؤكد على طبيعة العلاقة الوطيدة بين ملك الحبشة

(١) معروف الحسني، سيرة المصطفى : ص١٨٤ .

والمسلمين وهيَ تحمل أيضاً أدلة دامغة على صحة الأنباء القائلة باسلام النجاشي .

هذا هو كل ما يمكن أن نجده في السيرة النبوية من مصالح للسياسة الخارجية في دولة الرسول (ص) فقد كانت العلاقات الدولية في عهد الرسول (ص) في مراحلها الاولى إذ ان الوقت الأكبر من عمر الدولة الاسلامية كان يبذل لتثبيت دعائم هذه الدولة وفي تطهير الساحة الداخلية تشمل جزيرة العرب برمتها من بقايا الوثنية والكفر حتى تغدو قاعدة قوية يستعان بها في المرحلة المتقدمة وهي مرحلة الانتشار خارج حدود الجزيرة .

الحضارة الاسلامية :

أدى انتصار حركة الرسول (ص) على الظلم والانحراف والتخلف والجهل الى انبثاق الحضارة الاسلامية التي تولدت من رحم الأحداث ومن قلب الصراع المرير الذي خاضته جحافل الايمان ضد الشرك والتخلف ، فهي إذن النتاج الطبيعي الذي أسفرت عنه حركة الرسول (ص) من يوم بدأت تصدع بالحق في مكة حتى آخر يوم من حياته صلوات الله عليه وآله وسلم . فقد بذل رسول الله (ص) عمره في بناء صرح الحضارة الاسلامية لبنة لبنة حتى تكامل البناء في السنة العاشرة للهجرة ، فكان الثمرة التي قدمها الرسول (ص) للانسانية ليس في ذلك الزمان وحسب بل في كل زمان ومكان حتى أصبح المسلمون اليوم يقتاتون على الارث الكبير الذي تركته الحضارة الاسلامية لهم وليس المسلمين وحسب بل أصبح العالم كله مدينا للحضارة الاسلامية فقد أضاءت الطريق أمام كل انسان فأينما توقدت شعلتها كان التقدم .

ففي العصور الوسطى كان الظلام ينشر بأجنحته على أوروبا كلها وما كان بقدرتها النهوض إلا بقبس من نور الحضارة الاسلامية وهي حقيقة يقرها الجميع ولا مجال لنكرانها فقد أقر بها تونبي وبرناردشو وكثير من مفكري الغرب .

وإذا ما تتبعنا المسيرة الاسلامية منذ انطلاقتها الأولى لوجدنا ان سراً عظيماً كان يكمن في خطوات الرسول (ص) فقد كانت هذه الخطوات تجري بحساب دقيق كانت تتلاحق حلقاتها لتستقر عند بناء صرح الحضارة الاسلامية . فكل كلمة قالها وكل عمل قام به وكل صمت أو توقف أو تحرك كان من شأنه أن يضيف شيئاً الى هذا البناء ليعلو في السنة العاشرة من الهجرة وكان كل شيء في حياة الحركة الرسالية مبرمجاً ليصل المسلمون الى هذه النتيجة .

وهنا تكمن قوة العمل الذي قام به النبي (ص) فقد ظل يسقي الشجرة حتى أينعت ثمارها ثم طلب من العالم ان يأتوا ليتنعّموا بحلاوتها وعذوبتها .

فكل شيء كان وسيلة والهدف هو ان تنضج الثمرة لتعطي أكلها لكل انسان في هذا الكون .

فالحضارة الاسلامية هي نقطة الهدف التي توجت بها مسيرة الاسلام وحتى الدولة الاسلامية لم تكن إلا أداة لتحقيق العدالة والحرية والمساواة ولنشر الفضيلة والقيم فهي وسيلة والحضارة هي الهدف إذ لم يكن همّ النبي (ص) هو اقامة دولة وكسب السلطة والزعامة بل الهدف هو بناء حضارة عن طريق هذه الدولة . فلقد وجدناه يتنازل عن مصالح الدولة من أجل تركيز قيم الحضارة وأبرز مثال على ذلك هو تسامحه مع عبد الله بن أُبي على رغم خطره ورفضه لأي عرض في تصفيته لأنه لم يكن يريد أن يقتل انساناً يقول لا إله إلا الله فهو بذلك كان يريد تثبيت مبدأ .

وأولئك بنو عامر أجابوا النبي (ص) حين دعاهم الى الاسلام أن يكون لهم الأمر من بعده فرفض النبي (ص) في يوم كان أحوج ما يكون الى نصير واحد فكيف بعشيرة تنصره . فقد يأخذ البعض والعياذ بالله على النبي (ص) تهاونه السياسي في مثل هذه الحالات إذ كان من المصلحة ان يوافق على طلب هذه

العشيرة وتلك لكي يقوى ساعده .

لكن النبي (ص) لم يكن يريد الن يبني صرحاً مهلهلاً بل كان يريد ان يبني صرحاً قوياً ثابتاً راسخاً من هنا اختار طريق القيم وضحى بالمصالح السياسية الوقتية .

وأمر آخر ليس هناك تضارب نجده بين مصالح تحرك النبي (ص) وأهدافه الحضارية فمصلحة الدولة هي مصلحة الحضارة أيضاً . . لكن ان بدى تناقض بين المصلحتين فانها تبدوا لمن ينظر الى القضايا من زاوية وقتية ولا ينظر اليها من خلال نظرة زمنية طويلة فيحسب حساب الماضي والحاضر والمستقبل وثمة آخرون من الكتاب مشكلتهم أنهم ينظرون الى سياسة النبي (ص) من خلال ما يعايشونه من سياسة راهنة فعندما نعرض حياة النبي (ص) ومسيرته الشريفة عبر منظار السياسة الراهنة فإن الكثير من المواقف السليمة تبدو وكأنها مواقف خاطئة أو العكس .

فكان علينا ان نجرد أعيننا من أية نظرة مسبقة وندرس حركة الرسول (ص) كما هي وكما أرادها الرسول نفسه ، وكما رسم خطوطها العامة القرآن الكريم . عند ذلك فقط نستطيع ان نقيّم العمل الجبار الذي قام به النبي (ص) في ردح من الزمن لا يتجاوز ثلاث وعشرون سنة .

فخلال هذه الفترة خطى النبي (ص) خطوات متدرجة نحو بناء حضارة انسانية رسالية تسعد فيها البشرية ويجد فيها الانسان انسانيته وخلال العامين الأخيرين من عمره الشريف أخذ يضع اللمسات الاخيرة للاطار العام لهذه الحضارة . فبعد ان حقق الانتصار على الأعداء وصفت جزيرة العرب خالصة للاسلام وللمسلمين كان على النبي (ص) ان يعلن نهاية الشرك وانقشاع تلك

السحابة المظلمة.

فكان أن أرسل علي بن أبي طالب (ع) الى مكة ومعه سورة البراءة وعندما اجتمع الناس بمنى ليؤدوا مناسك الحج وقف الإمام علي ليقرأ هذا البيان الهام الذي تضمنته سورة براءة والتي جاء في مطلعها :

﴿ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين ﴾ .

وبعد تلاوة البراءة وقف الإمام علي (ع) ليقول للناس وفيهم مسلمين وغير مسلمين :

(أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله (ص) عهد فهو الى مدته) وكانت تلك آخر سنة حجّ فيها المشركون على طريقتهم الخاصة ومع سورة البراءة اختتمت مرحلة وبدأت أخرى .

وبالرغم من ضعف المشركين يوم أعلنت البراءة إذ لم يكن لهم كيان سياسي ولم يكونوا مبعث خوف لدى المسلمين .

فما الداعي الى اتخاذ مثل هذا الموقف ؟

لا يمكن ان نحلل قرار البراءة من منظار سياسي أو عسكري أو اجتماعي فقط . فقد كان وراءه دواعي أخرى أهم من تلك الجوانب .

صحيح ان الشرك لم يعد قوة سياسية أو عسكرية ولا حتى قوة اجتماعية إلا أنه كان لازال قائماً كمبدأ وعقيدة لدى بعض القبائل المتناثرة . فكان لا بد من وضع نهاية سريعة حتى لهذا الوجود الضعيف .

فقد تعامل الاسلام مع الشرك كظاهرة غير طبيعية وحالة شاذة فلم يعد

هناك أي مبرر لوجودها بعد ثلاث وعشرين عاماً من الموعظة والارشادات .

فحركة التأريخ تجري نحو الأفضل فلم يعد بعد اليوم مكاناً للشرك بعد ان اكتسحته عجلات التأريخ وكان لا بد من ازاحة الشرك ليصبح الطريق مفتوحاً أمام التوحيد .

فمجتمع الجزيرة قد تحوّل برمته الى الاسلام ولم يبق إلا النزر القليل الذين لازالوا يمشون في الظلام تائهين عن الطريق ، فلم يعد هناك مكان لهؤلاء في مجتمع يسوده النور والوعي فكان لا بد من اعطاء فرصة لهؤلاء حتى يتمكنوا أن يكيفوا أنفسهم مع الوضع الجديد . إذ لم يعد بالامكان تحمّل الجهل والتخلف في وسط مجتمع متحرك نحو التقدم يستعد للانتقال الى مرحلة أكثر دقة ومسؤولية وهي نقل الرسالة الاسلامية الى الشعوب الاخرى خارج جزيرة العرب .

والفرصة التي منحت لهؤلاء الذين لم ينصتوا بعد لصوت الحق هي أربعة أشهر وهي كافية لاعادة التفكير واتخاذ القرار المناسب وبعدها لا حق لهم بالبقاء في مجتمع نظيف قائم على القيم وعلى العقل والمنطق وليس الخرافة والجهل .

ويشمل هذا القرار المجموعات التالية :

١ ـ الذين لا عهد لهم مع المسلمين .

٢ ـ الذين عاهدوا ونقضوا عهدهم .

٣ ـ الذين لا يستبعد منهم نقض العهد.

٤ ـ الذين عاهدوا النبي (ص) لكن لم يحددوا مدة العهد . فيسمح حينذاك لأحد الطرفين تحديد المدة وهي أربعة أشهر كما حددها المسلمون .

ويستثنى من هـذا القرار الـذين عاهـدوا النبي (ص) وظلوا أوفياء على عهدهم ولم ينقضوها وهم قلة من بني كنانة وبني ضمرة .

ويستثنى من القرار أيضاً أهل الكتاب الذين تعاقدوا مع النبي (ص) فيظلوا على عقائدهم وتقوم الدولة بحمايتهم على أنهم مواطنون وعليهم أن يـدفعوا الجزية في مقابل ما تقدمه الدولة من خدمات .

فهناك عقيدة فاسدة لا بـد من محوهـا وهناك عقيـدة يحترمهـا الاسلام ويتعامل مـع معتنقيها بـرفق والشرك هـو أقصى درجات الحضيض ، فـالايمان بالخرافة والتعصب الأعمى ووأد البنات وإشاعة الربا والاحتكار والاعتماد على نظام الرق هي من خصائث الشرك ، فكان لا بد من تصفية كل هذه السخافات التي تحد من حركـة الانسان والمجتمـع وترك المجتمـع لينطلق الى مجـالات التقدم .

من هذا المنظار الحضاري تعامل الاسلام مع الشرك فوجوده يحـد من حركة المجتمع نحو البناء . فكان لا بـد من ازالته وقـطع صلة المجتمع بـه نهائياً .

أمّا اللمسات الأخرى التي وضعها الرسول (ص) فقد جاءت في خطبته المشهورة بخطبة حجة الوداع والتي ذكّر فيها المسلمين بالقيم والأهداف التي جاء من أجلها الأسلام ، ذكرهم بالوحدة والأخوة التي بها انتصر المسلمون على أعدائهم ، ذكرهم بحرمة دماءهم وأموالهم واداء الأمانة وذكّرهم بحرمة الربـا والظلم والتعدي على الآخرين .

سمات الحضارة الاسلامية :

الحضارة التي جاء بها الاسلام تختلف عن كل الحضارات التي سبقتها بقوتها وسرعة تدفقها ومستوى تفاعلها مع قضايا الانسان والمجتمع وقد امتازت

على الحضارات الاخرى بما يلي :-

١ ـ انها حضارة التوحيد تقوم على الايمان العميق بوجود خالف لهذا الكون وانه قادر على كل شيء وانه خلق الانسان ليعبده .

والتوحيد هو القاعدة القوية التي انطلقت منها الحضارة الاسلامية أيضاً فهي وضعت الانسان أمام مسؤولية كبيرة وأوجدت علاقة فاعلة بين الايمان والسلوك بين العقل والقلب فأصبح الايمان غير منفصل عن الحياة على خلاف ما كان قائماً في العالم المسيحي من فصل بين أعمال القلب وأعمال الانسان الأخرى والذي أدى الى فصل الكنيسة عن الدولة .

على عكس ذلك أوجد الايمان بالوحدانية الالهية خط الأرتباط القوي بين أجزاء الانسان وأجزاء الحياة فأصبح الكون والانسان والمجتمع وكل شيء في الحياة يسير نحو مركز واحد هو التوحيد .

فكان التوحيد منبع للارادة ومنبع للخير ومنبع لطاقات الانسان وعلى هذه قامت الحضارة الاسلامية .

وعندما نقول ان الحضارة الاسلامية حضارة توحيدية يعني بذلك انسجامها مع خط الحياة والكون وقدرتها على بناء الانسان والاستفادة من طاقاته لبناء الحياة .

فقد قامت الرسالة الاسلامية من أجل اعادة بناء الانسان وصياغته صياغة جديدة على مبدأ التوحيد ونتج عن هذه الحركة التغييرية الحضارة الاسلامية ، فعلاقة الحضارة بالتوحيد هي علاقة السبب بالنتيجة .

٢ ـ انها حضارة للبشرية كلها لانها لا تؤمن بالقبيلة ولا بالحدود ولا تفضّل أمة على أمة فالجميع سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا

لأبيض على أسود إلا بالتقوى . فهي حضارة تستوعب كل البشر وتستثير كل الطاقات لبناء عالم أفضل .

ولهذا لاحظنا سرعة انتشار الاسلام بين الأمم وسرعة قيام الحضارة الاسلامية في كل البلاد الاسلامية على رغم الفوارق والحواجز .

ولو درسنا تأريخ الشعوب غير العربية التي أسلمت كشعب فارس لوجدنا كم كان للرسالة الاسلامية من تأثير في استنفار طاقات هذه الشعوب وصبها في مصب الحضارة فلو لم يكن الاسلام قد حطم كل الحواجز لما كان باستطاعته ان يصنع حضارة في بلاد فارس ما بين النهرين أو بلاد النيل . فبفضل عالمية الرسالة أصبح للحضارة الاسلامية وهج أقوى وتألق أشد لأنها أشركت كل الشعوب في عملية البناء .

٣ ـ الحضارة الاسلامية حضارة تغييرية فهي لا تتوافق مع تغيّر المظهر والشكل بل تعمل على تغيير الوضع القائم من جذوره واستبداله بوضع أفضل . وينتج عن هذا التحوّل الجذري من واقع رديء الى واقع أفضل قيم ومثل وأفكار واستعدادات تساهم بدورها في ترسيخ الحضارة وزيادة اشعاعها .

وهي تتجانس مع المجتمع الذي تعمل على تغيير واقعه ، فإذا توقف المجتمع عن التغيير فان وهج الحضارة سيخبو ويتحول الى قشور لا تحمل الروح مثلما حدث للحضارة الاسلامية في فترة الركود والخمول فطفح هذا الخمول حتى لامس الحضارة أيضاً فغدت جسداً ميتاً لم يبق منه سوى الأشلاء .

ونجم خمول الحضارة بسبب الركود الذي شهدته حركة التغيير . فالتغيير هو روح الحضارة وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ لا يغيّر الله ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

٤ ـ الحضارة الاسلامية حضارة شاملة فهي لا تقتصر على الجانب الروحي وتترك الجانب المادي وهي تهتم بالآخرة كاهتمامها بالدنيا . فهي تستوعب حياة الانسان بكل أبعادها وتستوعب نشاطه بكافة ألوانها ، فهي تبني للانسان اقتصاداً متيناً وتقيم له نظاماً اجتماعياً وسياسياً بنفس الدرجة التي ترسخ فيه القيم والمثل وتبنيه بناءاً عقلياً وروحياً ليصبح عضواً نافعاً في المجتمع .

فهي ليست كحضارة اليونان التي اهتمت بعقل الانسان فقط وليست كالحضارة الغربية التي أشبعت حاجات الانسان المادية فقط ، بل هي حضارة شاملة شمول الرسالة وشمول القرآن الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وهي تدفع بالانسان الى العلم كما تدفعه الى الخلق وكما تدفعه الى عمل الخير . فهي لا تؤمن بالعلم المجرد من الخُلق أو الخلق البعيد عن العلم . فكما أنّ هناك ترابط بين مكونات الانسان فإن هناك ترابط أيضاً بين العناصر المكونة للحضارة . فلا يمكننا ان نفصل التقدم العلمي عن التقدم الخلقي وبالعكس كما لا يمكن ان تقوم حضارة اسلامية على طلب العلم وازدهار الحركة العلمية فقط في غياب التقدم في المجالات الاخرى . فعندما يتقدم الانسان الى الامام يتقدم بكل كيانه وبكل ممارساته في الحياة والرسالة هي التي تتحمل مسؤولية إحداث هذا التحول بالتربية وبالتعليم . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

فالتزكية هي مفتَاح تغيير البشر وهي مفتاح التقدم والرقي وهي الطريق الى بناء حضارة قوية قائمة على قواعد راسخة .

معطيات الحضارة الاسلامية :

اكتسحت الرسالة الاسلامية المجتمع الجاهلي وفتحت طريقها بقوة الوحي نحو بناء حضارة انسانية لم يشهد التأريخ البشري مثيلاً لها .

ومع اكتساحها لذلك المجتمع المتهاوي جرفت كل ما تبقى من المجتمع الجاهلي من سمات وعقائد وأفكار وبنت على انقاضه أفكاراً وقيماً جديدة أخذت تترسخ وتنتشر بظلالها أرجاء الكون . ونشأ على أثر هذه الحركة القوية التي قلبت كل شيء عطاء لا ينضب من القيم والافكار .

فكان أول عطاء للحضارة الاسلامية هو الانسان الفاعل في الحياة والنظام القادر على اسعاد البشر والقيم المحركة للحياة .

أولاً : الانسان الفاعل . .

تطرقنا في أول البحث حول طبيعة الانسان الجاهلي وإذا ما أردنا ان نقارن بينه وبين أي نموذج انساني في عهد الرسالة لوجدنا بوناً شاسعاً .

إذا ما أردنا أن نقارن بين أبي ذر الغفاري قبل الاسلام وبعده لكم كان الفارق كبير وشاسع فقد حولت الرسالة أبا ذر من قاطع للطريق الى صوت للعدالة يهز عروش الطغاة والى منادي للحرية والحق فقد قدّموا له الرشاوي حتى يسكت ويترك نقد السلطة فإذا بقاطع الطريق يخرج غاضباً رافضاً أية مساومة في دينه وفضّل ان يعيش منفياً في الربذة على ان يساوم في دينه ، وأينما وضعنا أيدينا على النماذج الانسانية التي صنعتها يد الرسالة لوجدنا العظمة وهي تتجلى في صفحات حياتها ، فهذا عمار وذاك خباب وذلك بلال كيف كانوا وكيف أصبحوا .

ان مفخرة الاسلام هو تلك المعادن التي صنعها من لا شيء .

وان عظمة رسول الله (ص) تتجلى في أولئك الذين صنعهم من لا شيء ودفع بهم للتأريخ كرموز للانسانية ومنائر للعلم والفضيلة .

لقد صنع في الانسان الارادة بعد ان كانت تسيّره الخرافة والمعتقدات البالية . واستثار فيه العقل ودفعه بقوة الى الحياة ليبني ، ليزرع ، ليصنع وليعمل حتى المستحيل .

وحرك في الانسان مشاعر الكرامة والعزة فأصبح لا يدنو للرذائل ولا يقترب لما حرّمه الله تعالى . وأوجد لديه شعوراً بالمسؤولية نحو كل موجود على سطح الأرض فهو مسؤول حتى عن الحيوانات فكيف بالانسان .

قضى رسول الله (ص) ردحاً من الزمن وهو يصنع الرجال ويبني بهم الامة التي أصبحت خير أمة أخرجت للناس بفضلهم . وإذا ما تتابعنا عملية البناء للاحظنا انها بدأت بهدم العقائد القديمة ثم بناء قيم وأفكار جديدة ومن أجل تعميق هذه القيم شرع القرآن الكريم العبادات ، الصلاة لتطهير النفوس من الادران وتزكية القلب من الغرور والتكبر ولزيادة الاتصال بالله .

الصوم لتطهير البطون من الجشع والفروج من الأهواء وللمزيد من الارتباط بالانسان المستضعف العاجز عن سد حاجاته اليومية من الغذاء .

والزكاة لتزكية النفوس من البخل والجشع والاستئثار وللمزيد من الارتباط بالمجتمع .

والعبادة للبناء . . بناء الانسان والمجتمع .

وشرّع المعاملات ، البيع ، الشراء ، العقود ، لبناء الانسان ومن أجل ان يضع كل شيء في مكانه المناسب ، فالمعاملات لبناء الانسان ولتحصين المجتمع من الظلم والتعدي والتجاوز على الحقوق .

فعلى تلك الاسس أقام رسول الله (ص) بنيان الانسان المسلم ولم تمر فترة طويلة حتى كان الآلاف من المجاهدين والعلماء والقادة يتخرجون من مدرسة رسول الله (ص) ينشرون في الأصقاع الفضيلة والوعي فكانوا أفضل ثمرة تقدمها الرسالة الاسلامية الى البشرية فبفضل انسان واحد كأبي ذر آمن خلق كثير من جبل عامل بلبنان .

وبفضل انسان واحد آمنت أندونيسيا كلها .

وإذا كان لكل حضارة بضاعة تصدرها الى الشعوب الأخرى فإنّ بضاعة الحضارة الاسلامية هو الانسان الذي صدرته عبر الغزوات لينشر النور في عالم كان يختنق في الظلام .

ثانياً : النظام القادر على اسعاد البشر . .

أوجدت حركة النبي (ص) في مجتمع الجزيرة نظاماً متكاملاً تكونت أجزاؤه بمرور الزمن وأصبح هذا النظام يستوعب كل مشاكل الانسان وقضاياه لانه تولّد من تفاعل الانسان نفسه مع الحياة .

فالنظام الذي أوجده الاسلام جاء جراء حركة النبي (ص) نحو تحقيق أهدافه فهو افراز لتفاعلات جمة في المجتمع والانسان ودور القرآن في النظام هو تعيين الاسس والقواعد والخطط العامة لهذا النظام .

وكان من الطبيعي ان يأتي هذا النظام ملبياً لحاجات الانسان والمجتمع منسجماً مع أهدافه ودوافعه في الحياة .

وكذلك وفرّ النظام الحماية الكافية لمكتسبات الانسان وحاجاته في الحياة فهو لم يترك الانسان لوحده بل أخذ بيده نحو تحقيق ما يريد في الحياة من عدالة وحرية ومساواة .

فقد أقام رسول الله (ص) نظاماً يسعد فيه البشر ، يحقق فيه الفقير أمنيته في أن يعيش غنياً كريماً ويحقق فيه الغني امنيته في أن تساهم ثروته في غنى المجتمع ليصبح المجتمع بأسره غنياً .

ويحقق فيه المظلوم أمنيته في دفع الظلم حتى لو كان مصدره الحاكم نفسه ويحقق فيه المضطهد بسبب اللون أو الجنس أو القوم أمنيته في المساواة مع غيره ، وحتى العبيد يجدون فيه ما يرفع عنهم الحيف ويمنحهم الحرية . فأي نظام هذا الذي يسمح للأرقاء بأن يدخلوا اليه ليصبحوا بعد أيام سادة . أي نظام ذلك الذي ساوى بين بلال الحبشي وحمزة الهاشمي . وأي نظام هذا الذي ساوى بين أبي ذر المُعدم وبين العباس الثري .

فلقد أوجد الرسول (ص) خلال حركته في مكة والمدينة أنظمة متعددة كلها تنتهي الى هدف واحد فأوجد قانوناً لبناء الحركة المجاهدة القادرة على فرض ارادتها على المجتمع وأوجد بعد ذلك قانوناً لتحويل التجمع الجهادي من صورته المصغرة الى مجتمع اسلامي كبير . ثم أوجد قانوناً لبناء الدولة الاسلامية ثم قانوناً لادارة أمور الدولة وادارة شؤون الأمة في حالة السلم وفي حالة الحرب وإذا جمعنا كل هذه القوانين لوجدناها جميعاً وهي تجتمع في نظام واحد مركزه واحد وهدفه واحد أيضاً .

مركزه هو الانسان المؤمن المكافح الصابر وهدفه هو الحرية العدالة المساواة .

ومن يدرس السيرة سيلاحظ كيف أقام رسول الله وعبر النظام الذي أوجده العدالة بكافة صنوفها وألوانها من عدالة سياسية أصبح فيه الجميع مشاركون في القرار صانعون للأحداث .

وعدالة اقتصادية فلم يعد فقير واحد في مجتمع كان جلّه من الفقراء .

وعدالة اجتماعية أصبح فيه رئيس العشيرة وهو يُقدِّم ابنته الى أحط الناس في السلم الاجتماعي ذلك لأن الاسلام ساوى بينهم فجعل المسلم كفء للمسلم .

ومن ثمرات النظام الذي أوجده النبي (ص) هو ضمان الأمن والاستقرار فكانت المرأة الحجازية تخرج الى اليمن دون ان يمسها ضرر . وأصبح دار الاسلام دار أمن حتى للمشركين

﴿ وإن أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ .

فالعيش بأمان حق مسلّم به لِكل انسان حتى لو لم يكن مسلماً .

وقد يعترض البعض بغزوات النبي (ص) التي سلبت الأمن والاستقرار من جزيرة العرب . في الاجابة كان لا بد من توضيح هذه الحقائق :

أولاً : كل الغزوات التي قام بها النبي (ص) كانت دفاعية فلم يذكر لنا التاريخ ان النبي (ص) هاجم أحداً دون ان يكون هناك مبرر للهجوم أمّا رداً على عدوان أو خشية قيام عدوان .

ثانياً : كان هم الرسول (ص) الأول في كل الغزوات هو تجنب القتال مثلما حدث في غزوة تبوك عندما أقفل راجعاً بعودة جيش الروم . وعندما كان جيش الخصم ينهزم كان المسلمون يتركونهم ولا يحاولوا ان يزيدوا في القتل .

ثالثاً : أثناء القتال كان المسملون في منتهى الانسانية في تعاملهم مع الجريح ومع الاسير ، أضف الى ذلك تحريم قتل النساء والاطفال وقطع الاشجار والأثمار .

وكان لا بد لمن يدرس تأريخ الاسلام ان يستوعب هذه المعاني وهو

يعايش تلك الحقبة الزمنية حيث كان هم المقاتل هو القتل مهما كان لونه ومصدره .

لقد جاء الاسلام بمبادىء انسانية وقام بتطبيق هذه المبادىء حتى في الحروب فكيف في حالة السلم .

وكان علينا وعندما نريد ان نقيم تلك المكاسب ان ننظر اليها من خلال وضع الانسان والمجتمع في العصر الجاهلي .

رابعاً : بعث القيم البنّاءة . .

قام مركز للدراسات الحضارية في واشنطن بتجربة فريدة ، أخذ عينات مختلفة من شعوب مختلفة وتم تعريض هذه العينات الى توجيه مركز حول العمل ، وكان الهدف من هذا التوجيه ايجاد مشاعر حب اتجاه العمل وازالة أي شعور بالضيق والكره وبعد فترة من التثقيف والايحاء المركز بضرورة العمل أعيدت العينات الى أماكنها ، وبعد فترة من الوقت وضعت هذه العينات تحت المراقبة فوجد المركز ان نسبة الانتاجية للعينات التي خضعت للتجربة كانت أكبر من السابق وانها أيضاً متفاوتة بين العينات المختلفة والتي أخذت من شعوب مختلفة فتبيّن ان جميع العينات استجابت للايحاء المركز لكن كان تجاوبها مختلفاً من شعب لآخر .

تذكرّتُ هذه الحكاية التي قرأتها في احدى المجلات وأنا اكتب عن القيم التي جاءت بها الرسالة والتي أستطيع ان أشبهها بالفيتامين الذي يزيد في الأمة النشاط ويضاعف لديها العزيمة والارادة مثلما يفعل الڤيتامين في تقوية البدن وتمكينه من انجاز النشاطات المختلفة .

وقد جاء التركيز على هذه القيم في كل مناسبة وفي كل حادث يستدعي ذلك وقام القرآن الكريم بدور كبير في زرع هذه القيم لدى المجتمع المسلم

فهي مفردات تركب الحضارة الاسلامية . ونستطيع ان نشبه عمل القيم البناءة في المجتمع بعمل البطارية التي بواسطتها تتحرك دواليب الحياة وتتسارع عجلات المجتمع الى الأمام .

وكما البطاريات بحاجة الى شحن باستمرار بواسطة أجهزة خاصة فكذلك هذه القيم بحاجة الى شحن متواصل ويقوم الايمان بهذا الدور كلّما ضعفت القيم في النفوس .

من هنا فإن المجتمع بحاجة الى هذه القيم لكي يتمكن من الحركة بصورة ذاتية . والقيم التي جاء بها الاسلام وبنى عليها حضارته هي :

١ ـ السلام . .

فقد دعى الاسلام الى السلم فتحية المسلم عندما يلتقي بالمسلم الآخر هو السلام وقد قال الله تعالى ﴿ **وان جنحوا للسلم فأجنح لها** ﴾ (الانفال ١) .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ (البقرة ٢٠٨) .

﴿ **والله يدعوا الى دار السلام** ﴾ (يونس ٢٥) .

وقال (ص) : (يا أيها الناس افشوا السلام)[١] .

والسلام هو الأمن والطمأنينة وبعث الطمأنينة في نفوس الغير وهو قيمة حضارية وركن من أركان التثقيف الاسلامي فالسلام هو شعار المسلم في البيت بين أبنائه وأهله وفي المجتمع بين أخوته واصدقائه وفي المعاملة بينه وبين المشتري أو البائع .

فالسلام الذي أوجده النبي (ص) هو سلام في العلاقات الاسرية وفي

---

(١) كلمة الرسول الاعظم، السيد الشيرازي: ص١٠٩ .

العلاقات الاجتماعية وفي العلاقات الاقتصادية وحتى في العلاقات الدولية .

والسلام يوجد أجواء البناء ويربط بين القلوب ويُركّز المثل ويوجد الاحساس بالثقة والطمأنينة . وأول ما يبدأ الاسلام هو ان يوجد السلام والطمأنينة في نفس الانسان ثم ينتقل من العالم الداخلي الصغير الى العالم الخارجي الكبير . فكل شيء في الاسلام يدعو الى السلام .

وكل مسلم مسؤول عن السلام ، عليه ان يعمل من أجل أن يسود السلام ليس وطنه فحسب بل العالم بأسره . فما أحوج عالمنا اليوم وهو يموج بالصراعات وتطحنه الحروب والنزاعات ، ما أحوجه الى السلام . . لكن من يستطيع ان يوفر له هذا السلام غير الحضارة الاسلامية .

٢ ـ التعاون . .

لا يستطيع الانسان ان يعيش لوحده فهو بحاجة الى الآخرين . فوصاه الاسلام بالتعاون وهو طريقه الى التكامل ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** ﴾ .

وقال النبي (ص) :ـ

* طوبى لمن أنفق الفضل من ماله .

* طوبى لمن حسّن مع الناس خلقه وبذل لهم معونته .

* يلزم الحق لامتي في أربع : يحبون التائب ويرحمون الضعيف ويعينون المحسن ويستغفرون للمذنب .

وقال أيضاً (ص): أربعة ينظر الله اليهم ويزكيهم ، من فرّج عن لهفان كربة ، ومن أعتق نسمة ، ومن زوّج عزبا ، ومن حج صرورة .

فالثلاثة الأولى تدعوا الى التعاون . وقد استطاع النبي (ص) وخلال فترة قياسية ان يوجد مجتمعاً متعاوناً غنياً يتحمل عبأ الفقير وعالمه يتحمل عبأ الجاهل . وأبرز صورة لهذا التعاون المؤاخاة بين الانصار والمهاجرين . وكان من مصاديق المؤاخاة هو تقسيم الانصاري ثروته بينه وبين المهاجر ، وقد وصل أمر المؤاخاة أن طلب سعد بن الربيع من عبد الرحمن بن عوف ان يختار أحد زوجتيه كي يطلقها ليتزوجها عبد الرحمن ، فأين نجد مثل هذا التعاون وهذه الأخوة غير الاسلام .

لقد استطاع الاسلام ان يبني نظاماً رائعاً من التكافل الاجتماعي قائماً على مبدأ التعاون وظل المسلمون ولفترة من الزمن شعارهم التعاون . واستطاعوا ان يحققوا أكبر الانتصارات وأن يحققوا ازدهاراً اقتصادياً بواسطة هذا الشعار لكن وبعد ان ضعف الايمان في المجتمع الاسلامي ضعفت روح التعاون بين المسلمين فأخذوا بالتراجع . فما أحرى أمتنا ان تعود لتلتزم بهذا الشعار وتترجمه بصورة عملية في حياتها لتعيد مجدها وعزتها من جديد .

٣ ـ المسؤولية . .

من أساليب الرسالة في اشراك الناس في البناء هو اشعارهم بالمسؤولية فليس هناك انساناً واحداً يعيش على هذه الارض متجرد عن المسؤولية .

* خمس من أتى الله عزّ وجلّ بهنّ أو واحدة منهن أوجب له الجنة : من سقى هامة صادية أو أطعم كبداً هافية أو كسى جلدة عارية أو حمل قدماً حافية أو أعتق رقبة عانية .

* وقال أيضاً : إذا كان يوم القيامة ، لم تزل قدما عبد حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعما اكتسبه من أين اكتسبه

وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيت .[1]

* وقال أيضاً انصحوا الله في عباده ، فانه من استرعى شيئاً من أمور الناس ، ثم لم ينصح لهم ، حرّم الله عليه الجنة[2] .

* أربعة لأربعة ، لا لأربعة : المال للانفاق لا للامساك ، والعلم للعمل لا للمجادلة ، والعبد للتعبّد لا للتنعّم ، والدنيا للعبرة لا للعمارة[3] .

* أنكر المنكر بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك ، وذلك أضعف الايمان[4] .

* أيها الناس أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يملّ من الثواب ، حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه[5] .

بالمسؤولية أصبح كل فرد من أفراد المجتمع الاسلامي عنصراً فاعلاً مؤثراً وأصبح هذا المجتمع متحركاً متكافئاً مستجيباً لما هو مطلوب منه . وهذا هو حال المجتمع الاسلامي الذي أصبح يحمل بعضه بعضاً فلم يعد يوجد انسان واحد في المجتمع الاسلامي مستثنى من التكليف وبهذه الروح العملية أصبح المسلم يبحث عن أي موقع للعمل حتى يرفع عن نفسه التكليف . وإذا كان وراء الانبعاثة الاسلامية من سبب فإن الشعور بالتكليف وانطلاق هذا الشعور من المحفزات الذاتية هو السبب في كل تقدّم أحرزه المسلمون خلال فترة قصيرة من عمرهم . فتحمل أفراد المجتمع الاسلامي للمسؤولية خفف الكثير من أعباء

---

(١) كلمة الرسول الاعظم، السيد الشرازي: ص٥١١ .

(٢) نفس المصدر السابق: ص١١٣ .

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) أدب الدين والدنيا، الماوردي: ص١٠٢ ـ طبع بيروت.

(٥) أدب الدين والدنيا، الماوردي: ص١١٣ .

الدولة لانها وجدت من يشاركها العمل وينجز قسماً كبيراً من الأعمال التي توكل في العادة الى الدول .

ومن ايجابيات التكليف عدم حصر مسؤولية الدفاع عن الوطن بعهدة فئة محددة من الناس فالكل مسؤولون ويتحملون أعباء هذا العمل وأي عمل آخر تقتضيه المصلحة الاسلامية العامة .

٤ ـ الأخوّة :

أضحى الشعار الأول للمجتمع الاسلامي والذي لازال مدوياً هو الآية الكريمة انما المؤمنون أخوة فقد أرسى رسول الله (ص) دعائم المجتمع الاسلامي على مبدأ المؤاخاة وظلّ يوصي أصحابه (اياك وهجران أخيك فان العمل لا يتقبل مع الهجران) .

وقال أيضاً : المؤمنون اخوة تتكافأ دماءهم وهم يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم[١] .

وقد شاهدنا ثمرة الاخوة الاسلامية وكيف جعلت من المجتمع الاسلامي الوليد قادراً على الوقوف على قدميه وكيف استطاع هذا المجتمع وعبر الوحدة ان يلغي الخلافات وان يزيل الحواجز بين قبائل متقاتلة وكيف تمكن هذا المجتمع ان يتجاوز المشاكل الاقتصادية ومشاكل السكن والثروة عبر هذا المبدأ الاسلامي . فلو أعاد المسلمون تطبيق هذه القاعدة فهل سيبقى في مجتمعنا الاسلامي فقير أو محروم ، وهل سيبقى في هذا المجتمع ظلم وتعدي على الحقوق .

وجميل جداً ان دائرة الأخوة لم يحصرها الاسلام في نطاق ضيق بل وسعها لتشمل البشر أجمع ، فعن علي بن أبي طالب (ع) وهو تلميذ

---

(١) كلمة الرسول الأعظم ـ ص١٠٨ .

رسول الله (ص): الناس أما أخ لك في الدين أو أخ لك في الخلق .

فالجميع أبناء لأب واحد هو آدم . ومن هذا المنطق أخذ الاسلام يتعامل مع غير المسلمين فتعامل مع اليهود في بداية الامر كأخوة وجعلهم أمة مع المسلمين .

والاسلام بهذا المنطق يريد ان يعمق مشاعر الإلفة والمحبة بين الناس حتى بين المسلم وغير المسلم حتى يسود الوئام والسلام والتعاون المجتمع البشري .

وكان للمسلمين تجربة رائدة في تطبيق مبدأ الأخوة ليس على صعيد أنفسهم فقط بل حتى مع من يعيش معهم من أصحاب الديانات الاخرى فغير المسلم لم يكن ليشعر بالغربة بل كان يحس بأنه واحد من المجتمع الاسلامي .

وإذا راجعنا تأكيدات النبي (ص) على الاخوة وما تضمنته سيرته المباركة من صور حية . فاننا سنخرج بنتيجة ان غاية الاسلام هو بناء مجتمع متراص من داخله وليس بقوة خارجية متكافل بذاته وليس بقوة خارجية وان طموحه ان تسود هذه العلاقة المجتمع البشري برمته وهذا ما كان يعمل من أجله الاسلام .

وإذا ما نظرنا الى عالمنا اليوم وما فيه من أحقاد وصراعات وحواجز نفسية وقومية وعرقية فهذا أسود وذاك أبيض ، هذا غني وذاك فقير لوجدنا ان القسم الأعظم من مشاكل العالم ناتجة عن سوء العلاقة بين الانسان والآخر وينتج عن ذلك سوء العلاقة بين دولة وأخرى . فإذا ما سادت الأخوة الشعوب بأجمعها فكم من مشكلة مستعصية ستذلل وكم من حروب وويلات تنتظرها البشرية ستتبدد وكم من مآسي وكوارث اقتصادية واجتماعية يمكن مواجهتها بشعار الاخوة .

٥ ـ الأمل . .

يعيش الانسان في هذه الحياة على الأمل وبدون الأمل يضحى ميتاً غير قادر على الحركة . فالأمل هو الذي يحي النفوس المتعبة وينقذهـا من موت محقق .

والشعوب المضطهدة والمحرومة لا ينفعها ساعة النهوض إلا الأمل ولا يسعفها ويشدها الى الحياة إلا الأمل .

وكان رسول الله (ص) يقاوم عوامل الضعف والتهرؤ في المجتمع ببعث مشاعر الأمل فبالأمل يعاد صياغة الانسان من جديد . فبالأمل استطاع رسول الله وصحابته ان يقاوموا سنين عصيبة من العذاب قضوها في مكة وبالأمل استطاع المسلمون ان يواجهوا الاعداء وهم أكثر منهم عدة وعدداً .

فالأمل هو مفتاح النجاح ونقطة التحرك .

أما تدري كيف قلع رسول الله (ص) الخوف والهلع من نفوس أصحابه يوم الأحزاب . . وبالأمل وقف المسلمون في مواقعهم يبنون ويجاهدون حتى استطاعوا ان يقيموا الاسلام في جزيرة العرب برمتها ثم لم يكتفوا بذلك . . بل واصلوا طريقهم حتى أوصلوا الاسلام الى أواسط أوروبا غرباً وحتى الصين شرقاً كل ذلك بالأمل .

فبالأمل تتوهج شعلة الحياة في أعماق الانسان وتدفعه نحو العمل .

يقول رسول الله (ص) في ذلك : الأمل رحمة لأمتي ، ولولا الأمـل ما أرضعت الأم ولداً ولا غرس غارس شجرا .

أجـل لولا الأمـل لما كـانت الحيـاة ولمـا عمـل الانسـان ولمـا ضحى المجاهدون .

والقرآن الكريم محفوف بآيات الأمل فمع كل تكليف يكلف به الانسان يضع الى جانبه الأمل .

* ﴿ **وأن ليس للانسان إلا ما سعى . . وان سعيه سوف يرى** ﴾ .

* ﴿ **ان جندنا لهم الغالبون** ﴾ .

* ﴿ **ان تنصروا الله فلا غالب لكم** ﴾ .

وبالأمل يزداد الانسان ثقة بنفسه وثقة بربه وثقة بأخوته ومجتمعه ويصبح حريصاً على وقته حريصاً على طاقاته وامكاناته .

فلا يأس في الاسلام ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ (يوسف ٨٧) ، ﴿ **لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ (الزمر ٥٣) . واليأس هو عامل تفتيت وعامل تخدير وعامل تخريب .

والأمل هو عامل نهوض وعامل حركة وعامل بناء .

وإذا ما استولى على مجتمع اليأس فانه سيكون مجتمعاً متأخراً ومتخلفاً .

وبالعكس المجتمع الذي يعيش الأمل هو المجتمع الذي يتقدم .

فالأمل هو السبيل الى الحضارة .

ويوم فقدت أمتنا الاسلامية الأمل فقدت ثقتها بنفسها ، وكانت النتيجة هي التبعية للغرب والشرق وتخلف في مناحي الحياة وتراجع يوماً بعد آخر .

فالأمل هو سبيلنا الى النهوض والتقدم من جديد .

٦ ـ التفكير :

ألغى المجتمع الجاهلي أية صلة له بالفكر والتفكير وأحل محلّه الخرافة والوهم وفي الوقت الذي كان هذا المجتمع يسبح في ظلمات الجهل والتخلف

طرق الاسلام أبواب العقول المعطلة فدعى الانسان الى التفكير وطلب منه ان ينزع عن نفسه الوهم والخرافة وأن تستقيم حياته على الفكر السليم والعقل النيّر فعشرات الآيات جاءت لتفتح الأبواب الموصدة ولتفتح الطريق أمام عمل العقل فكان من الكلمات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ .

وقد أظهر الاسلام هذا الاهتمام الكبير بالفكر والتفكير بسبب نظرته الى العقل .

فالعقل من أعظم وسائل الانسان المعرفة الخير والعمل به .

قال رسول الله (ص): انما يدرك الخير كله بالعقل . ولا دين لمن لا عقل له[1] .

وقال أيضاً : لكل شيء آلة وعدة ، وآلة المؤمن وعدته العقل[2] .

فالاسلام يعتمد على العقل كمساعد له في نشر الفضيلة وفي استتباب الخير ولا نجد في تأريخ البشر ديناً أو مذهباً اهتم بالعقل كما اهتم الاسلام .

والرسالة الاسلامية في أيامها الأولى لم تكن لتستطيع ان تشق طريقها إلا بازالة الصدأ الذي رأن على العقول وفتح الطريق أمام العقل ليبدأ عمله ونشاطه حتى أصبح تفكير ساعة خير من عبادة سنة كما ورد في حديث للنبي (ص) .

وقال أيضاً : لا عبادة كالتفكير . وأيضاً : لا عقل كالتدبير .

ووضع الاسلام منهجاً للتفكير يستند على الملاحظة الواقعية ويعتمد على سلامة الحواس الانسانية وأمره بالابتعاد عن كل ما يغلّ الفكر من الأعتقادات

---

(١) تحف العقول: ص٤٤ .

(٢) نفس المصدر.

الوهمية ومن الايمان بالخرافة ، وأمره أن يتجنب شرب الخمر وكل ما يضعف الفكر ويسلب من الانسان العقل .

وبعد ان وضع المنهج طلب من الانسان ان يفكر في كل شيء لأن من تفكر أبصر كما قال الإمام علي (ع) .

وحتى في مجال العبادة يجب ان لا يعطل الفكر ، ففي وصية النبي (ص) الى أبي ذر :

ركعتان مقتصرتان في التفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه[1] .

وتفكير الانسان على هدى منهج سليم حصانة له من الانحراف ومنطلق له نحو البناء والازدهار فبالتفكير تتقدم الحياة أشواطاً كبيرة وبالتفكير تستثمر موارد الحياة وبالتفكير تزداد المعرفة وتزداد العلوم وبالتفكير يكتشف الانسان الخطأ ويكتشف الى جانبه الحل أيضاً .

وبالتفكير ازدهر المجتمع الاسلامي وانتشر العلم وفتحت للمعاهد أبوابها لطلب العلم .

وبالتفكير بلغ الاسلام أهم أهدافه في خلق الانسان الايجابي المتفاعل القادر على البناء .

فقد كانت عقبات كثيرة تحول دون تقدم الانسان الى الأمام عقبات نفسية وعقبات في الواقع الاجتماعي والاقتصادي ولم يكن من سبيل لاقتحام تلك العقبات إلا بالابداع .

وهذه من أهم سمات حركة النبي (ص) حيث كانت تشق طريقها بالابداع . الابداع في الحرب وابتكار اسلوب الصفوف بدلا من الكرّ والفرّ كان

(١) مكارم الأخلاق: ص٥٤٧.

سبباً للانتصار في بدر والابداع في حفر الخندق هو الـذي حال دون هـزيمة المسلمين والابداع في صنع المنجنيق هو الذي أجبـر أهل الـطائف الاذعان للحق .

ومسيرة الرسالة مملوءة بصوره من هذا الابداع الذي هو نتيجة للتفكيـر السليم والتخطيط الحكيم .

٧ ـ العدل

من أهداف الاسلام اقامة مجتمع متوازن متجانس الأجزاء وهذا لا يتم إلا بسيادة العدل . فركز الاسلام وقادته الميامين على العدل كقيمة حضارية لهـا أبعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

فالأب عندما يعدل في البيت بين أولاده وزوجاته وعندما يعدل الفرد وهو في الوسط الاجتماعي أو الوسط الوظيفي وعندما يعدل الحاكم بين الرعية يسير هذا المجتمع نحو الخير لا يعرقل مسيرته أي معوّق . وقد قال رسول الله (ص) في العدل.

عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة[1] وهو يشمل عدل الأب والأم في البيت وعدل كل انسان مسلم في المجتمع وعدل المسؤول بين موظفيه وعدل الحاكم بين الرعية . فعدل ساعة سيؤدي الى حماية المجتمع من انماط الظلم ويجعله مجتمعـاً مستقيماً يسـوده الخير فهـو إذن أفضـل من سبعين سنـة من العبادة .

وقال أيضاً : من صاحب الناس بالذي يحب ان يصاحبوه كان عدلا[2] .

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ج٧٥ ص٣٥٢.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار: ج٧٧ ص١٧١.

فالعدل في العلاقات الاجتماعية هو أساس العدل في العلاقات السياسية .

وقال أيضاً (ص): أول من يدخل النار أمير لم يعدل[١] .

من ولى عشرة فلم يعدل فيهم جاء يوم القيامة ويداه ورجلاه ورأسه في ثقف فأس[٢] .

وقد أرسى الاسلام بناء المجتمع على عدة أنظمة متداخلة ، نظام اقتصادي ونظام أسري ونظام اجتماعي ونظام سياسي . وكانت القاعدة القوية التي قامت عليها كل تلك الانظمة هو العدل . . فالعدل هو أساس الأسرة وهو اساس الاقتصاد وهو أساس المجتمع وهو أساس الحكم .

وننتهي من ذلك ان العدل هو ركيزة النظام في الحضارة الاسلامية وبدون هذه القاعدة يخرّ بناء الحضارة مثلما حدث في الفترة المظلمة من التأريخ الاسلامي عندما انهارت الحضارة الاسلامية وانهارت الأنظمة الاسلامية والاقتصادية بانعدام العدالة .

وبالعدل تزدهر الحياة ويسود الأمن ويعرف كل انسان ما له وما عليه . فالحقوق والواجبات تتعين من خلال العدل . وبواسطة العدل تتقدم الحياة الاقتصادية ويتطور الانتاج ويتقدم المجتمع صوب الاكتفاء الذاتي .

وتحوّل العدل في المجتمع الاسلامي الى شعار يهتف به كل انسان ويقوم عليه كل عمل خير حتى سادت العدالة هذا المجتمع ، والعدالة هي غاية من غايات الرسالة الاسلامية ووظيفة من وظائفها في ارساء دعائم حضارة عالمية تستوعب حاجات كل البشر .

---

(١) (٢) نفس المصدر السابق.

٨ ـ العمل الصالح:

من الشعارات الاسلامية في دفع المجتمع الى التقدم هو العمل الصالح. وليس هناك من لفظ كثر وروده في القرآن الكريم كهذا اللفظ حتى أصبح يتردد على ألسنة المسلمين. وما من لقاء بين رسول الله (ص) وأحد أصحابه الاّ والدعوة الى العمل الصالح على رأس كل حديث.

جاء قيس بن عاصم المنقري على رأس وفد من تميم وقال لرسول الله (ص): عظني.. فمن جملة ما وعظه:

وانه يا قيس لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وانت ميت فان كان كريماً أكرمك وان كان لئيما أسلمك، لا يحشر الا معك، ولا تحشر الا معه ولا تسأل الا عنه، ولا تبعث الا معه فلا تجعله الا صالحاً فانه ان كان صالحاً لم تأنس الاّ به، وان كان فاحشاً لم تستوحش الاّ منه وهو عملك[١].

وقال (ص) أيضاً: صنائع المعروف تقي مصارع السوء[٢].

وقال (ص): العمل كنز والدنيا معدن[٣].

والعمل الذي يحبذه رسول الله (ص) هو الذي يأتي بعد العلم فسيكون حينذاك عملاً صالحاً.

قال النبي (ص): من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم[٤].

---

(١) كلمة الرسول الاعظم، السيد الشيرازي: ص١١٤.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٧ ص١٨٣.
(٤) بحار الأنوار: ج٤٠ ص١٢٨.

ويجب ان يتطابق العمل مع العدل. قال النبي (ص) لعلي (ع): يا علي لا خير في قول الا مع الفعل.

والعمل هو أساس التقدم في اي مجتمع من المجتمعات وقد رفعت الماركسية منزلة العمل إذ جعلته الأساس الذي يحدد مستوى معيشة الانسان. أما الاسلام فقد رفع من شأن العمل حتى أصبح مقياساً لمعرفة الانسان ليس في الدنيا وحسب بل في الآخرة أيضا.

فالمسلم يعمل ليس من أجل الأجر الدنيوي فقط بل من أجل نيل رضى الله سبحانه وتعالى وهذا هو أكبر محفّز للعمل والانتاج. فقد أوجد الاسلام محفزات أقوى من الدوافع الدنيوية في ربط الانسان بميدان العمل فكان كل فرد يعمل لغايات أسمى، وهذا ما جعل المجتمع الاسلامي في حالة استنفار وتسابق نحو ميدان العمل بخلاف ما كان عليه الانسان قبل البعثة فقد كانت النظرة السلبية تجمّد كفاءاته وتجعل منه عضواً راكداً في المجتمع.

فكان العربي ينظر الى بعض الأعمال بنظرة ازدراء، وجاء الاسلام ليستأصل أية نظرة سلبية نحو الحياة والعمل. فكان من نتائج تركيز هذه الفكرة في نفوس الناس ان تحوّل المجتمع الى خلية نحل لا تفتر من العمل وحدثت الثورة الانتاجية التي غيرت الوضع الاقتصادي للمسلمين.

ونظرة الى مجتمعاتنا الاسلامية اليوم نجد انها بحاجة الى ثورة انتاجية واسعة.

فثروات العالم الاسلامي من الكثرة بحيث تؤهله القيام بأكبر نهضة اقتصادية لكن المشكلة تكمن في الانسان ولا تحل معضلة الانسان الا بثورة ثقافية يستعيد فيها المجتمع تلك القيم البناءة التي جاء بها الاسلام. ومنها هذه القيمة الحضارية التي تتأتى من العمل الصالح.

بهذه القيم وغيرها وضع النبي (ص) أسس بناء الحضارة الانسانية وجعل من هذه الحضارة وسيلة لسوق الناس الى الأهداف التي خلقوا من أجلها. ففي ظل هذه الحضارة يجد الانسان انسانيته ويجد ثمرة أعماله ونشاطه في تقدم المجتمع أشواطاً الى الأمام.

ويوم تخلينا عن هذه القيم فقدنا حضارتنا وأصبحنا نستجدي ما نريده من حضارات الشرق والغرب. وباتت بلادنا تعيش على موائد أعداءها الذين سلبوا ثرواتها ونهبوا منها كل ما كانت تملكه من ثروات حضارية بقايا الحضارة الاسلامية.

وهزيمتنا أمام الحضارات الغربية والشرقية لم تكن عسكرية أو سياسية بل كانت هزيمة القيم، انهزمنا يوم أنطفأت شعلة القيم في نفوسنا.

يوم حلت العداوة بين المسلم والمسلم بدل السلام. فسالمنا أعداءنا وعادينا أخواننا ويوم تقطعت جسور التعاون بين المسلم والمسلم ويوم أخذ المسلم ينظر الى أخيه المسلم نظرة احتقار وتكبّر وحقد وكراهية ويوم أصبح همنا العمل الصالح بصرف الوقت الثمين في مواخير الفساد وفي أماكن اللهو واضعين شعار العمل الصالح خلف ظهورنا.

ومن يوم أصبنا باليأس وتشاءمنا من المستقبل وأعتقدنا ان لا خلاص لنا من الواقع المتردي.

يوم أعتقدنا ان التخلف هو قدرنا مع ان القرآن وصفنا بأننا خير أمة أخرجت للناس وأعتقدنا ان التراجع هو حتيمة تأريخية في حياتنا كشعوب نامية مع ان الله قد وعدنا وعدا حسنا فقال في كتابه ﴿ **ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾.

واعتقدنا أيضاً ان التبعية للغرب أو الشرق هو سبيلنا للتقدم مع ان القرآن الكريم يقول: ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ (النساء ١٤١).

فأخذنا نتراجع يوم خف الايمان في نفوسنا فأصبحنا بلا قيم وبلا حضارة فهان علينا الاحتلال الأجنبي واستعذب البعض منا التبعية للشرق والغرب. واستمرأ البعض التخلف والجهل والأمية.

واليوم لا مخرج من هذا الواقع المزري الا بولادة جديدة نعود فيها الى رسول الله (ص) نسترضع من تلك القيم التي جاء بها نأخذ منها جرعات حتى نقوّي بها ارادتنا وعزيمتنا على النهوض. فقد أصبنا بالوهن خلال قرون عديدة من التراجع ولا علاج لنا في البداية الا جرعات القيم (السلم، التعاون، الأخوة، العدالة، العمل الصالح...).

وبعد ان نأخذ تلك الجرعات تصبح نفوسنا وعقولنا معافة سليمة قادرة على النهوض من جديد عندها سيكون طريقنا الى التقدم والرقي سهلاً معبداً.

فبعد تقوية الروح والارادة تأتي مرحلة الحركة والنهوض وهذا منهج رسول الله (ص) دستور لنا. منهجه يوم كان في مكة يقارع الظالمين ولا يجد سبيلاً للمقاومة الا بايجاد النواة القوية الصابرة. ثم تتحول النواة الى تجمع منظّم تسوده الأخوة والطاعة والانضباط. ومنهجه يوم قدم الى المدينة فكان أول عمل يبادر اليه هو ارساء قواعد الدولة الاسلامية فالدولة هي الدرع الواقي الذي يوفر الحماية لذلك التجمع الايماني والدولة هي الاداة لتطبيق الأحكام الألهية وهي الوسيلة لايصال صوت الاسلام الى أرجاء العالم.

وكان الطريق الذي سلكه النبي (ص) في اقامة الدولة طريقاً واضحاً ولم يترك أمراً غامضاً الاّ أوضحه لنا من خلال القول أو الفعل فلا حجة لنا بعد ذلك.

ان الرسول (ص) لم يكن رجلاً جاء لهذه الدنيا ثم ذهب عنها. بل هو نبي أرسله الله برسالة الاسلام وهو خاتم النبيين ، اي انه لا نبي من بعده فكان لا بد لمنهجه من ان يبقى. . ولا بد هناك من حملة لهذا المنهج يتقاطرون على تطبيقه وهذا هو طريقنا الى النبي (ص).

فما الفائدة ان نحب النبي (ص) ونسير بنهج غيره ، ما الفائدة ان نردد اسمه ونحن لا نقفوأ أثره خطوة بخطوة ولا نعير أية قيمة لكلماته ووصاياه ، ما الفائدة ان نزوره كل عام ونحن لا نهتدي بهدية ولا نسترشد بتعاليمه.

وكأن الله لم يطلب منا ﴿ **ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾.

فهو أسوة لنا في كل شيء ليس في الخلق الحميد ومعالي الأخلاق فقط.

بل في العمل من أجل توعية المجتمع الجاهل.

هو أسوة لنا في ايجاد المجتمع الاسلامي القيمي.

هو أسوة لنا في اقامة الدولة الاسلامية وهو هدفنا المنشود وهدف كل مستضعف ومحروم في هذه الأرض. فوفق الله العاملين من أجل اقامة الدولة الاسلامية الكبرى متأسين بنبيهم الكريم (ص) ، فهم الذين قال فيهم النبي (ص) في وصيته لعلي بن أبي طالب (ع): يا علي أعجب الناس ايماناً وأعظمهم يقيناً ، قوم يكونون في آخر الزمان ، لم يلحقوا النبي وحجب عنهم الحجة ، فامنوا بسواد على بياض. وصدق رسول الله (ص).

فهرست المصادر

ـ أ ـ

أصول الكافي ، العلامة الكليني ، دار التعارف بيروت.

أعيان الشيعة ، الأميني ، المجلد الأول ، دار التعارف بيروت.

الأصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر ج١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، دار الكتب العلمية بيروت.

الأستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر المالكي الأندلسي ج١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة.

أسد الغابة ، ابن الأثير ، دار أحياء التراث العربي.

الأحكام السلطانية ، الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

ادب الدين والدنيا ، الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

أقتصادنا ، آية الله الصدر. دار التعارف ، بيروت.

الأقتصاد، آية الله الشيرازي ، مؤسسة الوفاء ، بيروت.

الإسلام وحركة التأريخ ، أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت.

الإسلام وأيديولوجية الأنسان ، سميح الزين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت.

أضواء على السنة المحمدية ، محمود أبو ريه ، دار المعارف ، القاهرة.

الإسلام ومنطق القوة ، محمد حسين فضل الله ، الدار الإسلامية ، بيروت.

- ب -

بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، الجزء ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ مؤسسة الوفاء ، بيروت.

- ت -

تاريخ الرسل والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، دار المعارف ، مصر١٩٨٦ .

تأريخ الإسلام السياسي ، د. حسن ابراهيم حسن ، دار احياء التراث العربي ، بيروت.

تحف العقول ، أبو محمد الحراني ، المطبعة الحيدية ، النجف الأشرف.

تأريخ اليعقوبي ، اليعقوبي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت.

- ح -

حياة محمد ورسالته ، مولانا محمد علي ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت.

الحياة ، محمد رضا الحكيمي ، الجزء ١ ، ٢ ، بيروت.

الحجاز والدولة الإسلامية ، ابراهيم بيضون ، المؤسسة الجامعية ، بيروت.

حياة محمد ، محمد حسين هيكل ، القاهرة.

دراسات في السيرة النبوية ، عادل الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

الدولة الإسلامية ، محمد تقي النبهاني .

الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ، السيد علي خان ، مؤسسة الوفاء بيروت .

- ر -

رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد .

الرسول القائد ، محمود شيت خطاب .

- س -

سيرة سيدنا محمد (ص) ، ابن هشام ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٥ .

السيرة الحلبية ، برهان الدين الحلبي ، دار المعرفة ، بيروت .

سنن أبي داوود ، ابي داوود السجستاني ، دار الفكر ، بيروت .

السيرة النبوية ، أبو الحسن الندوي ، دار الشروق جدة .

السنن الكبرىٰ البيهقي ، دار المعرفة بيروت .

سيرة المصطفى ، هاشم معروف الحسني ، دار التعارف بيروت .

- ش -

شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، دار أحياء الكتب العربية ، بيروت .

- ص -

الصحيح من سيرة النبي ، جعفر مرتضىٰ العاملي ، ج١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، طبع إيران.

الصياغة الجديدة ، آية الله الشيرازي ، مركز نشر الفكر الإسلامي طبع إيران.

الطبقات الكبرىٰ ، لمحمد بن سعد ، دار صادر ، بيروت.

- ع -

العروة الوثقى ، السيد كاظم اليزدي ، مؤسسة الأعلمي بيروت.

عبقرية محمد ، عباس محمود العقاد ، القاهرة.

- غ -

الغدير ، العلامة الأميني ، دار الكتب الإسلامية طهران.

- ف -

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق بيروت.

فقه السيرة ، محمد الغزالي ،

فقه السيرة ، محمد رمضان البوطي، دار الفكر بيروت.

فجر الإسلام ، أحمد أمين.

الفكر الإسلامي وصلته بالأستعمار الغربي ، محمد البهي، مكتبة وهبة ، القاهرة.

- ك -

الكشاف ، محمود بن عمر الزمخشري.

كلمة الرسول الأعظم ، السيد حسن الشيرازي ، موسوعة الكلمة ، الوفاء ، بيروت.

كنز العرفان في فقه القرآن ، جمال الدين ، المقداد السيوري ، دار الكتاب الإسلامي.

- م -

ميزان الحكمة ، محمد ري شهري ، طبع إيران.

مع المصطفى ، عائشة عبد الرحمن ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

المائة الأوائل ، مايكل هارت ، دار قتيبة ، سوريا.

معجم معالم الحجاز ، عاتق بن غيث البلادي ، دار مكة ، السعودية.

مناقب آل أبي طالب ، ابن شهرآشوب ، دار الأضواء ، بيروت.

معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، حمد الجاسر ، النادي الأدبي ، الرياض.

موسوعة السياسة ، الكيالي ج٢ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت.

مجمع البيان ، الطبرسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

مروج الذهب ، علي بن الحسين المسعودي ، دار المعرفة ، بيروت.

المغازي ، محمد بن عمر بن واقد ، وكالة أكسفورد ، لندن.

موسوعة الفداء في الإسلام ، أحمد الشرابيصي ، دار الجيل ، بيروت.

محمد نظرة عصرية ، مجموعة كتاب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

محمد في مكة مونتجمري وات ، تعريب شعبان بركات ، صيدا .

محمد في المدينة مونتجمري وات تعريب شعبان بركات ، صيدا .

معالجة الإسلام لمشكلات الإقتصاد ، ابراهيم الغول ، مؤسسة الرسالة بيروت .

من الفقه السياسي في الإسلام ، محمد صالح جعفر الظالمي ، دار مكتبة الحياة بيروت .

المستدرك ، للحاكم النيسابوري ، دار المعرفة، بيروت .

النظم الإسلامية ، صبحي الصالح ، بيروت .

- ن -

النظام السياسي في الإسلامي باقر شريف القرشي ، دار التعارف ، بيروت .

- و -

ولاية الفقيه أو فقه الدولة الإسلامية ، آية الله المنتظري ج٢ طبع إيران .

وسائل الشيعة ، للحر العاملي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

فهرس الأعلام

حرف الألف

« حرف التاء »

« حرف الثاء »

« حرف الجيم »

« حرف الحاء »

« حرف الخاء »

« حرف الدال »

« حرف الذال »

« حرف الراء »

« حرف الزاي »

« حرف السين »

« حرف الشين »

« حرف الصاد »

« حرف الطاء »

« حرف العين »

« حرف الغين »

« حرف الفاء »

« حرف الكاف »

« حرف اللام »

« خرف الميم »

« حرف النون »

« حرف الهاء »

« حرف الواو »

« حرف الياء »

فهرس الأماكن

حرف الألف

الفهرس